المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة البحث العلمي
رقم الإصدار «٧٠»

سلسلة الرسائل الجامعية (٥٨)

أساليب القصر في أحاديث الصحيحين ودلالاتها البلاغية

تأليف

الدكتور/ عامر بن عبد الله الشيتي «رحمه الله»
عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية

الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة البحث العلمي
رقم الإصدار: (٧٠)

أَسَالِيبُ الْقَصْرِ فِي أَحَادِيثِ الصَّحِيحَيْنِ وَدَلَالَاتُهَا الْبَلَاغِيَّةُ

تأليف
الدكتور/ عامر بن عبدالله الثُّبيتي
عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلاميَّة

الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

ح الجامعة الإسلاميّة ١٤٣٦هـ

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنيّة أثناء النشر

الثبيتي، عامر بن عبدالله

أساليب القصر في أحاديث الصحيحين ودلالاتها البلاغية./عامر بن عبد الله الثبيتي

- المدينة المنورة، ١٤٣٦هـ

٦٢١ ص، ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٩ - ٩٠٦ - ٠٢ - ٩٩٦٠ -

- - - -

١- الحديث - بلاغة ٢- الحديث الصحيح أ. العنوان

ديوي ٢٣١،٩ ١٤٣٦/٤٠٥٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٤٠٥٦

ردمك: ٩ - ٩٠٦ - ٠٢ - ٩٩٦٠ -

- - - -

أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة معالي مدير الجامعة الإسلاميّة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن العلم أشرف ما رَغِب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب؛ لأن شرفه يثمر على صاحبه، وفضله يَنْمى عند طالبه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم، ومن هنا رغب الشرع وأكد على أهمية طلبه، ومما يدل على فضل العلم أن الله أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يسأله مزيداً من العلم فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١].

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»(١)، وقال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(٢).

فالعلم من أعظم منن الله تعالى على عباده، ومن أعظم العبادات التي يتعبد العبدُ بها ربَّه تبارك وتعالى، وهو من أعظم ما ينفق العبد فيها وقته.

ولذلك كان نشر العلم المستمد من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح وبذله هو الهدف الأسمى لمؤسس هذه الدولة المباركة الملك عبد العزيز

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر(٤/٢٠٧٤) رقم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين(١/١٦٤) رقم (٧١)، ومسلم في الزكاة، باب: النهي عن المسألة(٢/٧١٨) رقم (١٠٣٧).

-رحمه الله- ولأبنائه كذلك من بعده، ففي عهد خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز -حفظه الله- شهد التعليم المزيد من المنجزات والقفزات العملاقة على امتداد الوطن بوصف التعليم ركيزة مهمة من الركائز التي تعتمد عليها الدولة في تحقيق التقدم ومواكبة التطورات العلمية في العالم، فازدهر التعليم العالي وارتقت الجامعات، وزادت أعدادها، ومن هذه الجامعات العملاقة، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، فهي صرح شامخ، يشرف بأن يكون إحدى المؤسسات العلمية والثقافية والدعوية الرائدة، التي تعمل على هدي الشريعة الإسلامية السمحة، فقامت بتنفيذ السياسة التعليمية بتوفير التعليم الجامعي والدراسات العليا، والنهوض بالبحث العلمي والقيام بالتأليف والترجمة والنشر، وخدمة المجتمع في نطاق اختصاصها.

ومن هنا فعمادة البحث العلمي بالجامعة تهتم بالبحوث العلمية نشراً وجمعاً وترجمة وتحكيماً داخل الجامعة وخارجها؛ من أجل النهوض بالبحث العلمي، والتشجيع والحث على التأليف والنَّشر، ومن ذلك: **[أساليب القصر في أحاديث الصحيحين ودلالاتها البلاغية]** تأليف:

د.عامر بن عبد الله الثبيتي.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

مدير الجامعة الإسلاميَّة المكلَّف

أ.د/ إبراهيم بن علي العُبيد

المُقَدِّمَة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة الآيات: ١-٧] آمين.

والصّلاة والسّلام على إمام النّبيّين، وقائد الغرّ المحجلّين، إلى جنان النّعيم؛

أمّا بعد:

فإنّه ببزوغ شمس الإسلام، ولدت حياة جديدة، ونَمَتْ نُمُوّاً مطرداً، فكما انطلقت جحافل الجهاد، لتفتح مغالق الأرض، بكلمة الحقّ، انطلقت في مجال الفكر عقولٌ عمليةٌ عظيمةٌ لخدمة هذا الوحي الْمُنَزَّل.

فقام للقرآن مَن يهتم به، ويفسّره ويبيّن أحكامه.

وقام للحديث مَن يدوّنه، ويدرس علومه، ويبيّن صحيحه، من ضعيفه، ويفحص متونه وأسانيده.

ثم قامت بعد ذلك جهود العلماء، بوضع علوم أخرى تساند هذه العلوم وتفيد منها، ومن هذه العلوم علوم البلاغة، والنّقد وغيرها. فيمكننا إذن أن نقول: إنّ الحياة الحقيقية قد دَبَّت في كلّ شيءٍ، وبدأ ينمو، ويزدهر، ويعطي ثماره، بسبب هذا الوحي الْمُنَزَّل.

ثم إنّه لَمّا ضعفت الأمة الإسلامية (بسبب ابتعادها عن منهج هذا الوحي) وصل الضّعف إلى علومها، وعلمائها، فتَوقّف التّجديد في العلوم، أو

كاد، حتى صار العلماء المتأخرون، في كثيرٍ من العلوم (وخصوصاً البلاغة) يُعيدون ما قاله القدماء، من غير زيادةٍ تُذكر، إلاّ أنّهم أثقلوا كاهل البلاغة، بإدخال كثير من التّقسيمات الْمَنْطقيّة عليها، واقتصرت جهودهم على الشّروح، أو الحواشي أو التّقريرات، على أعمال من سبقهم.

هذا هو حال البلاغة فيما طبع من كتبها، أو فيما هو مخطوط ووصل إليه اطّلاعي، ولهذا كلّه اتّهمت البلاغة العربية، بأنّها قد تجمّدت ولم يعد فيها أيّ حيوية.

ولما تأمّلت هذا التّجمّد، وجدت أنّ من أهمّ أسبابه، ابتعاد البلاغة عن الوحي الْمُنَزَّل، أي: أنّ البلاغة، قد صارت قواعد نظرية، فقط كقواعد النّحو أو قرينة منها، فلا تكاد تجد فيها شيئاً من كلام الله تعالى، أو كلام رسوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، الذين ما وجدت البلاغة إلاّ من أجلهما[١].

ولهذا رأيت أن أعود بالبلاغة إلى الوحي مَرّة أخرى لتسترد بعض

---

(١) فهي كما يقول الدّكتور أبو موسى: «ومن مظاهر النّقص في الدّراسة البلاغية، أنّها عاشت فيما يتعلّق بتحليل الأسلوب واستخلاص الأصول على شواهد عبد القاهر، ولم يكن عليه ــ رحمه الله ــ أن يفكر في كلّ الصّيغ حتى تكون مقرّراته جامعة مانعة، وحسبه أنّه بدأ الطّريق والذين جاءوا من بعده بدل أن يكمّلوا منهجه انهمكوا في المناقشات النّظرية».

دلالات التّراكيب للدّكتور محمّد أبو موسى، مكتبة وهبة بالقاهرة الطّبعة الأولى ص: ١٨٧.

روحها التي ذَوَت وتحيا بها وتنمو، فالوحي هو الْمَنْهل الصّافي للدِّين والأخلاق والبلاغة فلماذا إذا لا نعلّ منه.

يقول شوقي[١]:

فما عرف البلاغة ذو بيانٍ   إذا لم يتّخذك له كتابـــا[٢]

وها أنذا في البحث أقوم بتقريب المجهر البلاغي، من الحديث النّبويّ، لأرى الأسرار البلاغية الدّقيقة الكامنة، في ثنايا نصوصه، ثم لأُصَحِّحَ بالحديث بعض المفاهيم البلاغية لم تُبْن على أساسٍ متين.

ثم إنّه إذا كان النّحاة، قد اختلفوا في الاستشهاد بالحديث[٣].

فإنّي لا أعلم خلافاً بين البلاغيّين في الاستشهاد بالحديث بلاغيّاً، بل إنّ كبار أساتذة البلاغة قد أشادوا ببلاغته، واستشهدوا بها، وقد أشاد الجاحظ[٤] قديماً ببلاغته ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، ووصفه حديثه قائلاً:

---

(١) هو: أحمد شوقي أشهر شعراء العصر الأخير، يلقّب بأمير الشّعراء، ولد سنة: (١٢٨٥هـ) بالقاهرة وتوفي بها سنة: (١٣٥١هـ)، له أعمال أدبية أشهرها: الشّوقيّات دواوين شعره.

انظر: الأعلام للزّركلي الطّبعة الثّالثة، ١٣٣/٣.

(٢) انظر: الشّوقيات، دار الكتاب العربي، بيروت، ٧٢/١.

(٣) إنّ النّحاة على ثلاثة أقسام بالنّسبة للاستشهاد بالحديث: قسم ذهب إلى منعه، وقسم أجازه، وقسم تحفظ في ذلك. انظر: النّحاة والحديث النّبوي ص: ٤٥.

(٤) هو: أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني البصري، عالم مشهور له تصانيف في كلّ فنٍّ، لا تخفى على المطّلعين، توفي سنة: ٢٥٥هـ بالبصرة.

=

«هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصّنعة وَنُزِه عن التكلّف، وكان كما قال الله ــ تبارك وتعالى ــ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾، [ص :٨٦]. فكيف وقد عاب التّشديق وجانب أصحاب التّقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغّب عن الهجين السّوقي، فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلّم إلاّ بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتّأييد، ويسر بالتّوفيق... إلى أن يقول: ثم لم يسمع النّاس بكلامٍ قط أعمّ نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ»[١].

وهذا الرّافعي[٢] في العصر الحديث، يصف بَلاَغَتَه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فيقول: «...بيد أنّ رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، كان أفصح العرب، على أنّه لا يتكلّف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي

= انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ٣/٤٧٠.

(١) البيان والتّبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ٢/١٧.

(٢) هو: مصطفى صادق بن عبد الرّزّاق الرّافعي، عالم بالأدب، شاعر من كبار الكتاب، مولده سنة: ١٢٨٦هـ، ووفاته سنة: ١٣٧٣هـ بمصر، وله ديوان شعر، وتاريخ آداب العرب، وتحت راية القرآن وغيرها. الأعلام ٨/١٣٧.

إليه وسيلة، من وسائل الصّنعة ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط، ولا استكره... ثم أنت لا تعرف له إلاّ المعاني التي هي من إلهام النّبوّة، ونتائج الحكمة وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج إليه الكلام، وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة»[١].

وفي موضعٍ آخر وبعد أن أشاد ببلاغته ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ يقول: «ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامع كلمه، وخَلُص أسلوبه، فلم يقصر في شيءٍ، ولم يبالغ في شيءٍ، واتّسق له من هذا الأمر على كمال الفصاحة والبلاغة ما لو أراده مريد لعجز عنه»[٢].

ويكفي للتّدليل على بلاغة الحديث الشّريف أنّك ترى البلغاء دائماً يحاكونه ويقتبسون منه في كلامهم حتى يجمل أسلوبهم وتخلب عباراتهم.

فلكلّ هذه الأسباب وغيرها، اتّخذت هذه الشّريحة الواسعة من الحديث النّبوي الصّحيح، ألا وهي أحاديث الصّحيحين دون غيرهما لما أعرفه من دقّة مؤلّفيهما ـــ رحمهما الله ـــ في روايتهما وشدّة حرصهما على رواية الأحاديث بنصّها، ورأيت أنّ الحكم من خلال هذين الصّحيحين على أيّ أمرٍ بلاغيٍ، يُعَدُّ حكماً معتبراً بنسبةٍ كبيرةٍ، ففيهما

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة للرّافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة التّاسعة، سنة: ١٣٩٣هـ، ص: ٢٨٢.

(٢) المصدر السّابق ص: ٢٠٠.

جلّ الأساليب العربية البليغة، إن لم أقل جميعها.

وقد اتّخذت فَصْلاً من فصول علم المعاني، ليس بالقصير وهو القصر لِمَا فيه الدّقائق والأسرار البلاغية وطبَّقته على الحديث الشّريف، ولَمَّا وفّقَنِي الله لاختيار هذا البحث، وتمت موافقة الجامعة عليه، شرعت فيه مستفتحاً بحمد الله، مستعيناً بالله. وجعلته في ثمانية فصولٍ بالإضافة إلى مقدِّمةٍ، وتمهيدٍ، وخاتمةٍ.

أمّا الْمُقدِّمة ففيها أسباب اختيار الموضوع، وأهمّيته، وخطّة البحث فيه.

وأمّا التّمهيد ففيه الدّراسات السّابقة في هذا المضمار.

وأمّا الفصل الأوّل: فهو أساليب القصر عند البلاغيّين، وهو فصل جمعت فيه الجانب النّظري للقصر، من كتب أهل البلاغة، واستقصيت فيه أهمّ ما قاله البلاغيّون عن القصر.

أمّا الفصل الثّاني: فهو أسرار القصر بإنّما في أحاديث الصّحيحين، وقد وزّعت فيه شواهد القصر بإنّما على ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: أسرار القصر الحقيقي.

المبحث الثّاني: أسرار القصر الإضافي.

المبحث الثّالث: نمط خاص من القصر بإنّما.

أمّا الفصل الثّالث: فهو أسرار القصر بالنّفي والاستثناء في أحاديث الصّحيحين، وقسّمته إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: أسرار القصر الحقيقي.

المبحث الثّاني: أسرار القصر الإضافي.

أمّا الفصل الرّابع: فهو أسرار القصر بتقديم ما حقّه التّأخير، في أحاديث الصّحيحين، وقسّمته إلى أربعة مباحث:

المبحث الأوّل: تقديم المعمولات على الفعل.

المبحث الثّاني: تقديم الخبر على المبتدأ.

المبحث الثّالث: تقديم المسند إليه على خبره الفعلي واليا حرف نفي.

المبحث الرّابع: تقديم النّكرة على الفعل.

وتحت هذه المباحث كلّ شواهد التّقديم لما حقّه التّأخير مُوَزَّعة في مطالبها المحدّدة.

أمّا الفصل الخامس: فهو أسرار القصر بالعطف بـــ: (بل، ولا، ولكن) في أحاديث الصّحيحين، وقسّمته إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: القصر ببل.

المبحث الثّاني: القصر بلا.

المبحث الثّالث: القصر بلكن.

ووزعت شواهد العطف تحت هذه المباحث مع تحليلها.

وأمّا الفصل السّادس: فهو أسرار القصر بتعريف الطّرفين، وبضمير الفصل، في أحاديث الصّحيحين، وقد قسّمته إلى مبحثين:

المبحث الأوّل: أسرار القصر بتعريف الطّرفين.

المبحث الثّاني: أسرار القصر بضمير الفصل.

وقد حلّلت فيه شواهد كلّ من هذين الطّريقين، ولقلّة شواهدهما دمجتها في فصلٍ واحدٍ.

وأمّا الفصل السّابع: فهو شواهد القصر المقترنة بالتّشبيه، أو الكناية في أحاديث الصّحيحين، وهذا الفصل عقّدته عند ما وجدت أنّ التّشبيه والكناية في شواهد القصر كثيرة، ورأيت أنّها تحتاج منّي إلى تحليلٍ خاصٍّ فعقدت هذا الفصل في مبحثين:

المبحث الأوّل: ما اقترن فيه القصر مع التّشبيه.

المبحث الثّاني: ما اقترن فيه القصر مع الكناية.

وأمّا الفصل الثّامن: فهو الخصائص البلاغية لأساليب القصر في الصّحيحين، وقد صدّرت هذا الفصل بجدولٍ متضمنٍ لنسب شواهد كلّ طريق للقصر، وكلّ قسمٍ من أقسام القصر، ثم قسّمت هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأوّل: خصائص القصر من حيث تقسيماته المختلفة.

والمبحث الثّاني: الخصائص البلاغية لطرق القصر الواردة في الصّحيحين.

وفي هذا الفصل خلاصة لكلّ ما لحظته من ملحوظاتٍ، وفيه أيضاً النّتائج التي توصّلت إليها.

ثم بعد ذلك ختمت البحث بخاتمةٍ قرّرت فيها أموراً مهمّةً مما توصلّت إليه في ضوء هذا البحث، وفيها بعض التّوصيّات التي بدت لي في ضوء تجربتي مع هذا البحث.

هذا هو مختصر ما عالجته في هذه الدّراسة.

أمّا طريقة المعالجة فهي كما يلي:

حاولت في الجانب النّظري أن أستقصي كلّ المعلومات فيه، وأبدأ بذكرها بحسب تطوّرها التّاريخي قدر الإمكان، مع مناقشة آراء العلماء فيها، والمقارنة بينها في بعض المسائل.

وأمّا بالنّسبة للجانب التّطبيقي، فمنهجي فيه هو:

أوّلاً: قارنت بين شواهد البخاري ومسلم، وعرفت المكرّر من غير المكرّر.

ثانياً: جعلت صحيح البخاري هو الأصل إذا تكرّر الحديث في الصّحيحين، حيث أُثبتُ لفظ البخاري، وأشير إذا اختلفت الرّواية في الحاشية.

ثالثاً: لم أعتمد من شواهد القصر إلاّ ما يقول فيه الرّاوي قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ كذا، أمّا ما كان بلفظ الصّحابي فلا أعتمده ضمن شواهد هذا البحث؛ وذلك لأنّ الذي يهمّني تحرّي كلام النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بنصّه.

رابعاً: إذا جاء الحديث وفيه أكثر من شاهد للقصر، ولم يمكن الفصل بينهما أثبتُّ الحديث عند مكان الشّاهد الذي يحتاج إلى بيانٍ، وشرحٍ، وتوضيحٍ.

خامساً: قد حذفت من كلّ حديثٍ كلّ سلسلة الرّاواة، حتى

الصّحابي لعلمي بصحّة هذه الأحاديث؛ ولأنّ الذي يهمّني هو النّصّ. و لم أذكر الصّحابي إلاّ في حالةٍ لا يمكن أن يستقيم الحديث بدون ذكره؛ كأن يكون له خطاب مباشر مع النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، أو نحو ذلك.

سادساً: إذا كان الحديث طويلاً، أقتصر منه على القدر الذي فيه الشّاهد ومناسبته.

سابعاً: قد قرأت صحيح البخاري من خلال شرحه الكبير (فتح الباري) وذلك لكي يكون من السّهل عليَّ الاطّلاع على شرح الحديث كَثَبٍ، ولو لم أفعل لك لَبَعُدت الشُّقة بين هذه الشّواهد، وشروحها، ولاحتجت إلى وقتٍ مضاعفٍ للوصول إلى شرح كلّ حديثٍ.

هذا هو مجمل منهجي في هذا البحث.

وأسأل الله الإعانة والسّداد. آمين.

التَّمهيد

الدّراسات السّابقة في مجال هذا البحث:

إنّ الدّراسة في بلاغة الحديث هي دراسات حديثة، وقليلة جدّاً، وأعني بالحديثة أنّها لم توجد إلاّ في العصر الحديث. بهذا التّركيز القويّ والمتخصِّص، وإن كان هناك بعضُ الكتب القديمة، التي تحدثت عن أمثال الحديث النّبويّ، ونحو ذلك، إلاّ أنّها لا تُعَدُّ من الدّراسات المتخصِّصة المحلِّلة لدقائق البلاغة النّبويّة ولكنها مجرد جامعة لبعض أمثال الحديث، أو معلّقة عليها تعليقاً خفيفاً[١].

أمّا الدّراسات الحديثة حول أسلوب الحديث فيمكن تقسيمها إلى قسمين، وسأعرض بإيجازٍ لبعض من تلك الدّراسات:

القسم الأوّل: هو أن يأخذ الباحث نماذجَ متفرّقةً من الحديث، ليستشهد بها على قضايا بلاغية يختارها (خصوصاً في علم البيان) فيدرس هذه الأحاديث ويبيّن جمالها، وروعة أسلوبها، وسأذكر على ذلك مثالين:

أحدهما: كتاب التّصوير الفني في الحديث النّبويّ، للدّكتور محمّد الصّباغ، وهو كتاب قيّم، اختار فيه المؤلّف الأحاديث التي وردت فيها صور بيانية سواء بالقول أو بالإشارة، أو غير ذلك.

---

(١) وأمثلة تلك الكتب التي جمعت أمثال الحديث: كتاب الأمثال من الكتاب والسّنة، لأبي عبد الله محمّد بن عليّ الحكيم التّرمذي، وكتاب أمثال الحديث، لأبي محمّد الحسن بن عبد الرّحمن الرّامهرمزي، وغيرهما.

وقسم كتابه إلى ثلاثة أقسام:

قسم للصّورة في عالم الغيب، كأوصاف النّار والجنة، ونحو ذلك.

وقسم للصّورة في عالم الشّهادة كالتّصوير الذي ورد لشيء من أمور هذه الحياة أو نحو ذلك.

وثانيهما: كتاب أدب الحديث النّبويّ للدّكتور بكري شيخ آمين. وقد أَلَّفه في ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: يتعلّق بعلوم الحديث، ومصطلحه، ونحو ذلك.

والباب الثّاني: عن فصاحة النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، ومع الموازنة بين أسلوب القرآن الكريم، والحديث الشّريف.

أمّا الباب الثّالث: فهو تحليل أدبي لبعض الأحاديث جمعها الباحث في مواضيع شتى ثم وضح ما فيها من صورٍ، وأساليبَ بلاغيةٍ.

وهذا القسم من الدّراسات كثير نسبيًّا، وهو مفيد وإن كانت هذه الدّراسات مجملة وليست شاملة.

أمّا القسم الثّاني: فهو أن يعمد الباحث إلى أخذ بابٍ أو فصلٍ من فصول البلاغة النّظرية، ويطبّقه على أحادث محدّدة، في كتابٍ أو كتبٍ محدَّدةٍ، من كتب الحديث، وهذا النّوع انفردت به الرّسائل الجامعية المتخصّصة، وأحسنت فيه. ومجال البحث فيه مجال شاق، وجديد معاً.

وسأتحدّث من رسالتين في هذا المجال فقط: فليس هذا مقام حصر لها:

أوّلاً: رسالة بعنوان: أساليب الاستفهام في الصّحيحين للطّالب:

سليت داود كيلي[١]. وقد تعرّض فيها الطّالب لدراسةٍ نظريةٍ للاستفهام، وأدواته في الصّحيحين وبيَّن المَخَارج التّي خرج إليها الاستفهام ودلالاته المختلفة.

أمّا الرّسالة الثّانية فهي بعنوان: التّشبيه التّمثيلي، في الصّحيحين، وهي رسالة مقدَّمة من الطّالبة: فايزة سالم يحيى أحمد[٢].

وقد قدّمت الطّالبة بفصلٍ نظريٍ، عن التّشبيه التّمثيلي عند علماء البلاغة والنّقد، ثم تحدّثت عن البلاغة النّبويّة، وعن الكتب التي درست هذا الموضوع.

ثم تحدّثت عن المعاني التي جاء فيها التّمثيل النّبويّ، وعناصر ذلك التّمثيل ثم أثر القرآن في تمثيله ــــ صلّى الله عليه وسلّم ــــ.

ثم طبّقت ذلك على شواهد التّمثيل في الصّحيحين.

وهاتان الرّسالتان خطوتان بناءتان على هذا المنهج المتخصّص الدّقيق.

ثم كانت هذه الرّسالة حلقةً في سلسلة هذه الرّسائل الْمُطَبِّقة، لباب من أبواب البلاغة، على الحديث الصّحيح. ولعلّها أن تكون لبنةً صالحةً للاعتماد عليها فيها بعد، والله الموفّق.

---

(١) هذه الرّسالة بإشراف الدّكتور فريد محمّد بدوى النّكلاوي، قدّمت في الجامعة الإسلامية ونوقشت في ١٤٠٥/٧/٢هـــ.

(٢) هذه الرّسالة قدّمت في جامعة أم القرى بإشراف د. محمّد أبو موسى، نوقشت عام ١٤٠٥-١٤٠٦هـــ، ورقمها هو: ١١٥٩.

الفصل الأوّل: أساليب القصر في علم البلاغة

معنى القصر:

إذا ما نظرنا في معنى القصر عند اللّغويّين نجده متردداً بين الحبس وبين اختصاص شيءٍ بشيءٍ(١)، ومن جملة هذه المعاني أخذ البلاغيّون معناهم الاصطلاحي للقصر، وهو: (تخصيص شيءٍ بشيءٍ بطريقٍ معهودٍ)(٢).

أو هو: (تخصيص أمرٍ بأمرٍ بطريقٍ مخصوصٍ)(٣).

والمقصود بالطّريق المعهود أو المخصوص هنا طريق من طرق القصر التي اصطلح عليها البلاغيّون وهي:

أوّلاً: طريق النّفي ولاستثناء.

ثانياً: طريق إنّما.

ثالثاً: طريق العطف.

رابعاً: طريق تقديم ما حقّه التّأخير.

وقد يزاد على هذه الطرق طريقان آخران هما: طريق القصر بضمير الفصل وطريق تعريف الخبر بلام الجنس.

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، مادة قصر.

(٢) المطوّل على التّلخيص لسعد الدّين التّفتازاني، مطبعة أحمد كامل، سلطان بايزيدة، سنة: ١٣٣٠هـ، ص: ٢٠٤.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدّين السّيوطي، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، سنة: ١٤٠٨هـ، ١/١٥٠.

والمهمّ هنا أنّ علماء البلاغة قد جعلوا هذه الطّرق هي طرق القصر الاصطلاحية، وما عداها وإن كان ظاهرُه يدلّ على القصر فلا يعتبر عندهم قصراً اصطلاحاً.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة، من الآية: ١٠٥](١)، ليس من طرق القصر الاصطلاحية، لعدم مجيئه بطريقٍ من الطّرق المذكورة وإن كان فيه المعنى العام لاختصاص شيءٍ بشيءٍ.

(١) وأوّلها: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

تقسيمات القصر

يتلخّص مفهوم القصر عند البلاغيّين في أنّه: تخصيص موصوفٍ بصفةٍ أو صفةٍ بموصوفٍ، بطريقٍ من طرق القصر التي بيَّنْتُها، فيما سبق.

والكلام الذي يشتمل على القصر فيه حكم واحد متضمّن للإثبات القصدي والنّفي التّبعي[١]، والمقصود بالإثبات والنّفي هنا: إثبات المقصور للمقصور عليه، ونفيه عن ما سواه إن عاماً فعام، وإن خاصاً فخاص، وذلك كلّه في جملةٍ واحدةٍ، وليس في جملتين: إحداهما مثبتة، والأخرى منفية.

وفي كلّ أسلوبٍ قصر لا بدّ من مقصور ومقصور عليه ويسمّيان طرفي القصر[٢].

أوّلاً: تقسيم القصر باعتبار طرفيه:

ينقسم القصر باعتبار طرفيه إلى قسمين:

أوّلهما: قصر الموصوف على الصّفة.

والثّاني: قصر الصّفة على الموصوف.

«والفرق بينهما واضح فإنّ الموصوف في الأوّل لا يمتنع أن يشاركه غيره في الصّفة؛ لأنّ معناه أنّ هذا الموصوف ليس له غير تلك الصّفة، ولكن تلك الصّفة يجوز أن تكون حاصلةً لموصوفٍ آخر.

---

(١) حاشية عبد الحكيم السّلسكوتي على المطول، ص: ٣٠٣.

(٢) انظر: بحوث المطابقة لمقتضى الحال، للدّكتور عليّ البدري حسين، مطبعة السّعادة، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ، ٢/١٩.

وفي الثّاني تمتنع تلك المشاركة؛ لأنّ معناه أنّ تلك الصّفة ليست إلاّ لذلك الموصوف ولا يصحّ أن تكون لغيره، ولكن يجوز أن يكون لذلك الموصوف صفات أُخر»[١].

ومثال الأوّل قول دريد بن الصّمة:

وما أنا إلاّ من غُزيّة إن غـــوت غويت، وإن ترشد غُزية أرشد[٢]

فإنّ الشّاعر قد قصر نفسه (الموصوف) على كونه من غُزيّة، وواضح هنا أنّه ليس الشّاعر وحده من غُزيّة، بل هناك أفراد كثيرون ينتمون إلى تلك القبيلة، ولكن (الموصوف) الذي هو ذات الشّاعر، ليس له صفة أخرى ـــ كما زعم ـــ غير كونه من غزيّة.

ومثال الثّاني قولنا:

(لا خالق إلاّ الله)، فقد قصرنا الصّفة (الخلق) على الموصوف (الله سبحانه وتعالى) ومنعنا أن يشاركه في صفة الخلق أحدٌ. ولكن هذا لا يمنع أن يكون لله تعالى صفات أخرى ككونه إلهاً، أو كريماً، أو رحيماً، أو ودوداً، إلى غير ذلك من صفاته الحسنى، جلّ جلاله.

ثانياً: تقسيم القصر باعتبار نفي المقصور عن غير المقصور عليه:

ينقسم القصر إلى قسمين[٣] بالنّسبة للعموم والخصوص في نفي المقصور عن غير المقصور عليه.

---

(١) المطول للتّفتازاني ص: ٢٠٥.

(٢) ديوان دريد بن الصّمة، تحقيق: د. عمر عبد الرّسول، دار المعارف ص: ٦٢.

(٣) انظر: المطول للتّفتازاني، ص: ٢٠٤-٢٠٥.

١- القصر الحقيقي:

وهو: ما كان فيه نفي المقصور عن غير المقصور عليه على سبيل العموم(١)، فمثلاً إذا غاب طلاب المدرسة جميعاً، إلاّ محمّداً، فتقول: ما جاء إلاّ محمّد على سبيل نفي المجيء عن كلّ الطّلاب، وإثباته لمحمّدٍ وحده، فهذا قصر حقيقي.

٢- القصر الإضافي(٢):

وهو: ما كان فيه نفي المقصور عن غير المقصور عليه، نفياً خاصاً ومحدّداً في أمورٍ معيّنةٍ، تذكر في سياق الكلام غالباً، فمثلاً إذا ظَنَّ المخاطب أنّ الجاحظ شاعر وليس بكاتبٍ فتقول له: الجاحظ كاتب لا شاعر، أي: أنّك حكمت على الجاحظ بالكتابة ونَفَيتَ عنه صفةَ الشّاعرية فقط، فصار قصراً إضافياً.

---

(١) إنّ النّفي الكُلّيّ للمقصور عمّا سوى المقصور عليه هو في حدود الدّلالة اللّغوية العربية، فإذا قلت: ما شاعر إلاّ زيد، فإنّك لا تَعني نفي الشّاعرية عن كلّ من ولدته حواء، في كلّ الصور والأمم، وإنّما تَعني نفي الشّاعرية في حدود ما يشير إليه السّياق والقرائن.

انظر: دلالات التّراكيب، د. محمّد أبو موسى، الطّبعة الأولى، مكتبة وهبة القاهرة، ص: ٤٢.

(٢) وقد سمّاه السُّبكي في عروس الأفراح قصراً مجازيّاً؛ لأنّ إطلاق القصر عليه على سبيل المجاز، فالقصر حقيقة ما كان فيه النّفي عاماً.

انظر: عروس الأفراح، للسّبكي ضمن شروح التّلخيص ٢/١٦٦.

تقسيم القصر باعتبار التّحقّق والأداء:

ينقسم كلّ من القصر الحقيقي والقصر الإضافي، بالنّسبة للتّحقّق في الواقع وعدمه، إلى قسمين: أحدهما تحقيقي والآخر ادّعائي.

١- القصر التّحقيقيّ:

إنّ القصر الحقيقي إذا كان متحقّقاً في واقع الأمر سُمِّيَ حقيقيّاً تحقيقاً، مثل قولنا: لا إله إلاّ الله، فيه نفي للألوهية عمّا سوى الله على سبيل العموم، فهو قصر حقيقي وهو متحقّق في الواقع، فهو تحقيقي. وكذلك القصر الإضافي إذا تحقّق في الواقع كقولنا: ما الْمُتنبّي أعجمي بل عربي، فإنّنا أثبتنا للمتنبي العروبة ونفينا عنه العجمة فقط فهو قصر إضافي، وهو متحقّق في الواقع فيسمّى تحقيقيّاً.

٢- القصر الادّعائي:

أمّا إذا لم يكن القصر الحقيقي مُتَحقّقاً في الواقع فيسُمَّى قصراً ادّعائيّاً(١)، ويكون هذا الادّعاء للمبالغة في مدح المقصور عليه أو ذمّه، أو لغير ذلك من الأغراض(٢).

ومثال هذا القصر في الحقيقي قولنا: لا شاعر إلاّ الْمُتَنَبِّي، على

(١) إذا ورد مثل هذا القصر في القرآن الكريم، أو الحديث الشّريف، فنُسَمِّيه قصر مبالغةٍ تنْزيهاً للأسلوب الكريم عن الادّعاء، ونحوه.

(٢) انظر: دلالات التّراكيب، د. محمّد أبو موسى، الطّبعة الأولى، مكتبة وهبة القاهرة، ص: ٢٣.

سبيل نفي الشّاعرية عن كلّ الشّعراء سوى الْمُتَنَبّي، فهو قصر حقيقي، وهذا القول غير متحقّق في الواقع؛ لأنّ في الدّنيا شعراء كثيرين، لكنّا نزّلنا شاعرية غير الْمُتَنَبِّي منْزلة العدم مبالغين في وصف الْمُتنبِّي بالشّاعرية.

ومثال هذا القصر في الإضافي قولنا: إنّما الشّاعر الْمُتَنَبّي لا البحتري، فإثبات الشّاعرية للمتنبّي ونفيها عن البحتري فقط قصرٌ إضافي، ولكن لَمّا كان هذا القول غير صحيحٍ؛ لأنّ البحتري شاعر مطبوع، وكان الغرض من قولنا هذا المبالغة في شاعرية الْمُتَنَبِّي سُمِّيَ هذا قصراً ادّعائيّاً[1].

منشأ هذه التّقسيمات:

أوّل مَن قسّم القصر إلى حقيقي وإضافي (حسب علمي) هو الخطيب القزوينِي، في التّلخيص ثم في الإيضاح.

قال الخطيب القزوينِي في بداية كلامه عن القصر: «إنّ القصر حقيقي وغير حقيقي»[2]، (أي: إضافي)، فذكر أنّ القصر ينقسم بالنّسبة لنفي المصقور عن غير المقصور عليه إلى قصرٍ حقيقيٍّ وإضافيٍّ، ثم لم يُقَسِّم كلاًّ منهما بعد ذلك إلى حقيقي وادّعائي.

---

(١) انظر: حاشية حسن جلبي على المطول، ص: ٣٧٥، حيث يرى أنّه لا مانع من اعتبار الادّعاء في القصر الإضافي. وانظر كذلك: بحوث المطابقة لمقتضى الحال، د. عليّ البدري حسين، ٢/١٣.

(٢) انظر: الإيضاح للقزوينِي ٢/٢٤.

ثم جاء شراح التّلخيص بعد ذلك، وفسّروا معنى الحقيقي، وغير الحقيقي وأسموا الأخير إضافيّاً[١].

هذا و لم يعرف أصحاب الشّروح تقسيم القصر إلى تحقيقي وادّعائي، أو أنّهم سَكَتُوا عن ذلك، و لم يُوَضِّحوه، ولكننا نجد هذا التّقسيم في مثل حاشية السّلسكوتي عند ما تحدّث معلّقاً على المثال الذي أورده (ما زيد إلاّ كاتب)، حيث أشار إلى أنّه إذا كان القصد من هذا القول المبالغة في عدم الاعتداد بغير هذه الصّفة كان القصر حقيقيّاً ادّعائيّاً، وإن كان القصد أنّ هذا الأمر حقيقة كان هذا القول كاذباً[٢]. أي: غير موجود مثل هذا القول في عالم الحقيقة.

استحالة قصر الموصوف على الصّفة قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً:

إنّ قصر الموصوف على الصّفة قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، لا وجود له في الواقع، قال الخطيب: «والأوّل من الحقيقي كقولك: ما زيد إلاّ كاتب، إذا أردت أنّه لا يتّصف بصفة غير الكتابة، وهذا لا يكاد يوجد في الكلام؛ لأنّه ما من متَصَوَّر إلاّ وتكون له صفات تتعذّر الإحاطة بها، أو تتعسّر والثّاني كثير»[٣].

---

(١) انظر: المطول ص: ٢٠٤.

(٢) انظر: حاشية السلسكوتي ص: ٢٩٩.

(٣) الإيضاح ٢/٢٧.

وقد زاد بعضُ العلماء هذا المعنى توضيحاً، وتبييناً، قال التّفتازاني[(١)]: ((إنّ هذا النّوع من القصر مفضٍ إلى المحال؛ لأنّ للصّفة المنفية نقيضاً البتة[(٢)]، وهو أيضاً من الصّفات فإذا نفيت جميع الصّفات (مع نقائضها) لزم ارتفاع النّقيضين، فمثلاً إذا قلت: ما زيد إلاّ كاتب، على معنى أنّه لا يَتَّصف بغيرها، لزم أن لا يتّصف بالشّاعرية مثلاً، ولا بعدمها، وهو محال))[(٣)]؛ لأنّ النّقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان معاً والشّاعرية وعدمها نقيضان.

وهذا هو القول الرّاجح الصّحيح (في نظري)؛ إذ ليس هناك شيء في الوجود ليس له إلاّ صفةٌ واحدةٌ.

صور القصر الإضافي باعتبار حال المخاطب:

إنّ للقصر الإضافي تقسيمات أخرى بالنّظر إلى حال المخاطب، كما

---

(١) هو: مسعود بن عمر التّفتازاني، ولد بتفتازان (إحدى قرى نسا) سنة: ٧١٢هـ، وتوفي بسمرقند سنة: ٧٩١هـ، وهو عالم مشارك في النّحو، والتّصريف، والمعاني، والبيان، والفقه، والمنطق، وغير ذلك، له من التّصانيف: شرحه على التّلخيص الْمُسَمَّى بالمطول، وحاشية على الكشّاف للزّمخشري، والتّهذيب في المنطق، وغيرها.

انظر: معجم المؤلّفين ١٢/٢٢٨.

(٢) أي: حتماً وقطعاً.

(٣) انظر: المطول ص: ٢٠٥، وانظر: مواهب الفتاح ضمن شروح التّلخيص ١٧٢/٢.

يرى جمهور البلاغيّين، وهو الصّحيح في نظري[١]، وهذه الأقسام هي:

الأوّل: قصر الأفراد:

ويكون في قصر الصّفة على الموصوف بأن يعتقد المخاطب اشتراك موصوفٍ آخر أو أكثر دون العموم في الصّفة المقصورة.

ويكون في قصر الموصوف على الصّفة بأن يعتقد المخاطب اتّصاف الموصوف بصفةٍ أو أكثر دون العموم مع هذه الصّفة المقصور عليها.

وأوّل مَن أورده بهذا الاسم ـــ فيما أعلم ـــ السّكاكي في المفتاح حيث قال عن تخصيص الموصوف بالصّفة (وعكسه) إفراداً: «وحاصل معنى القصر راجع إلى تخصيص موصوفٍ بوصفٍ دون ثانٍ كقولك: زيد شاعر لا مُنَجِّم، لِمَن اعتقده شاعراً أو منجِّماً من غير ترجيحٍ، ويُسَمَّى هذا قصر إفرادٍ، بمعنى: أنّه يزيل شركة الثاني... أو تخصيص الوصف

(١) رأى الجمهور كما هو واضح اعتماد هذا التّقسيم على اعتقاد المخاطب لكن مِن علماء البلاغة المتأخرّين مَن لم يتّفق مع الجمهور، ورأى أنّ هذا التّقسيم مَبْنِي على اعتقاد المتكلّم، قال عبد الحكيم في حاشيته: «أقول: إنّ القصر من المتكلّم بحسب اعتقاده حال المخاطب، إلاّ أنّه قد يكون اعتقاده حال المخاطب مطابقاً للواقع، وقد لا يكون إذ المتكلّم لا يورد كلاماً إلاّ على حسب اعتقاده». الحاشية ص: ٣١١.

ولكنَّ الصّحيح في هذا رأي الجمهور، وهو أن يعتمد هذا التّقسيم على حال المخاطب.

أمّا اعتقاد المتكلّم فإن وافق حال المخاطب فلا بأس، وإن أخطأ المتكلّم في تقدير حال المخاطب، فهذه مسؤوليته هو وليست مسؤولية البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب.

بموصوف إفراداً كقولك: ما قام إلاّ زيد، لِمَن يعتقد قائمين أو أكثر»(١).

وقد سار على نهج السّكاكي، هذا، علماء البلاغة فيما بعد(٢).

الثاني: قصر القلب:

وهو أن يعتقد المخاطب أنّ الشّعر مقصور على الجاحظ، مثلاً، فنَزيل خطأ المخاطب بقصر الشّعر على الْمُتَنَبِّي دون الجاحظ فنقول له: لا شاعر إلاّ الْمُتَنَبِّي. أي: لا الجاحظ. ولعلّ أوّل مَن ذكره بهذا الاسم: هو السّكاكي في الْمفتاح، حيث قال: من هذا النّوع من القصر:

«ويسمّى هذا قصر قلب بمعنى أنّ المتكلّم يقلّب فيه حكم السّامع»(٣)، أي: يبدله كلّه بغيره(٤).

الثّالث: قصر التّعيين:

«ويتحقّق بأن يتساوى الأمران لدى المخاطب، فلا يعتقد المشاركة ولا يقلّب الحكم كما سبق في قصري الإفراد والقلب، أي: كأنَّ السّامع هنا خالي الذّهن، لا يعرف عمّا سيلقيه عليه المتكلّم شيئاً، فالمخاطب بقولنا: ما زيد إلاّ قائم، هو مَن يعتقد أنّه إمّا قائم، وإمّا قاعد، من غير علم بالتّعيين وسُمِّي قصر تعيين لتعيينه ما هو غير معيَّن لدى المخاطب»(٥).

---

(١) مفتاح العلوم للسّكاكي، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ص: ٢٨٨.

(٢) انظر: المطول للتّفتازاني ص: ٢٠٧، وانظر: شرح الإيضاح لعبد المتعال الصّعيدي ص: ٢٨-٢٩.

(٣) مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٨٨.

(٤) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التّلخيص ١٨٠/٢.

(٥) المختصر، لسعد الدّين التّفتازاني ضمن شروح التّلخيص ١٨١/٢.

طرق القصر (وآراء العلماء حولها)

لقد اختلف علماء البلاغة في عدد هذه الطّرق فبعضهم يجعلها ستّاً ـ كما ذكرت سابقاً ـ يقول سعد الدّين التّفتازانِي في المطول: «والمذكور هنا أربعة، وقد يحصل (القصر) بتوسّط ضمير الفصل وتعريف المسند باللام وبنحو قولك: زيد مقصور على القيام، ومخصوص به وما أشبه ذلك، فكأنّهم[١]، جعلوا القصر بحسب الاصطلاح عبارة عن تخصيصٍ يكون بطريقةٍ من هذه الطّرق الأربعة ويمكن أن يجعل ضمير الفصل وتعريف المسند أيضاً من طرق القصر لكن تُرك ذكرهما ههنا، لاختصاصهما بما بين المسند والمسند إليه، مع التّعرّض لهما فيما سبق»[٢].

أي: فيما سبق باب القصر في كتابه المطول.

هذا، وهناك من العلماء مَن أوصل طرق القصر إلى أربعة عشر طريقاً[٣].

ولكن غير هذه الطّرق السّتّة لا يُعدّ اصطلاحيّاً إمّا؛ لأنّها لا تفيد القصر بطريقٍ مخصوصٍ وإمّا لأنّ بعضها يعود إلى هذه الطّرق الأربعة.

---

(١) أي: علماء البلاغة.

(٢) انظر: المطول ص: ٢١٠.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدّين السّيوطي ٣/١٥٠-١٥٦.

طرق القصر الاصطلاحية

الطّريق الأوّل: طريق النّفي والاستثناء:

هذا الطّريق هو أشهر طرق القصر وأقواها، ويكاد يكون الأصل في طرق القصر فإذا قلت مثلاً: ما جاءني إلاّ زيد، فهو تعبير عن مجيء زيد بأبلغ وجهٍ وأوكدِه حتى قالوا: إنّه تأكيد على تأكيدٍ[١].

ويتحقّق هذا الطّريق بالنّفي أوّلاً، ثم الاستثناء ثانياً، تقول في قصر الصّفة على الموصوف: «ما جاء إلاّ زيد»، وفي قصر الموصوف على الصّفة ما الْمُتَنَبِّي إلاّ شاعر.

أقسام الاستثناء ودلالاتها على القصر:

ينقسم الاستثناء إلى ثلاثة أقسام:

أ: الاستثناء من الموجب:

والرّاجح أنّ مثل هذا الاستثناء لا يفيد القصر، يقول ابن يعقوب المغربي: «إنّ الاستثناء من الإثبات نحو: جاء القوم إلاّ زيداً، ليس من طرق القصر؛ إذ الغرض منه الإثبات، والاستثناء قيد، فكأنّك قلت: جاء القوم

---

(١) انظر: حاشية السّلسكوتي على المطول ص: ٣٠٤.

هذا ويقول الدّكتور القطان: «النّفي والاستثناء هو الطّريق الأم بين طرق القصر، وهم يقيسون عليه غيره، ويصطنعونه في توضيح صورة المعنى وتحديد المقصور عليه فيقولون مثلاً: إنّ قولك:«إنّما لك هذا»، مالك إلاّ هذا...»الخ.

انظر: القصر طرقه وأثره الأدبي ص: ٣٥.

المغايرون لزيد»[١].

وهذا القول ــ في نظري ــ هو القول الصّحيح؛ لأنّ مجيء القوم في المثال السّابق لم يكن مقصوراً في نطاقٍ ضيّقٍ بل هو عام لكلّ القوم وزيد شذّ عن هذا العموم هذا ولا يُقَر رأي مَن خالف هذا القول، كالسّبكي، مثلاً حين قال: «والاستثناء، قصر سواء مع النّفي، أم مع الإيجاب، كقولك: قام النّاس إلاّ زيد، فإنّك قصرت عدم القيام على زيدٍ»[٢].

ولكن عدم القيام شيء منفي والمنفي غير موجودٍ فكيف يقصر على موجودٍ؟!.

هذا وقد أكّد صاحب الأطول عدم دلالة مثل هذا الاستثناء على القصر حيث قال: «ومِن طرق القصر النّفي والاستثناء لا الاستثناء مطلقاً، إذ الاستثناء من الإيجاب ليس القصد فيه إلى الحصر بل إلى تصحيح الحكم الإيجابي...، فكما أنّ (قولك) جاءني الرّجال العلماء، ليس قصراً، كذلك (قولك) جاءني الرّجال إلاّ الجهّال ليس قصراً، وهذا بخلاف الاستثناء من النّفي فإنّ المقصود من نحو (قولك): ما جاءني إلاّ زيد، قصرُ الحكم على زيدٍ لا تحصيل الحكم[٣]، وإلاّ لقيل: جاءني زيد»[٤].

(١) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التّلخيص ٢/١٩١.

(٢) عروس الأفراح للسّبكي، ضمن شروح التّلخيص ٢/١٩١.

(٣) تحصيل الحكم المراد به إثبات المجيء لزيدٍ فقط دون التّعرّض لغيره.

(٤) الأطول لابن عربشاه ص: ٢١٩.

ب: الاستثناء من التّامّ المنفي:

وهو نحو قولك: ما جاء القوم إلاّ زيد، بحيث ذكر فيه المستثنى منه مسبوقاً بنفي، وهذا النّوع من الاستثناء مفيد للقصر كما بيّن ذلك ابن يعقوب المغربي، وأشار إلى أنّ العلماء يرون فيه معنى القصر[١]. ولكنّه يرى أنّه جاء على خلاف الأصل إذْ نُصَّ فيه على المثبت والمنفي معاً، وفي طريق النّفي والاستثناء النّصّ على المثبت فقط[٢].

هذا وقال الدّكتور محمّد أبو موسى: «وكثير من البلاغيّين لا يعدّه من طرقه ـــ أي: القصر ـــ وذلك لأنّ ما قبل الأداة كلام يحسن السّكوت عليه وما بعد الأداة كأنّه قيد له[٣]، ورأى أنّ مثل هذا الاستثناء يفيد القصر، وليس هناك ما يمنع من دلالته على القصر، إلاّ أنّ البلاغيّين منذ زمن السّكاكي، قد اهتمّوا بدلالة الاستثناء المفرَّغ ـــ الذي سيأتي ذكره ـــ دون غيره ولم ينفوا عن هذا النّوع من الاستثناء الدّلالة على القصر، ثم إنّه ليس بينه وبين النّوع التّالي من القصر ـــ الذي أجمعوا على أنّه مفيد القصر ـــ إلاّ وجود المستثنى منه وفي الاستثناء المفرَّغ يقدر المستثنى منه عاماً. ولا أظنّ هذا الاختلاف اليسير يسوّغ لأحدهما الدّلالة على القصر ويمنع الثّاني منها. والله أعلم.

---

(١) انظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التّلخيص ٢/٢٣٠.

(٢) انظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التّلخيص ٢/١٩١.

(٣) دلالات التّراكيب، د. محمّد أبو موسى ص: ١٢٣.

جـ ـ الاستثناء المفرَّغ:

وهو نحو قولك: ما جاء إلاّ زيد ـــ أي: بحذف المستثنى منه ـــ مع وجود النّفي.

وهذا، قد أجمع البلاغيّون على دلالته على القصر [(١)]. ولا أعرف أحداً أنكر دلالته على القصر.

أدوات النّفي والاستثناء الدّالة على القصر:

إنّ كلّ أداة نفي واستثناء يجتمعان في عبارةٍ واحدةٍ من غير أن يكون الاستثناء منقطعاً[(٢)] يتحقّق بهما طريق القصر هذا.

---

(١) بيّن السّكاكي أنّ: (إلا) تستلزم في هذا الاستثناء ثلاثة أشياء:

أحدها: تقدير مستثنى منه؛ لأنّ(إلاّ)للإخراج، فيقتضي ذلك وجود مُخْرَج منه.

ثانيهما: العموم في المستثنى منه.

ثالثها: مناسبة المستثنى منه للمستثنى في جنسه ووصفه ـــ والمقصود بوصفه ـــ أي: كونه فاعلاً أو مفعولاً أو حالاً أو صاحب حال. فيقدّر في ما جاءني إلاّ زيد، ما جاءني أحد إلاّ زيد، فأحد مناسبة لزيد في الجنس والوصف، وكذلك نحو: ما رأيت إلاّ زيداً، يقدّر: ما رأيت أحداً إلاّ زيداً، وفي: ما جاء زيد إلاّ راكباً، يقدّر: ما جاء زيد على حالٍ من الأحوال إلاّ راكباً.

انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٨.

هذا وألاحظ أنّ كلّ هذه الشّروط متحقّقة في الاستثناء التّام المنفي، إلاّ عدم كون المستثنى منه عاماً، وهذا وحده لا يمنع من جعله طريقاً للقصر.

(٢) الاستثناء، إمّا متّصلٌ مثل: ما جاء أحدٌ إلاّ زيد، وإمّا منقطعٌ، نحو: ما قام القوم إلاّ حماراً.

=

فالنّفي له أدوات مثل: ما، ليس، إن، لا، وغيرها.

والاستثناء له أدوات مثل:إلاّ، غير، سوى، حاشا، خلا، وغيرها[١].

وبهذا فليس لطريق النّفي والاستثناء أداةٌ واحدةٌ ثابتةٌ كما لبعض طرق القصر الأخرى[٢].

مكان المقصود عليه، مع النّفي والاستثناء:

يقع المقصور عليه في طريق النّفي والاستثناء، في مكانٍ محدّدٍ، لا يتجاوزه أبداً، فموقعه المحدّد بعد أداة الاستثناء، مباشرةً سواء تقدمت أو تأخّرت، قال عبد القاهر: «اعلم أنّك إذا عمدت إلى الفاعل والمفعول، فأخّرهما جميعاً إلى ما بعد إلاّ، فإنّ الاختصاص يقع حينئذٍ، في الذي يلي إلاّ منهما فإذا قلت: ما ضرب إلاّ عمرو زيداً لكان الاختصاص في الفاعل، وكان المعنى إنّك قلت: إنّ الضّارب عمرو، لا غيره وإن قلت: ما

= انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محيي الدّين عبد الحميد، دار إحياء التّراث العربي بيروت، ١/٥١٧.

(١) انظر: حاشية عبد الحكيم السّلسكوتي على المطول ص: ٣٠٣.

لكنّ البلاغيّين لم يمثّلوا في كتبهم إلاّ بـــ: «ما، وإلاّ»، أو «ما، وغير».

حتى إنّهم خصّوا غير، على أنّها مثل إلاّ في إفادة القصر وعدم اجتماعها مع لا العاطفة، كما سيأتي ذكر ذلك.

ولعلّ ذلك كان منهم اختصاراً وأنّ هذه الأدوات كانت أخفّ عند التّمثيل بها ولكن ليس هناك أي: فرق بين تلك الأدوات. والله أعلم.

(٢) انظر: القصر طرقه وأثره الأدبي، د. محمود شاكر القطان، ص: ٣٣.

ضرب إلاّ زيداً عمرو، كان الاختصاص في المفعول وكان المعنى أنّك قلت: إنّ المضروب زيد لا سواه»[١].

وقد تحدّث عبد القاهر أيضاً مبيّناً أنّ الاختصاص في النّفي والاستثناء يقع في الذي بعد إلاّ، دون الذي قبلها وذلك لاستحالة أن يحدث معنى الحرف في الكلمة قبل أن يجيء الحرف[٢].

آراء البلاغيّين حول تقديم المقصور عليه في طريق النّفي والاستثناء:

الأصل في ترتيب جملة القصر بالنّفي والاستثناء، أن يكون المقصور مقدّماً على المقصور عليه، كما ذكرتُ سابقاً.

لكن إذا كان القصر في جملةٍ فعليةٍ فيجوز أن يُقَدَّم المقصورُ عليه على المقصور، وقد بيّن الشّيخ عبد القاهر أنّ إيقاع الفاعل والمفعول به بعد إلاّ ليس بأكثر الكلام، وإنّما الأكثر تقديم المفعول على (إلاّ) نحو: ما ضرب زيداً إلاّ عمرو، حتى إنّهم ذهبوا في مثل قولنا: ما ضرب إلاّ عمرو زيداً، إلى أنّه كلامان[٣]، وأنّ زيداً منصوب بفعلٍ مضمرٍ حتى كأنّ المتكلّمَ أبهم أوّل مرّة فقال: ما ضرب إلاّ عمرو، ثم قيل: من ضرب؟ فقال: ضرب زيداً[٤].

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص: ٣٤٤.

(٢) المرجع السّابق ص: ٣٤٠.

(٣) أي: جملتين منفصلتين، وهذا في حالة، قصر المفعول، على الفاعل.

(٤) انظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر ص: ٣٥٠ بتصرّفٍ.

الطّريق الثّاني: طريق إنّما:

إنّما طريق من طرق القصر المشهورة، لدى جمهور علماء البلاغة وقد نفاه كثير(١).

تقول في قصر الموصوف على الصّفة إفراداً، أو قلباً أو تعييناً، بحسب المقام: إنّما زيد شاعر.

وتقول في قصر الصّفة على الموصوف (بالاعتبارات الثّلاثة وحسب المقام): إنّما الشّاعر زيد.

دلالة إنّما على القصر:

تعرّض عبد القاهر الجرجاني، لإنّما في عدّة مواضع من دلائل الإعجاز، وبيّن أنّ دلالتها على القصر بسبب تضمّنها معنى (ما وإلاّ)، يقول عبد القاهر: «قال الشّيخ أبو علي(٢) في الشّيرازيات: يقول ناس من النّحويّين في نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾،

---

(١) هذا قول السبكي في عروس الأفراح، ضمن شروح التّلخيص ١٩١/٢.

وقد وجدت من النّافين له أبا حيان الأندلسي في تفسيره ـــ البحر المحيط ـــ مطابع النّهضة الحديثة، الرّياض ٣٤٤/٦، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، [الأنبياء: من الآية ١٠٨].

(٢) هو: الحسن بن أحمد الفارسي الأصل أحد الأئمة في علم العربية ولد سنة: ٢٨٨هـ، في بلاد فارس صحب سيف الدّولة الحمداني، صنّف التّذكرة في علوم العربية، والمسائل الشّيرازية وغيرهما، توفي سنة: ٣٧٧هـ.

انظر: الأعلام ١٩٣/٢.

[الأعراف، من الآية: ٣٣]، أنّ المعنى: ما حرّم ربّي إلاّ الفواحش، قال وأصبت ما يدلّ على صحّة قولهم في هذا، وهو قول الفَرَزْدَق(١):

أنا الذّائد الحامي الذّمار وإنّما
يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي(٢)

فليس يخلو الكلام هنا من أن يكون موجباً أو منفياً، فلو كان المراد به الإيجاب لم يستقم ألا ترى أنّك تقول: يُدافِع أنا، وإنّما تقول: أدافع، إلاّ أنّه لما كان المعنى ما يدافع إلاّ أنا، فُصل الضّمير كما يفصل في النّفي والاستثناء(٣).

مكان المقصور عليه مع إنّما:

أشار عبد القاهر الجرجاني ــ في ملاحظاته الدّقيقة حول إنّما ــ إلى موضع المقصور عليه معها. فقد بيّن في حديثه عن المبتدأ والخبر، أنّك إذا قلت: إنّما هذا لك، كان الاختصاص في (لك) بدلالة صحّة قولك: (إنّما لك لا لغيرك)، أمّا لو قلت: (إنّما لك هذا) كان الاختصاص في

(١) هو: همام بن غالب بن صعصعة التّميمي، شاعر مشهور كان جدّه عظيماً، كريماً في الجاهلية، وكثيراً ما كان يفتخر به الفرزدق في شعره، قامت بينه وبين جرير معركة النّقائض، توفي سنة: ١١٠هـ. معجم الأدباء لياقوت ١٩/٢٩٧.

(٢) ديوان الفرزدق، دار صادر بيروت، سنة: ١٣٨٦هـ، ٢/١٥٢.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز ص: ٣٢٨، بتصرّفٍ. وقد فصل السّكاكي في الأدلة التي دلّت على دلالة إنّما على القصر. انظر: المفتاح ص: ٢٩١-٢٩٢.

(هذا) بدلالة صحّة قولك: إنّما لك هذا، لا ذاك، ثمَّ بيّن عبد القاهر أنّ الاختصاص في الذي إذا جئت بلا العاطفة كان العطف بلا عليه[(١)].

ثم جاء السّكاكي، وزاد المعنى توضيحاً فقال: ((نزِّل القيد الأخير من الكلام الواقِع بعد إنّما منْزلة المستثنى فقدِّر نحو: إنّما يضرب زيد، تقدير ما يضرب إلاّ زيد، ونحو: إنّما يضرب زيد عمراً يوم الجمعة، تقدير: ما يضرب زيد عمراً إلاّ يوم الجمعة، ونحو: إنّما يضرب زيد عمراً يوم الجمعة، في السّوق، تقدير: ما يضرب زيد عمراً يوم الجمعة إلاّ في السّوق، وكذلك إذا قلت: إنّما زيد يضرب فتقديره: ما زيد إلاّ يضرب، ولا تجَوِّز معه من التّقديم والتّأخير ما جوَّزته مع ما وإلاّ ولا تقسه عليه فذلك أصلٌ في باب القصر وهذا كالفرع عليه، والتّقديم والتّأخير هناك غير ملْبِس وهنا مُؤدٍ إلى الإلباس))[(٢)].

وهكذا نجد أنّ عبد القاهر قد أشار إلى مكان المقصور عليه في طريق إنّما، ولك ضمن ملاحظاته البلاغية المبَكِّرة، وقد استَدل عليه بإدخال (لا) العاطفة.

ثم جاء السّكاكي من بعده واستدل على المقصور عليه في طريق إنّما بمقارنةٍ مع طريق (ما، وإلا) وعرف مكان المقصور عليه.

وبهذا نعرف، أنّ مكان المقصور عليه مع (إنّما) هو آخر كلامٍ[(٣)] في

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص: ٣٤٥، بتصرّفٍ.

(٢) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٩-٣٠٠.

(٣) قيل: إنّ الزّجاج خالَف في هذا، وأنّ مذهبه هو أنّ المقصور عليه لا يتعيَّن أن يكون المتأخر، بل قد يكون، غيره ويُفهم بقرينةٍ، وقد وافقه السّبكي في ذلك واستشهد =

جملتها، سواء طالت أو قصرت، ولا يقَدَّم عن مكانه حتى لا يحصل الالتباس على الْمُخاطب.

هذا وقد زاد بعض البلاغيّين شرطاً آخر لكون المقصور عليه متأخراً مع إنما ــ وهو ألا تَجْتَمع إنّما مع التّقديم، فلو اجتمعت لكان القصر مستفاداً من التّقديم، ولكان المقصور عليه هو الْمُقَدَّم(١).

ولكن هذا القول من هؤلاء البلاغيّين خطأ يعارضه وينقضه قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا

= على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [المائدة من الآية: ٩١]، حيث فسّرها على أنّ المراد: ما يريد أن يوقع بينكم العداوة إلاّ فيهما، واستشهد كذلك بغيرها من الآيات.

انظر: عروس الأفراح، للسّبكي، ضمن شروح التّلخيص ٢/٢٣٣.

هذا وإنّ عبد القاهر الجرجاني والسّكاكي ــ رحمهما الله ــ قد بيّنا هذا الإشكال بقولهما السّابق، وهو الصّواب (في نظري).

أمّا قول الزّجاج والسّبكي فهو مرجوح؛ لأنّ جعل الآية السّابقة على معنى: (ما يريد الشّيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء إلاّ في الخمر والميسر)، قد يوقع في خطأٍ في المعنى العام. فالشّيطان يريد أن يوقع العداوة والبغضاء، بين النّاس في كلّ شيءٍ، ولن يقتصر في ذلك على الخمر والميسر، لكن المعنى يستقيم على رأي الجرجاني والسّكاكي، وهو أن تُفسَّر على أنّه ما يريد الشّيطان إلاّ أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر. والله أعلم.

(١) انظر: حاشية الدّسوقي على التّلخيص ضمن شروح التّلخيص ٢/٢٣٢، بتصرّفٍ وتوضيحٍ.

ٱلۡحِسَابُ﴾، [الرعد: ٤٠].

ففي هذه الآية اجتمع التّقديم مع القصر بإنّما حيث تقدم المسنَدُ وهو: ﴿عَلَيْكَ﴾، وتأخّر المسند إليه، وهو: ﴿الْبَلاغُ﴾، ولكنَّ المعنى في هذه الآية هو ما عليك إلاّ البلاغ لا الحساب، أو ما يجب عليك إلاّ البلاغ لا الحساب، باتّفاق المفسِّرين المُحَقِّقين(١).

وبهذا يكون المقصور منسوباً إلى إنّما عند اجتماعها مع التّقديم.

الطّريق الثّالث: طريق العطف

ومن طرق القصر، طريق العطف بأدواتٍ تفيد ــ مع العطف ــ القصر(٢)، وهي (لا، بل، لكِنْ)(٣). فتقول مثلاً في قصر الموصوف على

(١) انظر: الكشّاف للزّمخشري، دار المعرفة بيروت، ٦٣٦/٢.

(٢) قد أفادت القصر لتأويلها (بالنّفي والاستثناء) كما جاء في كلام البلاغيّين عندما ذكروا أنّ قولنا: زيد شاعر لا عمرو بتقدير: ليس شاعر غير المذكور. أنظر مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٨٩، وبهذا تثبت دلالة العطف على القصر. والله أعلم.

(٣) إنّه ليفهم من كلام السّكاكي، والخطيب القزويني من بعده ــ في كتبهما المعروفة ــ ومن خلال الشّواهد التي مَثّلا بها للقصر بالعطف، أنّه ليس للعطف إلاّ حرفان هم: (لا) و(بل) دون سائر حروف العطف.

قال صاحب المطول: «وفيه إشعارٌ بأنّه لا يفيدُ القصر بالعطف إلاّ: (لا، وبل) دون سائر حروف العطف. وأمّا (لَكِنْ) فظاهر كلام المفتاح والإيضاح، أنّه يصلح للقصر، ولم يذكر لها هاهنا مثالاً (أي: في باب القصر) المطول لسعد الدّين =

الصّفة: زيد كاتب لا شاعر، إفراداً أو قلباً أ، تعييناً ـــ بحسب المقام ـــ، وتقول في قصر الصِّفة على الموصوف: ما عمرو شاعر بل زيد، قال السّكاكي: ((تقول في قصر الصّفة على الموصوف بالاعتبارين[(١)]: ما عمرو شاعر بل زيد، أو زيد شاعر لا عمرو، أو لا غير، أو ليس إلاّ، تقدير: ليس شاعر غيرَ المذكور، أو إلاّ المذكور))[(٢)].

ويظهر أنّ قصد السّكاكي بذلك أنّ الصّفات التي يُراد نَفْيُها إذا كانت كثيرةً، فإنّك بدلاً من أن تُعدِّدَها، تقول: لا غير أو ليس غير، فإذا قلت: محمّد تاجر لا غير (في قصر الصّفة على الموصوف) فهو قائم مقام قولك: لا عليّ ولا أحمد ولا محمود، ولا غيرهم، وإذا قلت: محمّد شاعر لا غير (في قصر الموصوف على الصّفة)، فهو قائم مقام قولك: لا فقيهٌ، ولاتاجرٌ، ولا كاتبٌ... الخ[(٣)].

هذا ويستفاد القصر من حروف العطف هنا من كون الحرف العاطف يقتضي ثبوت ضدّ حكم ما قبله لما بعده، وهذا الحكم (الذي

= التّفتازانِي ص: ٢١٠-٢١١.

أمّا المتأخرون فقد مثّلوا بلَكِن وهي في الحقيقة مفيدةٌ للقصر كأختيها (لا، وبل)، والله أعلم.

(١) المراد: الإفراد والقلب.

(٢) مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٨٩.

(٣) المطول للتّفتازانِي ص: ٢١٥، بتصرّفٍ، وحاشية السّيّد جلبي على المطول ص: ٣٧٣.

يفيد الحرف ضدَّه لما بعده) إمّا أن يكون إثباتاً فيكون الثّابت لما بعده نفياً، كقولك: زيد شاعر لا كاتب، وإمّا أن يكون الحكم نفياً فيكون الثّابت لما بعده الحرف إثباتاً، مثل: ما زيد كاتب بل شاعر(١).

مكان المقصور عليه مع العطف:

يكونُ المقصور عليه عندَ العطف بلا هو المقابلُ لما بعدها أو بعبارةٍ أخرى هو: المعطوفُ عليه في الجملة، فمثلاً: زيدٌ كاتب لا شاعر، فالمقصور عليه هو كاتب، وإذا قلت: زيد كاتبٌ لا عمرو، فالمقصور عليه هو زيد.

أمّا عند العطف بـــ: (بل أو لكن) فيكون المقصور عليه ما بعدَهُما أو هو المعطوف، فتقول مثلاً: ما زيدٌ كاتب بل شاعر، فالمقصور عليه هو شاعر: وتقول ما زيد كاتب لكن شاعر، فالمقصور عليه شاعر أيضاً(٢).

(لا) و(بل) و(لَكِن) في رأي النّحويّين:

إنّ حروف العطف المذكورة، ليست خاصّة بالعطف وحده بل لها معانٍ كثيرة حدّدها النّحاة، ولهذا فهي تختلف عن بقية الأدوات المفيدة للقصر فمثلاً: (إنّما) أينما تصادفنا فهي مفيدة للقصر لكن ليس كلّ ورود لـــ: (لا، أو بل، أو لكن) مفيداً للقصر.

---

(١) انظر: مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التّلخيص ٢/١٨٦-١٨٧.

(٢) انظر: مواهب الفتاح ضمن شروح التّلخيص ٢/١٩١.

لهذا فعلينا أوّلاً قبل أن نقول إنّ هذه الحروف مفيدة للقصر أن نتأكّد، هل هي الحروف العاطفة أم غيرها؟ فإن كانت العاطفة أفادت القصر وإلاّ فلا.

فالموضوع إذن، مرتبط بسببٍ متينٍ، بالنّحو، لهذا، رأيت أن لا مفرّ، من ذكر شروط النّحاة لدلالة هذه الحروف على العطف.

أوّلاً: شروط النّحويّين للعطف بـــ: (لكن):

لقد فصّل علماء النّحو القول في لكن، فذكر ابن هشّام(١)، أنّ لكن السّاكنة بأصل الوضع لها حالتان:

أوّلاً: إن وَلِيَها كـــلامٌ فهي حرف ابتداء الاستدراك، وليست عاطفة وذلك نحو قوله تعالى﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزّخرف: ٧٦].

ثانياً: إن وَلِيَها مفرد فهي عاطفةٌ بشرطين:

أحدهما: أن يتقدّمها نفي أو نهي نحو: ما قام زيد لكن عمرو، أو: لا يقم زيد لكن عمرو.

ثانيهما: أن لا تقترن بالواو، قاله أكثر النّحويّين، وقال قوم تستعمل مع المفرد بالواو(٢).

---

(١) هو: جمال الدّين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام من أئمة النّحو والعربية، ولد بمصر سنة: ٧٠٨هـــ، وتوفي بها سنة: ٧٦١هـــ. انظر: الأعلام ٤/٢٩١، والدّرر الكامنة ٢/٤١٥.

(٢) انظر: مغني اللّبيب ص: ٣٨٥-٣٨٦.

هذا هو مجمل رأي النّحويّين حول دلالة (لكن) على العطف، وأنّها إنّما تعطف المفرد لا الجملة، وأن تكون مجرّدة من أي عاطفٍ آخر كالواو مثلاً، فإن جاء بعدها جملة، نحو: جاءني زيد لكن عمرو لم يأت، فإنّها وإن أفادت معنى القصر إلاّ أنّها أفادته بجملتين، فلا تدخل ضمن طرق القصر؛ لأنّ طرق القصر كلّها تفيد معنى القصر من جملةٍ واحدةٍ(١).

ثانياً: شروط النّحويّين للعطف بـــ: (لا):

أمّا بالنّسبة لأداة العطف (لا) فإنّها لا تكون عاطفةً عند النّحاة إلاّ بشروطٍ:

أوّلها: أن يتقدّمها إثبات، مثل: جاء زيد لا عمرو.

ثانيهما: ألا تقترن بعاطفٍ، فإذا قيل: جاءني زيد لا بل عمرو، فالعاطف (بل) و(لا) ردٌّ لِما قبلها، وليست عاطفةً، وإذا قلت:ما جاءني زيد، ولا عمرو، فالعاطف الواو، و(لا) توكيدٌ للنّفي، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة، من الآية: ٧].

ثالثاً: شروط النّحويّين للعطف بـــ: (بل):

ولكي تدلّ (بل) على العطف، ومن ثَمَّ على القصر جعل لها أهل اللّغة شروطاً أذكُرُها مجملة، فقد بَيَّنوا أنّه: إذا تقدّمها نفي أو نهي، فهي لتقرير ما قبلها على حالته وجعل ضدَّه لما بعده، (وهذا معنى القصر) نحو: ما جاء زيد بل عمرو.

---

(١) انظر: دلالات التّراكيب، د. محمّد أبو موسى ص: ٩٤.

أمّا إن تقدّمها إثبات، فيكون ما قبلها كالمسكوت عنه فلا يُحكم عليه بشيءٍ ويثبت الحكم لما بعدها نحو: قام زيد بل عمرو(١). (فكأنّها للإضراب فقط وليست للقصر؛ لأنّ القصر نفي وإثبات).

آراء العلماء حول دلالة العطف على القصر:

هناك من علماء البلاغة مَنْ أنكر أن يكون العطفُ من طرق القصر، يقول السّبكي: «أمّا العطف بـــ (لا) فأي قصرٍ فيه؟ إنّما فيه نفي وإثبات، فإذا قلت: زيد كاتب لا شاعر، لا تَعَرُّضَ فهي لنفي صفةٍ ثالثةٍ، والقصر إنّما يكون بنفي جميع الصّفات غير المثبتة، إمّا حقيقةً، وإمّا مجازاً(٢)، وليس لنفي الصّفة التي يعتقدها المخاطب فقط، أمّا العطف بـــ (بل) فدلالة القصر فيه أبعد»(٣).

وفي رأيي أنّ قول السّبكي هذا مرجوح؛ لأنّ القصر هو نفي وإثبات، فلو نفيت صفةً واحدةً، عن المقصور عليه وأثبت له صفةً واحدةً، لتمّ القصر.

وهناك من البَلاغِيِّين مَنْ يرى أنّ (لا) العاطفة لا تكون إلاّ في قصر القلب دون الإفراد كما أشار إلى ذلك الشّيخ عبد القاهر فقال: «اعلم أنّ قولنا: (لا) العاطفة إنّها تنفي عن الثّاني ما وجب للأوّل، ليس الْمُراد أنّها

---

(١) انظر: مغني اللّبيب لابن هشام ص: ١٥٢-١٥٣.

(٢) يقصد بذلك القصر الحقيقي مبالغة.

(٣) عروس الأفراح للسّبكي ضمن شروح التّلخيص ١٨٧/٢.

تنفي عن الثّاني أن يكون قد شارك الأوّلَ في الفعل، بل إنّها تنفي أن يكون الفعل الذي قلت: إنّه كان من الأوّل قد كان من الثّاني دون الأوّل»[١].

ولكن النّحاة يقولون بعكس ذلك، قال ابن هشام[٢]: «إنّ (لا) تكون لقصر القلب والإفراد»[٣].

وفي نظري أنّ كلام النّحاة مقدَّمٌ؛ لأنّ حكم البلاغيّين في الأمور اللغوية إنما يكون بناءً على القواعد التي قرّرها النّحاة، ثم إنّني لا أعتقد أنّ الأساليب العربية تُؤَيِّد ما ذهب إليه عبد القاهر[٤]، ولا مانع عندي أن يكون طريقُ العطف بـــ (لا) جارياً في قصر الإفراد أيضاً، فقد يعتقد المخاطب مثلاً أنّ زيداً شاعر وكاتب، فتقول له: زيد كاتب لا شاعر، ويكون هذا القول صحيحاً. والله أعلم.

هذا وإنّ هناك من علماء البلاغة، مَنْ يرى أنّ طريق العطف لا يستخدم إلاّ في القصر الإضافي، قال ابن يعقوب المغربي: «ثم المشهور عندهم[٥]، أنّ القصر الحاصل بالعطف لا يكون إلاّ إضافياً؛ لأنّ الإثبات

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص: ٣٣٥.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) شرح قطر النّدى وبَلّ الصّدى لابن هشام، توزيع الدّار المصرية للكتاب ص ٣٠٦.

(٤) يقول الدّكتور محمّد أبو موسى: «ولم يكن لدى عبد القاهر من النّصوص ما تؤكّد هذا الزّعم في تحديد هذا المقام.. ثم يقول: وهذا ليس أصلاً منضبطاً في كلّ حالٍ، وقد يُعْتَدُّ به في الاستحسان». دلالات التّراكيب ص: ٩٥.

(٥) أي: عند علماء البلاغة.

إنّما هو باعتبار ما نفى بالعطف، والحقّ أنّه أكثريٌّ لا كلّيٌّ، لصحّة كونه من الحقيقي، إذا كان المنفي هو جميع ما سوى المذكور كقولك: زيد عالم البلدِ لا غيره، إذا فُرض أن لا عالم في البلد سواه»[1].

وفي رأيي أنّ قول ابن يعقوب هذا صحيح، بالنّسبة لــ (لا) العاطفة فقط، أمّا بالنّسبة لــ (بل) و(لكن) فإنّهما مختصّتان بالقصر الإضافيّ فقط، دون الحقيقي؛ لأنّ نفي المقصور عن غير المقصور عليه نفي خاصّ دائماً ولا أعرف أنّه أتى نفياً عامّاً أبداً. والله أعلم.

الطّريق الرّابع: طريق تقديم ما حقّه التّأخير:

إنّ طريق تقديم ما حقّه التّأخير، طريق من طرق القصر المشهورة[2]، والتّقديم عموماً ليس فقط طريقاً للقصر، بل يفيد معانياً كثيرة، وعديدة، بيّنها البلاغيّون في بحوثهم وقد تحدّث عبد القاهر، عن أهمّية التّقديم في اللّغة وعَتَب على العلماء الذين يقولون عنه إنّه قُدِّم للعناية ونحو ذلك، من غير أن يذكروا من أين كانت هذه العناية؟ وبم كان أهمّ؟ وعَتَب أيضاً على مَن صغَّر شأن التّقديم وقال: «...حتّى إنّك لترى أكثرهم يرى تَتَبُّعه

(١) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التّلخيص ص: ١٩١.

(٢) أشار العلماء إلى دلالة التّقديم على القصر، وذلك لتضَمُّنه معنى: (ما، وإلا) وقد فسّروا قول العرب: «شرٌّ أهَرّ ذا ناب» ما أهر ذا ناب إلاّ شر، وكان من أوائل مَن ذكر ذلك ابن جني في كتاب: (الخصائص). انظر: الخصائص، تحقيق: محمّد النّجار، دار الهدى للطّباعة والنّشر، بيروت، ٣١٩/١، وغيره كثيرة.

والنّظر فيه ضرباً من التّكلّف، ولم ترَ ظنّاً أزري على صاحبه من هذا»[١].

ثم يقول في موضعٍ آخر: «وليت شعري، إن كانت هذه أموراً هيّنةً، وكان المدى فيها قريباً، والجدى يسيراً، فمن أين كان نظمٌ أشرف من نظمٍ، وبم عَظُم التّفاوت واشْتَدَّ التّباين، وترقى الأمر في الإعجاز؟»[٢].

وهذا نعرف أنّ الكلمات تقتفي أثار المعاني، وترتِيبُها على حسب ترتيب المعاني في التّصنيف[٣].

الجملة وتركيبها:

الأصل في الجملة الاسمية أن يتقدّم المبتدأ (المسندُ إليه)، ويتأخّر الخبر (المسند) كقولك: العلم نور. وذلك لأنّ الخبر كالوصف للمبدأ، فاستحقّ التّأخير[٤].

والأصل في الجملة الفعلية أن يتقدّم الفعل (المسند) ويليه الفاعلُ (المسند إليه) ثم بعده المفعول، ثم بقية أجزاء الجملة، والأصل أن يلي الفاعلُ الفعلَ من غير أن يَفْصِل بينه وبين فعله فاصلٌ؛ لأنّه كالجزء منه، والأصل في المفعول أن ينفصل عن الفعل بأن يتأخّر عن الفاعل[٥].

وبعض الجملة الفعلية طويل وبعضها قصير، وذلك بحسب كثرة

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ص: ١٠٨.

(٢) المصدر السّابق، ص: ١٠٩.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص: ٤٠.

(٤) شرح ابن عقيل، على ألفية ابن مالك ١/٢٢٦.

(٥) المصدر السّابق ١/٤٨٤.

المتعلّقات أو قلّتها، وسوف أعرض جملة فعليّة طويلة[١] مرتّبة أجزاؤها حسب الأصل ــ كما يراه السّكاكي وهو الصّواب في نظري ــ، فنقول مثلاً: ضرب زيدٌ الجانيَ، بالسّوط، يومَ الجمعة، أمام بكرٍ، ضرباً شديداً، تأديباً له، ممتلئاً من الغضب.... الخ.

هذا هو نظام الجملة الفعلية التي فيها طولٌ: فيقدّم الفاعل على المفعولات ثم المتعلّقات الأخرى على هذا التّرتيب.

ثم بيّن السّكاكي أيضاً أنّه بالنّسبة لمفعولي ظنّ، فيقدّم ما كان في حكم المبتدأ منهما فتقول: ظننت زيداً منطلقاً.

أمّا الأفعال التي تنصب مفعولين، ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فيقدّم منهما ما كان في حكم الفاعل، نحو: أعطيت زيداً درهماً، فزيدٌ آخذٌ فَحُقّ له أن يتقدّم على الدِّرهم؛ لأنّ الدّرهم مأخوذ، أمّا بالنّسبة للفعل الذي يتعدّى إلى أحد المفعولين بدون واسطةٍ، وإلى الآخر بواسطةٍ، فيقدّم الذي تعدّى إليه بدون واسطةٍ على الآخر، نحو: ضربت الجانيَ بالسّوط.

فالأصل في ترتيب الجملة العربية: اسميةً كانت، أو فعليةً، أن تكون على هذا التّرتيب، فإذا ما تغيّر هذا التّرتيب كان ذلك لسرٍّ بلاغيّ[٢].

أمّا الآن فسأعرض لأنواع تقديم ما حقّه التّأخير في الجملة العربية، ودلالته على القصر:

---

(١) والجمل القصيرة تتبع الطّويلة في ترتيب أجزائها.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص: ٢٣٦.

أ- التّقديم في الجملة الاسميّة:

قد يقدّم في الجملة الاسميّة الخبر على المبتدأ، وذلك لأغراض ذكرها البلاغيّون(١)، ولكن الذي يهمّنا من تلك الأغراض، ما نحن بصدده، وهو غرض القصر، فقد ذكر البلاغيّون أنّه قد يقدّم المسند على المسند إليه في الجملة الاسميّة لغرض القصر مستشهدين على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصّافات: ٤٧]، يقولون: قُدِّمَ الظّرف تعريضاً، بخمور الدّنيا، وأنّ المعنى هو أنّ خمر الآخرة على وجه الخصوص لا تغتال العقول اغتيال خمر الدّنيا(٢).

ب- التّقديم في الجملة الفعليّة:

أمّا بالنّسبة للجملة الفعليّة فالتّقديم فيها له حديثٌ طويلٌ، وينقسم التّقديم فيها إلى أربعة أقسامٍ:

أوّلاً: تقديمُ الفاعل على الفعل:

وهو كقولك: أنا عرفت كذا، ونحو ذلك، ومثل هذا التّقديم يفيد معانياً، من ضمنها معنى القصر، وقد سبق الشّيخ عبد القاهر إلى الحديث عن هذا الموضوع فبيَّن أنّك إذا قلت: زيد قد فعل، أو أنا فعلت، أو أنتَ

---

(١) انظر: باب تقديم المسند في مفتاح العلوم ص: ٢١٩، والإيضاح ٢٠٣/١، وغيرهما.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص: ٣٣٥.

فعلتَ، فإنّ في مثل هذه الجمل معنيين:

أحدهما: جليٌّ لا يشكل، وهو أن يكون الفعل قد أردت أن تنصّ فيه على واحدٍ[(١)]، فتجعله له، وتزعم أنّه فاعله دون واحدٍ آخر.

والمعنى الثّاني: أن يكون القصد التّقريرُ للسّامع وتمكين المعنى في نفسه، كقولك: هو يعطى الجزيل، لا تريد أنّ غيره لا يعطى الجزيل، ولكن تريد تقرير المعنى وتأكيده[(٢)].

ومن هنا يتّضح جليّاً من كلام عبد القاهر أنّه قد يُقَدَّم الفاعل على الفعل لمعانٍ متوقفةٍ على إرادة المتكلّم، فقد يقْصِدُ منها معنى القصر فيتحقّق له بهذا التّقديم ما قصدَ إليه، وقد تكون إرادته تمكين المعنى في نفس السّامع فقط، وذلك موضوعٌ آخر لا يعنينا.

وقد تعرّض عبد القاهر مرّةً أخرى لهذا الموضوع عند ما تحدّث عن تقديم النّكرة على فعلها وأشار إلى دلالته على القصر، إذ قال: «فإذا قلت: رجلٌ جاءني، لم يصلح حتى تريد أن تعلّمه: أنّ الذي جاءك رجلٌ لا امرأة...». ثم يقول: «فإن لم ترد ذلك كان الواجب أن تقدّم الفعل، فتقول: جاءني رجلٌ، وكذلك إذا قلت: رجلٌ طويلٌ جاءني، لم يستقم، حتى يكون السّامع قد ظنّ أنّه قد أتاك رجلٌ قصيرٌ أو نَزَّلته منْزلة مَن قد ظنّ ذلك»[(٣)].

---

(١) يقصد عبد القاهر: أي تقصر فيه الفعل على فاعلٍ واحدٍ.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص: ١٢٨-١٢٩.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز ص: ١٤٣.

ومن هنا نعرف أنّ تقديم الفاعل على فعله سواء كان ضميراً أو اسماً ظاهراً، أو نكرةً يفيد معنى القصر إلاّ أنّه بالنّسبة للنّكرة يفيد القصر في كلّ حالاته ـــ على ما يفهم من كلام عبد القاهر ـــ، أمّا غير النّكرة فعلى حسب إرادة المتكلّم.

ثانياً: تقديم المسند إليه على خبره الفعلي والياً حرف نفي:

إنّ من أوائل مَنْ تحدّث عن هذا الموضوع الشّيخ عبد القاهر الجرجاني إذ قال: ((إذا قلت: ما فعلت، كنت نفيت عنك فعلاً لم يثبت أنّه مفعول، وإذا قلت: ما أنا فعلت، كنت نفيت عنك فعلاً يثبت أنّه مفعول... ثم يقول: وإذا قلت: ما أنا ضربت زيداً، لم تقله إلاّ وزيد مضروبٌ، وكأنَّ القصد، أن تنفي أن تكون الضّارب من أجل ذلك صحَّ في الوجه الأوّل أن يكون المنفي عاماً، كقولك: ما قلت شعراً قط، وما رأيت أحداً من النّاس، ولم يصحّ في الوجه الثّاني، وكان خلفاً[1] أن تقول: ما أنا قلت شعراً قط، وما أنا رأيت أحداً من النّاس، وذلك أن يقتضي المحال وهو أن يكون ههنا إنسانٌ قد قال كلّ شعرٍ في الدّنيا، ورأى كلّ النّاس فتنفي أن تكونه))[2].

ثم يدلّل عبد القاهر على صحّة قوله في الفرق بين قولك: ما فعلت، وما أنا فعلت، بدليلين:

---

(١) الخلف: الرّديء من القول.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص: ١٢٥.

أحدهما: أنّه يصحّ أن تقول: ما قلت هذا، ولا قاله أحدٌ من النّاس، ولا يصحّ أن تقول: ما أنا قلت هذا، ولا قاله أحدٌ من النّاس، فلو قلته لكان خلفاً من القول؛ لأنّه كلامٌ متناقضٌ، وسبب هذا التّناقض أنّ هذا القول قد قيل، ثم تجيء فتقول: وما قاله أحدٌ من النّاس!

وثانيهما: أنّك تقول: ما ضربت إلاّ زيداً، فيكون كلاماً مستقيماً، ولو قلت: ما أنا ضربت إلاّ زيداً، لكان لغواً من القول، وذلك لأنّ نقض النّفي بإلاّ يقتضي أن تكون ضربت زيداً، وتقديمك ضميرك وإيلاؤه حرف النّفي، يقتضي نفي أن تكون ضربته فهما يتدافعان»[(١)].

هذا هو رأي عبد القاهر في مثل هذه الجمل، وأنّها تفيد القصر؛ لأنّ فيها معنى النّفي والاستثناء، ولكن إذا نظرنا في كلام عبد القاهر لم نجده مثّل في هذا المجال إلاّ بالمضمر ولم يمثّل بالظّاهر نكرةً أو معرفةً، فهل تقديم الاسم الظّاهر على خبره الفعلي والياً حرف نفي يفيد القصر في نظر عبد القاهر أم لا؟

الأمر يحتمل الوجهين إلاّ أنّ الخطيب يرجّح أنّ عبد القاهر وإن لم يمثّل إلاّ بالمضمر إلا أنّ كلّ تقديم للفاعل سواء كان ظاهراً أو مضمراً، معرفةً أو نكرةً، مسبوقاً بنفي، مفيد للقصر[(٢)].

وإذا ما وصلنا إلى السّكاكي، وجدناه قد تابع الشّيخ عبد القاهر في

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص: ١٢٥-١٢٦.

(٢) انظر: الإيضاح للخطيب القزويني ١/١٢٨.

جملة ما ذهب إليه، إلاّ أنّه قد صرَّح بأمرٍ وهو، أنّ تقديم المسند إليه على خبره الفعلي، والياً حرف نفي، لا يفيد القصر إلاّ إذا كان المقدَّم ضميراً فقط، سواء كان للمتكلّم أو للمخاطب أو للغائب، أي: أنّه يَنْفي أن يكون تقديم الظّاهر (معرفة أو نكرة) مفيداً للقصر(١).

هذا كلّه بالنّسبة لما كان فيه الخبر فعليّاً، أمّا ما كان فيه الخبر اسماً مشتقّاً نحو: ما أنا فاعل كذا، فلم يتعرّض له الشّيخ عبد القاهر ولعلّه اعتبره نفياً عادياً لا قصر فيه، أمّا السّكاكي فقد ألمح إلى أنّه يفيد القصر عندما تعرَّض لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[هود من الآية: ٩١]، حيث بيّن أنّ المراد هو أنّ العزيز علينا قومك لا أنت(٢).

أمّا الخطيب القزوينِي فنفى صريحاً أن يكون مثل هذا التّقديم مفيداً للقصر، وأنّ الدّلالة على القصر هي فيما كان فيه الخبر فعليّاً فقط، أمّا إذا كان الخبر اسماً فالنّفي عادي ولا قصر فيه(٣).

ولكنّي لا ألمس في هذا النّوع من التّقديم دلالة على الحصر؛ لأنّ الحصر نفي وإثبات وليس في قولك: ما أنا فعلت كذا إلاّ النّفي فقط، والنّفي عدم والعدم لا يمكن أن يقصر على شيء إنّ كلام البلاغيّين هنا مضطرب وغير صحيح (في نظري) والجانب التّطبيقي في هذا البحث

---

(١) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٣٢.

(٢) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٣٢.

(٣) انظر: الإيضاح للخطيب القزوينِي ١/١٣١.

سيؤيّد ما ذهبت إليه.

ثالثاً: تقديم معمولات الفعل عليه:

الأصل في العامل أن يقدّم على المعمول، فيقدّم الفعل على الفاعل والمفعول، والجار والمجرور وغيرها، ولكنّه قد يعدل عن ذلك إلى تقديم هذه المعمولات على الفعل، لمعانٍ ذكرها البلاغيّون في كتبهم، وقد ظهر لي بعد الاطّلاع عليها أنّ مثل هذا التّقديم يفيد القصر غالباً، وإذا ما وقفنا على رأي عبد القاهر في هذا المجال، نجده قد تعرّض إلى الفرق بين قولك: ما ضربت زيداً، وبين قولك: ما زيداً ضربت، (بتقديم المفعول) وبين أنّ المعنَى في الأوّل، أنّك نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيدٍ، ولم تثبت أمراً غير هذا، ولم تنفه.

أمّا المعنى في الثّاني (ما زيداً ضربت)، فهو أنّه وقع منك ضرب على إنسانٍ وظُنّ أنّه زيد، فنفيت أن يكون إيّاه، ولذلك جاز لك في الأوّل أن تقول: ما ضربت زيداً ولا أحداً من النّاس، ولم يجز لك في الثّاني أن تقول: ما زيداً ضربت، ولا أحداً من النّاس(١).

ثم يعقّب عبد القاهر بقوله: وحكم الجار والمجرور في جميع ذلك حكم المنصوب(٢).

وقد بيّن الزّمخشري ــ رحمه الله ــ في الكشّاف أنّ تقديم المفعول

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص: ١٢٦، بتصرّف.

(٢) دلائل الإعجاز ص: ١٢٧.

يفيد القصر وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥][(١)]، فقال: «المعنى نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة»[(٢)].

هذا بالنّسبة للجار والمجرور، والمفعول به.

أمّا بقية المتعلّقات فلم أجد مَن تعرّض إلى الأغراض البلاغية من تقديمها على الفعل لا أدري لعلّ السّبب في عدم تعرّضهم لذلك هو أنّهم رأوا أنّها تقاس على هذه المعمولات فاكتفوا بنموذجٍ واحدٍ.

وفي نهاية الحديث عن تقديم المعمولات أختم بقولٍ للسّيوطي وهو: «كاد أهل البيان يطبقون على أنّ تقديم المعمول يفيد الحصر، سواء كان مفعولاً أو ظرفاً أو جاراً أو مجروراً»[(٣)].

رابعاً: تقديم بعض المعمولات على بعضٍ:

وهذا التّقديم المقصود به تغيير ترتيب المعمولات عن التّرتيب الذي ذكرته سابقاً في أوّل هذا الموضوع[(٤)]، وهو مثل أن يقدّم المفعول على الفاعل، نحو: ضرب عمراً زيدٌ.

---

(١) هذا وقد نفى الدّكتور إبراهيم أنيس أن يكون التّقديم في هذه الآية مفيداً للقصر، وذهب إلى أنّه مجرّد مراعاة للفاصلة القرآنية.

انظر: كتابه من أسرار اللّغة ص: ٢٣٣، ولكن في نظري أنّ رأيه هذا مرجوح ولا يعتد به، والله أعلم.

(٢) الكشّاف للزّمخشري ١/٦٢.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٣/١٥٦.

(٤) انظر: ص: ٥٨ من هذا البحث.

ولكنّي لم أجد أحداً من العلماء ــ منذ عهد الجرجاني إلى اليوم ــ ذكر أنّ مثل هذا التّقديم يفيد القصر، ولكن ذكروا له أغراضاً أخرى، كالاهتمام به، ونحو ذلك(١).

لهذا لن أخوض في هذا الموضوع ما دام بعيداً عن جوهر هذا البحث.

مكان المقصور عليه مع التّقديم:

إنّ المقصور عليه دائماً هو المقدَّم في طريق تقديم ما حقّه التّأخير، فإذا قلت: زيداً ضربت، معناها: ما ضربت إلاّ زيداً.

هذا هو رأي البلاغيّين جميعاً(٢)، ولا أعلم أحداً خالف في ذلك.

أمّا ما جاء على نحو: ما أنا فعلت كذا، فإنّ أكثر البلاغيّين يرى أنّ المقصور عليه هو المتقدَّم، وأنّ المقصور هو الفعل في حالة النفي(٣).

لكن السّلسكوتي ــ رحمه الله تعالى ــ يرى بعكس ذلك إذ يقول عند هذا النّوع من التّقديم: «فإنّه في التّحقيق لقصر الفعل على غير المذكور لا لقصر نفي الفعل على المذكور، فالمقصور عليه هنا غير مذكور»(٤).

وفي رأيي أنّه إذا كان في هذا التّقديم قصر فهو كما قال السّلسكوتي، إذ

---

(١) انظر تلك الأغراض في دلائل الإعجاز ص: ٢٨٦، ومفتاح العلوم ص: ٣٣٥-٣٧ وغيرهما.

(٢) يقول الخطيب القزوينّي عند تقديم المسند: «وأمّا تقديمه فإمّا لتخصيصه بالمسند إليه...». انظر: الإيضاح ٢٠٣/١، وغيرها.

(٣) انظر: المطول ص: ١١٣، وانظر: شرح الإيضاح لعبد المتعال الصّعيدي ١٨٧/١، وغيرهما.

(٤) انظر: حاشية السّلسكوتي ص: ٣٠٧.

إنّ الفعل في حالة النّفي غير موجود فكيف يقصر على موجودٍ؟ والله أعلم.

أ- موازنات بين طرق القصر:

ما تتّفق فيه طرق القصر:

ذكر البلاغيّون أنّ القاسم المشترك بين طرق القصر الأربعة السّابقة وغيرها هو أنّ المخاطب يكون معها، حاكماً بحكم مشوبٍ بصوابٍ وخطأً، فيُطلب بأيٍّ من هذه الطّرق إثبات صوابه ونفي خطئه، فإذا قلت مثلاً لشخصٍ: جاء زيدٌ لا عمرو، قلباً، فإنّ المعلومة الصّحيحة (كما يرى السّكاكي) لدى المخاطب هي كونه جعل المجيء لأحد الموصوفين (زيد أو عمرو)، والمعلومة الخاطئة لديه هي كونه جعل المجيء لعمرو[1].

ولكنّي أعتقد أنّ مثل هذا الكلام غير مستقيمٍ، فأوّل ما يرد عليه أنّ هذا ليس قاسماً مشتركاً بين طُرق القصر، فطرق القصر منها ما يفيد القصر الحقيقي والإضافي، وهذا الكلام خاصّ بالقصر الإضافي.

والأمر الثّاني: أنّ القاسم المشترك بين هذه الطّرق لا يُنظر فيه إلى حال المخاطب فالمخاطبون مختلفون والقاسم المشترك لا بدّ أن يكون موحَّداً.

الأمر الثّالث: هو هل جعل المخاطب المجيء لأحد الموصوفين يعدُّ صواباً؟

هذا ويظهر لي أنّ القاسم المشترك بين هذه الطّرق هو إثبات حكمٍ لشيءٍ ونفيه عن غيره في قصر الصّفة على الموصوف، وإثبات شيءٍ لحكمٍ

(١) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٢، بتصرّفٍ.

معيَّنٍ ونفيه عن غيره في قصر الموصوف على الصّفة. والله أعلم.

ب-ما تختلف فيه طرق القصر:

أوّلاً: طريق العطف ليس بأقوى طرق القصر:

في بداية حديثي عمّا تختلف فيه طرق القصر، أودّ أن أشير إلى ملاحظةٍ وهي أنّ البلاغيّين منذ عهد السّكاكي، وعبر سلسلة البلاغيّين الذين ارتبطوا به كانوا يبدأون حديثهم عن طرق القصر بطريق العطف، وكأنّهم يريدون أن يقولوا: إنّه أقوى هذه الطّرق في الدّلالة على القصر؛ لأنّ النّصّ فيه على المثبت والمنفي، ولكنّي أرى رأياً غير هذا (سبقني إليه الدّكتور محمّد أبو موسى)، وهو أنّ أقوى طريق للقصر فهو طريق النّفي والاستثناء، ولعلّه أوّل الطّرق عُرف بدلالته على القصر، وذلك لكثرته في أساليب اللّغة، ودلالته القطعية على القصر، حتى لا ينكره أيّ منكرٍ.

يقول الدّكتور محمّد أبو موسى مؤيِّداً هذا الكلام: «قلنا إنّ النّفي والاستثناء، هو الطّريق الأمّ بين طرق القصر، وأنّهم يقيسون غيره عليه، ويصطنعونه في توضيح صورة المعنى في الجملة القصرية، وتحديد المقصور والمقصور عليه، فيقولون مثلاً في قولك: إنّما لك هذا، معناه: ما لك إلاّ هذا.. إلى أن يقول: إنّ قصر الشّيء على الشّيء، أو إثبات الشّيء للشّيء، ونفيه عن غيره ينبثق من هذا التّركيب»(١). وهذا في رأي قول صائب، وطريق النّفي والاستثناء هو أشهر طرق القصر، وأقواها. والله أعلم.

---

(١) انظر: دلالات التّركيب، د. محمّد أبو موسى صك ١١٨.

ثانياً: دلالة التّقديم على القصر بالفحوى:

ذكرت أنّ طرق القصر تتّفق في الدّلالة معنى القصر وتختلف في كيفيَّة الدّلالة عليه فنذكر هنا هذه الفروق في الكيفيَّة على ما يلي:

إنّ طريق تقديم ما حقّه التّأخير، يتميّز عن بقية الطّرق الأخرى بأنّ دلالته على القصر بالفحوى وحكم الذّوق، أمّا الطّرق الثّلاثة الباقية، فدلالتها على القصر دلالة وضعية، أي: أنّ الواضع(١)، وضع تلك الأدوات لإفادة القصر(٢) لا لشيءٍ آخر، إذ ليس في طريق التّقديم وضعُ لفظٍ مخصوصٍ للقصر، لا عند البلغاء ولا عند غيرهم.

ولكن صاحب الذّوق السّليم، إذا تأمّل الكلام أدرك أنّ التّقديم يدلّ على القصر في بعض المواضع بخلاف ما سواه(٣).

هذا ويرى بعض البلاغيّين أنّ دلالة التّقديم على القصر ــ رغم أنّها تدرك بالفحوى ــ أقوى من دلالة غيره، ولذلك ينسب بعضهم القصر إلى التّقديم إذا اجتمع مع إنّما(٤).

ولكنّي أرى عكس هذا القول ــ وأنّ الدّلالة بالفحوى هي من أضعف الدّلالات بدليلٍ أنّ بعض النّاس يدركها، وبعضهم لا يدركها، والله أعلم.

---

(١) المراد به واضع اللّغة الأوّل.

(٢) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٢.

(٣) انظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٢/٢٠٤.

(٤) انظر: حاشية السّلسكوتي ص: ٣٠٨.

ثالثاً: طريق العطف يُنَصُّ فيه على المثبت المنفي:

إنّ الأصل في طريق العطف، التّعرّض للمثبت والمنفي، بالنّصّ عليهما كما تقول: زيد كاتب لا شاعر، في قصر الموصوف على الصّفة، وتقول: زيد شاعر لا عمرو في قصر الصّفة على الموصوف. ولا يترك النّصّ عليهما، إلاّ كراهية التّطويل في مقام اختصار كما إذا قال المخاطب: زيد يعلم الاشتقاق والصّرف والنّحو والعروض... الخ، فتقول له: زيد يعلم النّحو لا غير، أو ليس غير[(١)]، أو ليس إلاّ، وكذلك في قصر الصّفة على الموصوف فلو قال المخاطب: زيد يعلم النّحو وعمرو وبكر وخالد... الخ، فتقول: زيد يعلم النّحو لا غير[(٢)]. فَغَيْرُ الأولى بمعنى، لا العروض، ولا الاشتقاق، ولا الصّرف... الخ، وغَيْرُ الثّانية هي بمعنى لا بكر، ولا خالد، ولا عمرو... الخ.

أو تقول: لا ما سواه لغير العاقل، ولا من سواه للعاقل[(٣)].

أمّا الطّرق الثّلاثة الباقية فتدلّ على القصر بالنّصّ على المثبت دون المنفي، كما تقول: ما أنا إلاّ تميمي، وتميمي أنا[(٤)]، إلاّ ما جاء على طريق:

---

(١) إذا قلت: لا غير فقد حذفت المنفي، وأقمت بدله لفظاً أخصر منه، أمّا إذا قلت: ليس غير أو ليس إلاّ، فقد حذفت حرف العطف والمنفي معاً وأقمت مقامهما لفظاً يؤدّي معناهما، وحينئذٍ لا يبقى العطف. انظر: المطول ص: ٢١٥.

(٢) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٢.

(٣) انظر: حاشية الدّسوقي، ضمن شروح التّلخيص ٢/٢٠٦.

(٤) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٣.

ما أنا قمت، فإنّ النّصّ فيه على المنفي لا على المثبت[١].

هذا وقد قيل: إنّه قد تجيء بعض هذه الطّرق على خلاف الأصل فيقال في التّقديم: ما أنا قلت هذا بالنّصّ على المنفي دون المثبت، ويقال في النّفي والاستثناء: ما قام القوم إلاّ زيدٌ، بالنّصّ على المثبت المنفي معاً، ولكن، إنّما كان هذا على خلاف الأصل؛ لأنّ الاستثناء المفرَّغ هو الأصل في القصر[٢].

لذا فإنّ فائدة الإيجاز تتضاءل في القصر بالعطف للتّصريح فيه بالإثبات والنّفي فبلاغة القصر فيه أقلّ من غيره، وإن كانت فائدة التّأكيد فيه أقوى[٣].

اجتماع أكثر من طريقٍ للقصر في جملةٍ واحدةٍ:

لحظ البلاغيّون اجتماع أكثر من طريقٍ للقصر في جملةٍ واحدةٍ، وقد بيّنوا ذلك على النّحو التّالي:

أوّلاً: اجتماع التّقديم مع (لا) العاطفة:

قد يجتمع التّقديم مع (لا) العاطفة، وينسب القصر عندئذٍ إلى التّقديم و(لا) مؤكّدة للنّفي نحو: عربي أنا لا أعجمي[٤]، ويكون التّقديم هو الأصل في

(١) انظر: حاشية السّلسكوتي ص: ٣٠٧.

(٢) شرح الإيضاح، عبد المتعال الصّعيدي ٢/٤١.

(٣) المصدر السّابق ٢/٣٤.

(٤) انظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التّلخيص ٢/٢١٠، =

مثل هذا التّعبير.

ثانياً: اجتماع التّقديم مع (إنّما):

يجتمع التّقديم مع (إنّما) نحو: إنّما عربي أنا، وينسب القصر في هذه الحالة إلى إنّما[١]، وأمّا التّقديم فهو مجرّد وسيلةٍ، توصلت بها، إنّما إلى أداء معنى القصر، وعلى هذا فدلالة إنّما على القصر أقوى من دلالة التّقديم؛ لأنّها ألغت دلالته على القصر عند ما اجتمعت معه.

ثالثاً: اجتماع التّقديم مع النّفي والاستثناء:

هذا ويبدو لي أنّه يجوز اجتماع طريق التّقديم مع النَّفي والاستثناء، نحو: لا عربي إلاّ أنا، وينسب القصر في هذه الحالة إلى النّفي والاستثناء، وتلغى أهمّيّة التّقديم في الدّلالة على القصر، كأنّ النّفي والاستثناء قد استفاد من التّقديم في تحقيق معنى القصر، وهذا يؤكّد قوّة النّفي والاستثناء في الدّلالة على القصر. والله أعلم.

جواز اجتماع (لا) العاطفة مع (إنّما) وعدم جواز اجتماعها مع النّفي والاستثناء:

إنّه يجوز أن تجتمع (لا) العاطفة، مع إنّما، نحو: إنّما عربي أنا لا

= وحاشية السّيّد جلبي ص: ٣٨٣-٣٨٤.

(١) هناك من البلاغيّين مَنْ يرى أنّ القصر ينسب إلى التّقديم إذا اجتمع مع إنّما. انظر: حاشية السّيّد جلبي ص: ٣٨٤.

أعجمي، ويكون الحصر مستفاداً في هذه الحالة من إنّما، وأمّا (لا) فهي للتّأكيد، ولا ينسب الحصر لها لتبعيّتها[١].

أمّا طريق النّفي والاستثناء، فلا يجتمع مع (لا) العاطفة، والسّبب في ذلك أنّ (لا) العاطفة، من شرط منْفِيّها ألا يكون منفيّاً قبلها بغيرها، من أدوات النّفي[٢].

وَوَّجه البلاغيّون صحّة اجتماع (إنّما) مع (لا) العاطفة، وعدم صحّة اجتماعها مع (ما، وإلاّ) أنّ معنى النّفي في إنّما ضمناً لا صريحاً، كما في النّفي بأداة النّفي[٣].

هذا، وقد جعل عبد القاهر لاجتماع (لا) العاطفة مع إنّما، مواقع، تكون في بعضها حسنة، وفي بعضها الآخر غير مستحسنة، حيث بيّن أنّه إذا كان الفعل بعد إنّما مختصّاً بالمذكور بعده دون غيره لم يحسن العطف بلا بعد (إنّما) كما يحسن فيما لا يختصّ بالمذكور، وتفسير هذا أنّه لا يحسن أن تقول: (إنّما يتذكّر أولو الألباب لا الجهّال)، مثلاً، كما يحسن أن تقول: (إنّما جاءني زيد لا عمرو)؛ لأنّ التّذكّر (كما هو معلوم) لا يكون إلاّ من أولي الألباب، وأمّا المجيء فلا يختصّ بزيدٍ وحده[٤].

---

(١) انظر: مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي ٢/٢١٠، وحاشية السّيّد جلبي ص: ٣٨٤.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص: ٢٩٣.

(٣) انظر: مفتاح العلوم ص: ٢٩٣.

(٤) انظر: دلائل الإعجاز ص: ٣٥٣، بتصرّفٍ.

هذا وإن كان عبد القاهر قد رأى أنّه لا يستحسن أن يعطف بـ (لا) فيما كان فيه الفعل مختصّاً بالذي بعده، فإنّ السّكاكي لم يُجوِّز ذلك أصلاً(١)، وقد أيّد كثير من علماء البلاغة رأي عبد القاهر الجرجاني، في اشتراط عدم حسن مجامعة (لا) العاطفة لإنّما فيما تختص الصّفة فيه بالموصوف ورفضوا رأي السّكاكي في منع مجامعة (لا) لإنّما فيما ذكر(٢).

قال ابن يعقوب المغربي: «لا دليل على امتناع أن يقال: إنّما يفهم العاقل لا غيره، عند قصد التّأكيد، لاسيما والكلام فيما تقدّم(٣) على تأويل تَنْزيل المنفي عنه بمنْزلة مَن لا يصدق عليه المحصور فيه فناسبه التّأكيد»(٤).

الفروق الذّوقية بين طرق القصر:

أوّلاً: الفرق بين النّفي والاستثناء وإنّما:

قد ذكرت فيما سبق أنّ سبب دلالة إنّما على القصر هو تضمّنها معنى (ما وإلاّ)، بمعنى: أنّ أيّ كلامٍ توجد فيه إنّما يصلح أن تقدر مكانها (ما وإلاّ)، فيستقيم المعنى، ألاّ أنّ عبد القاهر الجرجاني قد بيّن أنّ هناك فروقاً بين (إنّما)

---

(١) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) انظر في ذلك: عروس الأفراح للسّبكي ضمن شروح التّلخيص ٢/٢١١-٢١٢، ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التّلخيص ٢/٢١٢-٢١٣، وشرح الإيضاح لعبد المتعال الصّعيدي ٢/٤٢.

(٣) يقصد الحديث عن الآية: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[الأنعام من الآية: ٣٦].

(٤) مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التّلخيص ٢/٢١٣.

و(ما وإلاّ) أو النّفي والاستثناء عموماً والدّليل على تلك الفروق بينهما، أن (إنّما) تصلح في كلامٍ لا تصلح فيه (ما وإلاّ)، والعكس صحيح، فإنّ نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران من الآية: ٦٢][١]، ونحو قولنا: ما أحد إلاّ وهو يقول ذلك، لا يصلح أن يقال فيه: (إنّما إله الله) أو (إنّما أحد يقول ذلك) ولو قلنا ذلك لما كان له معنى.

وذلك لأنّ(أحد)لا تقع إلاّ في النّفي ونحوه كالنّهي والاستفهام وأنّ (مِنْ) في قوله تعالى﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾كذلك لا تكون إلاّ في النّفي[٢].

ثمّ إنّه في موازنةٍ أخرى، أقامها عبد القاهر بين طريق (إنّما) وطريق (النّفي والاستثناء) بيَّن أنّ إنّما وضعت لكي تكون في كلامٍ لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحّته، أو ما يُنَزَّل هذه المنْزلة.

مثال الأوّل قول الْمُتَنَبِّي في مدح كافور:

إنّما أنت والد والأب القـــا طاع أحنى من واصل الأولاد[٣]

فلم يرد الْمُتَنَبِّي إعلام كافور أنّه والد، ولا ذاك مِمّا يحتاج فيه كافور إلى الإعلام، ولكنّه أراد أن يُذَكِّرَه بما يَنْبَنِي على كونه بِمنْزلة الوالد.

ومثله أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام من الآية: ٣٦]، فهذا الأمر ثابت ومعلوم لدى كلّ عاقلٍ أنّه لا تكون

---

(١) أوّلها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾.

(٢) دلائل الإعجاز ص: ٣٢٩، بتصرّفٍ وتوضيحٍ.

(٣) ديوان الْمُتنبِّي، بشرح ناصيف اليازجي، دار القلم بيروت، ص: ٤٩٩.

الاستجابة إلاّ مِمَّن يسمع ويعقل.

ومثال الثّاني: (أي: ما نُزِّل منْزلة المعلوم) قول عبد الله بن قيس الرّقيات يمدح مصعب بن الزّبير:

إِنَّما مصعب شهاب من الله   تجلّت عن وجهه الظّلمـــاء

حيث ادّعى أنّ كون الممدوح يتّصف بهذه الصّفة أمر ظاهر معلوم للجميع، وذلك أنّ عادة الشّعراء أن يدّعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين أنّها ثابتة لهم وأنّهم شهروا بها(١).

ثم جاء السّكاكي وتابع عبد القاهر فيما قال وزاد بقوله: «أمّا طريق إنّما، فيسلك مع مخاطب في مقامٍ، لا يُصِرُّ على خطئه، أو يجب عليه ألا يصر على خطئه فلا تقول: إنّما هو إله واحد، إلاّ ويجب على السّامع أن يتلقاه بالقبول»(٢).

أمّا القصر (بالنّفي والاستثناء) فقد بيَّن عبد القاهر أنّه وضع ليكون لأمرٍ ينكره المخاطب ويشكّ فيه، فإذا قلت: ما هو إلاّ كذا، قلته لِمَن يدفع ما قلت، وإذا رأيت شخصاً من بعيدٍ، فقلت: ما هو إلاّ زيد، لم تقله إلاّ والمخاطبُ، يتوهم أنّه ليس بزيدٍ، وأنّه إنسانٌ آخر، ويُجِدّ في إنكار أن يكون زيداً(٣).

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص: ٣٣٠-٣٣١، بتصرّفٍ.

(٢) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٥.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز ص: ٢٣٢، بتصرّفٍ.

أو يقال مثل هذا الكلام لِمَن يُنَزَّل هذه المنْزلة (منْزلة الْمُنْكِر لما تقول)، وذلك كما في الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، [فاطر: ٢٢-٢٣]. حيث إنّ النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، كان يحاول هداية النّاس بكلّ ما يستطيع متفانياً في ذلك كلّ التّفاني، كما قال الله تعالى عنه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، فكأنّه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بهذا التّفاني قد نسي أنّ مهمّته الإبلاغ وظنّ أنّ عليه إيجاد الهداية في القلوب، فجاءت هذه الآية: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، فجاء القصر بالنّفي والاستثناء ــ وهو الأسلوب اللائق بهذا المقام ــ ليعلم مِنْه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أن ليس عليه إيجاد الهداية في القلوب ومهمّته مقصورة على البلاغ(١).

وكما ذكر سابقاً أنّ من مَواقِع إنّما أن تكون في كلام لا يجهله المخاطب وإنّما يجاء به لتذكير المخاطب بما تَرَتَّب على ذلك من مسؤولية، ففي مثل هذا المقام لا يصلح أن تستخدم طريق النّفي والاستثناء.

فلا يصحّ في مقامٍ ترَقّق فيه شخصاً على أخيه، وتنبِّهه على الحقّ الذي يجب عليه تجاه أخيه أن تقول: ما هذا إلاّ أخوك، ولكن تقول في مثل هذا المقام: إنّما هو أخوك، وكذلك لا يصلح في: (إنّما أنت والد، (ما أنت إلاّ والد)(٢).

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص: ٣٣٤، بتصرّفٍ، وزيادةٍ للتّوضيح. وانظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٥.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص: ٣٣٢، بتصرّفٍ، وانظر مزيداً من التّحليلات لهذا الموضوع ص: ٣٣٣-٣٣٤.

=

هذا هو رأي عبد القاهر، وهو رأي صائب تابعه فيه البلاغيّون منذ عهده إلى اليوم[١].

ثانياً: أحسن ما تكون فيه إنّما:

ومن الخصائص التي تميَّزت بها (إنّما) عن بقية طرق القصر، أنّها

= هذا وقد تأثّر الدّكتور محمّد أبو موسى بكلام عبد القاهر، وعلّق على هذه المسألة قائلاً: «أمّا إنّما فهي كما قلنا أداة رقيقة هامسة، لا تزعج النّفوس ولا يرفض ما جاء في وعائها، ألا تراك حين تقول لصاحبك: لا تغضب من فلانٍ، فإنّما هو صديقك، ألا ترى أنّك تمتصّ برفق ثورة غضبه، وكأنّك تُربِّت على كتفه في لينٍ ومودةٍ...، وهل يمكن أن تستسيغ أن تقول: لا تغضب، فما هو إلاّ صديقك؟ ولا شكّ أنّ وراء النّفي والاستثناء قدراً من الانفعال والحدّة والابتلاء...، ثم يقول: نعم، يمكنك أن تأتي بالنّفي والاستثناء إذا تغيّر الموقف، وقلت: كيف تغضب من فلانٍ وأي شيءٍ يبرّر أن تفعل به كيت وكيت، وما عهدناكُما إلاّ صديقين...، وكأنّك هنا لا تربّت على كتفه، في رفقٍ ومودّةٍ، وإنّما تهزّه هزّاً». دلالات التّراكيب ص: ١٥٠.

وقد وَجَدْتُ مصداق ذلك في قول عائشة ــ رضي الله عنها ــ عند ما سألها أبو موسى الأشعري ــ رضي الله عنه ــ عن الغسل من المني، فقال لها: يا أمّ المؤمنين إنّي أريد أن أسألك عن شيءٍ وإنّي أستحييكِ، فقالت: لا تستحي فإنّما أنا أمك...، فسألها عما يريد...، الحديث في صحيح مسلم ٤١/٤.

وهذا يدلّ على بلاغة عائشة ــ رضي الله عنها ــ ومعرفتها بكلام العرب، حيث جاءت بإنّما لتَتَحَنَّن عليه، وتُزيل عنه الكلفة التي يشعر بها. والله أعلم.

(١) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩٥-٢٩٦، وانظر: الإيضاح للقزويني ٤٢/٢، وما بعدها، وغيرهما.

تستخدم للتّعريض، قال عبد القاهر: «اعلم أنّك إذا استقريت، وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفسَ معناه، ولكن التّعريض بأمرٍ هو مقتضاه، وذلك أنّا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرّعد: ١٩][(١)]، أن يعلم السّامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذم الكفّار وأن يقال: إنّهم من فَرْط العناد، ومن غلبة الهوى عليهم في حكم مَن ليس بذي عقلٍ، وأنّكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكّروا كنتم كَمَن طمع في ذلك من غير أولي الألباب»[(٢)].

وهذا عَبْد القاهر، يتحفنا بمعلومة وهي أن أحسن ما تستعمل فيه (إنّما) التّعريض.

هذا وقد تلقى العلماء، قول الجرجاني هذا بالقبول أيضاً، وساروا فيه على نهجه[(٣)].

---

(١) وأوّلها: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز ص: ٣٥٤.

هذا ويقول الدّكتور محمّد أبو موسى: «وليس لدينا وسيلة لتحديد أي الأساليب يكون للتّعريض وأيّها يكون لغيره، ومرجع ذلك إلى تأمّل النّصّ وتذوّق معناه والتّعرُّف على مرماه». دلالات التّراكيب ص: ١٦٤-١٦٥.

(٣) انظر: الإيضاح ٤٧/٢، والمطول للتّفتازاني ص: ٢٢٠، وشروح التّلخيص ٢٢٣/٢، وغيرها.

طريقان آخران للقصر

ذكرت (في بداية كلامي في القصر) طريقين للقصر غير الأربعة السّابقة، وذكرت أنّ من البلاغيّين مَن عدّهما من طريق القصر الاصطلاحية، وهما: (ضمير الفصل، وتعريف الطّرفين)، وقد آن الأوان للحديث عنهما، وفي رأي أنّه يحسن إلحاقهما بالطّرق الأربعة المذكورة، لا على سبيل الدّمج بينها جميعاً، ولكن على أن يكون هذا الإلحاق كإلحاق النّحاة بعض الجموع بجمع المذكر السّالم ونحوه، وذلك لأنّ دلالتهما على القصر مختصّ بالجملة الاسمية، وكذلك فإنّ تلك الدّلالة على القصر تُسْتوحى منهما، استيحاء لعدم وضوحها في بعض الأحيان.

أوّلاً: طريق تعريف الطّرفين[(١)]:

المقصود بتعريف الطّرفين، هو جعلهما معرفتين، كأن تقول: زيد المنطلق، فهذا التّعبير يفيد قصر الانطلاق على زيدٍ، ونفيه عن مَن سواه على سبيل العموم أو الخصوص بحسب المقام.

وسأعرض الآن آراء البلاغيّين حول هذا الموضوع على رأسهم الإمام عبد القاهر ـــ رحمه الله ـــ، فقد أورد الإمام عبد القاهر حديثاً في الفرق بين: (زيد منطلق) و(زيد المنطلق)[(٢)]، وبيَّن أنّ قولك: (زيد المنطلق) لا ينبغي أن

---

(١) هذا الطّريق القصري لم يدلّ على القصر بأداةٍ خاصّةٍ للقصر مثل: إنّما ونحوها، ولم يدلّ على القصر بتغيير في تركيب الجملة، كما في التّقديم.

(٢) نفى الدّكتور إبراهيم أنيس أن يكون هناك فرق بين زيدٌ المنطلق والمنطلق زيدٌ =

يقال إلاّ لِمَن عرف انطلاقاً كان إمّا من زيد، وإمّا من عمرٍ مثلاً، فأنت تُعلّمه أنّه كان من زيدٍ دون غيره.

ثم يدلّل على صحّة هذا القول، بأنّك لو قلت: (زيد منطلق) فنكّرت الخبر جاز لك أن تأتي بمبتدأ آخر، وتعطفه على المبتدأ الأوّل، وتشركه معه في المعنى، فتقول زيد منطلق وعمرو، على معنى وعمرو منطلق أيضاً، ولا يجوز أن تقول زيد المنطلق وعمرو.

يقول عبد القاهر: «لأنّ المعنى من التّعريف، أنّك أردت أن تثبت انطلاقاً مخصوصاً قد كان من واحدٍ، فإذا أثبتّه لزيدٍ لم يصحّ إثباته لعمرو»(١).

وهذه ملاحظة دقيقة من عبد القاهر ـــ رحمه الله ـــ حيثُ أدرك أنّ تعريف الخبر باللام يفيد قصره على المبتدأ، ولكنّه لم يقل هذا صريحاً في كلامه؛ لأنّ الملاحظات البلاغية في عهده لم تنضج تماماً، كما هي عليه الآن، أو لأنّ عبد القاهر كان يتَعَمَّد هذا الأسلوب المتميّز بأن يورد المسألة وأدلّتها ويترك الكلمة الأخيرة والحكم النهائيَّ للقارئ.

= الجملتين السّابقتين، وعزا الاختلاف بينهما إلى مجرّد المغايرة بين الأساليب.

انظر: من أسرار اللّغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطّبعة السّابعة، سنة: ١٩٨٥م، ص: ٣٢٣.

ولكن قول الدّكتور هذا غير مقبولٍ، فلا شَكَّ أنّ هناك سرّاً في التّغيير بين الجملتين نتج من التّقديم والتّأخير.

(١) انظر: دلائل الإعجاز ص: ١٧٧-١٧٨.

هذا وقد بيَّن عبد القاهر، في حديثٍ آخر، أنّه إذا عُرِّف الخبر بلام الجنس، فإنّ ذلك يفيد معاني منها القصر(١).

ثم إنّ عبد القاهر لم يتعرّض إلاّ لتعريف الخبر ولم يذكر عن المبتدأ شيئاً، من حيث التّعريف، والتّنكير، ولكن الذي يفهم من كلامه أنّه جعل الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة، وبهذا يكون كلام عبد القاهر هذا داخلاً تحت دلالة القصر بتعريف الطّرفين.

فإذا ما وصلنا إلى الزّمخشري، نجده قد أشار إشاراتٍ خفيفة إلى هذا الموضوع حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة من الآية: ٥]، وقال ومعنى التّعريف في قوله تعالى﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾الدّلالة على أنّ المتقّين هم النّاس الذين بلغك أنّهم يفلحون في الآخرة، كما إذا بلغك أنّ إنساناً قد تاب من أهل بلدك فاستَخبَرت مَن هو؟ فقيل: زيد التّائب(٢). وفيه إشارة إلى أنّ تعريف الخبر يفيد قصره على المبتدأ.

فإذا أتينا إلى السّكاكي، نجده قد بيّن أنّك إذا قلت: زيد المنطلق، أو المنطلق زيد لزم أن لا يكون غير زيدٍ منطلقاً، ولذلك يُنْهَى أن يقال: زيد المنطلق وعمرو (بالواو) ولا ينهى أن يقال: زيد المنطلق لا عمرو(٣).

ثم تحدّث عن هذا الموضوع في موضعٍ آخر فقال: «وقد سبق أن

---

(١) المصدر نفسه ص: ١٧٩-١٨٠.

(٢) انظر: الكشّاف للزّمخشري ١/١٤٧.

(٣) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢١٦.

قلنا:المنطلق زيد،وزيد المنطلق،كلاهما يقتضي انحصار الانطلاق في زيدٍ»[١].

وبهذا نعرف أنّ تعريف الخبر بلام الجنس سواء تقدّم أو تأخّر قد يفيد قصره على المبتدأ.

أمّـــا الخطيب القزويني فقـــد صرّح بأنّ تعريف المسند بلام الجنس قد يفيد قصره على المسند إليه[٢].

ثم يجيء التّفتازاني، ليوضّح ذلك بشكلٍ صريحٍ حيث قال: «فالحاصل أنّ المعرّف بلام الجنس إن جعل مبتدأ فهو مقصورٌ على الخبر سواء كان الخبر معرّفاً بلام الجنس أو غيره، نحو: (الكرم التّقوى) أي: غيرها... أو كان غير معرّف أصلاً نحو التّوكّل على الله... وبهذا يظهر أنّ التّعريف في (الحمد لله) يفيد قصر الحمد على الاتّصاف بكونه لله... وإن جُعل خبراً فهو مقصور على المبتدأ، نحو: زيد الأمير»[٣].

---

(١) انظر: مفتاح العلوم للسّكاكي ص: ٢٩١.

هذا وقد ردَّ السّبكي بأنّ (زيد المنطلق) لا يفيد القصر وليس موضوعاً له بخلاف المنطلق زيد، كما تقرّر في الأصل، وأنّ زيد المنطلق يحتاجُ إلى قرينةٍ للدّلالة على القصر.

انظر: عروس الأفراح للسّبكي ضمن شروح التّلخيص ٩٨/٢.

ولكن في نظري أنّ هذين التّعبيرين يفيدان القصر لتعريف (المنطلق بلام الجنس) سواء تأخّر أو تقدّم. والله أعلم.

(٢) انظر: الإيضاح للخطيب القزويني ٢٠٠/١.

(٣) انظر: المطول ص: ١٧٨-١٧٩.

هذا ومن جملة الملاحظات السّابقة للبلاغيّين نخرج بنتيجةٍ: وهي أنّ عبد القاهر الجرجاني والسّكاكي، والخطيب وغيرهم لم يسمّوا هذا القصر باسم تعريف الطّرفين أو تعريف الجزئين، ولعلّ أوّل مَن أطلق عليه هذا الاسم ــ حسب علمي ــ هو ابن يعقوب المغربي في شرحه للتّلخيص(١).

أمّا أكثر البلاغيّين فسمّوه تعريف المسند باللام ــ أو بلام الجنس، وبعضهم جعل التّعريف المفيد للقصر هو ما كان بلام الجنس. كما سبق(٢).

لذا فإنّ القصر ليس بتعريف الجزئين، بل بتعريف الخبر؛ لأنّ الأصل في المبتدأ أن يكون معرّفة، أمّا الخبر فالأصل فيه التّنكير، لذلك إذا عُرِّف كان لأغراض منها القصر وليس كلّ تعريفٍ يفيد القصر بل التّعريف باللام، وأغلب البلاغيّين على أنّ (أل) الجنسية هي التي تفيد القصر كما سبق من ملاحظات البلاغيّين(٣).

---

(١) انظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التّلخيص ١٨٦/٢.

(٢) هذا وإنّ هناك من البّاحثين، مَن يرى أنّ تعريف الطّرفين بأي صورةٍ من صور التّعريف، سواء بالإضمار أو العلمية أو الموصولية... الخ كلّها تفيد القصر، وسواء تقدّم الخبر أو تأخّر.

انظر: أساليب الاختصاص والاستغراق في اللّسان العربي، رسالة ماجستير بجامعة أمّ القرى، إعداد: الطّالبة: سميرة مسلم الجهني، إشراف الدّكتور السّيّد رزق الطّويل، عام: ١٤٠٦هـ/١٤٠٧هـ، ص: ٦٥ وما بعدها.

ولكن هذا الرّأي ضعيف جدّاً، ولا يفيد القصر من ذلك إلاّ التّعريف بلام الجنس. والله أعلم.

(٣) انظر: الإيضاح للقزويني ١٩٩/١.

ولهذا يظهر أنّ هذا الطّريق ضعيف الدّلالة على القصر؛ إذ ليس في كلّ الأحيان يدلّ على القصر، وإذا دلّ على القصر لا يدرك إلاّ بتأمّلٍ دقيقٍ ونظرٍ ثاقبٍ. والله أعلم.

ثانياً: القصر بضمير الفصل(١):

وهذا طريق من طرق القصر التي أشار إليها كثير من البلاغيّين، لكنّهم لم يعدُّوه من الطّرق الاصطلاحية، ومثال هذا الطّريق قولك: (زيد هو المنطلق) عندما تريد قصر الانطلاق على زيدٍ، على سبيل القصر الحقيقي، أو الإضافي، بحسب حال المخاطب.

وعلماء البلاغة المتقدّمون لم يشيروا إليه، كعبد القاهر مثلاً، ولم أجد له إشارة تدلّ على أنّ ضمير الفصل يفيد القصر.

أمّا الزّمخشري فقد تحدّث عنه، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة من الآية: ٥]، حيث قال: «هم فصل، وفائدته

---

(١) والفصل هو: الضّمير الواقع بين المبتدأ والخبر، أو ما كان أصلهما كذلك ويسمّيه البصريّون فضلة.

انظر: عروس الأفراح لابن السّبكي ضمن شروح التّلخيص ٣٨٦/٢.

وقيل: إنّه سُمِّيَ فصلاً؛ لأنّه يفصل بين الخبر والتّابع للمبتدأ، أي: ليعلم أنّ الذي بعده خبر لا تابع.

وقيل: إنّ الكوفيّين يسمّونه عماداً؛ لأنّه يعتمد عليه معنى الكلام.

انظر: همع الهوامع للسّيوطي، تحقيق: عبد السّلام هارون، وعبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، سنة: ١٣٩٤هـ، ٢٣٦/١.

الدّلالة على أنّ الوارد بعده خبر لا صفة، والتّوكيد، وإيجاب أن إفادة المسند ثابتة للمسند إليه، دون غيره»[(١)].

وفي هذا إشارة إلى أنّ ضمير الفصل بين المتبدأ والخبر يفيد قصر الخبر على المبتدأ.

أمّا السّكاكي فقد صرّح بإفادة الفصل للقصر، فقال: «عند ذكره لفصل المسند إليه عن المسند».

وأمّا الحالة التي تقتضي الفصل إذا كان المراد تخصيصه بالمسند إليه كقولك:(زيدٌ هو المنطلق)[(٢)]، وقد ذكر هذا الكلام نفسه الخطيب فيما بعد[(٣)].

ثم جاء صاحب المطول فبيّن أنّ ورود ضميرالفصل يكون لقصر المسند على المسند إليه، وحصره فيه؛ لأنّ معنى قولنا: زيد هو القائم، أنّ القيام مقصور على زيدٍ لا يتجاوزه إلى عمرو، ولهذا يقال في تأكيده: لا عمرو[(٤)]، أي: أنّه يفيد قصر المسند على المسند إليه.

وقد نفى التّفتازاني أن يكون ضمير الفصل لقصر المسند إليه على المسند، وَوَصَفَ مَن يقول بذلك بأنّه عديم التّدرّب على هذا الفن[(٥)].

هذا وقد بيّن التّفتازاني في مطوله، بعض المعلومات المفيدة حول ضمير

---

(١) انظر: الكشّاف للزّمخشري ١/١٤٦.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ص: ١٩١.

(٣) انظر: الإيضاح ١/١١٤.

(٤) انظر: المطول ص: ١٠٤.

(٥) انظر: المطول ص: ١٠٤.

الفصل منها: أنّه ليس دائماً يفيد القصر، وإنّما قد يكون لمجرّد التّأكيد، إذا كان التّخصيص حاصلاً بدونه بأن يكون في الكلام ما يفيد قصر المسند على المسند إليه، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾[الذّاريّات من الآية: ٥٨]، أي: لا زراق إلاّ هو، أو قصر المسند إليه على المسند نحو الكرم هو التّقوى، أو الحسب هو المال، أي: لا كرم إلاّ التّقوى، ولا حسب إلاّ المال[١].

هذا وجاء السّبكي فيما بعد وذكر بعض المواضع في القرآن التي أتى فيها ضمير الفصل مفيداً للقصر ومنها قوله تعالى حكاية عن عيسى ــ عليه السّلام ــ: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾[المائدة من الآية: ١١٧]، وقال: «لأنّه لو لم يكن للحصر لما حَسُن؛ لأنّ الله لم يزل رقيباً عليهم، وإنّما الذي حصل بتوفّيه أنّه لم يعد لهم رقيب غير الله»[٢].

ويضيف السّبكي مبيّناً أنّ المخصّص في ضمير الفصل هو الأوّل دائماً، والمخَصّص به هو الأخير، لكن القول بأنّ الصّفة هي المبتدأ تقدّمت، أو تأخّرت خلاف قول الجمهور، والرّاجح أنّ السّابق من المعرفتين مبتدأ، واللاحق خبر[٣].

كيفية دلالة هذا الطّريق على القصر:

هذا وقد أشار الدّكتور أبو موسى إلى الكيفيّة التي يدلّ بها هذا الطّريق اللّطيف على القصر فقال: (فالقصر الْمُفاد من قولك: محمّدٌ هو

---

(١) انظر: المطول ص: ١٠٦.

(٢) انظر: عروس الأفراح للسّبكي، ضمن شروح التّلخيص ١/ ٣٨٧.

(٣) انظر: المصدر السّابق ١/ ٣٨٨.

الشّاعر)، لم تدلّ عليه كلمة، وإنّما تَولّد بطريقةٍ خفيةٍ، ولطيفةٍ؛ لأنّك لما قلت: (هو) بعد قولك: (محمّد) أفدت أنّك تقصد إلى تمييزه وتخصيصه، قبل أن تخبر عنه، وهو لا يكون إلاّ إذا كنت حريصاً على ألا يشاركه غيره في هذا الخبر، وهذا هو معنى القصر(١).

وفي ختام هذا الحديث أقول: إنّ طريق (ضمير الفصل) يفيد قصر الخبر على المبتدأ ولكن ليس في كلّ الأحيان، بل إذا كان قَصْد المتكلّم منه ذلك وكان المقام يقتضيه، كما هو شأن التّعريف بلام الجنس، وبهذا تكون دلالة هذين الطّريقين، على القصر ليست قويّة بقوّة الطّرق الأربعة المتقدّمة. والله أعلم.

القصر من أساليب الإيجاز والتّوكيد:

وفي الختام أتعرّض لبعض أغراض القصر عموماً ــ كأسلوبٍ من أساليب علم المعاني ــ فمن أهمّ أغراض القصر الإيجاز؛ لأنّ الجملة القصرية في قوّة جملتين؛ إحداهما مثبتة، والأخرى منفية، فإذا قلنا مثلاً: (لا قبلة لنا إلاّ الكعبة) فنحن قد أثبتنا المقصور وهو استقبالنا القبلة في العبادة، للمقصور عليه (وهو الكعبة المشرّفة). وفي الوقت نفسه أعطانا هذا التّعبير نفيًا للاعتراف، بأي قبلةٍ أخرى للمسلمين غير الكعبة. فجملة القصر تغنِي عن جملتين. فقولنا: لا قبلة لنا إلاّ الكعبة، قامت مقام جملتين الأولى مثبتة وهي الكعبة قبلتنا، والثّانية: منفية وهي: ليس لنا قبلة غيرها. فهذا من

---

(١) انظر: دلالات التّراكيب، د. محمّد أبو موسى ص: ٨٥، بتصرّفٍ.

إيجاز القِصَر، وهكذا في بقية الطّرق الأخرى.

وأمّا كون القصر من أساليب التّوكيد، فمرد ذلك إلى إثبات المقصور للمقصور عليه وعدم تجاوزه إلى ما سواه، عامّاً في القصر الحقيقي وخاصّاً في القصر الإضافي كما سبق بيان ذلك[1]. والله أعلم.

(١) انظر: بحوث المطابقة لمقتضى الحال، د. عليّ البدري حسين، مطبعة السّعادة، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ، ص: ٨-٩.

الفصل الثّاني: أسرار القصر بـ: (إنّما) في أحاديث الصّحيحين

وفيه مبحثان:

المبحث الأوّل: أسرار القصر الحقيقي.

المبحث الثّاني: أسرار القصر الإضافي.

المبحث الأوّل: أسرار القصر الحقيقي

وفيه مطلبان:

المطلب الأوّل: شواهد القصر الحقيقي التّحقيقي للصّفة والموصوف.

المطلب الثّاني: شواهد القصر الحقيقي مبالغة.

المطلب الأوّل: شواهد القصر الحقيقي التّحقيقي للصّفة والموصوف

قصر حصول الأعمال على الاقتران بالنّيّات:

سأتّبع سَنَن الأئمة الأعلام من قبل، وعلى رأسهم الإمام البخاري ــ رحمه الله تعالى ــ، حيث ابتدأ كتابه الصّحيح بهذا الحديث مستشعراً إخلاص العمل لله تعالى، ومذكّراً نفسه وكلّ قارئٍ لكتابه باستحضار النّيّة الصّالحة الخالصة عند كلّ عملٍ توخّيّاً لحصول الأجر والثّواب من الله تعالى، فلنبدأ بهذا الحديث العظيم، الذي هو أصل من أصول الدّين:

يقول النّبيُّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّما الأعمال بالنّيّات، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى، فَمَن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله، فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرتُه لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١).

هذا حديثٌ شريفٌ، وهو أحد الأحاديث التي عليها مَدَارُ الإسلام وقد رُوِي عن الشّافعي ــ رحمه الله ــ أنّه قال: «يدخل هذا الحديث في

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٥٧٢/١١، ومسلم انظر: صحيح مسلم بشر النّووي، المطبعة المصرية بالأزهر، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٤٩هـ، ٥٣/١٣.

ونلاحظ هُنا، أنّه قد جاء القصر هنا ابتداءً في أوّل الكلام وهذا الحديث وأمثاله مِمَّا تَرُدّ على مَن زعم أنّ (إنّما) لا تكون ابتداء في أوّل الكلام وإنّما تكون ردّاً على قولٍ، وظاهر الحديث هنا ينفي ما زعموا. انظر قول مَن قال ذلك في كتاب الصّاحبي لابن فارس ص: ١٨٢.

سبعين باباً من الفقه»[١].

والنّيّة تَدْخل في المباحات وتحوّلها إلى عبادات، بل وحتى في الضَّروريّات، كالأكل والشّرب إذا نوى صاحبها بها طاعة الله والتَّقَوِّي على عبادته، فإنّها له حسنات[٢].

والأغرب من ذلك أنّها تُحَوِّل حتى الشّهوات، والملذّات إلى عبادات كما قال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له بها أجر؟ قال: «أريتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه وزر؟، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[٣].

ولن أطيل في الحديث عن النّيّة وأهمّيّتها، وخطر التّهاون في أمرها؛ لأنّ الحديث في ذلك ذو شجون، وسوف أجنح إلى تلمّس أهداب البلاغة في هذا الحديث خصوصاً فيما يخصُّ القصر.

ففي صدر الحديث نرى جملتين قصريَّتين:

---

(١) انظر: شرح الأربعين حديثاً النّووية، لابن دقيق العيد، طبعة السّيّد حسن عباس شربتلي ص: ١٠، وقد لَمَسْت مصداق هذه المقالة وأنا أجمع شواهد القصر حيث وجدت شواهد قصرية حول إخلاص العبادة لله في أبواب كثيرة من أبواب الفقه، كمثل باب الصّلاة والزّكاة والحجّ وغير ذلك من الأعمال التّعبُّديّة وسوف أشير إلى ذلك عند دراستي لتلك الشّواهد بإذن الله.

(٢) انظر: الفتح ١/١٤.

(٣) رواه مسلم ٧.

إحداهما: «إنّما الأعمال بالنّيّات».

والأخرى: «وإنّما لكلّ امرئ ما نوى».

وقد وردت روايات مختلفة لهاتين الجملتين منها:

قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «العمل بالنّيّة، وإنّما لامرئ ما نوى».

ومنها: «الأعمال بالنّيّة، ولامرئ ما نوى»(١).

وعند هاتين الجملتين القصريّتين توقّف العديد من العُلماء، ليشرحوا ويبيّنوا ما فيهما من دَلاَلاَت، واختلفت آراؤهم عند بعض النّقاط، وسأذكر جانباً من تلك الآراء.

إنّ تركيب (إنّما الأعمال بالنّيّات) مفيد للقصر عند المحقّقين، ولكن اختلفوا في الطّريق المفيد للقصر، هل هو تعريف الجمع بلام الاستغراق؟ أم بإنّما؟

فبعضهم يرى أنّ القصر استفيد من تعريف المبتدأ باللام، وصار المعنى: لا عمل إلاّ بنيّةٍ، وأمّا إنّما فهي لمجرّد تأكيد المعنى فحسب.

ويرى البعض أنّ القصر قد جاء من إنّما(٢).

---

(١) كلتا الرّوايتين في البخاري، الأولى ١١٥/٩، والثّانية ص: ١٦٠، وكلّ هذه الرّوايات مفيدة للقصر. انظر: شرح الكرماني ٢١٢/١.

وهذا وإنّ هناك مَن أنكر أن تكون (إنّما) هنا مفيدة للقصر، وكأنّهم يرون أنّ ورودها في هذا الحديث لمجرّد التّأكيد فقط، ويرى بعضهم أنّها تحتاج في دلالتها على القصر إلى قرينةٍ. ولكن مثل هذه الأقوال ليست قويّةً خصوصاً بالنّسبة لهذا الحديث.انظر:آراء النّافين لدلالة(إنّما)على القصر في فتح الباري١/١٢-١٣.

(٢) انظر: شرح الكرماني على صحيح البخاري ١٧/١.

وهذا وإنّي أرى أنّ اختلاف العلماء حول الطّريق الذي استفيد منه القصر في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّما الأعمال بالنّيّات» لا داعي له، فكلا الطّريقين أفاد القصر (إنّما، وتعريف المسند إليه باللام)، ولا تعارض بين هذين الطّريقين في الدّلالة على القصر؛ إذ إنّ المقصور عليه، هو المؤخّر في كلتا الحالتين، وكذلك في الرّواية التي فيها: (العمل بالنّيّة) أو (الأعمال بالنّيّة) فإنّ القصر قد جاء فيها بتعريف المسند إليه باللام، وبهذا يكون القصر ملازماً لهذه العبارة على اختلاف رواياها، ولا شكّ أنّ له شأناً في ملازمتها، ملازمة دائمة وله أهمّيّة لا تقلّ عن أهمّيّة النّيّة ذاها.

هذا وقد اختلف العلماء أيضاً في نوع المقصور (أصفة هو أم موصوف؟) فقيل: إنّ المقصور هو كمال الأعمال، أو صحّتها، أو قبولها، والمقصور عليه كونها بالنّيّة؛ لأن الذّوات لا تُنْفى وإنّما تُنْفى صفاها، فيكون المعنى: لا صحّة للعمل إلاّ بنيّةٍ. أو لا قبول للأعمال إلاّ بنيّةٍ، أو نحو هذين المعنيين؛ لأنّ الأعمال لا تصحّ إلاّ بنيّةٍ، ولا تصحّ إذا كانت بغيرها[١].

وقالوا: إنّ الحَمْل على نفي الصّحّة أولى؛ لأنّه أشبه بنفي الشّيء نفسه، ولأنّ اللّفظ يَدُلّ بالتّصريح على نفي الذّات، فكأنّ نفي الصّحّة هو نفي لجميع الصّفات، وهذا هو الرّاجح كما يرى الكرماني[٢].

---

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٣٤٩هـ، ٣/٥٤.

(٢) انظر: شرح الكرماني على صحيح البخاري ١/١٨.

أي: أنّه لا صحّة للعمل بكونه عظيماً، أو بكونه صالح الظّاهر، أو بكونه في باب معيَّنٍ من أبواب الخير، أو نحو ذلك. وإنّما صحّته بالنِّيَّة، وكأنَّهم يَقْصدُون بالنّيّة هنا النّيّة الطّيّبة الحسنة الخالصة لله تعالى، وعلى هذا التّفسير يكون القصر في هذه العبارة للصّفة (التي هي صحّة العَمَل) على الموصوف، وهو كونه بالنّيّة الخالصة ويكون من القصر الحقيقي لعموم النّفي فيه، ويكون من التّحقيقي لتحقيق ذلك فعلاً وليس الأمر فيه مبالغة في شأن النّيّة.

وهذا التّفسير ـــ في نظري ليس دقيقاً ـــ؛ لأنّهم قد قَصَروا النّيّة هنا على النّيّة الصّالحة فقط، دون النّيّة السّيِّئة، الحديث لم يحدّد النّيّة بوصفٍ معيَّنٍ.

وهناك تفسير آخر وهو أنّ المعنى: لا عمل إلاّ بالنّيّة، أيّاً كان نوع النّيّة طيّبة أو خبيثة، أي: أنّه لا عمل بغير نيّة، وكأنّها من قصر الموصوف على الصّفة[١].

ولكنِّي أرى أنّ هذا التّفسير الأخير، هو الأقرب إلى الصّحّة، بل إنّ التّفسير الصّحيح هو أنّ المراد (والله أعلم): لا تكون الأعمال إلاّ بالنّيّات[٢]. وأنّه من قصر الصّفة على الموصوف، قصراً حقيقيّاً، تحقيقيّاً؛ لأنّه في الحقيقة لا يكون عمل بغير نيّة. فالإنسان لا يقدّم أيّ عملٍ إلاّ إذا كانت هناك نيّة قد أضمرها في نفسه من قبل، وكأنّ المراد كلّ عملٍ

---

(١) انظر: إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري، لشهاب الدّين أحمد بن محمّد العسقلاني،المطبعة الأميرية ببولاق مصر،الطّبعةالسّابعة،سنة:١٣٢٣هـ ١/٥٣.

(٢) لقد رجّحت ذلك؛ لأنّ الجار والمجرور في قوله: (بالنّيّات) لا بُدّ له من متعلّق هو المقصور، وهو صفة، وهذا التّعبير ليس مثل: ما زيد إلاّ قائم.

تكون وراءه نيّة تدفع صاحبه لفعله. وهذا أمر صحيح. أمّا المخطئ والنّاسي فلو فعلا فعلاً فإنّه لا يُسَمَّى في حقيقته عملاً؛ لأنّه لا نيّة له.

هذا ويرى بعض الباحثين أنّ إنّما قد وقعت هنا للتّعريض بالمرائين المخادعين وبيّنت حبوط أعمالهم، وأنّهم إن خدعوا المخلوقين فلن يخدعوا الخالق سبحانه[١]، وليس هذا القول ببعيدٍ من الصّواب ــ في نظري ــ؛ لأنّك قد تخاطبُ الشّخص المرائي وتقول له: «إنّما الأعمال بالنّيّات» مُعَرِّضاً به كي تُنَبِّهَهُ إلى مغبة ما يعمله، وتحذّره منه، بالإضافة إلى أنّ فيه تعريضاً بمهاجر أم قيس[٢]، في عهد النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ حيث لم يذكره بشخصه، وإنّما ذكر هذا الحديث وفيه إشارة إليه.

هذا هو معنى الجملة الأولى: (إنّما الأعمال بالنّيّات).

أمّا الجملة الثّانية: (وإنّما لكلّ امرئ ما نوى)، فيقول عنها الكرماني: «هذا قصر للمسند على المسند إليه، إذ المراد: إنّما لعمل كلّ امرئ ما نوى، إذ القصر بإنّما لا يكون إلاّ في الجزء الآخر.. وإذا قلنا: تقديم الخبر على المبتدأ يفيد القصر ففي إنّما لكلّ امرئ ما نوى نوعان[٣] من الحصر»[٤]. وقال

---

(١) انظر الحديث النّبوي من الوجهة البلاغية، د. عزّ الدّين السّيّد، دار الطّباعة المحمّدية بالقاهرة، سنة: ١٣٩٢هـ، ص: ١٣٠.

(٢) مهاجر أم قيس: رجل هاجر إلى المدينة ليس يقصد الهجر لله، وإنّما ليتزوّج من امرأة تُسَمَّى (أم قيس) فَسُمِّي مهاجر أم قيس؛ لأنّها أَبَتْ أن تَتَزَوَّجه حتى يهاجر معها. انظر: فتح الباري ١/١٠.

(٣) يقصد طريقين من طرق القصر.

(٤) انظر: شرح الكرماني على صحيح البخاري ١/١٩.

القسطلاني نحواً من هذا القول أيضاً[١].

وإذا ما تأمّلنا كلام الكرماني، والقسطلاني ومَن سار على طريقهما[٢]، نجد أنّ فيه تناقضاً لتعارضه مع المقاييس البلاغية.

وذلك لأنّ القصر في هذه العبارة قد جاء من (إنّما) وحدها والمقصور عليه هو المؤخّر والمعنى هو: (ليس لكلّ امرئ إلاّ ما نوى) أمّا التّقديم في هذه العبارة فلا دلالة له على الحصر، وذلك بسبب أنّ المقصور عليه مع التّقديم هو الْمُقدَّم، ولو قدَّرنا دلالة التّقديم على القصر لتناقضتِ العبارة في نفسها، فالمعنى ـــ على تقدير أنّ القصر من التّقديم ـــ: (ليس الذي ينوي كلّ امرئ إلاّ له)، وليس هذا هو المعنى المراد، وإنّما أريد المعنى الأوّل: (ليس لكل امرئ إلاّ ما نوى)[٣].

والتّقديم هنا قد جيء به كأداةٍ لتحقيق معنى القصر بإنّما حيث إنّ المقصور عليه مع إنّما هو المؤّخر، ولما كان المقصور عليه هو المبتدأ، أُخِّر لذلك[٤].

---

(١) انظر: شرح القسطلاني على صحيح البخاير ١/٥٤.

(٢) من أمثال العيني في عمدة القارئ، دار الفكر بيروت، ١/٢٦.

(٣) وذلك لأنّه لا يوجد أحد يظنّ أنّ الله سَيظْلمه ـــ تعالى الله عن الظّلم ـــ فيجعلَ ما ينويه الإنسان لغيره حتى يقال له: ليس الذي ينوي كلّ امرئ إلاّ له، أي: لا لغيره، وإنّما الإنسان بطبيعته طمَّاع، فيظنّ أنّه سيحصل له شيء لم يكن نواه، فكأنّ المعنى: ليس لكلّ امرئ إلاّ ما نوى، أي: ليس له غيره. وهذا هو المعنى المتّفق مع السّياق. والله أعلم.

(٤) بل هو هنا واجبَ التّأخّر؛ لأنّه محصور فيه. انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن =

وبعد الانتهاء من هذه المسالة نعود إلى مسألةٍ أخرى وهي المقارنة بين الجملتين القصريّتين في هذا الحديث.

يذهب كثير من العلماء إلى أنّ قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّما الأعمال بالنّيّات)) تفيد معنىً، غير المعنى في قوله: ((وإنّما لكلّ امرئ ما نوى))[(١)]، فبعضهم يرى أنّ الأولى نبّهت على أنّ العمل يتبع النّيّة ويصاحبها فيترتّب الحكم على ذلك، والثّانية أفادت أنّ العامل لا يحصل له إلاّ ما نواه[(٢)]، ولن يحصل له غيره.

وبرغم من أنّ الجملة الثّانية مؤكّدة لسياق المعنى في الجملة الأولى إلاّ أنّني أرى هُناك فرقاً بينهما، إذ ليس الثّانية كالتّوكيد اللّفظي للأولى؛ لأنّه في الجملة الأولى ارتبط العمل بالنّيّة، أمّا في الجملة الثّانية فقد ارتبطت نتيجة العمل بالنّيّة، وعلى هذا فإنّني أرى أنّ المعنى واضح، ما دُمتُ قد قدَّرتُ أنّ المعنى في الأولى: لا تكون الأعمال إلاّ بالنّيّة سواءً كانت أعمال خيرٍ أو شرٍّ.

= مالك ٢٤٣/١.

(١) ومِمَن ذهب إلى هذا الرّأي، العيني في كتابه: عمدة القارئ ٢٦/١، ويذهب بعضهم إلى أنّ الجملة الثّانية مؤكّدة لمعنى الأولى، تنبيهاً على شرف الإخلاص وتحذيراً من الرّياء المانع مع الإخلاص. انظر أقوال أولئك في: عمدة القارئ للعيني ٢٧/١.

وانظر:الحديث النّبوي من الوجهة البلاغية،د.عزّ الدّين السّيّد ص:١٣١-١٣٢.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٤/١.

ولعلّ هذا هو ما ذهب إليه الجمهور، من أنّ الحديث على ظاهره، فلم يُرِد بقوله: (بالنّيّات) النّيّات الصّالحة وحدها، بل أراد النِّيَّة المحمودة والمذمومة، والعمل المحمود والمذموم، ولهذا قال في تمام الحديث: «فَمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينحكها فهجرته إلى ما هاجر إليه». فذكر النّيّة المحمودة بالهجرة، وذكر النّيّة المذمومة بالهجرة إلى المرأة والمال(١).

وبهذا تكون الجملة الثّانية مُبَيِّنةً ومؤكّدةً لجزءٍ من معنى الجملة الأولى. والقصر فيها حقيقي تحقيقي، لعموم النّفي فيه، والتّحقيق الأكيد.

هذا ولن أتجاوز بالحديث هاتين الجملتين القصريّتين اللتين هما موضوع هذا البحث، ولكنّي أقول إنّه من الملاحظ أنّ موقع هاتين الجملتين القصريّتين في صدر الحديث، جعل كأنّ المعاني في هذا الحديث قد جُمِعَت فيهما، ثم شرحت في بقية الحديث.

هذا وقد سارت هاتان الجملتان مَسيرَ الأمثال، قال ابن تيمية(٢) ــ رحمه الله تعالى: «إنّ هذا الحديث من جوامع الكلم التي خصّ الله سبحانه بها نبيّه محمّداً-صلّى الله عليه وسلّم-بل هو من أجمع جوامع الكلم»(٣).

---

(١) انظر: شرح حديث (إنّما الأعمال بالنّيّات)، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص: ٩.

(٢) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السّلام الحرّاني شيخ الإسلام ولد بحران سنة: ٦٦١هـ، وتوفي عام: ٧٢٨هـ.

انظر: الأعلام ١/١٤٠، وفوات الوفيات ١/٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر: شرح حديث إنّما الأعمال بالنّيّات لابن تيمية ص: ١٠.

قصر حصول الأعمال على الاقتران بالخواتيم:

يقول النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّ العبد ليعمل بعملٍ أهل الجنّة فيما يرى للنّاس، وإنّه لمن أهل النّار، ويعمل فيما يرى للنّاس عمل أهل النّار وهو من أهل الجنّة، إنّما الأعمال بخواتيمها»(١).

وفي روايةٍ: «إنّما الأعمال بالخواتيم»(٢).

في هذا الحديث من المعاني العظيمة الشّيء الكثير، وهو أنّه جاء في أعقاب حادثة الذي خرج يوم خيبر، وأبلى في المعركة بلاءً حسناً، ثم جرح بجرحٍ عميقٍ فاستعجل الموت وركز سيفه وتحامل عليه فمات، فقال النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هذا الحديث في أعقاب هذه القصّة(٣).

وهذا الحديث لا يتناقض مع سابقه: «إنّما الأعمال بالنّيّات» فذلك قصرٌ لكون الأعمال على وجود النّيّة، وهذا حصرٌ لكون الأعمال على وجود الخواتيم، كما يظهر من معنى الحديث، أي: أنّه لا تقوم الأعمال إلاّ بحسب خاتمتها، فهو قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، حقيقيٌّ لعموم النّفي فيه، (أي: نفي المقصور وهو الأعمال على المقصور عليه، وهو الاقتران بالخواتيم).

وهو تحقيقيٌّ لأنّه ليس للمبالغة في تعظيم أمر الختام، بل الحقيقة أنّ الختام أمرٌ يقوم عليه الثّواب والعقاب، وهذا الحديث مبنيٌّ على الحديث

---

(١) رواية البخاري. انظر: الفتح ١١/٣٣٠.

(٢) رواه البخاري ١١/٤٩٩.

(٣) تلك القصّة وردت في أوّل هذا الحديث.

السّابق؛ لأنّه إذا صحّت النّيّة تماماً صحَّ العمل وصحّ ختامه بإذن الله؛ لأنّ النّيّة هي الأساس لكلّ عملٍ، وقد ذكر في الحديث: «إنّ عمله ذلك هو فيما يبدو للنّاس»، وذلك عمل المنافقين، لهذا يكون ختامه غير مرضٍ والعياذ بالله.

هذا وقد يفسّر هذا القصر على أنّه قصر إضافيٌّ، إذا قدّرنا أنّ الأعمال بخواتيمها لا بما قبل الخواتيم، فيكون بذلك قصر قلب؛ لأنّ المخاطبين بذلك (وهم الصّحابة ــ رضي الله عنهم ــ) كانوا يظنّون أنّ أهمّيّة الختام ليست إلى هذه الدّرجة، أي: أنّهم كانوا يظُنّون ــ فيما يبدو لي ــ أنّ الأعمال الصّالحة طول عمر الإنسان قد تكون شافعة له عند ربّه، بِغَضِّ النّظر عن نهاياتها وخواتيمها، لذلك جاء هذا القصر ليقلب (في أذهانهم وأذهان كلّ مَن يظنّ ذلك) المعنى إلى أنّ العمل بختامه وليس بما قبل الختام، ومن هنا يشتدّ خوفُ السّلف ــ رضي الله عنهم ــ من سوء الخواتيم، ومنهم مَن كان يقْلَقُ من ذكرِ السّوابق، وقد قيل إنّ قلوب الأبرار معلّقةٌ بالخواتيم يقولون: ماذا يختم لنا، وقلوب المقرّبين معلّقة بالسّوابق يقولون: ماذا سبق لنا(١).

هذا وإنّ قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «الأعمال بخواتيمها» مثل من الأمثال المشهورة التي تحمل الحكمة، وصِدْق العبارة(٢) على مرّ الأزمان.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، مكتبة طيبة، المدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى سنة: ١٤٠٨هــ، ص: ٥٦.

(٢) انظر: المثل السّائر لابن الأثير تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر ٤/١٤٥.

قصر المرأة التي زارت النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في معتكفِه على صفيّة:

جاءت صفيّة[١] زوج النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إلى رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ تَزَوره في اعتكافه في المسجد، في العشر الأواخر من رمضان فتحدَّثَتْ عنده ساعة، ثم قامت تَنْقلب فقام النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ معها يَقْلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد مَرَّ رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، فقال لهما النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «على رسلكما، إنّما هي صفيّة بنت حيّي»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكَبُر عليهما، فقال النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّ الشّيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدّم، وإنّي خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً»[٢].

عندما مرّ هاذان الصّحابيّان ــ رضي الله عنهما ــ بالنَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لم ينسب لهما ظنّ السّوء، لِمَا تَقرَّر عنده من صدق إيمانهما، ولكنّه خشي أن يوسوس لهما الشّيطان باتّهامه بذلك؛ لأنّهما غير معصومَيْن فيتعرضان للهلاك[٣].

---

(١) هي: صفية بيت حيّي بن أخطب، قُتِلَ زوجها يوم خَيْبَر، وسُبِيَت هي، وتزوجها النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وجعل عِتْقَها صداقها، كانت شريفةً، عاقلةً ذات دين، وجمال ــ رضي الله عنها ــ توفيت سنة ٣٦هـ، وقد روَت كثيراً من الأحاديث. انظر: سير أعلام النّبلاء ٢/٢٣١.

(٢) رواه البخاري ٤/٢٧٨.

(٣) انظر: فتح الباري ٤/٢٨٠.

عند ذلك خاطبهما النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بهذا الأسلوب القصريّ، قصر الصّفة على الموصوف، وأقول الصّفة في هذا المقام؛ لأنّ قوله: ((هي)) تعني (التي ترون معي) فكلمة ((هي)) ليس المراد بها كلمة صفيّة، وإنّما أريد بها كلمة تحمل معنى العموم تشمل صفيّة وغيرها، قصرت على صفيّة، فكأنّه قال: ليست التي ترون معي إلاّ صفيّة، وقد جاء القصر هنا لرفع الشّكّ، وإثبات اليقين بأجلى صورة. فلم يقل النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ إنّما هي زوجتي مثلاً، فيترك مجالاً للتّساؤل أيضاً، فيقال: ومَن تكون من زوجاته؟ وهذه من بلاغته-صلّى الله عليه وسلّم-.

وهذا القصر هو من الحقيقيّ التّحقيقيّ، لعموم النّفي فيه فليست هذه التي معه، بفلانة أو فلانة على العموم غير صفيّة.

وفي هذا الأسلوب القصريّ تعريضٌ بهما، أي: :كأنّه يقول: لا تَشُكّا في هذه التي معي إنّها صفيّة. لذلك سبّحا، مستغربَين من ذلك التّعريض ونفيا عنهما، أي: شكّ فـــي شخص النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ والله أعلم.

قصر الحكمة من وجود الإمام على الائتمام به:

سقط رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ مرّةً عن فرسه فجُرحت ساقه ـــ أو كتفه ـــ وآلى من نسائه شهراً، فجلس في مشربةٍ، له درجها من جذوع فأتاه أصحابه يعودونه فصلّى بهم جالساً، وهم قيامٌ،

فلما سلّم قال: «إنّما جُعِلَ الإمام ليؤتَّم به، فإذا كبّر فكبّروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلّى قائماً فصلّوا قياماً»(١).

وفي روايةٍ أخرى: «إنّما الإمام ليؤتم به»(٢).

أراد النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أن يقرِّرَ بهذا الحديث أمراً مُهِمّاً، لم يعرفه الصّحابة من قبل، حيث ظنّوا أنّ الإمام إذا صلّى قاعداً لعجزٍ، أو مرضٍ، فإنّ المأمومين يصلّون قياماً ما داموا مستطيعين، فوضَّح لهم هذا الأمر، ثم أتى لهم بعبارةٍ قصريّةٍ قصّرت فيها الصّفة (وهي جعل الإمام أو مشروعية الإمام) على الموصوف (الائتمام به) وهو من القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ؛ إذ إنّ النّفي فيه ـــ كما يظهر لي ـــ على سبيل العموم فلم يجعل الإمام في الصّلاة، لأيّ سببٍ على سبيل العموم إلاّ ليؤتمّ به(٣).

فليس الأمر فيه على سبيل المبالغة في حقّ الإمام.

أمّا الإمام العيني فيرى أنّ الحصر هنا على سبيل الاهتمام والمبالغة(٤)، وكأنّه رأى أنّ الإمام قد جُعل لعدة أشياء ومنها الائتمام به، ولكن هذه

---

(١) رواه البخاري، انظر: الفتح ١/٤٧٨، ومسلم ٤/١٣١.

والمشربة: ـــ بفتح الميم وسكون الشّين وضمّ الرّاء ـــ هي: الغرفة المرتفعة. انظر: الفتح ١/٤٨٨.

(٢) رواه مسلم ٤/١٣٣.

(٣) بيّن العيني أنّ معنى (ليؤتّم به) أي: لا يسبق المأمومُ إمامَه، ولا يتقدّم عليه ويراقب أحواله. انظر: عمدة القارئ ٥/٢١٧.

(٤) انظر: عمدة القارئ للعيني ٣/١٠٦.

الأشياء تجاهلها هذا الخطاب، وقصّر السّبب من وجود الإمام أو الهدف من ذلك على الائتمام به، لكن هذا الرّأي مرجوح ــ في نظري ــ، فأمر المبالغة هنا ليس وراداً كما يبدو بل الأمر على حقيقته، والله أعلم.

وهذا القول فيما يخصّ هذا الشّاهد على هذه الرّواية.

أمّا الرّواية الأخرى الّتي قال فيها ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّما الإمام ليؤتمّ به»، فهي من قصر الموصوف على الصّفة قصراً حقيقيّاً، للمبالغة والاهتمام. والله أعلم.

وهذا، وإنّ الاختلاف فيما تشتمل عليه حقيقة هذا القصر، فهل هو قصر حقيقيٌّ فيما يخصّ الأفعال فقط؟ أم قصر حقيقيٌّ فيما يخصّ الأفعال والنّيّات معاً؟ الأمر يحتمل الوجهين، ولكن التّقييد يحتاج إلى دليلٍ والإطلاق هو الأصل كما يقول العيني، واستدلّ به بعضهم على عدم دخولها أي (النّيّة)؛ لأنّه يقتضي الحصر في الاقتداء به في أفعاله لا في جميع أحواله كما لو كان مُحدِثاً أو حامل نجاسةٍ فإنّ الصّلاة خلفه تصحّ لِمَن لم يعلم حاله، على الصّحيح، قلت: (أي: العيني): لا دلالة فيه على الحصر[١]، بل يدلّ الحديث على وجوب المتابعة مطلقاً[٢]. والله أعلم.

---

(١) ليس المراد بقوله: (لا دلالة فيه على الحصر) أنّه ينفي أن تكون إنّما هنا دالةً على الحصر، وإنّما يقصد بالحصر هنا التّقييد أو التّخصيص. والله أعلم.

(٢) انظر: عمدة القارئ للعيني ٥/٢١٨.

قصر الغاية من صلاة النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فوق المنبر على الائتمام به:

وهذا حديث تابع للحديث السّابق في مضمونه ومعناه، وذلك أنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ صلّى على المنبر مرّةً ولما فرغ أقبل على النّاس وقال: أيّها النّاس إنّما صنعت هذا لتأتّموا، ولتعلموا صلاتي[1].

في هذا الحديث نرى حُسن تعليم النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ للنّاس، حيث إنّه استخدم معهم البيان العملي، لأعمال الصّلاة، فصلّى على المنبر حتى يراه مَن قد تخفى عليه رؤيته إذا صلّى على الأرض[2]، ثم لما فرغ نبّههم بأسلوبٍ قصريّ إلى الغرض من فعله ذلك. وحتى لا يتأوّلوا الحكمة من عمله هذا بتأوّلاتٍ مختلفةٍ. قصر لهم الصّفة وهي سبب فعله ذلك على الموصوف، وهم الائتمام به ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ. والتَّعلّم منه على سبيل القصر الحقيقيّ لعموم النّفي فيه، والتّحقيقي، لتحقّق ذلك فعلاً في الواقع. والله أعلم.

قصر مشروعية الاستئذان على ستر العورات من البصر:

اطّلع رجل من حجرٍ في دار النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، والنَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يحكّ رأسه بالمِدرى. فقال: «لو علمت أنّك تنظر لطعنت بها في عينك، إنّما جُعِلَ الإذن من قِبل الأبصار»[3].

---

(١) رواه البخاري، انظر: الفتح ٣٩٧/٢، ومسلم ٣٥/٥.

(٢) انظر: فتح الباري ٤٠٠/٢.

(٣) رواه البخاري، انظر: الفتح ٣٦٧/١٠، ومسلم انظر: شرح مسلم ١٣٦/١٤. =

وفي روايةٍ: «إنّما جُعل الاستئذان من أجل البصر»[١].

في هذا الحديث قصة هذا الرّجل الذي جاء ـــ لَعَلّه عن حسن نيّةٍ وغفلةٍ، وقعت منه ـــ. واطّلع على رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، من جحر كان في منْزله. فلما رآه الرّسول ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عاتبه بلهجةٍ شديدةٍ، ولو أدركه وهو يسترق النّظر، لطعن عينه غير مبالٍ به لارتكابه هذا الفعل الذّميم، بهذه الشّدّة عاتب النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ هذا الرّجل الذي نظر من غير أن يستأذن ولم ينظر من الباب وإنّما نظر من جحر في الجدار.

إنّ نبيَّ الرّحمة ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ قد عوّدنا (في كثيرٍ من المواقف التي يخطئ فيها أصحابه بعض الأخطاء) عدم معاتبتهم بالتّعنيف عليهم، في القول بل كان يرشدهم بالتي هي أحسن، في كثير من القصص والمواقف المعروفة. ولكن في هذه القصّة نرى رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، لم يعاتب هذا الرّجل فحسب بل أراد أن يطعنه في عينه لو أدركه وهو ينظر من خلال الجحر وهدّده بذلك فما السّبب إذن في اختلاف هذا الأسلوب؟

إنّ النَّبِيَّ- صلّى الله عليه وسلّم- قد أرشد أصحابه إلى الاستئذان

= والمدرى بكسر الميم، هو المشط أو القرن. انظر: القاموس المحيط للفيروز أبادي، مادة درى.

(١) رواه البخاري ١١/٢٤.

من قبل ــ وهو الأمر المهمّ الذي يحفظ به ستر البيت المسلم فلا تكشف عورته ولا تمسّ حرمته.

والنَّبِيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ من غيرته على حرمة ما حرّم الله، عندما ما رأى فعل هذا الرّجل ــ الذي لا يليق بمسلم ــ أراد أن يفهمه هذا الدّرس ويؤكّد المعنى له بالتّهديد أو لا، ثم بتوضيح المسألة بطريق القصر ثانياً، حيث قال له: «إنّما جعل الأذن من قبل الأبصار»، فقصر الصّفة «جُعل الأذن أو مشروعية»، على الموصوف «وهو كونه من أجل البصر»، على سبيل القصر الحقيقيّ؛ لأنّ النّفي فيه عام ــ كما يظهر ــ لم يخصّص بشيءٍ معيَّنٍ، وهو من القصر الحقيقيّ؛ لأنّه في حقيقة الأمر لم يجعل الأذن إلاّ ما أجل البصر، وللدّلالة على أنّ الاستئذان ما شرع إلاّ من أجل البصر.

هذا وقد جاء القصر بطريق (إنّما) في الشّاهد هذا؛ لأنّ هذا الرّجل يعرف مشروعية الاستئذان، ولذلك فقد جاء في هذا الأسلوب مع الدّلالة على القصر، دلالة على الاستغراب من عدم فهم الرّجل لهذا الأمر الواضح الجليّ.

قصر استفادة الإنسان من ماله على ثلاثة أمور:

(ما أكل، وما لبس، وما تصدّق به):

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «يقول العبد مالي مالي، إنّما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبْلى، أو أعطى فاقتنى، وما

سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للنّاس»[١].

وفي روايةٍ أخرى يقول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم، من مالك إلاّ ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدّقتَ فأمضيتَ؟»[٢].

كعادته ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ تجيء تعبيراته موسومة بالصّدق، والصّراحة، والتّنبيه والبلاغ.

وفي هذا المقام كان حديثه ــ عليه السّلام ــ عن المال، وحقِيقَتِه هذا المال المحبّب إلى كلّ النّفوس، حيث تسعى لاكتسابه وجمعه والازدياد منه، وقد جُبلت النّفوس على ذلك قال تعالى:﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وفي الحديث: «لو كان لابن آدم واديان من مالٍ، لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوْف ابن آدم إلاّ التّراب»[٣].

ولكن يا تُرى ماذا سيصنع الإنسان بهذا المال الوفير، الذي يجمعه ويصيح دونه دائماً مالي مالي؟! هل سيستهلكه كله في هذه الحياة؟ أم أنّ هذا المال هو الذي سيستهلك صاحبه؟!

إنّ حقيقة الأمر هي أنّه ليس للإنسان من ماله إلاّ الثّلاث التي

---

(١) رواه مسلم انظر ١٨/٩٤.

(٢) رواه مسلم ١٨/٩٤.

(٣) رواه البخاري، انظر: الفتح ١١/٢٥٣، ومسلم ٧/١٣٩.

ذُكرت في الحديث.

وهذا الأسلوب القصريّ هو من قصر الصّفة (فائدة المال الحقيقة)، على الموصوف وهي قوله: (ثلاث) على سبيل العموم، وهو من التّحقيقيّ؛ لأنّ هذه هي حقيقة الحال تماماً وليس في الحقيقة من شكٍّ.

فليس إذن لصاحب الكنوز والأرصدة العتيدة من ماله، إلاّ ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو ما أعطاه في سبيل الله، وادّخر أجره عند الله تعالى.

ونلحظ في هذا التّعبير النّبويّ البليغ حقّاً. أنّه لم يقل: (ما أكل أو لبس أو تصدّق) فقط، وإنّما أضاف على كلّ فعلٍ من هذه الأفعال فعلاً آخر يزيد الأمر حصراً على حصرٍ، في هذه الدّائرة الضّيّقة التي هي فائدة الإنسان، من ماله. فقال: أكل فأفنى، أي: ما انتهى من أكله، ليس ما أعدّ للأكل، وقال: لبس فأبلى؛ فلو مات قبل أن يَبْلَى لم يكن في الحقيقة له؛ لأنّه سيلبسه غيره، وكذلك ما تصدّق فأمضى، فضمن بإذن الله ثوابه؛ لأنّه لو لم يمضه لما كان له إلاّ أجر النّية فحسب، وليس له غير ذلك، فما أروع هذا البيان النّبوي الكريم، إنّه لقول رسول كريم ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ.

إذن فأين مال ذلك الإنسان المسكين، إنّه يطلب شيئاً ليس له، وإنّما هو لورثته من بعده، فلو عَقَل هذا الإنسان لأقلّ من هذا المال ولأكثر من الإنفاق، وليس العكس، فسبيل الصّدقة هو السّبيل الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يزيد فيه لنفسه من الخير ما يشاء.

أمّا بالنّسبة لما يأكل ويلبس، فإنّه في الحقيقة لا يستطيع الزّيادة

فيهما، فحجم معدته، وحجم جسده محدودان ولن يستطيع أن يأكل أكثر مما تحتمله معدته، أو أن يلبس ثوباً أكبر من حجم جسده.

لهذا جاء هذا الأسلوب القصريّ على سبيل التّذكير للإنسان بهذا الأمر، إذ ليس النّاس جاهلين بهذه الأشياء ولكن لكي تتّضح الرّؤية أمامهم، جاء هذا التّحديد الدّقيق، والحصر البيِّن لطرق الاستفادة الحقيقة من المال.

ثم إنّ في الحديث ملمحاً بلاغيّاً آخر وهو صحّة التّقسيم إذ ذَكَر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ كلّ صور استفادة الإنسان من ماله وهي: ما أكله، وما لبسه، وما تصدّق به، ولم يبق غير هذه الثّلاثة قسماً رابعاً[1]. وهذا دليل على بلاغته ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، وشمول فكره، وقوّة إدراكه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النّجم: ٣-٤].

هذا وإنّ الأصل في معنى هذا الحديث أن يكون معلوماً لدى النّاس إلاّ أنّه قد يُنَزّل المعلوم منْزلة المجهول، وذلك كما ورد في قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «وهل لك يا ابن آدم من مالك إلاّ ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدّقتَ فأمضيتَ؟».

وكأنّ النَّبِيَّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لما أراد مجرّد تذكير النّاس بحقيقة

---

(١) انظر: العمدة لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، الطّبعة الرّابعة، سنة: ١٩٧٢م، ٢/ ٢١.

المال، جعل القصر بإنّما، ولكن لما رأى تكالبهم على الدّنيا (تكالب مَن اعتقد أنّه ملك حقيقة كلّ ما جمع أو مَن اعتقد أنّه سيستهلك كلّ ما جمع من الدّنيا)، نادى عليهم بهذا الأنذار، وجاء فيه بالنّفي والاستثناء.

ولكنّه قد جاء النّفي هنا على شكل استفهام، وكأنّه يقول لهم: أما علمتم أنّ الذي لكم من المال هو كذا وكذا؟

وفي رأيي أنّ النّفي والاستثناء إذا جاء فيه النّفي على شكل استفهام ــ كما في هذا الحديث ــ فإنّه أقرب ما يكون إلى طريق القصر بـ (إنّما) لأنّهما يتّفقان في أنّ المخاطب بهما يكون عالماً بما يقول المخاطِب، لكن تأتي إنّما لمجرّد التّذكير. أمّا هذا النّوع من النّفي الاستثناء فإنّه يأتي للإنذار الشّديد، أو عند تنزيل العالم، منْزلة الجاهل، لعرضٍ يريده المتكلّم، كما في هذا الحديث والله أعلم.

قصر ما للزّوجة من زوجها، على ما قدَّره الله لها:

قال النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يحلّ لامرأةٍ تسأل طلاق أختها لتستفرغَ ما في صحفتها، فإنّما لَها ما قُدِّر لها»(١).

في هذا الحديث حفظٌ للحقوق التي بين الزّوجين، فحرم على المرأة أن تسأل طلاق أختها في النّسب، أو الرّضاع، أو الدّين(٢)، فتطردها من بيت زوجها.

---

(١) رواه البخاري٩/٢١٩،ومسلم٩/١٩٢،وفي مسلم:«إنّما لها ما كتب الله لها».

(٢) انظر: فتح الباري ٩/٢٢٠.

وهذه المرأة سواء كان المقصود بها المرأة الأجنبية التي تشترط لزواجها من الخاطب طلاق زوجته كما يرى أكثر الفقهاء(١)، أو ضرّتها كما يرى بعضهم(٢)، فإنّه لا يحقّ لها ذلك، وقد عبّر النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن ذلك بإكفاء ما في الصّفحة مجازاً(٣)، واستعارة، إذ شُبّهت بفعلها هذا بِمَن يُفْرِع في صحفة ما في صحفة غيره من طعامٍ ونحوه، ليستولى عليه ويترك غيره جائعاً، مغتاظاً من ضياع حقّه.

وقد جاء هذا النّهي عن الاعتداء على هذه الحقوق، وجاء بعده هذا الأسلوب القصريّ (إنّما لها ما قدر لها).

وهذا الأسلوب القصريّ هو من قصر الصّفة (وهي مِلكيّة المرأة لما هو لها) على الموصوف (وهو ما قدر لها) قصراً حقيقيّاً؛ لأنّه ليس للإنسان إلاّ ما قَدَّر الله له لا غير ذلك، وتحقيقيّاً؛ لأنّ هذه هي حقيقة الأمر الواقع.

وقد جاءت إنّما في هذا الأسلوب لتُحرِّك العقل والوجدان، معاً، فتنأى بالمرأة المؤمنة عن مثل هذا الظّلم، وأسلوب القصر بإنّما غالباً مـــا يستخدم في مقام الوعْظِ والتّذكير وترقيق القلوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الرّعد: ١٩](٤). والله أعلم.

---

(١) انظر: فتح الباري ٩/ ٢٢٠، وشرح النّووي على صحيح مسلم ٩/ ١٩٣.

(٢) انظر: فتح الباري ٩/ ٢٢٠ فما بعدها.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٩/ ١٩٣.

(٤) أوّلها: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾.

قصر بناء المساجد على الحكمة الإلهية من ذلك:

صلّى النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بأصحابه مرّةً، فقام رجلٌ فقال: مَن دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا وجدتَ: إنّما بُنِيَتِ المساجدُ لما بينت له»(١).

هذا الرّجل عندما نَشَد ضالته في المسجد كأنّه جعل المسجد كالسّوق ونحوه، مما يجتمع فيه النّاس لقضاء أغراضهم الدّنيويّة. فَبَدَل أن يُسَبِّح ويذكر الله بعد الصّلاة، قام مسرعاً بعد التّسليم لكي يلحق بالنّاس ويسألهم عن ضالّته، وذلك سوء أدبٍ، مع المسجد الذي يجب على المسلم ألا يأتيَه إلاّ من أجل العبادة، وبنيّةٍ خالصةٍ لها. لذلك فقد أثار هذا الرّجل (بِفِعْلِه هذا) غضب الرّسول ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فدعا عليه بعدم لُقيان ضالّته، ثم أتبع ذلك بجملةٍ قصريّةٍ، قصرت فيها الصّفة وهي بناء المساجد، على الموصوف وهو الهدف الذي بنيت من أجله وهو ذكر الله والصّلاة والعلم والمذاكرة في الخير ونحوها(٢).

وفي رَدّ النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ نَلْمَس الغضب والتّأثّر في كلِّ جزءٍ من أجزائه:

أوّلاً: في دعائه على هذا الرّجل ولا يدعو النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ على أحدٍ إلاّ إذا أثار غضبه وهو لا يغضب إلاّ لله.

---

(١) رواه مسلم ٥/٥٥.

(٢) انظر: شرح النّووي ٥/٥٥.

ثانياً: في إتيانه القصر بإنّما لينبِّهَه على أنّ هذا الأمر معلوم، لدى كلّ مسلمٍ فكلّ مسلمٍ يعرف لماذا بنيت هذه المساجد؟ فكيف غفل هذا الرّجل عن هذا الأمر؟

ثالثاً: في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: (لما بنيت له) ولم يقل له: إنّما بنيت لكذا وكذا، وكأنّ غضب النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من هذا الرّجل جعله يأتي بالكلام مختصراً دون التّفصيل، وذلك يناسب مقتضى حال الغضب.

ثم إنّنا نلاحظ إذا تأمّلنا في هذه العبارة القصريّة أنّها لم تأت بجديدٍ فيما يخصّ المساجد، إذ ليس المساجد وحدها التي بُنِيت لما بُنيت له، بل كلّ مبني لم يبن إلاّ لما بُني له، بل كلّ شيءٍ في الدّنيا لم يوجد إلاّ لما وجد له. فهذه العبارة عامّة، وهي بديهية من البديهيات، ليس فيها جديد، والسّبب الذي جعل النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يقولها بهذه الصّفة ــ كما يظهر لي ــ هو أنّ هذه العبارة لم يقصد منها دلالتها الحرفية بل قصد منها التّأنيب الخالص لهذا الرّجل لا أكثر ولا أقلّ، وذلك أنّ هذا الرّجل يعلم سابقاً بالغاية التي بنيت من أجلها المساجد وليس بحاجةٍ إلى إعلامٍ أو تبيينٍ.

لذلك أمر النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في أحاديثَ أخرى[1] أن يقال مثل ردّه هذا لِمَن فعل مثل فعل ذلك الرّجل، وذلك لزجره،

---

(١) انظر: الأحاديث التي ورد فيها ذلك في: صحيح مسلم ٥/٥٤.

وتأنيبه على مخالفته وعصيانه(١).

قصر مناجاة الإنسان في صلاته على ربّه سبحانه وتعالى:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «اعتدلوا في السّجود، ولا يبسط ذراعيه كالكلب، وإذا بزق فلا يبزقَنّ بين يديه، ولا عن يمينه، فإنّما يناجي ربّه»(٢).

عند هذا الحديث قال العيني: «ويجوز أن يكون من باب التّشبيه، أي: كأنّه ينادي ربّه والتّحقيق فيه أنّه شبّه العبد وتوجّهه إلى الله تعالى في الصّلاة وما فيها من القراءة والأذكار وكشف الأسرار، واستنْزال رحمة الله، ورأفته، مع الخضوع، والخشوع بِمَن يناجي مولاه ومالكه»(٣).

هذا رأي العيني ــ رحمه الله ــ، لكنّي لا يظهر لي أنّ في هذا تشبيهاً، بل الأمر على حقيقته فإذا نظرنا في الصّلاة مثلاً نجدها من بدايتها حتى نهايتها وهي دعاء وقراءة وتضرّع إلى الله ومناجاة له سبحانه، فالصّلاة أكثر أقوالها سريّة فهي مناجاة حقّاً.

وهذا القصر ــ كما يبدو لي ــ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، حقيقيٌّ لأن العبد في الصّلاة لا يناجي إلاّ ربّه، لا يناجي غيره كائناً مَن كان، وتحقيقيٌّ لأنّه في حقيقة الأمر لا يناجي المسلم إلاّ ربّه.

---

(١) انظر: شرح مسلم للنّووي ٥/٥٥.

(٢) رواه البخاري، انظر: الفتح ٢/١٥.

(٣) انظر: عمدة القارئ للعيني ٤/١٤٩.

وقد جاء هذا القصر لِيُعَلِّمَنا أنّ المصلّي إذا كان في الصّلاة ما هو إلاّ مناجٍ لربّه والمناجاة كلمة تعني أمرين:

أوّلاً: القرب؛ لأنّ النّجوى لا تكون عن بعد، فهو إذن قريب من ربّه وبين يديه.

ثانياً: الخفاء لكي يُفتح المجال للمناجي ليقول ما شاء من غير تحرُّجٍ، وليلجَّ في المسألة من غير أن يسمعه إلاّ مَن يناجيه.

لهذا فعلى هذا السّائل الذي يناجي ربّه أن يستشعر هذا المقام (مقام القرب والإسرار) فيكون على حالةٍ عاليةٍ من الأدب، تناسب هذا المقام، وأن يطلب من ربّه ما يشاء ولا يتصرّف عنه لحظةٍ واحدةٍ، وإذا ما عرض له بُزاق أو نحوه، فعليه أن ينصرف بوجهه عن مَن يناجيه، فيبزق بعيداً عنه، ثم يعود من حينه إلى المناجاة والتّلذّذ بالعبادة، تلك هي الصّلاة القويمة، التي يكون فيها الإنسان لا يناجي إلاّ ربّه حقّاً. جعلنا الله من أهلها.

قصر الولاء على مَن أعْتَقَ:

أرادت عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن تشتري جاريةً فتعتقها، فقال أهلها: نَبِيعُكِها على أنّ الولاء لنا، فذكرت ذلك لرسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فقال: «لا يمنعُكِ ذلك، فإنّما الولاء لِمَن أعْتَقَ»[١].

هذا الحديث قُصرت الصّفة وهي الولاء على الموصوف وهو المعتق على سبيل القصر الحقيقيّ، لعموم النّفي في الحديث، والتّحقيقيّ لأنّ ذلك

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٣٧٦/٤.

هو حكم الشّرع.

قال ابن حجر: «يُستفاد منه أنّ كلمة إنّما للحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عمّا عداه، ولولا ذلك لما لزم إثبات الولاء للْمُعْتِق ونفيه عن غيره»(١).

هذا وقد يفسّر هذا القصر على أنّه قصر إضافيٌّ تحقيقيٌّ للقلب، بمعنى: إنّما الولاء لِمَن أعتق لا لِمَن باع. إذا ما ربطنا بين القصّة في الحديث وهذا الشّاهد.

وقد وصف النّووي هذا الحديث بأنّه عظيم كثير الأحكام والقواعد وفيه مواضع تشعبت بها المذاهب(٢).

وتتجلى في هذا الحديث حكمة الخالق سبحانه في جعل الولاء لِمَن أعتق لا لغيره؛ لأنّ المعتق هو المتفضّل على هذا العبد بنعمة الحرية. فهو أحقّ بولايته له أمّا الذي باعه فلا حقّ له في هذا الولاء؛ لأنّه قد باعه كما تباع السّلعة وقبض ثمنه، وانتهى الأمر. أمّا الْمُعتق فقد رفع هذا العبد من مقام الرّقّ إلى مقام الحرّيّة، وأحيا فيه الشّعور بإنسانيّته.

ونعمة الحرّيّة هذه من النّعم الكبيرة، التي تعادل فضل الوالد على ولده، كما جاء ذلك في قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يجزي ولدٌ والداً إلاّ أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه»(٣).

---

(١) انظر: فتح الباري ١٩٢/٥.

(٢) انظر: شرح النّووي ١٣٩/١٠.

(٣) رواه مسلم ١٥٢/١٠، وسيأتي شرح هذا الحديث في الفصل التّالي.

فهل يستحقّ ولاء الْمُعْتَقِ بعد ذلك كلّه غير الْمُعْتِق لا غيره، الذي هو السّبب في إخراج هذا الرّقيق إلى حياةٍ جديدةٍ، مثل ما كان والده السّبب في إخراجه إلى الحياة الدّنيا.

قصر الرّضاعة المحرِّمة على وقت المجاعة:

عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قال: «دخل النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وعندي رجلٌ فقال: يا عائشة مَن هذا؟ قلت: أخي من الرّضاعة،قال:يا عائشة،انظرن مَن إخوانكن:إنّما الرّضاعة من المجاعة»(١).

ففي هذا الحديث يوضّح النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ شرط الرّضاع المحرِّم في جملةٍ قصريّةٍ اختارها النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لضبط زمن الرّضاع وتحديده.

وهذا القصر ظاهره أنّه من قصر الموصوف (الرّضاعة) على الصّفة (كونه من المجاعة)، قصراً حقيقيّاً؛ لأنّه ليس في الحديث ما يقيّده أو يضيفه إلى شيءٍ معيَّنٍ وعلى هذا يكون القصد منه المبالغة في أمر الرّضاع وأنّه ليس بشيءٍ إذا لم يكن من المجاعة.

لكن التّفسير المناسب ــ في نظري ــ هو أن يجعل من قصر الصّفة على الموصوف قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، وأنّ المراد من هذه العبارة إنّما تحرم الرّضاعة إذا كانت من المجاعة وذلك لأنّه يحسنُ إذا جاء القصر في النّصوص التي يُبنى عليها حكم شرعي ثابت أن يكون حقيقيّاً تحقيقيّاً.

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٢٥٤/٥، ومسلم ٣٤/١٠.

والله أعلم.

فالمعنى أنّ الرّضاعة التي تثبت بها الحرمة، وتحلّ بها الخلوة، هي حيث يكون الرّضيع طفلاً لسدّ اللّبن جوعته، لأنّ معدّته ضعيفة يكيفها اللّبن، وينبت بذلك لحمه، فيصير كجزءٍ من المرضعة، فيشترك في الحرمة مع أولادها، فكأنّه قال: لا رضاعة مُعْتَبَرة، إلاّ المغنية عن المجاعة أو المطعمة من المجاعة(١).

ومما يشير إلى أنّ هذا القصر من الحقيقي ما قيل من أنّه ليس في الحديث نصّ على صغر المرضع، أو كبره ما دامت الرّضعات سدّت جوعته(٢).

هذا وإنّ هذه المسألة، مثار اختلاف بين الفقهاء، أمّا الجمهور فيرون أنّ الرّضاعة محدَّدة بفترة الصّغر، وأنّ ما ورد من أحاديثَ أخرى هو خاصّ بأُناسٍ معيَّنين، وكأنّهم فهموا أنّ هذا القصر إضافي، وأنّ المعنى: إنّما الرّضاعة في الصّغر لا في الكبر وبعضهم فهم المعنى على عمومه، حيث إنّ المجاعة تكون في الصّغر والكبر(٣). والله أعلم.

قصر الشّؤم على ثلاث: (الفرس، والمرأة، والدّار):

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما الشّؤم في ثلاثٍ:

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٤٨/٩.

(٢) انظر: فتح الباري ١٤٨/٩.

(٣) انظر آراء الفقهاء في: شرح النّووي ٣٤/١٠، وغيره.

في الفرس، والمرأة، والدّار»[١].

في هذا الحديث نرى قصراً للصّفة، وهي الشّؤم على الموصوف وهو هذه الثّلاثة (الفرس، والمرأة، والدّار).

وهذا القصر، قيل: إنّه بالنّسبة إلى العادة، لا بالنّسبة إلى الخلقة، وقد خصّت هذه الثّلاثة، بذلك لطول ملازمتها الإنسان[٢].

وقد اختلف العلماء في معنى هذا الحديث فقال بعضهم: «هو على ظاهره، وأنّ الدّار قد يجعل الله سكنها للضّرر والهلاك، وكذلك اتّخاذ المرأة والفرس،قد يحصل الهلاك عندهم،بإذن الله.ومعناه:قد يحصل الشّوم في هذه الثّلاثة،كماجاءفي روايةٍ أخرى إن يكن الشّؤم في شيءٍ فهو في هذه الثّلاثة.

وقال جماعة: إنّ هذه الثّلاثة مستثناة من الطّيرة، أي: أنّ الطّيرة مَنْهِيّ عنها، إلاّ في ثلاثة، فإن كان له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها،أو فرس يكرهه،فيلفارق الجميع،بالبيع ونحوه،وطلاق المرأة»[٣].

وعلى أيّ حالٍ فقصر الشّؤم على هذه الثّلاثة هو من القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، كما هو ظاهر الحديث. والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري ٦/٦٠، ومسلم ١٤/٢٢٠.

(٢) الفتح ٦/٦١.

(٣) انظر: شرح النّووي ١٤/٢٢٠-٢٢١.

قصر أخذ ضالّة الغنم على أحد ثلاثة:

(العاثر عليها ــ أو غيره من النّاس ــ أو الذّئب):

سئل رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن ضالّة الغنم فقال: «خذها، فإنّما هي لك أو لأخيك، أو للذّئب...»، الحديث[1].

يبيّن النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ الْحُكْم في ضالّة الغنم، فإنّ مَن وجدها، فليأخذها وإن لم يأخذها أخذها غيره من النّاس، أو أكلتها السّباع، وذِكْرُ الذّئب هنا مثال، وليس بقيد، والمراد جنس السّباع المفترسة[2].

والقصر هنا ليس على موصوفٍ مفردٍ، وليس القصر على كلّ المذكورين في الحديث، وإنّما القصر على أحد أولئك الثّلاثة، وهو من قصر الصّفة وهي أخذ[3] ضالّة الغنم، على الموصوف وهو أحد الثّلاثة المذكورين في الحديث، على سبيل القصر الحقيقيّ لعموم النّفي فيه، وهو من التّحقيقيّ، إن كان المقصود من (الذّئب) هنا جنس المهلكات للغنم. والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري ٥/٨٣، ومسلم ١٢/٢١.

(٢) انظر: عمدة القارئ للعيني ١٢/٢٧٠.

(٣) لم أقل ملكيّتها لأنّ بعض العلماء نفى أن تكون اللام في قوله: (لك أو لأخيك أو للذّئب) هي للتّملّك؛ لأنّ الذّئب لا يملكها، لذلك فضّلت أن آتي بفعلٍ يصلح أن يكون فاعله الإنسان والذّئب كاستحوذ، أو أخذ أو نحوهما.

ومن الملاحظ في هذا القصر أنّه لا بدّ من ذكره على احتمالاته الثّلاثة، فلا يصحّ أن تقول: إنّما هي لك، أو إنّما هي لأخيك، أو إنّما هي للذّئب، ولا يصحّ المعنى أن تقول: إنّما هي لهؤلاء الثّلاثة فهي ليست لهؤلاء الثّلاثة مجتمعين، وإنّما هي لأحدهم. وعلى هذا فكأنّ هذا الحصر تَكَوّن من حصرٍ داخل حصرٍ حيث حصر أخذ الضّالّة على هؤلاء الثّلاثة ثم حُصِر على واحدٍ من هؤلاء الثّلاثة.

هذا وإنّ في القصر بإنّما هنا، نوعاً من التّعجّب، أو الاستغراب مِمَن يظنّ أنّ أخذ ضالّة الغنم محذور، كما أنّ فيه بيانَ الحكمةِ من أخذها، فإن وجدها ولم يأخذها أخذها غيره من النّاس، أو أكلها الذّئب، ولهذا قال بعض العلماء: إنّ معناه الإذن في أخذها[١]، وإنّ هذا التّعبير بمثابة خُذها[٢].

هذا ونرى في الحديث أيضاً صحّة التّقسيم حيث ذكر هذه الاحتمالات الثّلاثة لضالّة الغنم إذ اعتبرنا أنّ قوله: (للذّئب) لعموم المهلكات لهذه الضّالّة. والله أعلم.

قصر الحكمة من تسمية النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قاسماً على كونه قاسماً بين أمّته:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «سمُّوا باسمي، ولا تكنّوا بكنيتي، فإنّي إنّما جُعِلْتُ قاسماً أقسم بينكم»[٣].

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٢/٢٣.

(٢) انظر: فتح الباري ٥/٨٣.

(٣) رواه البخاري ٦/٢١٧.

ففي هذا الحديث قصر الصّفة وهي كون النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ قاسماً على الموصوف وهو القسمة بينهم، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، لعموم النّفي فيه وتحقّقه كما ذكر الرّسول ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ.

وهذا من قصر الْمُسَبَّب على السّبب، وكأنّ المعنى: ـــ والله أعلم ـــ: إنّما جُعِلْتُ قاسماً لأقسم بينكم (بتقدير لام التّعليل) فهو من قصر الشّيء على علّته.

قصر سبب ترك المعاصي على الخوف من الله:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((قالت الملائكة ربّ ذاكَ عبدك، يريد أن يعمل سيّئةً ـــ وهو أبصر به ـــ، فقال: ارقبوه فإن عملها، فاكتبوها له بمثلها وإن تركها، فاكتبوها له حسنةً، إنّما تركها من جرّاي))(١).

هذا الحديث يشير إلى رحمة الله الواسعة بالعباد، وأنّ مَن ترك سيّئةً من أجل الله كتبت له حسنة، ولذلك جاء القصر للصّفة (وهي ترك المعصية) على الموصوف (هو كونها من أجل الله تعالى) وذلك معنى الإخلاص، وعلى هذا فالتّرك يحتاج إلى نيّةٍ خالصةٍ لكي يكون عليه ثواب من الله تعالى. خلافاً لِمَن يقول بعدم وجوب ذلك(٢).

---

(١) رواه مسلم ١٤٨/٢، وقوله: (من جراي) أي: من أجلي.

(٢) انظر بعضاً من آراء مَن قال بذلك، في: فتح الباري لابن حجر ١٣/١-١٥، =

والقصر هنا من قصر الفعل على المفعول لأجله ـــ كما يظهر لي ـــ إذ المعنى: إنّما تركها خوفاً منّي، وهو من القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، للعموم والتّحقّق.

قصر صلاة الْمُصلّي على كونها له:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ألا ينظر الْمُصَلّي إذا صلّى كيف يصلّي؟ فإنّما يصلّي لنفسه...»[1].

يدْفعنا النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بهذه العبارة إلى التّأمّل في أمر الصّلاة، وكيف يجب أن تؤدّى؟ فالمرء إذا صلّى لا يصلّي لأحدٍ آخر غير نفسه، وإن كان يصلّي لله تعالى، فالله سبحانه لا تنفعه صلاة أحدٍ وإنّما المنتفِع الوحيد منها هو ذات الْمُصَلّي، ولهذا فإنّ مَن لم يؤدِّ الصّلاة كما يجب، فإنّه يغشّ نفسه. إنّ الإنسان إذا أراد أن يأكل يختار الطّيّب من الطّعام، والمقبول، ما استطاع، أمّا لو كان هناك شخصٌ يقتات لنفسه أسوأ الأطعمة فإنّه يكون أغبى الأغبياء، أو يكون سفيهاً مجنوناً.

فكذلك إذا صلّى يجب عليه أن يراعي شروط الصّلاة وواجباتها حتى يحصل على أفضل الثّواب، وأكلمه لذلك جاء القصرُ بإنّما وقصرت الصّفة وهي الصّلاة على الموصوف وهو ذات الْمُصَلّي على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، لعموم النّفي والتَحقّق. والله أعلم.

= وشرح الأربعين النّووية لابن دقيق العيد ص: ١١.

(١) رواه مسلم ١٤٩/٤.

قصر ما تخزنه ضروع الماشية على كونه طعاماً لأهلها:

قال النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا يحلبَنَّ أحدكم ماشية امرئ بغير إذنه، أيحبّ أحدكم أن تؤتى مشربته، فتكسر خزانته، فينتقل طعامه؟ فإنّما تخزن لهم ضروع ماشيتهم أُطعماقم...))[١]. الحديث.

معنى: الحديث أنّه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، شبّه اللّبن في الضّرع بالطّعام المخزون المحفوظ في الخزانة، في أنّه لا يحلّ أخذه بغير إذن صاحبه[٢].

ومعنى الجملة القصريّة: ((إنّما تخزن لهم ضروعُ ماشيتهم أطعماتِهم))، هو: ((ما تخزن لهم ضروع ماشيتهم إلاّ أطعماقم))، فهو من قصر الصّفة على الموصوف، قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، وفي هذه العبارة القصريّة ــ كما هو ظاهر ــ تعريضٌ بِمَن يتهاون في احتلاب مواشي الآخرين من غير إذنهم، ظنّاً منه أنّ هذا الأمر لا اعتداء فيه. وكأنّ العبارة قالت في هذا التّعريض: إنّ هذا الفعل لا يجوز وإن فَعَله أحدٌ فهو سارقٌ، أو كالسّارق، فليحذر الإنسان من مَغبة ذلك. والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري ٥/٨٨، ومسلم ١٢/٢٩، ومعنى ينتقل: أي: يحوّل من مكانٍ إلى آخر. انظر: الفتح ٥/٨٩.

(٢) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٢/٢٩.

المطلب الثّاني: شواهد القصر الحقيقيّ مبالغةً:

قصر ضلال السّابقين على المحاباة في الأحكام:

أهمّ قريشاً امر المرأة المخزوميّة، التي سرقتْ فقالوا: مَن يكلّم فيها رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، أو مَن يجترئ عليه إلاّ أُسامة[١]، حِبُّ رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، فكلّم أسامةُ رسولَ الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فقال: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟ ثم قام فَخَطب فقال: يا أيّها النّاس إنّما ضَلَّ مَن كان قبلكم كانوا إذا سَرَق فيهم الشّريفُ تركوه، وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عَلَيه الحدّ. وأيمُ الله لو أنّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقت لقطع محمّدٌ يدها»[٢].

إنّ إقامة حدود الله في الأرض هي أهمّ ما يكفل للخلق بقاءهم، في هذه الحياة، وسعادتهم وأنّ ترك ذلك هو الهلاك، والذِّلّة، والضَّياع، بلا شكّ.

---

(١) هو: أسامة بن زيد بن حارثة، حِبّ رسول الله (أي: محبوبه) ومولاه ا ستعمله النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ على جيش لغزو الشّام وفي الجيش كبار الصّحابة، فلم يسر الجيش إلاّ في خلافة أبي بكرٍ، وكان خفيف الرّوح شديد السّواد، روى الأحاديث، توفي في أواخر خلافة معاوية. انظر: سير أعلام النّبلاء ٢/٤٩٦.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ١٢/٨٧، ومسلم ١١/١٨٦.

وفي مسلم: «إنّما أهلك الذين، قبلكم، أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ».

ولقد كانت هذه الصّفة من تلك المرأة المخزوميّة الشّريفة، التي سرقت و لم يدعها إلى هذه الجريمة عوز أو فقر يضطرّها إلى ذلك، وإنّما غلبت عليها عادة السّرقة وتعين بذلك إقامة الحدّ عليها[1].

ولَمّا كان الحكم قطع يدها، خاف أهلها وعشيرتها من الخزي والعار وظنّوا أنّهم يستطيعون فداءها فحالوا التّملّص من الحكم بأن أعدوا الفدية ثم لم يجدوا مَن يشفع لها عند النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إلاّ حبّ رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ (أسامة بن زيد) فبعثوه، فذهب، و لم يكن يعلم قطعاً بِحُرمة ذلك الأمر وإلاّ لما أقدم عليه.

وغضب رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من هذا الفعل، وجاء باستفهام استنكاري، ينكر على زيدٍ فعله هذا ثم قام خطيباً في النّاس ليوضّح لهم خطأ، وخطر فعلهم هذا، ويضرب لهم مثلاً من الواقع لما يجب من الاستسلام بهذا الأسلوب القصريّ ليؤكّد لهم مبالِغاً، خطورة المحاباة في أيٍّ حكمٍ من أحكام الله تعالى. وهذا القصر هو من قصر الصّفة (وهي هلاك أو ضلال الأمّ السّالفة) على الموصوف (وهو عقابهم الضّعيف وتركهم الشّريف).

وهذا القصر من الحقيقيّ لعموم النّفي فيه، هو للمبالغة في شفاعة مثل هذا الفعل المهلِك، وكأنّه لا مهلك للأمم غيره، فلا مرض، ولا كِبَر، ولا كوارث وإنّما كان هلاكهم لهذا السّبب.

---

(١) انظر: قطوف من رياض السّنة ٢٥٨، بتصرّفٍ.

ويرجِّح بعض العلماء أنّ هذا الحصر ليس عاماً؛ لأنّ بني إسرائيل كان فيهم أمور كثيرة تقتضي الهلاك، يحمل ذلك على حصرٍ مخصوصٍ وهو الإهلاك بسبب المحاباة في الحدود فلا ينحصر ذلك في حدّ السّرقة(١).

إذن فنتيجة المحاباة في شرع الله تعالى الهلاك والعياذ بالله، بل كاد الهلاك أن يقصر عليها حقيقةً، لخطورتها.

قصر هَلاك السّابقين على كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم:

قال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((دعُوني ما تركتُكم، فإنّما أهلك مَن كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نُهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيءٍ فاتوا منه ما استطعتم))(٢).

إنّ وجود الأنبياء ـــ عليهم السّلام ـــ بين ظهراني النّاس فرصةٌ ثمينةٌ للبشر، ومكسبٌ عظيمٌ لا كالمكاسب كلّها.

ويخيل للإنسان أنّه لو رأى نبيّاً من الأنبياء لما فتئ يسأله، ويسأله، في أي وقتٍ من اللّيل أو النّهار؛ حيث إنّ لدى الأنبياء من العلم ما لا طاقة للبشرية كلّها به، فعلمهم من علم الخالق سبحانه وتعالى، ليس فيه شكٌّ، ولا كذب، ولا خطأ، فمن أين لطالب الحقائق أن يستقيَها إذا لم يجدها في كتاب الله أو في كلام أنبيائه؟ فما بالنا إذا كان هذا النّبي هو خاتم الأنبياء وسيّدهم ـــ عليه وعليهم أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم ـــ.

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٢/٩٤.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ١٣/٢٥١، ومسلم ٩/١٠١.

ولذلك لا نشكّ في الرّغبة الملحّة لدى الصّحابة في طلبهم المزيد من سماع حديث النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وهذا مطلب كلّ مسلمٍ.

ولكن كثرةَ سؤال الأنبياء ــ عليهم السّلام ــ فيه خطرٌ عظيمٌ، لم يكن يعلمه النّاس، وذلك لأنّه ليس على الإنسان معرفة كلّ شيءٍ فمعارف الإنسان محدودةٌ، وعقله، وتخيّله، بل وحياته محدودة كلّها، مهما بلغ الإنسان من عمر في هذه الحياة!.

وكما أنّ هناك أموراً يجب على الإنسان أن يعرفها، وأموراً يحسن به أن يعلمها، فهناك أمور يجب على الإنسان أن لا يعلمها لحكمةٍ يريدها الله تعالى[1].

ودلّت الأحاديث الكثيرة على النّهي عن السّؤال عما لا يُحتاج إليه[2]، مما يسوء السّائل جوابه، كسؤال مَن سأل النّبي ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هل هو في الجنّة أو النّار؟ وسؤال الذي سأل مَن أبوه؟ وغيرها.

ودلّت الأحاديث أيضاً على نهي المسلمين عن الإكثار من السّؤال في مسائل الحلال والحرام، مما يُخشى أن يكون السّؤال فيه سبباً لنُزول التّشديد فيه مما يؤدّي إلى ترك الامتثال، كالسّؤال عن الحجّ هل يجب كلّ

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: الوافي لشرح الأربعين النّووية ص: ٦٢-٦٣.

(٢) وذلك كقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّ الله فرض فرائض فلا تضيّعوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسَكَت عن أشياء رحمةً لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها». رواه الدّارقطني في سننه، بتحقيق: السّيّد عبد الله يماني المدني، دار المحاسن للطّباعة، ٤/٢٩٨.

عامٍ، وقد قال النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّ أعظم المسلمين في المسلمين جُرْماً، مَن سأل عن شيءٍ لم يُحرم فَحُرِّم من أجل مسألته))(١).

ولما عَرَف الصّحة هذا الأمر ازدادوا تأدُّباً وامتنعوا عن سؤال النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ إلاّ في الأمور الضّروريّة الْمُلِحّة، وهذا النّهي عن السّؤال لم يكن الغرض منه ترك شيءٍ من جوانب حياة النّاس في دينهم ودنياهم، دون توضيح بقدر ما يصلح للبشر فالله سبحانه وتعالى أعلم بمصالح عباده منهم، فما كان فيه هدايتهم ونفعهم فإنّ الله تعالى، لا بدّ أنّه بَيَّنه لهم ابتداءً من غير سؤالٍ(٢).

لهذا الشّأن كلّه، جاء هذا الحديث الشّريف الذي نحـــن بصـــدده والذي قال عنه النّووي ـــ رحمه الله تعالى: ((إنّه من قواعد الإسلام المهمّة، ومن جوامع الكلم التي أعطيها ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ ويدخل فيه ما لا يُحصى من الأحكام))(٣).

وفي هذا الحديث قصرت الصّفة (وهي الهلاك) على الموصـــوف (وهو سؤال النّاس واختلافهم على الأنبياء) على سبيل القصر الحقيقـــيّ لعموم النّفي فيه، وهو على سبيل المبالغة في خطر هذا الأمر، وكأنّه إذا ما قورنت مهلكات الأمم بهذا الأمر الْمُهلِك فإنّها لا تمثّل شيئاً بالنّسبة لـــه لشدّة إهلاكه، وقد بيّن النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ في هذا الحديث أنّ هلاك

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ص: ٨٩.

أمّا الحديث فقد رواه البخاري ٢٦٤/١٣، ومسلم ١١٠/١٥.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص: ٩٠، بصرّفٍ.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٠٢/٩.

الأمم، واستحقاقها الاستئصال، إنّما كان بسبب أمرين:

أحدهما: السّؤال والتّكلّف فيه.

الثّاني: الاختلاف في الأمور وعدم التزام شرع الله ــ عزّ وجلّ ــ(١).

وقد ذكرتُ قبل قليلٍ بعض الأسباب التي نهي الصّحابة فيها عن السّؤال.

أمّا بالنّسبة للاختلاف فإنّه أيضاً من أهمّ الأسباب التي تفرّق الأمّة، وتُشتِّت شملها، إذا كان على أساس الجدل في العلم والمراء في الدّين والبليّة (كلّ البليّة) أن يكون الحاملَ لهم على الاختلاف المصالح، والأهواء، والعناد والبغي، ولذا نجد أنّ القرآن قد أخرج مَن يثير الخلاف في الدّين من دائرة الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ [الأنعام من الآية: ١٥٩].

أمّا الخلاف النّاشئ عن دليلٍ، ويستند إلى أصلٍ، فليس هو المقصود هنا؛ لأنّه خلاف في الفروع وليس في الأصل، وليس من شأنه أن يحدث الفرقة والشّتات في صفوف(٢). والله أعلم.

قصر هلاك السّابقين على اختلافهم في الكتاب:

سمع النَّبيُّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أصوات رجلين اختلفا في آيةٍ، فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ــ يعرف في وجهه الغضب، وقال: ((إنّما هلك مَن كان قبلكم باختلافهم في الكتاب))(٣).

---

(١) انظر: الوافي في شرح الأربعين النّووية ص: ٦٠.

(٢) انظر في ما مضى: الوافي في شرح الأربعين النّووية ص: ٧٠-٧٢.

(٣) رواه مسلم ١٦/٢١٨.

إنّ من سنن الله في الخلق أنّ الاختلاف يؤدّي إلى التّفرّق، والتّفرّق ضعف، ثم هلاك، والعياذ بالله.

وهذا الحديث شاهد آخر لربط الهلاك بالاختلاف. وكان سبب ورود الحديث أنّ النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ رأى نموذجاً مصغّراً، من الاختلاف في القرآن الكريم، حيث اختلف رجلان على قرب من منْزله، حول آيةٍ واحدةٍ، فخرج عليهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ــ من حينه وعليه سيما الغضب وقال لهما عبارةً موجزةً، فيها تحذير بالغ، ووعيد بالهلاك إن استمرّا على ذلك، وتنطلق هذه العبارة من خلال هذه القصّة لتبقى حكمةً ومثلاً للمعتبرين من بعدهما، وكانت هذه العبارة مركّبة بطريقةٍ قصريّةٍ على نسق العبارتين السّابقتين في الحديثين السّابقين، حيث قصرت صفة (الهلاك للأمم السّابقة) على الموصوف الذي هو الاختلاف في الكتاب. على سبيل القصر الحقيقيّ، وللمبالغة في سوء عاقبة مَن يختلفون في كتابهم، وكأنّ الأهلاك للأمم السّابقة كان فقط بهذا الاختلاف. الهلاك المقصود هنا هو الهلاك في الدِّين، بكفرهم، وابتداعهم، فحذّر رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من مثل فعلهم. والاختلاف المحذور في الشّرع هو الذي يوقع فيما لا يجوز كالاختلاف في نفس القرآن، أو في معنى منه. لا يسوّغ فيه الاجتهاد، أو الاختلاف الذي يوقع في الشّكّ أو شبهه، أو فتنة، ونحو ذلك أمّا الاختلاف في استنباط فروع الدّين منه، ومناظرة أهل العلم في ذلك على سبيل الفائدة وإظهار الحقّ

فليس منهيّاً عنه(١).

هذا وإنّ الجملةَ القصريّةَ في هذا الحديث واللّذين سبقاه هي بلا شكّ من القصر غير الحقيقيّ؛ لأنّه كلّ مرّةٍ يقصر الهلاك على خطأٍ معيَّنٍ من أخطاء الأمم السّابقة ولو كان القصر تحقيقيّاً لما قصر الهلاك إلاّ على خطأٍ واحدٍ فقط، أو قصر الهَلاك على هذه الأخطاء جميعاً في عبارةٍ واحدةٍ.

قصر ما أوتيه النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على القرآن العظيم:

قال صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما من نَبِيٍّ إلاّ أُعْطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أُوتِيتُه وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(٢).

إنّ كلَّ نَبِيٍّ لا بدّ له من معجزةٍ يؤيّده الله بها، لكي لا يكون للبشر حجةٌ بعد ذلك على الله، أو على أنبيائه، وكانت كبرى معجزات كلّ نبيٍّ مناسبةً لزمنه وحالة قومه وهذه من حكمة الله ــ عزّ وجلّ ــ. فقَلْب العصا حيّةً أذهل السّحرة من قوم فرعون، وإحياء الموتى بهر الأطباء الكبار في عهد عيسى ــ عليه السّلام ــ، وجاء هذا القرآن الكريم ليُذهل الفصحاء من أبناء يعرب وغيرهم، ولكنَّ الفرق بين القرآن وغيره من المعجزات أنّ كلّ المعجزات السّابقة للقرآن كانت آنيةً انتهت بانتهاء زمانها، أمّا معجزة نبيّنا محمّدٍ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فهي قرآن يُتْلَى

(١) انظر: شرح النّووي ٢١٩/١٦.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ٣/٩، ومسلم ١٨٦/٢.

في الأرض إلى قيام السّاعة، وتلك هي نادرة الدّهر وفريدته.

وهذا الحديث الذي نحن بصدده قد احتوى على جملتين قصريّتين:

أولاهما سوف نتحدّث عنها فيما بعد.

والجملة الثّانية: جاء القصر فيها بطريقٍ إنّما وهو قصر لكينونة الذي أُوتِيَه النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ على الوحي وذلك على سبيل القصر الحقيقيّ لعموم النّفي عنه، وهو للمبالغة في عظم هذه المعجزة إزاء غيرها من معجزاته ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ.

وقد اختلف العلماء حول معنى هذا الحديث؛ فَمِنْهم مَن يرى أنّ كلّ نبيٍّ أعطاه الله آيةً أو أكثر من شأن مَن يشاهدها أن يؤمن به لأجلها. أمّا معجزته ـــ عليه السّلام ـــ فهي القرآن الكريم الذي لم يعط أحد مثله لهذا قال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

ومن العلماء مَن يرى أنّ الذي أُوتيَه ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ هو القرآن الذي لا يتطرّق إليه تخجيلٌ بسحرٍ أو شبهه، بخلاف معجزات غيره من الأنبياء ـــ عليهم السّلام ـــ فإنّه قد يفعل السّاحر بسحره مِمّا يقارب صورهما، كما خيَّلت السّحرة في سورة عصا موسى ـــ عليه السّلام ـــ، والخيال قد يُرَوجّ على بعض العوام فلا يُفَرّقون بين المعجزة والسّحر.

ويرى طائفة من العلماء أنّ المعنى هو: أنّ معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم و لم يشاهدها إلاّ مَن حضرها، ومعجزة نبيّنا ـــ عليه

السّلام ـــ مستمرّة إلى يوم القيامة، فلا يمرّ عصرٌ إلاّ وهو يشهد على صحّة إعجازه.

فالمعجزات السّابقة كانت تدرك بالبصر ومعجزة نبيّنا تدرك بالبصيرة، والذي يشاهد بالعقل يبقى فيشاهده كلّ جيلٍ يجيء بعد ذلك[١].

وقال ابن حجر: «ويمكن نظم هذه الأقوال كلّها في كلامٍ واحدٍ، فإنّ محصلّتها، لا ينافي بعضُها بعضاً»[٢].

وقال ابن حجر أيضاً عن القصر في هذا الحديث: «ومعنى الحصر في قوله: «إنّما كان الذي أُوتِيته» أنّ القرآن أعظم المعجزات، وأفيدها، وأدومها لاشتماله على الدّعوة، والحجة، ودوام الانتفاع إلى آخر الدّهر، فلمّا لا شيء يقاربه فضلاً عن أن يساويه كان ما عداه بالنّسبة إليه كأن لم يقع»[٣].

قصر رحمة الله على الرّحماء من عباده:

أرسلت ابنةُ رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، أنّ ابناً[٤] لها قبض فاتِنَا، فأرسل يقرأ السّلام ويقول إنّ لله ما أخذ، وله أعطى، وكل عنده بأجلّ مسمّى فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها،

---

(١) انظر فيما مضى: فتح الباري ٩/٦-٧، ومسلم ٢/١٨٨.

(٢) انظر: فتح الباري ٩/٧.

(٣) انظر: فتح الباري ١٣/٢٤٨.

(٤) قيل إنّ التي أرسلت إليه هي زينب ـــ رضي الله عنها ـــ واختلفوا في هذا الطّفل هل هو ابن أو بنت؟ فقيل: إنّها بنت، وإنّها لم تمت، والله أعلم.

لكنّي أخذت الحديث على ظاهره. انظر: تلك الآراء في فتح الباري٣/١٥٦.

فقام، ومعه سعد بن عبادة[1]، ورجال من الصّحابة فرفع الصّبيّ إلى رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ونفسه تتقعقع، ففاضت عيناه فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنّما يرحم الله من عباده الرّحماء[2].

هذا هو حفيد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ــ يحتضر، فترسل له أمّ الصّبيّ بأن يأتيها، فيرسل لها بعبارة عزاء عظيمة (إنّ الله ما أخذ، وله ما أعطى) يصبّرها بها على ترك الجزع والحزن ولكنّها لم تَرْض إلاّ بحضوره ليشهد حالته، ويواسيها في مصابها فلمّا جاءها ــ عليه السّلام ــ فاضت دموعه الطّاهرة على مشهد طفله الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة وتعجّب سعد من ذلك ظنّاً أنّ البكاء عند المصائب حرام، وظنّ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ــ، نَسِيَ فذكره، فأجابه النّبي صلّى الله عليه وسلّم ــ بأنّ مجرّد البكاء ودمع العين ليس بحرامٍ ولا مكروهٍ بل هو رحمة وفضيلة، وإنّما المحرم النّوح والبكاء المقترن بهما أو بأحدهما[3].

وجاء النّبيّ ــ عليه السّلام ــ في ردِّه على سعد بهذه العبارة القصريّة الموحية بتألم الفؤاد وحزنه: ((إنّما يرحم الله من عباده الرّحماء))،

---

(١) هو: سعد بن عبادة بن دليم الخزرجي الأنصاري صحابي مشهور كان أحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام شهد أحداً وما بعدها خرج في خلافة عمر إلى الشّام وتوفي سنة: ١٤. انظر: الأعلام ١٣٥/٣.

(٢) رواه البخاري ١٥١/٣، ومسلم ٢٢٥/٦.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٢٢٥/٦.

هذه العبارة الموجزة التي جاءت موافقة لمقتضى الحال الذي لا يحتمل التّطويل في الكلام والبلاغة هذا شأنها.

وهذا القصر من الحقيقيّ لعموم النّفي فيه وهو مُسوق للمبالغة، فإذا كانت رحمة الله وسعت كلّ شيءٍ فإنّ القسط الأكبر منها لعباده الله الرّحماء، وكأنّ نصيب غيرهم من الرّحمة لا اعتداد به، وكأنّ في العبارة أيضاً تعريضاً بِمَن لا يرحم، وأنّ البكاء عند المصائب بتلك الهيئة حسن ولا يحسن بغير تلك الحال والصّفة(١).

ومقتضى هذه العبارة أنّ رحمة الله تختصّ بِمَن اتّصف بالرّحمة وتَخَلّق بها، بخلاف غيره، وقد ذكر من النّكت البلاغيّة في هذه العبارة، أنّ تعبيره بلفظ الرّحماء التي هي صيغةٌ مبالغةٌ للتّعظيم، جاء لأنّ العبارة فيها لفظ الجلالة (الله) والذي عرف بالاستقراء أنّه إذا جيء به في مكانٍ إنّما هو للتّعظيم، فصار الكلام كلّه سارياً على نسق التّعظيم(٢).

هذا وقد جاء هذا الحديث بروايةٍ أخرى جاء فيها القصر بطريق النّفي والاستثناء وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ولا يرحم الله من

---

(١) انظر رسالة دكتوراه بعنوان: البلاغة النّبويّة دراسة وتحليل: إعداد الطّالب صباح عبيدٍ، دراز بكلّيّة اللّغة العربية، جامعة الأزهر سنة: ١٣٩٥هـ، رقم تصنيفها: ١١٤٠، ص: ٢١٩، ولكن هذا الباحث يرى أنّ القصر هنا قصر قلبٍ، وكأنّ المقصود: إنّما يرحم الله الرّحماء لا القساة، ولكنّي أرى أنّ لفظ الحديث أشمل وغير محدَّد بحدود معيّنة فالنّفي شامل للقساة وكلّ مَن لا يرحم. والله أعلم.

(٢) انظر: فتح الباري ٣/١٥٨.

عباده إلاّ الرّحماء»[١].

وهذا يؤكّد دلالة إنّما على القصر. وفيه أيضاً تأكيد شديد على أمر الرّحمة وشأنها، وأنّ مَن ليس فيه رحمة، فإنّه قاب قوسين أو أدنى من غضب الله، وعذابه، ولا أظنّ أنّ قلباً خالياً منها سينظر الله إليه بها إلاّ أن يشاء الله.

هذا وقد تحدّث أبو جمرة الأندلسي بحديثٍ مفصَّلٍ حول هذه العبارة: (إنّما يرحم الله من عباده الرّحماء) وموجز حديثه: «أنّه يرى أنّ هذه العبارة تحتمل معانٍ منها:

القصر، أي: قصر الرّحمة على الرّحماء ونفيها عن غيرهم.

ومنها: أنّها تفيد إثبات الحكم للمذكور ولا تنفيه عن غيره كقولهم إنّما الجميل يوسف، فأثبتوا له الحسن و لم ينفوه عن غيره وذَكَر غير ذلك من المعاني.

ولكنه رجّح هذا الأخير، أي: أنّها خصّصت الحكم بالمذكورين و لم تنفه عن غيرهم بدليلٍ أنّه جاء: «إنّ لله نفحات من الرّحمة يصيب بها مَن يشاء) مِمَن فيه رحمةٌ وغيره، وغير ذلك من الأحاديث»[٢].

ورأي أبي جمرة هذا فيه احتمال كبير للصّحّة، ولكن يبدو لي أنّ القول هو ما ذكرته قبل قليلٍ، من أنّ هذا القصر ليس من القصر

---

(١) رواه البخاري ١١٨/١٠.

(٢) انظر: بهجة النّفوس بمعرفة ما لها وما عليها، لابن أبي جمرة الأندلسي، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٩٧٢م، ١١٢/٢.

التّحقيقيّ وإنّما هو على سبيل المبالغة في شأن الرّحماء، وبهذا يجمع بين الشّواهد جميعاً ويستقيم المعنى. والله أعلم.

قصر خوف النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بالنّسبة لأمّته على ما يفتح عليهم من الخَيْر:

قام رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ على المنبر يوماً فقال: «إنّما أخشى عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من بركات الأرض». ثم ذكر زهرة الدّنيا(١)، فقام رجل فقال: يا رسول الله! أو يأتي الخير بالشّرّ؟ فسكت عنه النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ وسكت النّاس، ثم قام صلّى الله عليه وسلّم ـــ يمسح الرّحضاء عن وجهه، فقال أين السّائل آنفاً، أو خير هو؟ ـــ ثلاثاً ـــ إنّ الخير لا يأتي إلاّ بالخير...»(٢) الخ، الحديث.

علم النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ أنّ هذه الأمّة ستملك الدّنيا بقبضتها،بما يفتح الله به عليه وأنّ ذلك ربّما يكون سبباً في إفسادها وضياعها، لهذا قام النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ بينهم محذّراً لهم من هذا الأمر، وصاغ لهم في موعظته هذه العبارة القصريّة (إنّما أخشى عليكم من بعدي

---

(١) والمراد بزهرة الدّنيا، بهجتها ونضارتها وحسنها. انظر: الفتح ١١/٢٤٥.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ٦/٤٨-٤٩، ومسلم ٧/١٤١.

أمّا في مسلم فقد جاءت العبارة القصريّة بطريق النّفي والاستثناء ومؤكّدة بالقسم وهي قوله صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا والله ما أخشى عليكم أيّها النّاس إلاّ ما يخرج الله لكم من زهرة الدّنيا».

ما يفتح عليكم من بركات الأرض)، وكان هذا القصر للصّفة (وهي خشية النّبي وخوفه على أمّته بعده) على الموصوف وهو ما يفتح عليهم من بركات الأرض، وجاء القصر هنا للمبالغة في خطورة أمر زهرة الدّنيا على حياتهم ودينهم، وفي هذا تأكيد شديد على عدم الاغترار بالدّنيا والنّظر إليها والمفاخرة بها.

وفي رواية مسلم جاء القصر مع القسم ليؤكّد لهم المعنى أعظم توكيد، وليزيده تفخيماً ليكون أوقع في النّفوس(١).

أمّا سبب خشيته هذه ـــ عليه السّلام ـــ فقد ورد صريحاً في أحاديث أخر(٢) بأنّ هذا المال سيؤدّي بهم إلى التّنافس في الدّنيا والرّغبة فيها ومحبّتها ومحبّة الانفراد بالقسط الأكبر منها، ثم يؤدّي بهم إلى حدوث العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية للهلاك(٣).

وجاء في هذا الحديث أيضاً عبارة قصريّة أخرى طريقها النّفي والاستثناء وهي قوله ـــ عليه السّلام ـــ: ((لا يأتي الخير إلاّ بالخير))، وقد كرّرها ثلاث مرّاتٍ كما جاء في بعض الرّوايات(٤). فجمع فيها ـــ عليه السّلام ـــ بيْن نوعي التّوكيد اللّفظي والمعنوي، وجاء ذلك ردّاً على

---

(١) انظر: شرح مسلم ١٤١/٧.

(٢) انظر: فتح الباري ٢٤٤/١١.

(٣) انظر: المصدر السّابق ٢٤٥/١١.

(٤) في رواية لمسلم ١٤٢/٧.

سؤال الذي سأل مستغرِباً الأمر وقال: وهل يأتي الخير بالشّرّ؟ أي: هل يأتي المال الحلال، بالمفسدة والشّرّ لصاحبه؟ فجاء النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ بهذه الجملة القصريّة التي هي من القصر الإضافي التّحقيقيّ لينفي له ما فهمه من الحديث من أنّ الخير يأتي بالشّرّ، ويثبت له أنّ الخير لا يأتي إلاّ بالخير. فقلّب المعنى الذي كان فهمه خطأً من عبارة النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ الأولى. ومعنى العبارة: أنّ الخبر الحقيقيّ، لا يأتي إلاّ بخيرٍ، أي: لا يترتّب عليه إلاّ خير. وأنّ هذا الذي يحصل لهم من زهرة الدّنيا إنّما هو فتنة. إذ نفى أن يكون خيراً بالاستفهام الإنكاري: أو خيرٌ هو؟! أي: أنّ المال ليس خيراً، حقيقيّاً وإن سُمِّيَ خيراً؛ لأنّ الخير الحقيقيّ فيه ــ كما يرى ابن حجر ــ هو ما يَعرض له من الإنفاق في الحقّ، كما أنّ الشّرّ الحقيقيّ فيه ما يعرض له من الإمساك عن الحقّ، والإخراج في الباطل(١). وتكون النّتيجة أنّ زهرة الدّنيا ليست بخيرٍ لما تؤدّي إليه من الفتنة، والمناسبة، والاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة(٢). والله أعلم.

قصر الحكمة من بعثته ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على ابتلائه والابتلاء به:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ذات يومٍ في خطبته: «ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مِمّا علّمني. (يومي هذا): كل

(١) انظر: فتح الباري ٢٤٦/١١.

(٢) رواه مسلم ١٩٨/١٧.

مالٍ نحلْته عبداً حلال، وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت، وأمرَتْهم أن يشركوا بِيَ ما لم أُنزِّل به سلطاناً، وإنّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربم وعجمهم، إلاّ بقايا من أهل الكتاب. وقال: ((إنّما بعثتك لأبتليَك وأبتلى بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظاناً...))[١]. الحديث.

إنّ أصل الخلق كان على الفطرة السّويّة القويمة، التي تؤمن بالله ربّاً، وخالقاً لا شريك له، ولكن الشّياطين جاءتهم بالشّرك والضّلال، حتى مقتهم الخالق سبحانه.

وفي هذه الفترة من الرّسل حيث كانت البشريةُ مشركةً كافرةً إلاّ بقايا من أهل الكتاب، بعث الله نبيَّه محمّداً ــ عليه السّلام ــ، وقال له هذه العبارة القصريّة: ((إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك))، وحيث قصرت فيها الصّفة (وهي بعثته ــ عليه السّلام ــ) على الموصوف (الابتلاء) وفي هذه العبارة تحديد لأهمّ سببٍ بُعِثَ مِن أجله النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ، وهو أن يمتحنه بالقيام بتبليغ الرّسالة والجهاد في الله حقّ جهاده والصّبر في الله حقّ صبره، ويمتحن به مَن أرسله إليهم، فمنهم مَن يُظهر إيمانه ويخلص في طاعته، ومنهم مَن يتخلّف ويتأبّد بالعداوة والكفر، ومنهم مَن ينافق. والمراد أن يمتحنه ليصير ذلك واقعاً بارزاً[٢].

---

(١) رواه مسلم ١٧/١٩٨.

(٢) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٧/١٩٨.

والقصر في هذه العبارة (كما يظهر لي) من غير التّحقيقيّ، للمبالغة في التّنبيه على أمر الابتلاء، وأنّه أمرٌ مهمّ به يُختبر كلّ البشر سواء الأنبياء أو غيرهم من البشر، ويدلّ على أنّ هذا القصر من غير التّحقيقيّ، أنّه ذكرت في القرآن الكريم، والسّنة الشّريفة أغراضٌ كثيرةٌ لبعثته ــ عليه السّلام ــ، وإن كانت كلّها ربّما تدخل تحت قوله: (أبتليك وأبتلى بك)). ومن تلك الآيات قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٥-٤٦]. وغيرها من الآيات.

قصر لُبس الحرير على مَنْ لا خلاق له في الآخرة، وقصر الغرض من إرسال الحلّة إلى عمر ــ رضي الله عنه ــ على بيعها:

أرسل النّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ إلى عمر بن ا لخطّاب ــ رضي الله عنه ــ بحلّةٍ ــ سيراء[(١)] ــ فرآها عليه فقال: ((إنّي لم أرسل بها إليك لتلبسها، إنّما يلبسها مَن لا خلاق له، إنّما بعثت إليك لتستمع بها ــ أي: تبيعها ــ))[(٢)].

---

(١) سيراء: قيل: الوشي من الحرير، وقيل: ثوب سُيِّر فيه خطوط يعمل من القزّ، وقيل: الحرير الصّافي، وقيل: غير ذلك. الفتح ١٠/٢٩٧.

(٢) رواه البخاري ٤/٣٢٥، ومسلم ١٤/٣٨.

وهناك رواية للبخاري ٢/٣٧٣، وفيها: ((إنّما يلبس هذه مَن لا خلاق له في الآخرة)).

في هذا الحديث نَرَى حرمة استعمال الرّجال الحريرَ، ونَرَى ذلك من خلال هذه القصّة حيث أرسل النّبيّ ــ عليه السّلام ــ بالحلّة الحريريّة إلى عمر يريد به أن يبيعها أو يكسوها بعض نسائه(١)، ولكن عمر ــ رضي الله عنه ــ ظنّ أنّ النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يريده أن يلبسها، فلبسها، فلمّا رآه النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لابسها، أخبره أنّ هذا هو لبس مَن لا نصيب لهم في الآخرة، فقصر له الصّفة وهي اللّبس على الموصوف وهو مَن لا خلاق له على سبيل القصر الحقيقيّ لعموم النّفي فيه، وهو (كما يظهر لي، والله أعلم) لقصد المبالغة في حرمة لبس الحرير وكذلك المبالغة في جزاء مَن لَبِسه.

وجاءت جملة قصريّة أخرى لتوضيح السّبب الذي بعث النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بها إليه، فقد قصر فيها الصّفة (وهي بعثه بها) على الموصوف (وهو بيعها أو كسوها النّساء)، على سبيل القصر الإضافي؛ لأنّ المنفي هو أن يكون بعث بها له ليلبسها. وهو من التّحقيقيّ لتحقّق ذلك. والله أعلم.

قصر الرّسول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ نفسه على البشريّة:

وردت عدّة أحاديث يقصر النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فيها نفسه على البشريّة، ولكلّ عبارةٍ قصريّةٍ مغزى ترمى إليه على حسب

---

(١) كما جاء في بعض الرّوايات قوله صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّما لم أُعطكها لتلبسها، ولكن لتبيعها أو تكسوها». رواه البخاري ١٠/٤١٤.

المناسبة لكلّ حديثٍ.

أوّلها: أنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ صلّى بأصحابه مرّة فلمّا سلّم، قيل: يا رسول الله أحدث شيء في الصّلاة؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: صلّيت كذا وكذا، فثنّى رجليه، واستقبل القبلة وسجد سجدتين ثم سلّم، فلمّا أقبل بوجهه عليهم قال: إنّه لو حدث في الصّلاة شيء لنبّأتكم به، إنّما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكّروني))[١].

جاء أسلوب القصر في هذا الحديث بإنّما، حيث قصر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ذاته الشّريفة على كونه بشراً. وهذا القصر هو قصر للموصوف على الصّفة. فكأن المعنى: أنّه ليس للنَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ صفة غير البشرية المجرّدة عن كلّ صفاته الأخرى كصفة النّبوّة، وصفة اصطفاء الله له، ونحو ذلك.

وكذلك فيه نفي للصّفات الأخرى التي ليست له أصلاً؛ كأن يكون مَلَكاً، أو إلهاً، أو نحو ذلك. وعلى هذا يكون هذا القصر قصراً حقيقيّاً، وقد يفهم أيضاً على أنّه قصر إضافي، بمعنى: ما أنا إلاّ بشر لا ملك، ولكن ظاهر الحديث على المعنى الأوّل.

ثم أكّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ــ المعنى بقوله: (مثلكم).

ولكن هل الرّسول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لا يزيد عن الصّحابة بشيء؟

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٥٠٣/١، ومسلم ٦٢/٥.

الجواب بالنّفي طبعاً. لكن هذا القصر إنّما هو في جانبٍ واحدٍ، من الجوانب التي يَتَّفق فيها البشر كلّهم وهو النّسيان، فكلّ بشرٍ ينسى والرّسول بشر فهو ينسى كما ينسون.

أو بمعنىً آخر، قوله: (بشر) نفى أن يكون ملكاً أو إلها، أو غير ذلك مِمّا هو غير البشر، وقوله (مثلكم) والحقيقة أنّ هذه العبارة هي مِمّا أدّب الله به نبيّه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ[1]، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[الكهف من الآية: ١١٠]، فكان ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ يقول هذه العبارة كلّما جاءت مناسبة لها.

وهذا التعبير القرآني الأصل، قد جاء على ألسنة الأنبياء ــ عليهم السلام ــ من قبل، حيث نرى أنّ كلاًّ منهم يقصر نفسه على البشرية، وأنّه لا يتعدّى إلى صفات الملائكة، أو صفات الخالق سبحانه وتعالى، ولكن لكلّ مناسبةٍ شأنها، فبعضهم استعمله عندما طلب منه قوم المعجزات الكبيرة، على صدق نبوته، وبعضهم استعمله عند ما ظنّ أصحابه أنّه يستطيع أن يفعل كلّ شيءٍ أو أنّه لا يخطئ أبداً، ونحو ذلك. والله أعلم.

ثانياً: أنّ النَّبِيَّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ سمع مرّةً خصومةً ببابه، فخرج إليهم فقال: «إنّما أنا بشر، يأتيني الخصم، فلعلّ بعضكم أن يكون أبلغ من بعضٍ، فأحسب أنّه صدق، فأقضي له بذلك، فَمَن قضيتُ له بحقّ

---

(١) انظر: الفتح ١٣/١٧٥.

مسلمٍ فإنّما هي قطعةٌ من النّار فليأخذها أو يتركها»[١].

يرى بعض العلماء أنّ الحصر هنا مجازيّ؛ لأنّه يختصّ بالعلم الباطن، وأنّه قصر قلب؛ لأنّه أتى به ردّاً على مَن زعم أنّ مَن كان رسولاً، فإنّه يعلم غيب كلّ شيءٍ، حتى لا يخفى عليه المظلوم[٢]. فجاء ردّه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بقوله: «إنّما أنا بشر»، أي: كواحدٍ منكم في عدم علم الغيب[٣]. هذا حال البشر فلا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئاً، إلاّ أن يطلعهم الله على شيء من ذلك، وأنّه يجوز عليه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، من الأحكام ما يجوز عليهم. وأنّه إنّما يحكم بين النّاس بالظّاهر[٤]. فكأنّ فيه تعريضاً أيضاً بحال البشر، في عدم معرفتهم الغيب، وأنّه مَن ادّعى في فهو كاذب؛ لأنّه إذا كان النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لا يعلم الغيب فمن باب أولى أن لا يعلمه النّاس العاديون، وكذلك في قوله: «إنّما أنا بشر»، تأكيد على بشريته ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، وفيه تعريض كذلك ـــ كما يرى البعض ـــ براءة

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٥/١٠٧، ومسلم ١٢/٥-٦.

وفي مسلم روايةٌ أخرى وهي قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما أقطع له به قطعةً من نار»، ١٢/٤، وهي من قصر الصّفة وهي القطع على الموصوف، وهو قطعة من نارٍ، على سبيل القصر الحقيقيّ للمبالغة في ذلك الأمر.

(٢) انظر: فتح الباري١٣/١٧٣.

(٣) انظر: فتح الباري ١٢/٣٣٩.

(٤) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٢/٥.

القاضي من ذنب أي حكمٍ أخطأ فيه من غير قصدٍ بسبب خداع أحد الخصمين(١).

وفي هذا الحديث دلالة أخرى وهي: أنّ النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، قد يخالف قضاؤه الواقع، وليس ذلك بمنافٍ لمقام النّبوّة، ومبدأ العصمة، فإنّ ذلك في المبادئ التّشريعية والأحكام الدّينية، التي هي قانون عام للنّاس يرجعون إليه في كلّ العصور. فهذه لا يخطئ فيها أمّا الأحكام القضائية فقد يكون فيها الخطأ لا في مبدئها، ولكن في طرقها، فقد يكون أحد الخصمين يجيد الدِّفاع والبيان، وهو على باطلٍ، فيحسب القاضي الحقَّ في جانبه، والْمُحِقُّ لا يجيد شيئاً من ذلك فيحكم عليه، فالقضاء ينفّذ ظاهراً لا باطناً(٢).

وفي الحقيقية إنّي أرى أنّ في الأمر حكمةً عجيبةً، حيث إنّ النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لو حكم في قضايا النّاس، بوحي يُعلمه، مَن الظّالم؟ حتى يأخذ الحقّ منه. ومَن المظلوم؟ حتى يعطي له الحقّ، لما كان هذا الأمر في استطاعة من يخلف رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، فالرّسول سوف يبلغ الرّسالة، ثم يتوفّاه الله تعالى إليه وتعود ولاية المسلمين إلى غيره من البشر العَاديّين، فكيف يعمل هذا الوالي إذا أراد أن يفصّل بين الخصوم ولا وحي لديه يعلمه بخفايا الخصوم، وقد يحتج القضاة على ترك القضاء، بأنّه ليس في

---

(١) انظر: الحديث النّبوي من الوجهة البلاغية، لعزّ الدّين سيد ص: ١٢٩.

(٢) انظر: الأدب النّبوي للخولي ص: ٦٨.

استطاعته العلم بحقائق الأمور؛ لذلك جاءت هذه الحادثة، وهذا التّعبير النّبويّ الكريم، كتجربةٍ حيَّةٍ أراد النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أن يعطي النّاس بها درساً عَمَلِيًّا، يعمَلُون فيه، كما عمل إذا آل الأمر إليهم. فالنّبيّ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ كان يتلقى الوحي ويبلّغه نبيّاً معصوماً، ويطبّق الأحكام وتُطَبَّق عليه الأحكام بشراً سويّاً، لكي لا يكون للنّاس حجّة في تطبيق ما جاءت به هذه الشّريعة الغرّاء.

وفي هذا الحديث شاهد آخر للقصر وهو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «فإنّما هي قطعة من نارٍ»، وفي هذا الشّاهد قصر للموصوف (وهو ما يأخذه الظّالم من مظلمةٍ، على الصّفة وهي كون هذه المظالم قطعة من نارٍ، ويرى البعض أنّه مجاز في التّشبيه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النّساء من الآية: ١٠][١].

وفي هذا تعريض بفداحة الجرم الذي يقترفه مَن استحلّ حقَّ غيره، بغير حقٍّ؛ إذ ليس هناك عاقل يُخيّر بين حمل النّار، أو تركها، فيجرؤ على حملها، بخديعة الحاكم، فكم من ويلٍ للمحامين الذين همُّهم الشّهرة والمال، يربحونهما بتبرئة المجرمين الظّالمين[٢].

وهنا روايةٌ أخرى: «فإنّما أقطع له به قطعةً من نارٍ»[٣]. فيكون من

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٣/١٧٤.

(٢) انظر: الحديث النّبوي من الوجهة البلاغية، لعزّ الدّين سيد ص: ١٤٩.

(٣) رواه البخاري. انظر: فتح الباري ٥/٢٨٨، ومسلم ١٢/٤.

قصر الصّفة وهي (القطع) على الموصوف (وهو قطعة من نارٍ)؛ وأيّاً ما كان نوع القصر، فإنّ معنى هذه الجملة القصريّة أنّ هذا الشّيء المأخوذ ظلماً، ليس بشيءٍ ينفع صاحبه، بل إنّه لن يستفيد منه إلاّ النّار. ولن تحصل له منه منفعةٌ حقيقيّةٌ، في الدّنيا، ولا في الآخرة، بل ستُمحق بركته، ويَهلك ويفنى، من غير أن يشعر صاحبه بذلك؛ لأنّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ قد نفى عنه كلَّ صفاته، عدا كونه ناراً، فلا يفرح ظالمٌ بمظلمته، فإنّها قد نُفِيَت عنها كلَّ صفاتها التي كانت فيها، قبل أن تصير مظلمةً، ولم يبق في حقيقة الأمر لها إلاّ أن تَتَحَوَّل إلى نار.

وهذه المعاني كلّها في هذه الجملة القصريّة في إيجازها الرّائع حيث لم يقل ـــ عليه السّلام ـــ إنّما ستكون له ناراً يوم القيامة، حتى يطئمن بها في الدّنيا، ولكن قال: إنّما هي قطعة من نارٍ. منذ أن يأخذها.

وقد يقال: إنّ هذا قصر إضافي، والمعنى: إنّما هي نار لا مال، ولكن تعميم النّفي هنا ربّما يكون أفضل حتى لا يتخيّلها آخذها شيئاً آخر غير النّار.

ثالثاً: خطب النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في النّاس مرّة فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: ((أمّا بعد؛ فإنّما أنا بشرٌ، يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيب...، ثم أخذ يوصيهم بالتّمسّك بكتاب الله، ويذكّرهم بحقوق آل البيت...))[1]، الحديث.

في هذا الحديث يَقْصر النَّبِي ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ نفسه على

---

(١) رواه مسلم ١٥/١٨٠.

البشرية مرّةً ثالثةً، فيقول: ((إنّما أنا بشرٌ))، أي: لا مخلّد، في هذه الدّنيا، والمقصود هنا من قصره على البشرية، أنّه يشترك مع البشر في الموت، لذلك فهو قصر إضافي، تحقيقي؛ لأنّه مُتَحَقِّقٌ في واقع الأمر وهو للتّعيين ـــ فيما يظهر ـــ؛ لأنّ الصّحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ ما كانت لديهم تصوّرات محدّدة، في تلك اللّحظة عن هذا الأمر، وإنّما بكّر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ على أذهانهم بهذه الْمَعْلومات قبل أن تسبق إليهما التّصوّرات الخاطئة. والله أعلم.

وهكذا نجد النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ يقصر نفسه على البشرية لكي لا يفتتن به الصّحابة، ومَن بعدهم في أيّ جانبٍ من جوانب حياته، يظنّونه غير بشرٍ، وما هو إلاّ بشر، قبل كلّ شيءٍ، ونبيّ رسول بعد ذلك. والله أعلم.

ورابعاً: أنّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عندما قدم المدينة وَجَدَهم يلقّحون النّخل فقال لهم النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لعلّكم لو لم تفعلوا، كان خيراً))، فتركوه فسقطت ثماره، فذكروا ذلك للنَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، فقال: ((إنّما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيي، فإنّما أنا بشر))[١].

في هذا الحديث يعتذر النَّبِي ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ من رأيه الذي قاله لأهل النّخل، وافتتح اعتذاره بجملةٍ قصريّةٍ، جاء القصر فيها بـــ

---

(١) رواه مسلم ١٥/١١٧.

(إنّما)، وذلك لأنّ إنما ذات أهميّةٍ خاصّةٍ، وموقعٍ فعَّالٍ في نبرة الاعتذار التي نُحِس بها في قول النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هذا، وعادة ما تكون إنّما أصلح من غيرها في مثل هذا المقام؛ لأنّها رقيقة تصلح للاعتذار والاستعطاف، ونحو ذلك. وقد جاء القصر هنا عامّاً وكأنّه قصر حقيقيّ للمبالغة في التّنبيه على بشريته، فلا يآخذ فيما يخطئ فيه كما يخطئ البشر. أو إنّ هذا القصر إضافي بتقدير: إنّما أنا بشرٌ، لا فوق البشر. ويكون بذلك قصراً تحقيقيّاً للقلب؛ لأنّه قلب ما كان تصوّره الصّحابة من أنّه لا يخطئ أبداً. والله أعلم.

قصر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على العبودية لله:

قال ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تطروني[(١)] كما أطرت النّصارى المسيح ابن مريم، فإنّما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»[(٢)].

أخبر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن نفسه مبالغاً بأنّه لا صفة له إلاّ كونه عبداً لله تعالى، وجاء ذلك تواضعاً منه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، وزهداً في المديح والتّبجيل.

وقد جاء في الأحاديث السّابقة قوله: «إنّما أنا بشرٌ»، وهنا قال: (إنّما أنا عبده)، والفرق بين هذين المعنَيَين، أنّ معنى البشرية مقترن دائماً

---

(١) لا تطروني: الإطراء: المدح بالباطل، تقول: أطريت فلاناً مدته، فأفرطت في مدحه، وأطرت النّصارى المسيح: أي: في دعواهم فيه الألوهية، ونحوها. الفتح ٦/٤٩٠.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ٦/٤٧٨.

بالخطأ والنِّسْيَان وعدم العلم بالغيب، والْمَوت، وغير ذلك، أمّا المعنى هنا، فإنّه في مقام تعظيمٍ ومدحٍ، وإطراء، فأراد النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أن يتواضع لله فلم يقل: إنّني أفضل الأنبياء، أو خير البريّة، أو غير ذلك من الصّفات التي هي من حقّه، ولكنه ترك كلّ ذلك ليقول لهم: إنّما أنا عبد الله على سبيل القصر الحقيقيّ ـــ حسب ظاهر الحديث ـــ حيث نفى النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن نفسه كلّ الصّفات وأثبت لها العبودية لله فقط، وهو قصر للمبالغة، في التّواضع وتهوين أمر النّفس.

وقد جاء هذا القصر بطريق (إنّما) وهي غالباً، ما تستخدم عند التّعبير عن التّواضع وعدم الاعتزاز، بالذّات، خصوصاً عندما يتحدّث المتكلّم عن نفسه أو مكانته.

وقد نهى رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أمّته، ممثّلين في الصّحابة الكرام، ـــ نهاهم ـــ عن أن يبالغوا في مدحه، وكان ـــ عليه السّلام ـــ مُتَخوِّفاً من أن تبالغ أمّته في مدحه فيما بعد، حتى يجعلوه شريكاً لله، بأن يتوسلوا به، ويرجوا منه قضاء حوائجهم، ونحو ذلك. لهذا أخبر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بهذا الأمر (وهو الحريص على أمّيته) وحذّرهم منه قبل وقوعه، وحذّرهم من تقليد النّصارى في تبجيل المسيح والإفراط في ذلك، حتى جعلوه إلهاً، كما هو حالهم الآن، ومن قبل، وإذا تأمّلنا عبارة القصر هذه مرّة أخرى نجد أنّ قصر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ نفسه على العبودية لله والعبودية تعني الذُّلّ، والخضوع، والانكسار، هذا المعنى مناسب جدّاً لهذا المقام، مقام الرّدّ على مَن يحاول

رفع النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إلى مستوى الألوهية، أو رفعه إلى شأن أعلى من شأنه.

ورغم هذا التّحذير الشّديد منه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، بعدم إطرائه ورفعه إلى منْزلة فوق منْزلته، فقد جاء في أمّته، مَن يخالف ذلك، ويمدحه بمدائحَ تكاد تكون شركاً كما هو معروف، من بعض شيوخ طُرُق الصّوفية المنحرفة، المنتشرة في العالم الإسلامي. وكذلك ما نراه من التّوسّل بقبره، وسؤاله رفع الضّرر، وجلب المنفع إلى غير ذلك.

هذا ويمكن أن يخاطب بهذا الأسلوب القصريّ أولئك المنحرفين، على أنّه أسلوب قصر إضافيّ فيكون المعنى: إنّما أنا عبده لا شريكٌ له.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ مدح النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ منه ما هو محمودٌ، ومنه ما هو مذمومٌ؛ فالمحمود هو أن يوصف بكلّ كمالٍ يليق بالإنسان، فهو أعلم النّاس، وأفصحهم، وأكرمهم، وأشجعهم إلى غير ذلك من صفاته الكثيرة ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ. فكلّ وصفٍ هو كمال في حقّ الإنسان، فلسيّد ولد آدم ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ القسط الأكبر منه والحظّ الأوفر، وكلّ وصفٍ فيه نقص للإنسان، فهو أبعد البشر عنه.

والمدح المذموم هو ما يتجاوز به المادح إلى المحذور، والذي لا يرضاه الله تعالى، وذلك بأن يوصف بأوصاف لا تجوز إلاّ لله، ومن هذا

ما جاء في بعض مدائح الشّعراء كالبوصيري[١] مثلاً حيث يقول:

يا أكرم الخلق ما لي مَن ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم[٢]

فهذا المعنى لا يجوز أن يصرف لغير الله تعالى، فهو سبحانه الذي يعاذ ويلاذ به، ويلجأ إليه[٣].

هذا وأريد أن أقول في نهاية هذا التّحليل؛ إنّ هذا الأسلوب وإن كان أسلوب تواضع وتهوين للشّأن؛ فإنّ العبودية لله تعالى هي أشرف وأعزّ ما يفتخر المرء به.

قال الشّاعر:

ومِمّا زادَني شــرفاً وتيهــاً   وكدتُ بأخمُصي أطأُ الثّريّــا

دُخولي تحتَ قولكِ يا عبادي   وأن صيرتَ أحمدَ لي نبيــا[٤]

قصر النّار على العداوة للنّاس:

احترق بيت بالمدينة على أهله من اللّيل، فحُدّث بشأنهم النَّبيّ ــ

---

(١) هو: محمّد بن سعيد بن حماد الصّنهاجي، صوفي من أهل الطّرق ولد سنة: ٦٠٨هـ، وتوفي بالإسكندرية سنة: ٦٩٤هـ، له قصيدة الكواكب الدّرية في مدح خير البريّة.

انظر: معجم المؤلّفين، لعمر رضا كحالة ٢٨/١.

(٢) ديوان البوصيري، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، بمصر، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٣٩٣هـ، ص: ٣٤٨.

(٣) انظر:عشرون حديثاً من صحيح البخاري، للعباد ص:١٧٦-١٧٧، بتصرّفٍ.

(٤) لم أعثر على قائلها.

صلّى الله عليه وسلّم ـــ فقال: ((إنّ هذه النّار، إنّما هي عدوٌّ لكم، فإذا نمتم فأطفؤوها عنكم))(١).

فقد قصر النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، في هذا الحديث الموصوف (وهي النّار) على الصّفة (وهي العداوة للبشر) على سبيل المبالغة في تأكيد المعنى(٢).

وقيل: معنى كون النّار عدوّاً لنا، أنّها تنافي أبداننا، وأموالنا، منافاة العدوّ، وإن كانت لنا بها منفعة، لكن لا تحصل لنا منها إلاّ بواسطةٍ فأطلق عليها عدوّ لنا لوجود معنى العداوة(٣).

وهذا القصر، هو من القصر الحقيقيّ؛ لأنّ النَّفي فيه على سبيل العموم، إذ نُفيت عنها كلّ صفاتها الأخرى، وأثبتت لها العداوة؛ لأنّ الأصل فيها الضّرر.

قصر الرّجل الذي عارض حكم الله على أخوة الكهان:

قضى رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في امرأتين اقتتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجرٍ، فأصاب بطنها، وهي حامل، فقتلت ولدها، الذي في بطنها، فاختصم وليّاهما إلى النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، فقضى: أنّ دية ما في بطنها غُرَّة، عبد، أو أمة، فقال وليُّ المرأة التي

---

(١) رواه البخاري ومسلم. انظر: الفتح ٨٥/١١، ومسلم ١٨٧/١٣.

(٢) انظر: الفتح ٨٦/١١.

(٣) المصدر السّابق ٨٦/١١.

غَرِمت: كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل، ولا نطق، ولا استهلّ، فمثل ذلك يطل، فقال النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما هذا من إخوان الكهان»[١].

نرى في هذا الحديث هذه المخاصمة التي أفضت إلى محاكمة، وكان القاضي هو رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، وحكم فيها بحكم الله، ثم جاء ذلك الرّجل الذي عليه سداد المغرم، بهذه المقطوعة الموسيقية المسجوعة، احتجاجاً منه على هذا الحكم، وكأنّه نَسِيَ أنّ الذي حكم في ذلك هو رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، وبحكم الله ـــ عزّ وجلّ ـــ. أو حسب أنّ أمر الشّرع كأحكام الجاهلية التي تنقضها الدّعاوى، والأقاويل المموّهة الباطلة.

والرّجل بفعله هذا أثار استغراب النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، فوصفه بعبارةٍ قصريّةٍ قصره فيها على صفة غير حسنةٍ، وهي كونه من إخوان الكهان، الذين يحرِّفون على النّاس ويلبِّسون عليهم، بأسجاعهم المعروفة في الجاهلية، ويدَّعون فيها علم الغيب، وكأنّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ يُعَرِّض هنا بِمَن يفعل مِثْل هذا الفِعْل، ويجعله مذموماً مذَّمة الكهان.

وهذا القصر هو من الحقيقيّ لعموم النّفي فيه، وهو للمبالغة في قصر هذا الرّجل على تلك الصّفة؛ وكأنّه بفعله هذا سقط من عين النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، وأصبح لا صفة له إلاّ تلك الصّفة الذّميمة. والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري ٢١٦/١٠، ومسلم ١٧٧/١١.

قصر الإمام على كونه جُنّة:

قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «مَن يطع الأمير فقد أطاعني، ومَن يعْصِ الأمير فقد عاصني، إنّما الإمام جُنّة، يُقاتل من ورائه، ويُتقى به...» الحديث[1].

في هذا الحديث جعل النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الإمام ردعاً يتقى به المأمون ما يضرّهم. يقول العيني: «لأنّه يمنع العدوّ من إيذاء المسلمين، ويمنع النّاس بعضهم من بعضٍ.

والجُنَّة: الدّرع، وسُمِّي الْمِجَنّ مِجَنّاً؛ لأنّه يُسْتَتَرُ به عند القتال، والإمام كالسّاتر[2].

فقصر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الموصوف (وهو الإمام) على الصّفة (وهي كونه درعاً يتقى به)، وهذا القصر من الحقيقيّ لعموم النّفي فيه، وهو للمبالغة في قصر الإمام على مهمّته الكبرى، وللتّأكيد على

---

(١) رواه البخاري ١١٦/٦، ومسلم ٢٣٠/١٢.

وهنا روايةٌ أخرى في صحيح مسلم ١٣٤/٤، ولكنها خاصّة بالصّلاة يقول فيها ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما الإمام جُنّة فإن صلّى قاعداً، فصلّوا قعوداً، وإذا قال: سمع الله لِمَن حمده فقولوا: اللهم ربّنا ولك الحمد».

ولكن هذا الحديث يتبع قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما جعل الإمام ليؤتمّ به».

انظر تحليل هذا الحديث ص: ؟؟؟ من هذا الحديث.

(٢) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للعيني ٢٢٢/١٤.

ما يجب عليه تجاه مَن ولاّه الله عليهم، فيحسن إليهم إذا عرف عظم ما أنيط به تجاههم.

وفي نهاية هذا المبحث، أودّ أن أشير إلى أنّ الشّواهد التي ذكرتُ قد تُؤوَّل على أنّها من القصر الإضافي، إلاّ أنّني رأيتُ وضْعَها بهذه الطّريقة لتكون موافقةً لظاهر الحديث؛ لأنّني إذا لم أجد في الحديث ما يَنُصُّ على أنّ القصر قصرٌ إضافيٌّ، أجعله في الحقيقي. ولكن القصر الإضافي أقرب إلى التّحقّق، من القصر الحقيقيّ الذي هو أقرب إلى المبالغة، من غيره.

المبحث الثّاني: أسرار القصر الإضافي

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل: شواهد قصر الإفراد.

المطلب الثّاني: شواهد قصر القلب.

المطلب الثّالث: شواهد قصر التّعيين.

قصر ولاء النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على الله وصالح المؤمنين:

قال سول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ألا إنّ آل أبي (يعني: فلاناً وفلاناً) ليسوا لي بأولياء، إنّما وليّي الله، وصالح المؤمنين»(١).

طبّق النَّبِيّ ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ عقيدة الولاء والبراء على نفسه، فتحوّل أكثر أقاربه إلى أعداء ألداء له.

والنَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ في هذا الحديث، يوضّح لنا عقيدة الولاء والبراء في أسلوبٍ قصريٌّ يميّز المقبول من المرفوض، وأسلوب القصر هو أسلوب الأمثل لمثل هذه الأمور التي فيها نفي وإثبات وإتيان واجتناب ودفع واجتذاب. وقد قصر النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ الصّفة (وهي الولاء) على الموصوف وهو (الله وصالح المؤمنين) على سبيل القصر الإضافي إذ المنفي هنا هو (آل أبي النَّبِيّ ـــ عليه السّلام) وهو من قصر الإفراد ـــ كما يظهر ـــ؛ لأنّ المخاطبين يظنّون أنّه مع ولائه لله والمؤمنين لا زال على ولاء لأقربائه، فنفى ـــ عليه السّلام ـــ عنه ولاء الأقرباء، وأفرد ولائه لله وصالح المؤمنين.

ومعنى قول النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ هذا: إنّ وليّي مَن كان صالحاً وإن بعد نَسَبُه منّي، وليس وليَّي مَن كان غير صالحٍ ولو كان نَسَبُه قريباً

---

(١) رواه مسلم ٨٧/٣، وقيل: إنّ المقصود بآل أبي الحكم بن العاص. والله أعلم. انظر: شرح النّووي ٨٨/٣.

منّي[(١)].

وبهذا يعلن ــ عليه السّلام ــ على رؤوس الأشهاد، اتّباعه منهج الله، وبراءَته مِمَن يخالفه، وتلك أسْمَى آيات الاتّباع لمنهج الله وحكمه.

قصر البيع أو الشّراء على الأرض، لا الذّهب:

قال النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «اشترى رجل عقاراً له فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جَرَّة فيها ذهب. فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك منّي، إنّما اشتريتُ منك الأرض ولم أبتع منك الذّهب، وقال الذي له الأرض: إنّما بعتُكَ الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجلٍ فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية. قال: انكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدّقا»[(٢)].

إنّه لقلّما يجد الإنسان في حياته مَن يكون على جانب من الورع، والصّدق، والأمانة، وحسن النّيّة، مثل هذين الرّجلين، المذكورين في الحديث، وذلك أنّهما لَمّا تبايعا، وأصبحت الدّار ملكاً للمشترِي ووجد فيها ذلك الذّهب رأى ــ من ورعه وتقاه ــ أن يرجعه إلى صاحبه، دون مساومةٍ أو مجادلةٍ، في ذلك؛ إذ لم يكن الاتّفاق في البيع إلاّ على الدّار لا على الذّهب، فلم يرَ له في أيَّ حقٍّ، وقال للبائع: خذ ذهبك عنّي زاهداً

---

(١) انظر: شرح النّووي ٣/٨٨.

(٢) رواه البخاري ٦/٥١٣.

فيه ومتبرِّئاً منه، فلو كان هذا الرّجل من غير أولي الصّلاح لجادل في ذلك، ولَحن في القول واحتال على هذا المال ليحصل (على الأقلّ) على جزءٍ منه، هذا إن لم يُخْفه أصلاً و لم يُعْلِم به أحداً، ولكنّ هذا الرّجل لم يفعل من ذلك شيئاً، و لم يزِد على أن قال لصاحب المال: خذ ذهبك عنِّي، و كأنّه شيء ثقيل، وقع عليه، ويريد من الآخر أن يبعده عنه، وذلك إنّه ربّما خاف فتنته لو بقي عنده ولو لوقتٍ قليلٍ.

ثم قال بعد ذلك تلك الجملة القصريّة: «إنّما اشتريتُ منكَ الأرض» التي قصر فيها الصّفة (وهي الشّراء) على الموصوف (وهو الأرض) على أساس القصر الإضافي بمعنى: إنّني، إنّما اشتريتُ منك الأرضَ، لا الذّهب، وهذا القصر من الإفراد؛ لأنّ المخاطب كما هو واضحٌ من الحديث يعتقد أنّه باع له الأرض وما فيها، وهو من التّحقيقيّ؛ لأنّ هذه حقيقة الأمر. فردّ عليه البائع بجملةٍ قصريّةٍ أخرى ليكون الخطاب من جنسٍ واحدٍ وقال له: «إنّما بعتُكَ الأرض وما فيها».

وهذه الجملة القصريّة، إذا ما تأمّلناها وجدناها لا تدخل تحت أيّ قسمٍ، من أقسام القصر الإضافي؛ لأنّ المخاطب هنا لا يعتقد المشاركة ولا العكس، و لم يكن متردّداً في الأمر بل إنّه يعتقد أنّه اشترى الأرض فقط. فجمع له صاحبه بهذه العبارة القصريّة بين الأرض والمال، ولَعَلَّنا نضيف قِسْماً رابعاً للقصر الإضافي، ونسمّيه: قصر الجمع، ونجعل هذا شاهداً عليه.

وهو من التّحقيقي في رأي قائله؛ لأنّه يعتقد أنّ هذه هي الحقيقة لكنّه ليس في واقع الأمر من التّحقيقيّ.

هذا وقد أكّد المشترِي خطابه بطريقةٍ قصريّةٍ بيِّنةٍ، فيها معنى النَّفي والاستثناء في وقتٍ واحدٍ، إلاّ أنّه لم يكتف بالنّسبة للجانب المنفي من العبارة بالنّفي الذي تضمَّنه الأسلوب القصريّ، بل أكّد ذلك أكثر، وذلك بذكر المنفي نطقاً، فقال: ولم أشتر منك الذّهبَ، ليؤكّد خروج الذّهب من نطاق ملكه وقد زاد في عَدد المؤكّدات ليدفع بها إنكار صاحبه.

فكلا الرّجلين كان صادقاً في نيّته مُتحرِّجاً من المال الذي يرى فيه شبهة، فيسَّر الله لهما هذا الحكم اللّبيب الفطن، الذي حلَّ القضية بطريقةٍ وَفَّقَت بين رغبتَيهما، وكان في حَلّه هذا الخير الكثير، حيث أقام بينهما علاقة مودّة، ورحمة، وأنفق هذا المال فيما يعود عليهما بالخير من كلّ النواحي، وتلك عاقبة التَّحرّي في الأمور والابتعاد عن شبهة الحرام بأن جعل الله فيها من الخير ما لم يخطر لهما ببالٍ، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطّلاق: ٢-٣](١).

قصر فتنة القبر على اليهود:

دخلت امرأة من اليهود على عائشة ــ رضي الله عنها ــ وعندها رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، فقالت: هل علمتِ أنّكم تفتنون في القبور، فارتاع النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مِمّا سمع وقال: ((إنّما تفتن يهود))، قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثُمَّ قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((هل شعرت أنّه أوحى إليّ أنّكم تفتنون في القبور))، قال عائشة: فسمعت رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يستعيذ من

(١) وأوّل الآية الأولى هو: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾

عذاب القبر(١).

لم يكن النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ يعلم بعذاب الميّت في قبره قبل أن يوحى إليه بذلك، وعند ما سمع ما قالته اليهودية ظنّ، أنّ هذه الصِّفة خاصّة باليهود، فقصرها عليهم بقوله: ((إنّما تفتن يهود))، أي: أنّ فتنة القبر خاصّة باليهود، وليست لنا، وهذا القصر من الإضافي؛ إذ أثبت هذه الصّفة لليهود، ونفاها عن أمّته على سبيل قصر الإفراد، بناء على غالب ظنّه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، وليس الأمر في الحقيقة كذلك إذ إنّه أوحي إليه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فيما بعد، بأنّ هذه الأمّة تفتن في قبورها أيضاً، فصار يتعوّذ من عذاب القبر، في كلّ وقتٍ ويكثر من ذلك في دُبُر كلّ صلاةٍ، أعاذنا الله من عذاب القبر. والله أعلم.

قصر الحكمة من خلق البقر على الحرث:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((بينما رجل يسوق بقرة، ركبها فضربها فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنّما خلقنا للحرث، وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذّئب فذهب منها بشاةٍ، فطلب حتى كأنّه استنقذها، منه فقال له الذّئب: هذه استنقذها منّي، فَمَن لها يوم السَّبع يوم لا راعي لها غيري))(٢).

---

(١) رواه مسلم ٥/٨٥.

(٢) رواه البخاري. الفتح ٦/٥١٢، ومسلم ١٥/١٥٦.

وفي رواية مسلم: ((لم أخلق لهذا ولكنّي إنّما خلقتُ للحرث)).

هذا الحديث ليس على نمط الأحاديث السّابقة، إنّما هو حديث فيه لطائف، وعجائب، حيث ساق فيه النّبيّ ــ عليه السّلام ــ هاتين القصّتين العجيبتين، حيث تكلّمت فيه البقرة والذّئب، ففي قول البقرة: «إنّما خلقت للحرث»، شاهد للقصر قصرت فيه (الحكمة من خلقها) على (كونها للحرث) على سبيل القصر الإضافي؛ إذ المعنى: إنّما خلقت للحرث لا للرّكوب، وعلى سبيل قصر الإفراد؛ لأنّ الرّاكب ظنّ أنّها خلقت للحرث والرّكوب، معاً، وإلاّ لما ركبها.

وقد أشار بعض العلماء إلى أنّ هذا القصر قصر إضافي، فقال: «وفي هذا الحديث حجّة على منع أكل الخيل مستدلاً بقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النّحل من الآية: ٨]، فإنّه لو كان ذلك دالاًّ على منع أكلها لدلّ هذا الحديث الذي جاء بأسلوب القصر على تحريم لحم البقر، وقد اتّفقوا على جواز أكلها، فدلّ على أنّ المراد بالعموم المستفاد من جهة الامتنان في قوله ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ والمستفاد من صيغة (إنّما) في قوله: (إنّما خلقت للحرث) عموم مخصوص»[1].

وهذا القصر من الإضافي؛ إذ لا تَطَرَّق فيه لِحِلِّ أكلها، أو حرمته، وإنّما يكون ذلك لو كان القصر حقيقيّاً.

أمّا بالنّسبة لقول الذّئب: (يوم لا راعي لها غيري)، فهو من قصر الصّفة (هي الرّعي) على الموصوف (وهو ذات الذّئب)، على سبيل القصر الحقيقي الادّعائي، لعموم النّفي، وعدم صلاح الذّئب لأن يكون راعياً.

---

(١) انظر: فتح الباري ٥/٨.

وقد اختلفت التّفسيرات لقوله: (يوم السّبع) فقيل: إنّ المراد أنّها تُسْبَع، أي: هُمل. وقيل: المراد اسم عِيدٍ في الجاهلية، يحتفلون فيه ويتركون غنمهم للذّئب، وقيل: المراد إنّه تكثر الفتن فيشغل النّاس بها عن أغناهم، وقيل غير ذلك(١).

إلاّ أنّني أرجّح المعنى الأخير، أي: أنّ النّاس يُشغلون عنها بالفتن، ويتولّى رعيها الذّئب كنايةً عن انفراده بأمرها. كما قال الشّاعر:

وَمَن رعى غنماً في أرضٍ مسبعةٍ   ونام عنْها تولّى رَعْيَها الأسدُ(٢)

والله أعلم.

قصر تحريم الميتة على أكلها:

وجد النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ شاةً ميتةً، فقال: «هلا انتفعتم بجلدها؟»، قالوا: إنّها ميتة. قال: «إنّما حرم أكلها»(٣).

جاء النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ إلى النّاس بهذه الشّريعة التي فَصلت فصلاً دقيقاً جدّاً، بين الحلال والحرام فكلّ ما هو طيّب أو يُمكن له أن يكون طيّباً أحَلّته، وكلّ ما هو خبيث حرّمته حتى ولو كانا متلاصقين، فلله، ما أشدّ تمييز هذا الدّين بين الحلال والحرام وبين الطّيّب والخبيث!

ففي هذا الحديث نرى هذا الأسلوب القصريّ، الذي قصرت فيه

---

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٥/١٥، وفتح الباري ٢٧/٧.

(٢) هو لابن الرّومي في ديوانه.

(٣) رواه البخاري ٣٥٥/٣، ومسلم ٥١/٤.

الصّفة على الموصوف وهو أكل الميتة على سبيل القصر الإضافي؛ إذ المنفي حرمة الانتفاع بجلدها وذلك على سبيل قصر الإفراد؛ لأنّهم كانوا يعتقدون حرمة استخدام جلدها كما هو واضح من الحديث، وهو من التّحقيقيّ لتحقّق ذلك فعلاً.

قصر وجوب الاغتسال على خروج الْمَنيّ:

سئل النَّبِيُّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن الرّجل يُعجَل عن امرأته، ولم يمن، فقال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما الماء من الماء»(١).

في هذا الحديث يقصر النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ (الماء) على كونه من (الماء). والمراد: إنّما الاغتسال بالماء من الماء، وهو قصر للصّفة على الموصوف قصراً إضافيّاً إفراداً؛ لأنّ المخاطبين كانوا يعتقدون أنّه يجب عليهم الغسل عند الجماع، سواء كان معه إنزال أو لا. وهو من التّحقيقيّ؛ لأنّ ذلك حكم شرعي. لكن جمهور الصّحابة، ومَن بعدهم، متّفقون على أنّ هذا الحديث منسوخ؛ لأنّه قد أُجمعت الأمّة على وجوب الغسل بالجماع، وإن لم يكن معه إنزال(٢).

هذا وإن كان ظاهر القصر أنّه للموصوف على الصّفة، إلاّ أنّ حقيقته من قصر الصّفة على الموصوف، وأنّ هناك محذوفاً وتقديره: إنّما وجوب

(١) رواه مسلم ٤/٣٧.

(٢) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٤/٣٦.

استعمال الماء من خروج الماء(١).

قصر الصَّبْر على كونه عند الصّدمة الأولى:

مَرَّ النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بامرأةٍ تبكي عند قبر فقال: «اتّقِي الله واصبري»، قالت: إليك عنّي، فإنّك لم تصب بمصيبتي، و لم تعرفه، فقيل لها إنّه النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، فأتت النَّبيَّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنّما الصَّبْر عند الصّدمة الأولى»(٢).

فهذا النّوع من القصر، هو من قصر الموصوف (الصّبر) على الصّفة (كونه عند الصّدمة الأولى)، على سبيل القصر الإضافي؛ لأنّ المعنى فيما يظهر ـــ والله أعلم ـــ، هو إنّما الصّبر عند الصّدمة الأولى لا بعدها. وهو قصر إفرادٍ؛ لأنّ هذه المرأة المسكينة كانت تعتقد أنّه يحسن الصّبر عند الصّدمة الأولى، كما يحسن فيما بعد ذلك، ولما لم تستطع الصّبر عند الصّدمة الأولى لشدّة هول المصيبة رأت أن تصبر بعد ذلك، فقال النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، مُفْرداً لها المعنى: إنّما الصّبر عند الصّدمة الأولى.

وقد جاءت روايةٌ أخرى فيها: «الصَّبر عند الصّدمة الأولى»(٣). وهي أيضاً مفيدة القصر بطريق التّعريف باللام.

---

(١) انظر: الإشارة إلى الإيجاز للإمام، عزّ الدّين بن عبد السّلام، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٨هـــ، ص: ٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم. انظر: الفتح ١٤٨/٣، ومسلم ٢٢٨/٦.

(٣) رواه مسلم ٢٢٧/٦.

هذا وإنّ الصّبر المقصود هنا ليس أي صبرٍ، وإنّما هو الصّبر الكامل، الذي يترتّب عليه الأجر. لكي يصحّ معنى القصر عند الصّدمة الأولى(١).

هذا وإنّ قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما الصّبر عند الصّدمة الأولى»، مَثَلٌ من الأمثال، وحكمةٌ يَتَمَثّل بها، وهو من البديع المعنوي(٢).

قصر طاعة الأمير على كونها في المعروف:

بعث النَّبِيُّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ سريّة وأمّر عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه فغضب عليهم وقال: أليس قد أَمَر النَّبِيُّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: عزمت عليكم لما جمعتم حطباً، وأوقدتم ناراً، ثم دخلتم فيها، فَجَمَعُوا حطباً، وأوقدوا ناراً، فلما همّوا بالدّخول فيها، فقاموا ينظر بعضهم إلى بعضٍ، فقال بعضهم: إنّما اتّبعنا النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فراراً من النّار، أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النّار، وسكن غضبه، فذُكر ذلك للنَّبِيِّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنّما الطّاعة في المعروف»(٣).

قصّةٌ عجيبةٌ في هذا الحديث، نرى فيها قسوة هذا الأمير الذي أمّره

---

(١) انظر ذلك في: شرح النّووي على صحيح مسلم ٢٢٧/٦، وفتح الباري ١٤٩/٣، وعمدة القارئ ٦٨/٨.

(٢) انظر: أنوار الرّبيع في أنواع البديع لابن معصوم المدني، ٦١/٢.

(٣) رواه البخاري ١٢٢/١٣، ومسلم ٢٢٧/١٢.

رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على السّريّة، بلغت به هذه القسوة عندما غضب عليهم إلى حدٍّ أنّه أراد إحراقهم.

فقال بعضهم ــ معرضين بخطئه ــ عبارةً قصريّةً قصروا فيها اتّباعهم للنَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، على الفرار من النّار، يعني: كيف ندخلها إرضاءً لمخلوقٍ؟ وهذه العبارة هي في أجلى صور التّعريض؛ بالقصر بإنّما ثم لما جاء خبرهم إلى النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، قال عبارةً تُندّد بمَن أراد الدّخول في النّار وأنّهم لو دخلوا ما خرجوا منها، وذلك لأنّهم أطاعوا المخلوق في معصية الخالق فلا يطاع الأمير فيما لم يأذن الله به، ثم أتبع النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ تلك العبارة بعبارةٍ قصريّةٍ قصر فيها (الطّاعة) على (كونها في المعروف)، وهو الخير والتّقى، وما يرضى الله، على سبيل القصر الإضافي ــ كما أرجح ، وذلك لأنّ المراد: ليست في المنكر، إذ إنّ علمه ذلك ينكره الله والنّاس. وهو من التّحقيقيّ لتحقق ذلك، وهو للإفراد؛ لأنّهم ظنّوا أنّ الأمير يطاع في كلّ شيءٍ، فأفرد النَّبيُّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ الأمر الذي يطاع فيه.

ثم إنّ في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّما الطّاعة في المعروف»، تعريضاً واضحاً بأولئك القوم الذين أرادوا طاعة الأمير، وكأنّهم لا يعرفون كيف تكون الطّاعة!.

هذا وقد جاء القصر هنا بطريق (إنّما)؛ لأنّ ذلك الأمر معروف ومعلوم يفهمه كلّ النّاس، والدّليل على أنّه معروف وإنّما تجاهله أولئك القوم ــ هو أنّ النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ توعّد الذين أرادا دخول

النّار، بأنّهم لو دخلوا، ما خرجوا منها، يعني: أنّهم ارتكبوا معصيةً، عن علمٍ فاستحقّوا مثل ذلك العقاب، ولو لم يكن كذلك، لما كان جوابه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قاسياً إلى هذه الدّرجة ولكان قال لهم أخطأتم، أو نحو ذلك دون تعنيف. ولَمّا كان الأمر مفهوماً ومعلوماً وليس من شأنه أن ينكره أحد، فقصره لهم بــ (إنّما). والله تعالى أعلم.

قصر النَّبِيِّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ نفسه على القسمة دون العطاء:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «مَن يرد الله به خيراً، يفقّهه في الدّين، وإنّما أنا قاسمٌ، والله معطٍ...». الحديث[1].

لقد فصَّل الإمام الكرماني ــ رحمه الله تعالى ــ القول، حول هذا الحديث تفصيلاً، بلاغيّاً، فقال: «والمعنى: ما أنا إلاّ قاسم، فإن قلتَ: كيف يصحّ هذا، وله صفات أخرى؟ مثل: كونه رسولاً، ومبشِّراً، ونذيراً؟ قلتُ: الحصر بالنّسبة لاعتقاد السّامع، وهذا ورد في مقامٍ، كان السّامع معتقداً كونه معطياً، وإن اعتقد أنّه قاسم. فلا ينفي إلاّ ما اعتقده السّامع، لا كلّ صفةٍ من الصّفات،وحينئذٍ إن اعتقد أنّه معطٍ لا قاسم،فيكون من باب قصر القلب،أي: ما أنا إلاّ قاسم، أي: لا معط، وإن اعتقد أنّه قاسم، ومعط أيضاً، فيكون من قصر الإفراد، أي: لا شركة في الوصفين، بل أنا قاسم فقط[2].

وفي هذا القول نجد أنّ الكرماني، قد بيَّن أنّ هذا القصر يحتمل

---

(١) رواه البخاري. انظر: فتح الباري ١/١٦، ومسلم ٧/١٢٨.

(٢) انظر: شرح الكرماني ٢/٣٧، ووافقه العيني أيضاً. انظر: عمدة القارئ ٢/٥١.

الوجهين: الإفراد والقلب،، ولكنّه إلى الإفراد أقرب[١].

وهذا القصر من الإضافي[٢]، التّحقيقيّ؛ لأنّ المعنى: أنّ المعطي حقيقة هو الله تعالى، وحده، وإنّما النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مستودع على ما عنده، ثم يقسم ما أمر بقسمته على حسب ما أمر[٣].

فالله ــ عزّ وجلّ ــ قد قسم هذا الخير الذي رحم به المؤمنين، على يده ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، فبيَّن ــ عليه السّلام ــ الشّريعة، وحدّ الحدودَ، ورغَّب وحذّر، وكذلك القاسم في الشّيء المحسوس يبيّن لكلّ إنسانٍ قسطه، وليس عليه تبليغ الحقّ لصاحبه[٤].

هذا وقد اختلف في نوع هذا الشّيء، الذي يقسمه رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، فقيل: إنّ المراد هو العلم، وبهذا يكون فهم النّصوص عطاء ربّانيّاً، ليس لأحدٍ أن يزيد فيه أو أن ينقص منه، فالنَّبيّ قاسم للعلْم، والله سبحانه وتعالى يزرق فهم ذلك النّصّ لِمَن يريد، فربّ

---

(١) يرى الدّكتور محمّد أبو موسى أنّ هذا القصر للإفراد فحسب وعلّل ذلك بأنّ الصّحابة ــ رضوان الله عليهم ــ وكأنّهم بفرط اعتقادهم في هدايته، يرون أنّ في يديه ــ عليه السّلام ــ، القسمة والعطاء، أي: القدرة على الاستنباط والوعي. انظر: دلالات التّراكيب، لمحمّد أبو موسى ص: ٧٠.

وهذا القصر في الحقيقة أقرب إلى كونه للإفراد؛ لأنّه قلّ مَن يعتقد العكس في هذه المسألة. وهذه المسائل للذّوق فيها نصيب موفور!

(٢) انظر: قطوف من رياض السّنة، لأحمد صالح رضاح ١/١٩٦.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٧/١٢٩، بتصرّفٍ.

(٤) انظر: بهجة النّفوس، لأبي جمرة الأندلسي ١/١١٤، بتصرّفٍ.

حامل فقهٍ إلى مَن هو أفقه منه. وربّ حامل فقه ليس بفقيهٍ»[1].

وسياق الحديث في كتاب فرض الخمس، للاستدلال على أنّ قسمة الغنيمة إلى رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ[2].

وأيّاً ما كان نوع القسم، فإنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطي حقيقةً، وما على رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ إلاّ القسمة فقط. والله أعلم.

قصر النّحر قبل الصّلاة على الذّبيحة:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّ أوّل ما نبدأ به في يومنا هذا: نصلّي، ثم نرجع، فننحر، فَمَن فعل ذلك، فقد أصاب سنتنا، ومَن ذبح، فإنّما هو لحم قدمه لأهله ليس من النّسك في شيء»[3].

وفي هذا الحديث نلاحظ أنّه قد قصر الموصوف (المذبوح قبل الصّلاة) على الصّفة (وهي كونه لحماً لأهله) وهو من القصر الإضافي، كما هو

(١) انظر: فطوف دانية من رياض السّنة، لأحمد صالح رضا القسم الأوّل، ص: ١٩٦.

(٢) انظر: عشرون حديثاً من صحيح البخاري، لعبد المحسن العباد ص: ٤٢.

(٣) رواه مسلم ١١٤/١٣، ولمسم رواية أخرى يقول فيها النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «مَن ضحّى قبل الصّلاة، فإنّما ذبح لنفسه». انظر: صحيح مسلم ١١٢/١٣، وفي هذا الحديث جاء القصر للصّفة وهي (الذّبح) على الموصوف (وهو كونه لنفسه)، وه ومن القصر الإضافي؛ لأنّ المنفي هو ذبحه للنّسك وهو من التّحقيقيّ لتحقّق ذلك فعلاً. والله أعلم.

الظّاهر؛ لأنّ المنفي فيه، كون هذا المذبوح من النّسك، وإنّما هو لحم قدم لأهله، فليس المنفي على سبيل العموم، وإنّما على سبيل الخصوص.

وهذا القصر جاء ليفرد المعنى عند مَن ظنّ أنّ الذّبح قبل الصّلاة، وبعدها، هو من النّسك، فأفرد النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الذّبح بعد الصّلاة بكونه من النُّسك، وأنّ ما قبلها هو لحم قدمه لأهله.

فنرى أنّ الحديث قد نفى أن يكون الذّبح قبل الصّلاة أضحيةً، وإنّما الضّحية التي تجزئ عن صاحبها هي ما بعد الصّلاة(١).

وفي هذا التّعبير النّبويّ الكريم لم يقل النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: إنّما النُّسك في الذّبح بعد الصّلاة، مثلاً، فَيَصِلَ إلى المعنى مباشرة، وإنّما أراد أن يؤكّد المعنى للسّامعين، بصيغةٍ متميّزةٍ يتذكرونها ولا ينسونها، فقال: «إنّما هو لحم قدمه لأهله»، أي: أنّه لا يجزئه بأي حالٍ من الأحوال، وأنّه لا يزيد على كونه لحماً قدمه الذّابح لأهله، في هذا اليوم، كما يقدمه لأهله، في بقية الأيّام.

قصر القول في الصّلاة على التّسبيح والتّكبير وقراءة القرآن:

عن معاوية بن الحكم السّلمي(٢)، قال: بينما أنا أصلّي، مع رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك

---

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١١٢/١٣.

(٢) هو: معاوية بن الحكم السّلمي كان يسكن في بني سليم، له صحبة بالنّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، روى عدداً يسيراً من الأحاديث. انظر: الإصابة في تمييز أسماء الصّحابة، لابن حجر العسقلاني، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٩٦هـ، النّاشر: مكتبة الكلّيّات الأزهرية ٢٢٩/٩.

الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمّياه، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمّا رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلمّا صلّى رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، فبأبي وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده، أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني[١]، ولا ضربني ولا شمتني، قال: ((إنّ هذه الصّلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النّاس، إنّما هو التّسبيح، والتّكبير، وقراءة القرآن))[٢].

في هذا الحديث نرى هذه القصّة الطّريفة، من معاوية ــ رضي الله عنه ــ، وكيف أنّ النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ حسنَ تعليمه له ولينَه في الخطاب. وهذا هو الأسلوب الأمثل في الدّعوة، وتعليم النّاس ما يجهلونه. ولقد جاء النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ خلال توجيهه هذا، بعبارةٍ قصريّةٍ قصر فيها الموصوف، وهو ما يقال في الصّلاة (وعبّر عنه بلفظ الضّمير هو) على الصّفة، وهي التّسبيح والتّكبير وقراءة القرآن على سبيل القصر الإضافي، كما يظهر إذ المقصود: لا يقال شيء من كلام النّاس، وقد ذكر الأمر المنفي، قبل عبارة القصر.

وهذا القصر للمبالغة كما يظهر لي، ويرى النّووي، أنّ معناه: إنّما هي، لهذه الأشياء ونحوها، كالتّشهّد، والدّعاء، والتّسليم من الصّلاة، وغير ذلك من الأذكار[٣]. ولكن قصر له الكلام في الصّلاة على التّسبيح

---

(١) أي: ما انتهرني.

(٢) رواه مسلم ٥/٢٠.

(٣) شرح النّووي على صحيح مسلم ٥/٢١.

والتّكبير، وقراءة القرآن، ليؤكّد له أنّ ذلك صلب العمل في الصّلاة وأصل الأقوال فيها، فيحثه على الاهتمام بها أكثر، وأعظم اهتمام.

وقد جاءت إنّما في هذا التّعبير لتُشَكِّلَ منه نوعاً من المعاتبة الأخويّة اللّطيفة، كأنّه يقول ألم تعرف: أنّ الذي يقال في الصّلاة، هو كذا وكذا، يا معاوية! فإنّما هنا امتزجت فيها الرّقّة، والعتاب اللّطيف لمعاوية، الذي فعل ما فعل عن طيب نيّة وسلامة قلبٍ.

وهذا القصر كما هو واضح من قصر الإفراد؛ لأنّ معاوية ــ رضي الله عنه ــ كان يظنّ أنّ الصّلاة يصلح فيها كلام النّاس والتّسبيح والدُّعاء ونحو ذلك. والله أعلم.

المطلب الثّاني: شواهد قصر القلب:

قصر ما أخذه الذّئب على ابن المرأة الكبرى:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذّئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها: إنّما ذهب بابنكِ، وقالت الأخرى: إنّما ذهب بابنكِ، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال: آتوني بالسّكين أشقّه بينهما، فقالت: الصُّغرى: لا تفعل ــ يرحمك الله ــ، هو ابنها فقضى به للصُّغرى»(١).

في سياق القصص العجيبة التي يرويها لنا نبيّنا المصطفى ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، هذه القصّة التي هي على النّقيض من قصّة الرّجلين الماضية(٢)، ففي نلك القصّة لم نرَ أي نوع من الاعتداء، أمّا في هذه القصّة فالاعتداء سافر واضح.

والقصّة السّابقة احتاجت إلى حكمٍ واحدٍ من النّاس العاديّين، لا لاستخراج الحقّ من يد ظالمٍ وإنّما لإيصال الحقّ إلى مَن يستحقّه، أمّا هذه القصّة فاحتاجت إلى حكمين كلاهما نبيّ لاستخراج هذا الحقّ.

وفي القصّة السّابقة يدفع الخصمان الأمر المختلف فيه عنهما، وفي هذه القصّة يتجاذب الخصمان الأمر المختلف فيه بينهما.

---

(١) رواه البخاري ٦/٤٥٨، ومسلم ١٢/١٨.

(٢) سبقت في أوّل المطلب الأوّل من هذا البحث.

فسبحان خالق الخلق ومصرّفهم، ومُشَتِّت سعيهم وأفعالهم.

في هذه القصّة (كما في الحديث) اختطاف الذّئب لابن المرأة الكبرى، فنراها تغتاظ من هذا الصّنيع، وسرعان ما يتحوّل هذا الغيظ إلى حسدٍ شديدٍ، لأختها الصّغرى، وتدّعي بهتاناً أنّ الذّئب لم يذهب إلاّ بابن الصّغرى، وتأكّد دَعوَاها بجملةٍ قصريّةٍ لكي تُنَزِّلَ هذا الأمر (أو ما تَدَّعيه) منْزلةَ الشّيء الذي لا جدال في صدقه وحدوثه. فنّزلت المجهول منْزلة المعلوم، وكأنّه أمر معروف لا نقاش فيه. حيث قالت: «إنما ذهب بابنكِ فقصرت الصّفة (وهي ذهاب الذّئب الخاطف) على الموصوف (وهو كونه ذهب بابنها) على سبيل القصر الإضافي إذ المعنى: إنّما ذهب بابنك لا بابني، وهو من قصر القلب؛ لأنّ المرأة الصّغرى كانت تعتقد عكس ذلك تماماً، وقد ادّعت أنّه تحقيقيّ، أي: متحقّق في الواقع، ولكنّه محض كَذِبٍ وافتراء، هكذا أكدّت هذه المرأة الكذوب دعواها.

أمّا المرأة الصّغرى المسكينة، فهي في موقف دفاعٍ عن حقّها، وقد استخدمت لذلك سلاحاً كالذي استخدمته تلك في الهجوم عليها، فردّت عليها بجملةٍ قصريّةٍ، كجملتها، وقصرت فيها صفة (ذهاب الذّئب الخاطف) على الموصوف وهو كونه ذهب بابن الكبرى، وكان هذا القصر من الإضافي أيضاً، ومراد ها: قلب المعنى الذي ادّعته الكبرى، وهو التّحقيقيّ؛ لأنّ حقيقة الأمر أنّ الذّئب ذهب بابن الكبرى.

وفي هذه القصّة نرى أنّه بعد أن ادَّعى الأمر بهما إلى الجـــدال، ثم إلى المحاكمة إلى داود ـــ عليه السّلام ـــ فاجتهد في الحكم بينهما معتمداً

على أدلّة (الله أعلم بها) ورأى أن يحكم به للكبرى، ولعلّها ـــ كما يظهر ـــ كانت ألحن بحجّتها من الأخرى. ولما خرجتا إلى سـليمان ـــ عليـه السّلام ـــ ظانّتين أنّه سيؤكّد حكم والده ـــ عليهما السّلام ـــ، وبعد أن سمع القضية وأدلّتها والحكم فيها، عرف أنّ الحكم غير صحيحٍ، فَفَكّر في حيلةٍ كانت غايةً في الذّكاء، والدّهاء، والفطنة، حيث طلب سكيناً ليشقّ الطّفل بينهما، فخافت الصّغرى حيئنذٍ على ولدها من الموت وطلبت من سليمان ألاّ يعمل ذلك، وتنازلت عن حقّها في الطّفل واعترفـت بأنّـه للكبرى، إشفاقاً عليه من الموت. وبهذا فرحت الكبرى باستحقاقها الطّفل، لكن سرعان ما يُبَدد نبيّ الله سُليمان ـــ عليه السّلام ـــ فرحهـا، هـذا ويُبدلها به ترحاً أكبر، حيث قضى بالطّفل للصّغرى.

هذا وقد جاء القصر في دعوى كلّ من المرأتين بـــ (إنّما) فأمـا الصّغرى فقد أتت بالقصر بإنّما لتبيّن أنّ حقيقة الأمر هي كـذلك، وأنّ ذلك الأمر معروف لدى الأخرى معرفة تامّة، أمّا الكبرى فقد لَوتْ عنق القول، وجعلت كأن الحقيقة إلى جانبها وهي كاذبة فنَزّلت المجهول منْزلة المعلوم، وذلك من باب الْمُغَالبة في الخصام. والله أعلم.

قصر التّفريط في الصّلاة على مَن تركها حتى يخرج وقتها:

نام النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ والصَّحابة معه في أحد الأسفار عن صلاة الفجر، وما استيقظوا إلاّ بعد طلوع الشّمس ثم صَلّوها بعد ذلك ــ فجعل الصّحابة يهمس بعضهم إلى بعضٍ يقولون: ما كفّارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ فلمّا سمعهم النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قال: «أما لكم فِيَّ أسوة، ثم قال: أمّا إنّه ليس في النّوم تفريط، إنّما التّفريط على مَن لم يصلِّ الصّلاة حتى يجيء وقت الصّلاة الأخرى...» الحديث[1].

إنّ الشّيء الذي يراه الإنسان ويعايشه يرسخُ، ويثبتُ في النّفس، أكثر من الشّيء الذي يتلقاه بالسّماع، دون تطبيق.

وفي هذا الحديث نرى كيف كتب الله على نبيّه، والذين معه النوم، حتى خرج وقت الصّلاة ولما استيقظوا كان الكلّ يريد أن يعرف الحكم في ذلك، وما الذي يجب عليه إزاء فوات الصّلاة. وهل هناك كفّارة على هذا الخطأ الذي وقعوا فيه؟ وجاء جواب النّبيّ ــ عليه السّلام ــ لهم في الحال، كالماء على الظّمأ إذ قال لهم تلك العبارة القصريّة المؤكّدة: «ليس في النّوم تفريطٌ، إنّما التّفريط على مَن لم يصلِّ الصّلاة حتى يجيء وقت الصّلاة الأخرى»، حيث قصر النّبيّ ــ عليه السّلام ــ الصّفة (وهي التّفريط) على الموصوف) (وهو مَن لم يصلِّ...) على سبيل القصر

---

(١) رواه مسلم ٥/١٨٦.

الإضافي، كما هو واضح في الحديث؛ إذ المعنى: ليس التّفريط على مَن نام عن الصّلاة، إنّما التّفريط على المتهاون فيها. وهو من قصر القلب؛ لأنّهم كانوا يظنّون (كما هو وارد في الحديث) أنّهم فرّطوا بالنّوم في الصّلاة، فردّ النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ عليهم بهذا القصر، وهو من التّحقيقيّ؛ لأنّ حقيقة الأمر هي كذلك.

وفي هذا الأسلوب القصريّ تأكيد على الجانب المنفي ضمناً من أسلوب القصر، وذلك بذكره نطقاً، وهو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ليس في النّوم تفريط»، وذلك ليؤكّد ــ عليه السّلام ــ رحمة الله بعماده، إذا كان النّوم مانعاً من أداء عملٍ مفروضٍ. وأنّه لا حرج ولا تفريط عليهم وقد رفع عنهم القلم حتى يستيقظوا. فلله الحمد والمنّة على ذلك.

ونلاحظ أنّ المقصور عليه مع إنّما في هذا الشّاهد هو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «مَن لم يصلِّ الصّلاة حتى يجيء وقت الصّلاة الأخرى»، وفي هذا المقصور عليه، عدّة جملٍ كلّها صلة للموصول (مَن) وبهذا فآخر جزء في الجملة هو هذا الاسم الموصول وصلته.

هذا ونلاحظ أنّه قد جاء في صلة الموصول جملةً قصريّةً أخرى بطريق النّفي والاستثناء وهو من قصر الصّفة (أداء الصّلاة) على الموصوف، وهو مجيء الصّلاة التي بعدها، وهذا القصر من الحقيقيّ التّحقيقيّ (كما يظهر) ولكن هذا القصر كلّه داخل جملة الصّلة، التي هي في الأصل، لا محلّ لها من الإعراب.

قصر تحيّة اليهود على السّام:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّ اليهود إذا سَلَّموا على أحدكم، إنّما يقولون: سام عليكم، فقل عليك»(١).

صورة قبيحة من مكر اليهود ولؤمهم يفضحها النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ حيث أخبر بالأسلوب القصريّ عن فعلهم هذا؛ لأنّ ذلك أصبح منهم عادة وطبيعة لا تفارقهم، وأفهمنا النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ بهذا الأسلوب القصريّ أنّه لا أمان ولا ثقة فيما يقول اليهود، حتى في التّحيّة، فإنّهم يريدون أن يعطونا فيها الموت، ونعطيهم السّلام والرّحمة والبركة.

وقد قصر النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ الصّفة وهي (قول التّحيّة للمسلمين) على الموصوف وهو (السّام) على سبيل القصر الإضافي؛ إذ المعنى: إنّما يقولون السّام عليكم لا السّلام عليكم، وهو فيما يبدو من التّحقيقيّ؛ لأنّ هذا هو شأنهم خصوصاً مَن كانوا في عهد النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ.

وهو من قصر القلب؛ لأنّ المسلمين كانوا يظنّون أنّهم يقولون لهم التّحيّة على وجهها، فقلب لهم النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ ما كانوا يعتقدونه. ثم علّم النَّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ الصّحابة كيف يردّوا على مثل تلك التّحايا المقلوبة، وأرشدهم إلى طريقةٍ ليس فيها سبّ أو فحش؛ لأنّ

---

(١) رواه البخاري ١٢/٢٨٠.

النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وأصحابه ــ رضوان الله عليهم ــ أرفع وأشرف من ذلك، ولو كان اليهود يستحقّون أسوأ الشّتم والسّباب ولكن الهدف من ردّ التّحيّة تلك الطّريقة لتكفل لهم العدل والإنصاف فإن أرادوا خيراً فعليهم، وإن أرادوا شرّاً فعليهم أيضاً، وتلك هي آداب الإسلام القويمة العادلة، فلله درّ الإسلام. والله أعلم.

قصر انقذاف الرّجل الصّالح على الجنّة:

ذكر النَّبِيّ ــ عليه السّلام ــ المسيح الدّجال، وذكر الرّجلَ الذي يأتيه فيختبره الدّجال ليؤمن بأنّه هو الله، وذلك الرّجل لا يؤمن بذلك فيعذّبه عذاباً شديداً، ثم في نهاية الحديث يقول الرّسول ــ عليه السّلام: «فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به فيحسب النّاس أنّما قذفه إلى النّار، وإنّما قذفه في الجنة...» الحديث[1].

نرى في هذا الحديث قصّة المسيح الدّجال الذي يأتي ببعض الأمور المدهشة الخارقة للعادة، ليضلّ النّاس ويكفّرهم فيأتي له هذا الرّجل القوّي الإيمان، الذي يقول الحقّ ويثبت عليه صامداً رغم أنواع التّعذيب التي يلقّاها، وعندما يَملُّ الدّجال من تعذيبه يرميه باتّجاه النّار فيظُنّ النّاس أنّه قذفه في النّار.

وفي عبارة النَّبِيّ ــ عليه السّلام ــ هذه قصر للصّفة (وهي القذف) على الموصوف وهو كونه في النّار على سبيل القصر الحقيقي، ــ كما

(١) رواه مسلم ١٨/٧٥.

يظهر ـــ، والتّحقيقيّ أيضاً في نظر أولئك النّاس.

ثم يأتي النَّبيّ ـــ عليه السّلام ـــ بعبارةٍ خرى، وهي قوله: «إنّما قذفه في الجنّة»، وفي هذه العبارة قصر للصّفة (القذف) على الموصوف (وهو كونه في الجنّة) على سبيل القصر الإضافي؛ إذ المعنى: إنّما قذفه في الجنّة لا في النّار. وهو من التّحقيقيّ؛ لأَّن تلك هي حقيقة الأمر، وهو من قصر القلب أيضاً؛ لأنّ المعنى: قلب ما يعتقد أولئك النّاس، وفي هذا الحديث أورد النَّبيّ ـــ عليه السّلام ـــ شاهداً على القصر بـــ (أَنَّما) (بالفتح) كما هو واضح في الشّاهد الأوّل، وهذا دليل على أنّه لا فرق بين أنّما المفتوحة، وإنّما المكسورة في الدّلالة على القصر. والله أعلم.

قصر الكرم على قلب المؤمن:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ويقولون الكرم[(١)]، إنّما الكرم قلب المؤمن»[(٢)].

وفي روايةٍ: «لا يقولَنّ أحدكم للعنب الكرم إنّما الكرم الرّجل المسلم»[(٣)].

هذا القصر وإن كان ظاهره أنّه من قصر الموصوف على الصّفة،

---

(١) الكرم هنا: مبتدأ وخبره محذوف، أي: يقولون: الكرم شجرة العنب. انظر: فتح الباري ٥٦٧/١٠.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ٥٦٦/١٠، ومسلم ٤/٥.

(٣) انظر: صحيح مسلم ٥/١٥.

لكن المتأمِّل فيه يجده من قصر الصّفة على الموصوف. وقد فسّر النّووي ـــ رحمه الله تعالى ـــ ذلك فقال: «إنّما يستحقّ هذا الاسم الرّجل المسلم، أو قلب المؤمن»(١). فهناك إذن صفة مقدّرة وهي الاستحقاق لهذا الاسم أو نحو ذلك.

هذا وقد اختلف العلماء في الحكمة من هذا النّهي: فبعضهم يرى أنّ كلمة الكرم اسم للرّجل المؤمن في بعض الكتب السّماوية السّابقة(٢).

وبعضهم قال: إنّ العرب كانت تطلق لفظة الكرم على العنب وعلى الخمر المتّخذة من العنب، فسمّوها كرماً؛ لأنّها متّخذة منه؛ ولأنّها تحمل على الكَرَم والسّخاء، فكَرِه الشّرع إطلاق هذه اللّفظة على العنب وشجره، لأنّهم ربّما إذا سمعوا هذه اللفّظة تَذَكّروا بها الخمر وهيّجت نفوسهم إليها فوقعوا فيها أو قاربوا ذلك(٣).

ويبدو لي أنّ استعمال القصر بإنّما هنا فيه تعريض بمَن قد يحن إلى الخمر، وأنّ المراد بالنّهي تأكيد تحريم الخمر بمحو اسمها؛ لأنّ في بقية هذا الاسم لها تقريراً لما كانوا يتوهّمونه من تكريم شاربها، فنهى عن تسميتها كرماً(٤). فهي أمّ الخبائث، فَمن أين لها أو لشاربها كرم أو كرامة؟

---

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٥/٥.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٠/٥٦٧.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٥/٤-٥.

(٤) انظر: الفتح ١٠/٥٦٧.

وهذا الحديث هو من قصر القلب؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ الكرم هو العنب، أو الخمر، ولم يعملوا أنّه يطلق على قلب المؤمن، فقلب لهم رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ هذا المعنى بهذا الحديث.

وهذا القصر للمبالغة ـــ كما يرى البخاري وابن حجر ـــ رحمهما الله تعالى ـــ، وليس هو على ظاهره، فالبخاري ـــ رحمه الله ـــ قد جمعه مع عبارات قصريّة أخرى جاءت على نمط هذا الحديث. كان القصد منها المبالغة، وقد قال ابن حجر عن فعل البخاري ذلك: «غَرَض البخاري أنّ الحصر ليس على ظاهره، وإنّما المعنى: أنّ الأحقّ باسم الكرم قلب المؤمن، ولم يُرِد أنّ غيره لا يُسَمَّى كرماً، كما أنّ المراد بقوله: «إنّما المفلس مَن ذَكَر»، ولم يُرِدْ أنّ مَن يفلس في الدّنيا لا يُسَمّى مفلساً»[١].

وبهذا يظهر أنّ هذا القصر قد قصد منه المبالغة في إثبات هذه الصّفة لقلب المؤمن أو الرّجل المسلم. والله أعلم.

قصر الشّدّة على مَن يملك نفسه عند الغضب:

قال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ليس الشّديد بالصُّرَعَة[٢]، وإنّما الشّديد الذي يملك نفسه عن الغضب»[٣].

ففي هذا الحديث قصر للصّفة (الشّدّة) على الموصوف (الذي يملك

---

(١) المرجع السّابق ٥٦٦/١٠.

(٢) الصّرعة: الذي يصرع النّاس كثيراً، والهاء للمبالغة في الصّفة.

(٣) رواه البخاري. انظر: ٥١٨/١٠، ومسلم ١٦٢/١٦.

نفسه عند الغضب) وهذا من القصر الإضافي، لنفي صفة الشّدّة عن الصّرعة، وإثباتها للذي يملك نفسه عند الغضب، وهذا القصر كسابقه والمقصود منه المبالغة في وصف الذي يملك نفسه عند الغضب بالقوّة والصّلابة وأنّ الذي يصرع النّاس وإن كان شديداً، فلا اعتداد بشدّته، وهذا القصر للقلب؛ لأنّهم ــ كما يظهر ــ كانوا يظنّون أنّ الشّديد هو الذي يصرع النّاس، فقلب لهم النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ المعنى.

ويرى النّووي: أنّ إطلاق الشّديد على الذي يملك نفسه عند الغضب هو حقيقة شرعية، وليس على سبيل المبالغة، يقول في معرض شرحه لهذا الحديث: «وكذلك تَعتقدون أنّ الصّرعة الممدوح القوّي الفاضل، هو القوّي الذي لا يصرعه الرّجال بل يصرعهم، وليس هو كذلك شرعاً، بل هو مَن يملك نفسه عند الغضب، فذلك هو الفاضل الممدوح، الذي قلّ من يقدر على التّخلّق بخلقه ومشاركته في فضيلته، بخلاف الأوّل»(١).

وفي هذا الحديث الموجز كثير من الفوائد ففيه إكبار لِمَن يملك نفسه عند الغضب؛ إذ لا يستطيع أن يتحكّم فيها إلاّ الشّديد حقّاً، وإنّك قد ترى الكثير من النّاس بإمكانهم أن يمنعوا أنفسهم عن الحرام، وأن يُرَوِّضوها على فعل الخيرات، ولكن القليل من النّاس من يملكون أنفسهم عند الغضب، فهذا ــ إذن ــ المحك، الذي يعرف به الأقوياء الأشدّاء،

---

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٦/١٦٢.

ولهذا جاء القصر هنا للشدّة عليهم وحقّ لهم ذلك. والله أعلم.

قصر سؤال مَن يريد الاستكثار من المال على الجمر:

يقول النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «مَن سأل النّاس أموالهم تكثراً، فإنّما يسأل جمراً فيستقلّ أو ليستكثر»[(١)].

يخبر النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بأنّ مَن يسأل النّاس من أجل أن يكون له مال كثير، وليس من أجل ما يوجب المسألة، فإنّ تلك المسألة مقصورة على الجمر على سبيل قصر الصّفة على الموصوف قصراً إضافيّاً ــ كما يظهر لي ــ أي: لا يسأل مالاً وإنّما يسأل جمراً، وهو من قصر القلب؛ لأنّ الْمُتَسَوِّل يظنّ أنّ الذي يأخذه مالاً، لا جمراً، وهذا القصر ــ فيما يظهر لي ــ للمبالغة وليس على سبيل الحقيقة، فالنّبيّ ــ عليه السّلام ــ يريد أن يبالغ في التّنكيل بمثل هذا الْمُتَسَوِّل، وأنّ عقابه النّار ــ ولو أنّ بعض العلماء رأى أنّه يحتمل أن يكون ذلك حقيقة بأن يصير المال الذي يأخذه جمراً[(٢)].

وهذا القصر كأنّه أتى في إثر حديث النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ كثيراً عن حرمة التَّسَوُّل من غير حاجّة، وأنّ فاعل ذلك له النّار يوم القيامة، وجاءت هذه الجملة بعد ذلك للتّذكير فقط بما مضى، ولذلك جاء القصر بإنّما إشارة إلى أنّ هذا الأمر معروف من قبل، وكذلك

---

(١) رواه مسلم ١٣٠/٧.

(٢) انظر: شرح النّووي لمسلم ١٣١/٧.

جاءت العبارة مختصرة فجعل المال جمراً مباشرةً بناء على ما تقرّر في الأذهان (من قبل) من أنّ هذا الفعل يؤدّي إلى النّار ذات الجمر واللّظى.

ثم جاء بعد هذه الجملة القصريّة جملة أخرى للتّهكّم من هذا الْمُتَسَوِّل وهي: ((فليستقلّ أو ليستكثر)). وللزيادة في التّنكيل به.

قصر المسكنة على المتعفِّف:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ليس المسكين الذي تردُّه التّمرة والتّمرتان، ولا اللّقمة واللّقمتان، إنّما المسكين المتعفِّف. اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة من الآية: ٢٧٣](١)).

في هذا الحديث يحدّد النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لنا المسكين حقّاً، حيث قصر صفة المسكين على الموصوف وهو المتعفِّف عن المسألة، وذلك على سبيل القصر الإضافي؛ لأنّ المنفي (كما هو واضح) هو كون المسكين الذي تردّه التّمرة والتّمرتان ونحوهما، وهذا القصر (كما يظهر) للقلب؛ إذ إنّ المخاطبين كانوا يطلقون لفظ المسكين على الذي تردّه التّمرة والتّمرتان، دون المتعفِّف؛ لأنّ المتعفِّف يظهر وكأنّه غنيّ، كما تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[البقرة من الآية: ٢٧٣]، فخصّص النّبِيّ ــ عليه السّلام ــ المسكينة بالمتعفِّف دون ذلك الذي تردّه التّمرة والتّمرتان ونحوهما مبالغةً في ذلك وقد أشار النّووي ــ رحمه الله ــ إلى ذلك حيث قال: ((وليس معناه نفي أصل المسكنة عن الطوّاف، بل معناه: نفي كمال المسكنة كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ

---

(١) رواه مسلم ١٢٩/٧، وأوّل الآية: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟﴾

ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾)، [البقرة من الآية: ١٧٧]، وبهذا يكون هذا القصر ليس تحقيقيّاً، وإنّما هو للمبالغة. والله أعلم.

قصر إطعام الصّائم وسقيه على الله عند ما يفطر ناسياً:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إذا نسي فأكل وشرب ناسياً، فليتمّ صيامه فإنّما أطعمه الله وسقاه))(١).

في هذا الحديث يخبر النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، أنّ مَن أكل أو شرب في رمضان ناسياً، فإنّه يتمّ صيامه، ولا شيء عليه، وقد قصر الإطعام والسّقيا على الله تعالى على سبيل القصر الإضافي ــ فيما يبدو ــ أي: لم يطعم نفسه، وإنّما أطعمه الله، وهو للمبالغة في الأمر (كما يبدو، والله أعلم)، إذ إنّ الله لم يأخذ الطّعام أو الشّراب إلى فمه، وإنّما هو الذي فعل ذلك، ولكنه لما كان ناسياً، والأمر في تلك الحال ليس بيده، أسند الفعل إلى الله سبحانه وتعالى، وفي القصر بإنّما هنا معنى طريف، وهو أنّ النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ تعرّض بطرفٍ خفيٍّ، لِمَن يتشدّدون في الدّين، ويقولون: على مَن أفطر ناسياً، أن يعيد ويقضي ما فاته، وكأنّ هذه العبارة القصريّة تحمل لهم في جوفها استفهاماً تعجّبيّاً؛ تقديره: إنّما أطعمه الله، وسقاه فكيف يحاسبه إذن؟!

هذا ويرى العيني أنّ في العبارة القصريّة هذه معنى التّعليل، أي: تعليل كون مَن أكل أو شرب ناسياً لا يُعَدُّ مفطراً يقول العيني: ((قوله:

---

(١) رواه البخاري. انظر: فتح الباري ٤/١٥٥، ومسلم ٨/٣٥.

إنّما، تعليلٌ، لكون النّاسي لا يفطر ووجه ذلك أنّ الرّزق لما كان من الله ليس للعبد فيه تحيّل، فلا يُنسب إليه»[(١)].

وتلك نكتة بلاغية حسنة أن تدخل (إنّما) على بعض الجمل لتفيد معنى التّعليل (كما هو واضح في هذا الشّاهد)، ثم إنّ هذه العبارة القصريّة الصّغيرة قد اشتملت أيضاً على جملتين قصريّتين، وليس على جلمةٍ واحدةٍ، فلو أَمْعَنَّا النّظرَ لرأينا أنّ الكلام هنا على تقدير: «إنّما أطعمه الله، وإنّما سقاه الله»، ولكن لماذا حذفت إنما الثّانية، واستتر فاعل الفعل الثّاني؟!

يظهر لي أنّ السّبب هو مراعاة تَنَاسق الكلام، ولو لم يُفعل ذلك لكان من التّكرار الْمُمِلّ، والبلاغة الإيجاز، فقد اختير لها أوجز طريق حتى إنّه لم يقل: «إنّما أطعمه، وسقاه الله»، حتّى لا يكون بها شيءٌ من الثّقل في تركيبها أيضاً، وذلك لتَنَازُع الفعلين فاعلاً واحداً، وهذا بالإضافة إلى أنّ إنّما سيثقل عليها نَظْم الفعلين معاً في مقصورٍ واحدٍ، لذلك جعلت جملة: (إنّما أطعمه الله) جملةً مستقلّةً، ثم عطفت عليها جملة وسقاه، وعندئذٍ تكون هذه العبارة في أحسن نظمٍ، وأحكم نسجٍ، وأبلغ صياغةٍ. وما ذلك إلاّ لأنّ قائلها هو أبلغ البشر ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، حيث جاء بعبارةٍ أَغْنَتْ عن أربعِ جملٍ؛ اثنتين مثبتتين، واثنتين مَنْفِيتين ضمناً. والله أعلم.

---

(١) انظر: عمدة القارئ للعيني ١١/١٨.

قصر ما يجرجر الشّارب من آنية الذّهب أو الفضّة في بطنه على نار جهنّم:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((الذي يشرب في إناء الفضّة، إنّما يجرجر في بطنه نار جهنم))[١].

يُحذّر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في هذا الحديث من الشّرب في آنية الفضّة، ولكنّه لم يأتِ بنهي مباشرٍ، وأسلوب إنشائي، بل أتى بأسلوبٍ خبريٍّ ذكر لنا خبراً عن عقوبة مَن شرب في الفضّة، وهذا الخبر كان بأسلوب القصر حيث قصر الصّفة (وهي جرجرة ما في بطنه) على الموصوف (وهو النّار) على سبيل القصر الإضافي ـــ فيما يظهر ـــ؛ إذ المعنى: يجرجر في بطنه ناراً،لا شراباً،وهذا القصر(كما يظهر لي) للمبالغة؛ لأنّ مَن يشرب في إناء الفضّة لا يشرب ناراً، وإنّما يشرب الشّراب الذي وضعه فيه، وإنّما جعل ناراً باعتبار ما سيكون أو باعتبار جزائه، حيث يسقى ماء الحميم، وبهذا يبيّن النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أنّ الذي يشرب في إناء الفضّة يكون قد قصد النَّار متعمداً، ومَن أقرب السّبل.

قصر الحساب اليسير على العرض دون مناقشة الحساب:

عن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ أنّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ قال: ((مَن حُوسب عُذّب))، فقالت عائشة: أو ليس يقول الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري ١٠/٩٦، ومسلم ١٤/٢٧.

والجرجرة هي صوت يردّده البعير في حنجرته إذا هاج، وهي هنا بمعنى: الصّبّ والتّجرّع. انظر: فتح الباري ١٠/٩٧.

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨]، قالت: فقال: «إنّما ذلك العرض، ولكن مَن نُوقشَ(١) الحساب، يهلك»(٢).

يخبر النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بأنّ مَن نوقش للحساب عُذّبَ، أي: مَن استقصى معه في الحساب وطولب بالجليل والحقير عُذّب في النّار(٣).

وقد فهمت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ من ذلك أنّ المعنى: ما من شخصٍ يُحاسب حساباً يسيراً أو عظيماً إلاّ يُعذّب، ثم رأت أنّ هذا المفهوم يناقض شيئاً، من معنى قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، فأشكل عليها هذا الأمر وسألت النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فقال لها النَّبيُّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عند ذلك: «إنّما ذلك العرض» فقصر (الموصوف) وهو (الحساب في الآية الكريمة) على الصّفة وهي كونه العرض. أي: أنّ الحساب المذكور في الآية إنّما هو أن تُعْرَضَ أعمال المؤمن عليه، حتى يعرف مِنّة الله عليه في سترها عليه، في الدّنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة(٤).

---

(١) نوقش: أصله من النّقش، وهو استخراج الشّوكة، والمراد هنا: الاستقصاء في المحاسبة. والمراد بالعرض: عرض النّاس على الميزان.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ١/١٩٧، ومسلم ١٧/٢٠٨.

(٣) انظر: فتح الباري ١١/٤٠٢.

(٤) انظر: فتح الباري ١١/٤٠٣.

وهذا القصر قصر إضافي، كما يظهر من سياق الحديث، والمعنى: (إنّما ذلك العرض لا مناقشة الحساب)، وهو قصر قلب؛ لأنّه قلب المعنى الذي كانت تظنّه عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ، فقد كانت تَظُنّ أنّ معنى الحساب في الآية هو معناه في قوله: ((حوسب عُذِّبَ))، فَقَلب هذا المعنى بهذه العبارة القصريّة، وبيّن أنّ معنى الحساب في الآية هو العرض، لا التّدقيق في الحساب، وهذا القصر من التّحقيقيّ؛ لأنّه متحقّق في الواقع فعلاً.

قصر الخيط الأسود والخيط الأبيض في الآية الكريمة على سواد اللّيل وبياض النّهار:

عن عدي[١] بن حاتم ـــ رضي الله عنه ـــ قال: لَمَّا نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[البقرة من الآية: ١٨٧][٢]، عَمَدتْ إلى عقال أسود، وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في اللّيل فلا يستبين لي، فغدوتُ إلى رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فذكرتُ له ذلك، فقالك ((إنّما ذلك سواد اللّيل وبياض النّهار))[٣].

---

(١) هو: عديّ بن حاتم بن عبد الله الطّائي، ولد حاتم طيء الذي يُضرَب المثل بجوده، وفد على النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ سنة سبعٍ للهجرة، وأسلم فأكرمه النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، واحترمه وصاحب النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، توفي سنة:٦٧هـــ. انظر: سير أعلام النّبلاء ٣/١٦٢.

(٢) أوّلها: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾.

(٣) رواه البخاري. انظر: فتح الباري ٤/١٣٢.

وفي روايةٍ أخرى يقول ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّ وسادك لعريض إنّما هو سواد اللّيل وبياض النّهار»(١).

لقد جاء القرآن الكريم بلغةِ العرب وعلى طرائق كلامهم في التّعبير، فكان سهل الفهم ميسور الذّكر... وقد خاطبهم هنا بطريق الاستعارة الْمَبْنيّة على تشبيه بياض الصُّبح، وسواد اللّيل (عند انفصالهما الدّقيق عن بعضهما)، بخيطين أبيضَ وأسودَ، ينفصلان عن بعضهما، وقد فَهِم هذا المعنى الصّحابةُ من غير ما عناء إلاّ أنّ بعضهم ـــ كما يرى القاضي عياض(٢) نقلاً عن النّووي ـــ مِمَّن كان من الأعراب ومَن لا فقه له، أو مِمَن لم يكن في لغته استعمال الخيط في اللّيل والنّهار لم يفهم هذا المراد(٣). وكان عديّ ـــ رضي الله عنه ـــ مِمَن لم يفهم المراد، فظنّ أنّ المعنى على ظاهره وحصلت منه هذه القصّة فلمّا جاء إلى النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ قال له: «إنّ وسادك لعريض» إمّا على سبيل الكناية المعروفة عن الغَبَاء وإمّا أنّه أراد أنّ وسادك لعريض إذا كان يغطي اللّيل والنّهار(٤). والمعنى الأوّل هو المتبادر.

---

(١) رواه مسلم ٧/٢٠٠.

(٢) هو: عياض بن موسى بن عياض اليحصبي عالم المغرب، ولد سنة: ٤٧٦هـ، كان إمام أهل الحديث في وقته، وكان أعلم النّاس بكلام العرب له من التّصانيف: الشّفا بتعريف حقوق الْمُصْطَفى، ومشارق الأنوار وغيرها، توفي سنة: ٥٤٤هـ. انظر: الأعلام ٥/٢٨٢.

(٣) انظر: شرح النّووي ٧/٢٠١.

(٤) انظر: فتح الباري ٤/١٣٣.

ثم قال له ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما ذلك سواد اللّيل وبياض النّهار»، حيث قصر الموصوف (وهو معنى الخيطين في الآية) على الصّفة: (وهي بياض اللّيل وسواد اللّيل) وهذا القصر من النّوع الإضافي؛ لأنّ نَفَى ما كان يعتقده عديٌّ من كونه الخيط الحقيقيّ، وكذلك فهو قصر قلبٍ؛ لأنّه قلب ما كان يعتقده عديٌّ من اعتقادٍ خطأ إلى الاعتقاد الصّحيح، وهو قصر تحقيقيّ، أيضاً؛ لأنّه متحقّق، في واقع الأمر حيث إنّ المراد بالآية كما فسّرها الرّسول ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ هو سواد اللّيل وبياض النّهار.

وكذلك فإنّني أرى أنّ في هذا الأسلوب تعريضاً، بعديّ ـــ رضي الله عنه ـــ، بسبب عدم فهم هذا المعنى الواضح.

قصر الظّلم في الآية على الشّرك:

لما نَزَل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[الأنعام من الآية: ٨٢]، شَقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ليس كذلك إنّما هو الشّرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[لقمان من الآية: ١٣]»(١).

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٦/٤٦٥، ومسلم ٢/١٤٣، وفيه قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ليس هو كما تظنّون، إنّما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ =

فهذا القصر هو من قصر الموصوف (الظّلم) على الصّفة (الإشراك بالله تعالى) على سبيل القصر الإضافي؛ لأنّ النّفي هنا هو نفي للظّلم عن معناه الأصليّ وهو وضع الشّيء في غير موضعه، وإثباته للشّرك، وهذا من باب قصر القلب؛ لأنّه قَلَّبَ ما كانوا يظنّونه ويعتقدونه إلى خلافه[١].

فالصّحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ حَمَلُوا الظّلم هنا على عمومه والْمتبادر إلى الأفهام وهو وضع الشّيء في غير موضعه، بأيّ مخالفةٍ للشّرع، فشقّ عليهم، فبيّن لهم النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بعد ذلك أنّ الظّلم ليس على إطلاقه إنّما هو الشّرك[٢].

وبيّن الكرماني ـــ رحمه الله ـــ أنّ التّنْوين في قوله تعالى: ﴿لَظُلْمٌ﴾ للتّعظيم، فكأنّه قال: لم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ عظيمٍ، فلما بيّن أنّ الشّرك ظلم عظيم، عُلِمَ أنّ المراد لم يلبسوا إيمانهم بشركٍ، وقد حصر الظّلم العظيم على الشّرك؛ لأنّ عظمة الظّلم معلومة بنصّ الشّارع، وعظمة غيره غير معلومةٍ[٣]، إذن فليس معنى الظّلم في أصلٍ معناه منحصر في الشّرك وأنّ غيره ليس بظلمٍ، لكنَّ المعنى: أنّ الظّلم على نوعين، نوعٌ عظيمٌ وهو

= إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان من الآية: ١٣]، وهذه الرواية ينطبق عليها ما قلته عن رواية البخاري.

(١) ويجوز أن يحمل هذا القصر على أنّه قصر إفراد، إذا ما اعتبرنا أنّهم كانوا يظُنّون أنّ الشّرك من جملة المعاصي.

(٢) انظر: شرح النّووي ٢/١٤٣.

(٣) انظر: الكرماني ٢/١٤٦.

الشّرك، ونوع أقلّ من العظيم، وهو المعاصي بأنواعها، غير الشّرك.

وبهذا يكون المقصور هو الظّلم العظيم وليس الظّلم فقط. وأصل الظّلم وضع الشّيء في غير موضعه، ومَن جَعل العبادة لغير الله فهو أظلمُ الظّالمين(١)، نعوذ بالله من الشّرك. ولهذا فالقصر هنا من التّحقيقيّ؛ لأنّه أثبت الظّلم المذكور في الآية للشّرك ونفاه عمّا كان يعتقده الصّحابةوهذا أمر حقيقيّ،وتفسير واقعي ليس القصد فيه المبالغة.والله أعلم.

قصر النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ نفسه على الشّفاعة:

إنّ زوج بريرة(٢)، وكان عبداً يقال له مغيثٌ، رآه رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وهو يطوف خلف بريرة، ودموعه تسيل على لحيته، فقال النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لعباس: يا عباس ألا تعجب من حبِّ مغيثٍ بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً، فقال النّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ: ((لو راجعته))، قالت: أتأمرني؟ قال: ((إنّما أنا أشفع))، قالت: لا حاجة لي فيه(٣).

في هذا الحديث نرى هذه القصّة العجيبة، حيث إنّ هذا العبد (مغيثاً) كان يحبّ زوجته بريرة حبّاً جمّاً، وكانت هي تكرهه كرهاً شديداً، وقد

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٤٣/٢.

(٢) بريرة هي مولاة عائشة ــ رضي الله عنها ــ اشترتها فأعتقتها. انظر: الطّبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادرٍ بيروت، سنة: ١٣٧٧هـ، ٢٥٦/٨، أما زوجها مغيث فلم أجد له ترجمة.

(٣) رواه البخاري. انظر: الفتح ٤٠٨/٩.

دفعه هذا الحبّ المهيض الجناح، إلى الجري، وراءها على مشاهد النّاس، يبكي، بدموعٍ سالت على وجهه ولحيته، وهي لا تحفل به، فكان هذا الحال مثار عجب النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، لكنّه رقّ لحالِ مغيث، فناشد بريرة أن تُفكر في أمرها، وتراجعه وتصبر على البقاء معه، فحين سمعت قول النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لو راجعته»، ظنَّت أنّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ يأمرها بذلك، فقالت: أتأمرني بذلك؟، فهي لا تريد أن تعصي رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، فقال لها النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما أنا أشفع: (أي: لا آمر بذلك)، فلَمّا رأت أنّ الأمر بالخيار قالت: لا حاجة لي فيه، فلم تغير شفاعة النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ من شدَّة كرهها له.

والشّاهد في هذا الحديث قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما أنا أشفع»، حيث إنّ هذه الجملة هي من قصر الموصوف (وهو ذات النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ)، على الصّفة (وهي الشّفاعة) وكان ذلك على سبيل القصر الإضافي، حيث إنّ المعنى هو كونُ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ آمراً بذلك، وهو من القصر التّحقيقيّ؛ لأنّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ كان في حقيقة الأمر شافعاً، لا آمراً لها. وهو كذلك من قصر القلب؛ لأنّ بريرة ظنّت أنّه ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ آمر لها بمراجعته، فجاء هذا القصر ليقلب لها ما كانت تَظُنّه إلى الحقيقة، وبهذا يظهر لنا من هذه الحادثة العجيبة كيف أنّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ كان يتحدّث إلى النّاس كواحدٍ منهم حيث إنّه حاول الإصلاح بين

هذين الزّوجين، بهذا الأسلوب اللّين اللّطيف، الذي استعطف به قلب بريرة على زوجها المسكين. وقال لها بأسلوبٍ رقيقٍ، لو راجعته، ولما لم تَسْتَجب لهذه الشّفاعة قال لها النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: إنّما أنا أشفع، أي: ما أنا إلاّ شافع، لا أريد أن أجمع بينكما على غير رغبة مِنْكِ. وفي عبارته هذه ـــ عليه السّلام ـــ، نوع من استشعار الأسف بمفاجأتها بهذا القول الذي فهمته على أنّه أمر لها بما لا تُطيق.

وهكذا نرى أنّ إنّما أليق من غيرها، في موافق الاعتذار والأسف. والله أعلم.

قصر الدّم الذي يخرج في غير وقت الحيض على العرق:

جاءت فاطمة ابنة حبيش[(١)] إلى النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فقالت: يا رسول الله، إنِّي امرأة أستحاض فلا أطهر فأدع الصّلاة؟ فقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا، إنّما ذلك عرق[(٢)]، وليس

---

(١) هي: فاطمة بنت حبيش صحابية جليلة. روت عن النَّبِيّ-صلّى الله عليه وسلّم- ثلاثة أحاديث. انظر: أعلام النّساء، لعمر رضا كحالة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّالثة، سنة: ١٣٩٧هـــ ٣٩/٤.

(٢) ذلك العرق، يقال له العاذل، ويُسَمّى دمه دم استحاضة، وليس حيضاً. انظر: شرح النّووي ٢١/٤.

وقوله: عرق: أي: دم عرق؛ لأنّ الخارج ليس بعرق. انظر: شرح العيني ١٤٣/٣.

بحيضٍ...)) الحديث[١].

في هذا الحديث نرى سؤال هذه المرأة التي ظنَّت أنّ الدّم الذي يستمرّ معها فترات طويلة، ولا يمكنها التّطهّر منه، ظنّت أنّه الحيض المانع من الصّلاة، فجاء النّبِيّ ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ لها بأسلوبٍ قصريّ، بيَّن لها أنّ هذا الدّم عرق، وليس كدم الحيض الذي يوجب الغسل، ويمنع من الصّلاة، وإنّما عليها أن تغسله ثم تتوضّأ وتصلّي.

وقد قصر النّبِيّ ـــ عليه السّلام ـــ الموصوف وهو (ذلك) الدّم الذي ذكرته على الصّفة وهي (عرق) على سبيل القصر الإضافي كما هو واضح، إذ نفى أن يكون ذلك الدّم حيضاً، وهو من قصر القلب؛ لأنّها كانت تعتقد أنّه حيض فقلب لها رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فأخبرها بأنّه عرق لا حيض، وهو من التّحقيقيّ لتحقّق قوله-صلّى الله عليه وسلّم-في الواقع، هذا ولا يعتقد أحد أنّ هذا القصر من قصر الموصوف على الصّفة كما هو ظاهر العبارة؛ لأنّ أصل العبارة ذلك عرق. فذلك إشارة إلى ذات معرفة وهو مبتدأ، وعرق خبر له ووصف له في المعنى.

هذا وقد جاء لهذا الأسلوب القصريّ روايتان أخريان، وكلتاهما مفيدة للقصر وهما: قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ذلك عرق، وليس بالحيضة))[٢].

---

(١) رواه البخاري ٣٢٢/١، ومسلم ١٧/٤.

(٢) رواه البخاري ٤٢٠/١.

وقوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((هذه ليست بالحيضة ولكن هذا عرق))[١].

فالرّواية الأولى أفادت القصر بطريق لغويّ، حيث ذكرت الجملة المثبتة، وبعدها الجملة المنفية، والقصر نفي وإثبات.

وكذلك الرّواية الثّانية فإنّها أفادت القصر، ولكن بطريق لغويّ أيضا، وأمّا (لكن) هنا فهي للاستدراك فقط. والله أعلم.

قصر ما صاده أبو قتادة على كونه طعمة من الله:

عن أبي قتادة[٢] ـــ رضي الله عنه ـــ يحكي قصته مع النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عندما سار النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ إلى الحجّ وكان أبو قتادة غير محرم، فعرض له حمار وحشي فقتله، وأكل الصّحابة منه وهم محرمون، فلما أدركوا رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ وسألوه عن ذلك قال: ((إنّما هي طعمة أَطْعَمَكُمُوهَا الله))[٣].

في هذا الحديث يسأل الصّحابة عن حِلّ هذا الصّيد الذي أكلوا منه، فيخبرهم النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أنّه حَلال لا شيء فيه؛

---

(١) رواه مسلم ٢٥/٤.

(٢) اسمه: الحارث بن ربعي السّلمي شهد بدراً وما بعدها، من المشاهد، كان يقول له فارس رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، توفي سنة: ٥٤هـ. انظر: تجريد أسماء الصّحابة، لشمس الدّين بن قايماز الذّهبي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٤/٢، وانظر: سير أعلام النّبلاء ٤٤٩/٢.

(٣) رواه البخاري ٩٨/٦.

لأنّه صِيدَ لهم، ولكنّه لم يقل لهم بصريح العبارة: إنّه حلال، بل أتى بعبارةٍ قصريّةٍ أدّت المعنى وزادت عليه بمعانٍ فقصر لهم الموصوف (وهو الصّيد) وعبّر عنه بضمير الغائبة (هي) على الصّفة وهي طعمة أطعمكموها الله، وهو من قصر الإضافي ــ كما يظهر ــ أي: أنّها ليست بحرامٍ ولكن طعمة، وهو من قصر القلب ــ كما يظهر ــ؛ إذ إنّ الصّحابة اعتقدوا أنّه لا يجوز الأكل من الصّيد للمحرم، ولذلك سألوا عنه، فطمأنهم النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وأخبرهم بأنّ الأمر بعكس ما يتوقّعون، وأنّها حلال، وأنّها طعمة ولكن ليست كالطُّعَم؛ لأنّها مسوقة من عند الله إليهم فليأكلوها، وليهنأوا بها وكأنّه يحثّهم على التّزوّد منها. والله أعلم.

قصر الأرض على ملكية الله ورسوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ:

خرج النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إلى يهود ونادى عليهم قائلاً: ((اعلموا أنّ الأرض لله ورسوله، وأني أريد أن أُجليَكم، فمَن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلاّ فاعلموا أنّما الأرض لله ورسوله))[(١)].

فهذا من قصر الموصوف (الأرض) على الصّفة (وهي ملكيّة الله ورسوله) قصرا إضافياً ليكون الْمَنفي (كما يظهر من مناسبة الحديث) هو كون الأرض لليهود.

وهو من قصر القلب ــ كما يظهر ــ (إنّما الأرض لله ورسوله)، أي: ملكها، والحكم فيها، وقال لهم ذلك؛ لأنّهم حاربوا الله ورسوله[(٢)].

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٣١٧/١٢، ومسلم ٩٠/١٢.

(٢) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٩٠/١٢.

وقد خاطبهم الرّسول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بقصرِ الموصوف على الصّفة ليؤكّد لهم الأمر أيّماً تأكيدٍ، وأن ليس هناك مساومة على هذه الأرض التي آن الأوان، أنّ تخضع لحكم الله ورسوله، ولا مكان لكم يا أعداء الله ورسوله، وهذا الأسلوب لا يترك لهم احتمالاً آخر يَتَخَيَّلُونَه. وكأنّ المعنى المفهوم من القصر: هو أنّ الأرض إمّا أن تكون لله ورسوله، وإمّا ألا تكون أصلاً. أما وقد كانت فهي لله ورسوله. لا لزمرة اليهود أعداء الله ورسوله.

هذا ونلحظ أنّ القصر استفيد هنا من (أَنَّما) بالفتح وهي كأختها المكسورة، ولكن تأتي أنّما (المفتوحة) في مواقع مثل: إذا دخلت على جملةٍ لها محلّ من الإعراب كهذه الجملة، حيث إنّ قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «أنّما الأرض لله ورسوله»، جملة في محلّ نصب مفعول به لاعلموا. والله أعلم.

قصر الشّمس والقمر على كونهما آيتين لله:

قال النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ للنّاس في خطبة الكسوف: «أيّها النّاس إنّما الشّمس والقمر آيتان، لا ينكسفان لموت أحدٍ من النّاس»[(١)].

في هذا الحديث يقصر النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ الموصوف (هو الشّمس والقمر) على الصّفة وهو كنها آيتين من آيات الله يخوِّف الله

---

(١) رواه مسلم ٦/٢٠٩.

بهما عبادَه، ونفى عنهما أن يكونا علامةً لموت عظيمٍ من العظماء، كما كان الجاهليّون يعتقدون[١]. وبهذا يكون هذا القصر من الإضافي قلباً، لقلبه معتقدات الجاهليّة، وهو من التّحقيقيّ لتحقّقه في الواقع. والله أعلم.

قصر المارّ بين يدي الْمُصلِّي على كونه شيطاناً:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إذا صلّى أحدكم إلى شيءٍ يستره من النّاس، فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدْفعه، فإن أبى، فليقاتله، فإنّما هو شيطان))[٢].

في هذا الحديث قصرٌ للموصوف وهو (المجتاز بين يدي الْمُصَلِّي) على الصّفة وهي (كونه شيطاناً) هذا هو ظاهر الحديث، لكن بعض المحدِّثين فسّره على غير ذلك، فرأى أنّ المعنى هو: أنّ فعله فعل شيطان، حيث إنّ إطلاق الشّيطان على المارّ من الجنّ، والإنس سائغ، شائع، كما في القرآن الكريم: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[الأنعام من الآية: ١١٢][٣]، وعلى هذا المعنى يكون هذا القصر من قصر الصّفة على الموصوف، ويكون المعنى: إنّما فعله فعل شيطان.

---

(١) انظر: صحيح مسلم ٦/٢٠٨، فقد كان الجاهليّون يقولون: إنّ الشّمس والقمر لا يخسفان إلاّ لموت عظيمٍ.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ٦/٣٣٥، ومسلم ٤/٢٢٤.

(٣) أوّلها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾.

ويرى بعضهم أنّ المعنى هو: إنّما الحامل له على ذلك الشّيطان[١].

ويكون المعنى أيضاً من قصر الصّفة على الموصوف.

ولكن الظّاهر أنّ هذا من قصر الموصوف على الصّفة قصراً إضافيّاً، للقلب؛ حيث إنّ المراد إنّما هو شيطان لا إنسان، وذلك على سبيل المبالغة، فكأنّه بفعله هذا قد صار شيطاناً خالصاً، والعياذ بالله.

ويرى آخرون أنّ هذا أسلوب تشبيهٍ، قصر المشبّه فيه على المشبّه به، وينتج عن هذا أنّ المعنى هو: ما حاله إلاّ كحال الشّيطان، أو إنّما هو كشيطان، فيصير من قصر الموصوف على الصّفة[٢]، أيضا.

وفي هذا الحديث نرى أنّ النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قد قصر هذا المارّ بين يدي الْمُصَلّي على كونه شيطاناً، والعياذ بالله؛ لأنّه قد اتّصف بصفةٍ هي من أسوأ صفات الشّيطان، وهي محاولة الاعتراض بين العبد وربّه، أي: كأنّه حاول أن يفصل بين العابد والمعبود، جلّ جلاله، وناهيك بفعله هذا إثماً وسوءاً! فَمَن فعل ذلك فهو كالشّيطان أو هو شيطان، خصوصاً إذا مُنع و لم يمتنع فالإنسان قد يفعل المعاصي في الحياة الدّنيا باختلاف أنواعها، وليس هذا بغريبٍ، بل الغريب أن يفعل الإنسان فعل الشّيطان.

وقد اختلف العلماء في معنى قوله: فليقاتله، هل هو على حقيقته، أو بالدّفع الشّديد؟ ولكن (على أي: حال) فهذا كلّه إنّما يجوز لِمَن احتاط

---

(١) انظر: فتح الباري ١/٥٨٤.

(٢) انظر: شرح الكرماني على صحيح البخاري٤/١٦٢،وعمدة القارئ٤/٢٩١.

لصلاته وصلّى إلى سترةٍ أو مكان يؤمَن المرور بين يديه[١]، أمّا مَن لم يحتط لنفسهِ فليس له أن يقاتل أحداً، مرَّ بين يديه. وبهذا نرى أنّ أسلوب القصر قد جاء في عبارةٍ خطيرةٍ ختم بها الحديث وجعلت كالخلاصة لكلّ ما سبق في الحديث. والله أعلم.

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٤/٢٢٣.

المطلب الثّالث: شواهد قصر التّعيين:

قصر ما أمسكه كلب الصّيد على نفسه (وصورة أخرى):

عن عديّ بن حاتم ـــ رضي الله عنه ـــ قال: سألت النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فقال: ((إذا أرسلتَ كلبَكَ الْمُعَلَّم فقتل فَكُلْ، وإذا أكل فلا تأكل، فإنّما أمسكه على نفسه))، قلت: أرسل كلبِي فأجد معه كلباً آخر.قال:((فلا تأكل فإنّما سمّيت على كلبك و لم تسمِّ على كلب آخر))[1].

لقد ميّز رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لنا بين الطّيّبات والخبائث.

وفي هذا الحديث نرى عديّاً، يسأل رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن الصّيد بالكلاب. فَيُبَيِّن له النَّبيّ ـــ عليه السّلام ـــ أنّه إذا أرسل كلبه الْمُعَلَّم[2]، فقتل الصّيد من غير أن يأكل منه شيئاً، فهو له حلال، أمّا إذا أكل الكلب من الصّيد فلا يجوز حينئذٍ الأكل منه.

وقد علّل النَّبيّ ـــ عليه السّلام ـــ سببَ حرمته هنا، وحلّه هنالك، بجملةٍ قصريّةٍ موجزةٍ جامعةٍ للحكمة في ذلك[3]؛ إذ قال: ((فإنّما أمسكه

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٢٧٩/١، ومسلم ٧٦/١٣.

وفي مسلم رواية أخرى وهي قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّما ذكرتَ اسم الله على كلبك و لم تذكره على الآخر)). صحيح مسلم ٧٧/١٣.

(٢) والمقصود بالْمُعَلَّم هو: الذي ينْزجر بالزّجر، ويسترسل بالإرسال. وإذا أخذ الصّيد حبسه على صاحبه لا يأكل منه. انظر: الكرماني ١٢/٣.

(٣) وهذا التّعليل من أحسن مواقع إنّما كما نراه في هذا الحديث.

على نفسه»، فقصر فيها الصّفة التي هي (إمساك الكلب للصّيد) على الموصوف وهو كونه على نفسه، على سبيل القصر الإضافي؛ إذ المعنى: إنّما أمسكه على نفسه، لا على نفسك أو لا عليك، وهو من القصر التّحقيقيّ؛ لأنّ هذه هي الحقيقة وإلاّ لما حرم أكله،وكما يبدو أنّ هذا القصر من قصر التّعيين؛ لأنّ المخاطب كان خاليَ الذّهن، غير عارفٍ بأيّ حكم في الأمر.

وبعد أنّ أجاب النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على سؤال عديّ هذا، عاود عديّ السّؤال عن أمر آخر، وجد أنّ فيه شبهةً، وهو أنّه إذا أرسل كلبه وجاء فوجد الكلب قد صاد الصّيد ولكنه وجد كلباً آخر مع كلبه على الصّيد، فما هو الحكم في ذلك؟ فبيّن له النَّبِيّ ــ عليه السّلام ــ، أنّ هذا الصّيد المقتول لا يحلّ، ووضّح له النَّبِيّ ــ عليه السّلام ــ السّبب في جملةٍ قصريّةٍ أخرى وهي قوله: «فإنّما سمَّيتَ على كلبك، ولم تسمِّ على الآخر»، فقصر فيها صفة التّسمية على الموصوف وهو الكلب على سبيل القصر الإضافي؛ إذ الصّفة المنفية هنا هي التّسمية على الكلب الآخر. وهذا القصر من التّحقيقي؛ لأنّ الحقيقة هي تلك، وهو من قصر التّعيين، للسّبب السّابق نفسه.

وقد استنبط العلماء من هذه العبارة القصريّة معنى آخر وهو اشتراط التّسمية عند الصّيد؛ لأنّه لم يقصر صفةً على الكلب المرسَل لكي يحلَ

صيده إلاّ صفةَ التّسمية فدلّ ذلك على أنّ التّسمية شرط في ذلك[١].

قصر بعث هذه الأمّة على التّيسير:

قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله النّاس، فقال لهم النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «دعوه، وهريقوا على بوله سجلاً من ماء، فإنّما بعثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسرين»[٢].

وفي روايةٍ أخرى: إنّ النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ دعاه وقال له: «إنّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنّما هي لذكر الله ـــ عزّ وجلّ ـــ والصّلاة وقراءة القرآن»[٣].

لما جاء هذا الأعرابي ـــ والذي يظهر أنّه حديث عهد بالإسلام ـــ أخذ زاويةً في نهاية المسجد، وبال فيها ولم يظنّ أنّ هناك حرجاً عليه في فعله. فلما رآه الصّحابة ثاروا عليه ونهروه؛ لأنّهم لم يعتادوا على ذلك الأمر، فقد تعلّموا من رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الطّهارة والنّظافة، والنّقاء.

ولكن نبيّ الرّحمة لم يكن ليقرّهم على فعلهم ذلك، لِمَا آتاه الله من الحكمة التي يدعو ويوجّه الأمّة بها، فمنعهم ـــ عليه السّلام ـــ؛ لأنّه رأى أنّ الأمر يسير جدّاً، فالبول على الأرض يمكن إزالة نجاسته بذنوبٍ من

---

(١) انظر في ذلك: شرح الكرماني ١٢/٣، والفتح ٦٠٠/٩-٦٠١.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ٣٢٣/١.

(٣) رواه مسلم ١٩١/٣.

الماء، ولا داعي للعنف، الذي يؤدّي إلى الكراهية والنّفرة.

فبعد أن نهاهم ــ عليه السّلام ــ عن معاتبة الأعرابي وزجره، أرشدهم إلى كيفية إزالة النّجاسة، ثم جاء بجملةٍ قصريّةٍ مؤكّدةٍ تأكيداً شديداً، على أمرٍ مهمٍّ جدّاً، وهو التّيسير واللّطف في الدّعوة، فقصر النّبيّ ــ عليه السّلام ــ الصّفة (وهي بعث هذه الأمّة) على الموصوف وهو (كونهم ميسِّرين) على سبيل القصر الإضافي؛ لأنّه نفى عنا أن يكون بعثهم للتّعسير، وهو من التّحقيقي؛ لأنّ هذه هي حقيقة الأمر وهذا القصر للتّعيين[١]؛ لأنّ أذهان الصّحابة ــ عليهم رضوان الله ــ لم يكن فيها تصوّر محدّد إذ ذاك فلم يعتقدوا أنّهم بعثوا معسرين، ولم يعتقدوا أنّهم بعثوا بالتّيسير والتّعسير.

ونلاحظ هنا ذكر الأمر المنفي تأكيداً على أنّهم لم يبعثوا معسرين، وهذا الجملة: «ولم تبعثوا معسرين»، وإن كانت خبرية الظّاهر فإنّها إنشائية المعنى؛ إذ المعنى: لا تعسّروا على النّاس. إذن فعلى المسلم ألاّ يدعو بالقسوة أبداً؛ لأنّه إذا دعا بالقسوة كان ضرره أكثر من نفعه، وبهذا فلا مكسب من وراء دعوته.

هذا وقد قيل: إنّ في قوله ــ عليه السّلام ــ: «بعثتم» مجازاً؛ لأنّ المبعوث هو ــ عليه السّلام ــ ولكنّهم لما كانوا في مقام التّبليغ عنه في

---

(١) هذا، ويجوز أن يكون هذا من قصر الأفراد إذا ما اعتبرنا أنّ الصّحابة كانوا يعتقدون أنّ سبيل الدّعوة تصلح فيه الشّدّة أحياناً واللّين أحياناً أخرى.

حضوره وغيبته، أطلق عليهم ذلك؛ إذ هُمْ كذلك مبعوثون من قِبَلِه بالتّيسير، فقد كان كلّ مَن بعثه إلى جهةٍ من الجهات يقول له: ((يسّروا ولا تعسّروا))(١).

هذا ونلاحظ أنّ في هذه العبارة الموجزة القصريّة بعض المحسنات البديعية، التي تعطي العبارة مع التّأكيد وقعاً معيَّناً في النّفس وجرساً خاصّاً، في الأذن فلا يكاد ينساها الإنسان من أوّل مرّة يسمعها.

هذا وإنّ في قوله ـــ عليه السّلام ـــ: ((بعثتم))، وقوله: (لم تبعثوا)) طباق سلبٍ؛ إذ جمع بين فعلين من مصدرٍ واحدٍ، أحدهما: مثبت، والآخر: منفيّ.

وكذلك في العبارة جناس مضارع بين قوله: ((ميسِّرين ومعسرين))، حيث تغيّر الحرف الثّاني فقط من الكلمتين(٢).

قصر بعثته ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ على الرّحمة:

سأل الصّحابة رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: أنْ يدعوَ على المشركين، فقال: ((إنِّي لم أبعث لَعَّاناً، وإنّما بعثت رحمةً))(٣).

لقد صدق الله العظيم حين قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

فنبيّنا ـــ عليه السّلام ـــ كان يؤدّي مهمّته في التّبليغ والدّعوة إلى

---

(١) انظر: فتح الباري ١/٣٢٤.

(٢) انظر: من كنوز السّنة، للصّابوني ص: ١٣١.

(٣) رواه مسلم. انظر: صحيح مسلم ١٦/١٥٠.

الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويترك أمر المشركين المعاندين، إلى الله تعالى، فإنّه تعالى قد توعدهم بالعذاب والعقاب الشّديدين، فهو «إذن ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ ممتثلٌ قول ربّه سبحانه: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ﴾[الغاشية: ٢٢-٢٤].

وإذا ما تأمّلنا في دعائه على الكفار والمنافقين فسنرى أنّه لم يكن يدعو عليهم إلاّ في ظروفٍ معيَّنةٍ كأنْ يفعل المشركون أمراً يَضُرّ بالمسلمين وفيه اعتداء على حرماهم كما فعلت رعل، وذكوان(١)، أو نحو ذلك.

أمّا ما عدا ذلك فكان لا يدعو على المشركين، بل يدعو الله أن يهديهم، ونحن عندما نرفع النّظر إلى هذا الحديث، نجده يمثّل قمة عليا من الخلق الكريم، والتّسامح، والحكمة، فعِنْد ما سئل ـــ عليه السّلام ـــ الدّعاء على المشركين بالسّوء، أجاب السّائلين بجملةٍ قصريّةٍ مؤكّدةٍ، فيها تعريض بتناسيهم وغفلتهم، عن المبدأ الذي رسمه النّبيّ ـــ عليه السّلام ـــ لنفسه، وهو إنّه ليس من شأنه مثل هذا الفعل. ولهذا قال لهم ـــ عليه السّلام ـــ: «إنّي لم أُبعث لَعَّاناً، وإنّما بُعِثْتُ رحمةً»، فقصر الصّفة وهي

---

(١) رعل وذكوان: حيان من سليم لعنهم النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لقتلهم أهل بئر معونة. انظر:الأنساب للسّمعاني، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٨هـــ، ٣/٧٦.

وانظر: جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار المعارف، الطّبعة الخامسة، ص: ٢٦٢-٢٦٣.

بعثه ــ عليه السّلام ــ، على الموصوف وهي الرّحمة على سبيل القصر الإضافي؛ لأنّه ذكر الأمر المنفي وهو كونه: «لم يبعث لَعَّاناً»، وهذا من القصر التّحقيقيّ؛ لأنّ هذه هي حقيقة الأمر وهو للتّعيين؛ لأنّ الصّحابة لم يعتقدوا العكس ولا المشاركة.

وقد أكّد النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على الجانب المنفي في هذا القصر، وهو أنّه لم يبعث لَعَّاناً، لكي يوضّح لهم هذا الأمر كلّ التّوضيح، ويقصر بعثته المباركة على الرّحمة، مشيراً بذلك إلى القصر في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، [الأنبياء: ١٠٧]، فهو ــ عليه السّلام ــ رحمة أهداها الله لهذه البشرية، وهو كالغيث المغيث الهنيء، الغدق، العام من غير هدمٍ ولا غرقٍ. والله أعلم.

قصر ما يجمعه النّاس على أموالٍ على كونها للدّنيا:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما أحبّ أنّ ليَ مثل أحدٍ ذهباً، أنفقه كلّه إلاّ ثلاثة دنانير، وإنّ هؤلاء لا يعقلون، إنّما يجمعون للدّنيا...» الحديث[1].

نرى في هذا الحديث زهد النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ في المال والذي هو شريان الحياة، والزّهد في المال هو الزّهد في الحياة بحقٍّ! وقد جاء النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ للتّعبير عن زهده بهذا الأسلوب، حيث إنّه لا يحبّ من المال إلاّ ثلاثة دنيانير.

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٢٧٢/٣، ومسلم ٧٤/٧.

واختلف في مراده بهذه الثّلاثة، ولعلّه لدَيْن كان عليه عندما ذكر هذا الحديث كما يرى الكرماني(١).

ثم ذكر بعد ذلك أنّ النّاس في هذه الحياة لا يجمعون الأموال في حياتهم إلاّ بقصد التّمتّع بها في الدّنيا ليس بقصد الإنفاق في سبيل الله؛ إذ لو أرادوا بكلّ ما يكسبون الإنفاق في سبيل الله لما جمعوا الأموال بهذه الكثافة وهذه الشّراهة! فجاء القصر للصّفة وهي جمع الأموال على الموصوف وهو الدّنيا، على سبيل القصر الإضافي ـــ فيما يبدو لي ـــ؛ لأنّ المقصود: لا يجمعون، لينفقوا في سبيل الله، وإنّما يجمعون للدّنيا، وهو للمبالغة في ذلك؛ لأنّه ليس كلّ النّاس يجمع للدّنيا، لكنْ لما كان عامتهم، أو أغلبيتهم العظمى، تجمع للدّنيا، جاءت هذه المبالغة التي تقتربُ من الحقيقة جدًّا، خصوصاً، كلما تقدّم الزّمان فإنّ نسبة مَن يجمعون للدّنيا تزداد وتتضخّم ونسبة مَن يجمعون ابتغاء وجه الله تقلّ حتى لا تكاد تذكر. والله المسعتان.

قصر الرّؤيا الصّالحة على الله، وقصر الرّؤيا السّيّئة على الشّيطان:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إذا رأى أحدكم رؤيا يحبّها فإنّما هي من الله، فليحمد الله، وليحدّث بها، وإذا رأى غير ذلك مِمّا يكره فإنّما هي من الشّيطان، فليستعذ من شرِّها، ولا يذكرها لأحدٍ، فإنّها لا تضرّه))(٢).

---

(١) انظر: شرح الكرماني على صحيح البخاري ٧/١٨٠.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ١٢/٣٦٩.

في هذا الحديث جملتان من القصر كلتاهما من نوعٍ واحدٍ من القصر:

فالأولى: قصر فيها الموصوف (الرّؤيا الصّالحة) على الصّفة (وهي كونها من الله).

والثّانية: قصر فيها الموصوف (الرّؤيا المكروهة) على الصّفة (وهي كونها من الشّيطان). وكلتا الجملتين من القصر الإضافي؛ إذ الأولى نُفِيَت فيها الرّؤيا المحبوبة عن كونها من الشّيطان، والثّانية نُفِيَت فيها الرّؤيا المكروهة عن كونها من الله تعالى. وكلاهما من قصر التَّعيين؛ لأنّ المخاطبين بهذا لم يكونوا على علمٍ بمصدر الرّؤيا ولم يجادلوا في ذلك (فيما يظهر).

ومن هذا الحديث نستفيد أنّ الخير كلَّه مقصور على الله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النّحل من الآية: ٥٣].

وأمّا الرّؤيا المكروهة فهي مقصورة على مصدر الشّيطان، الذي يجري في الإنسان مجرى الدّم، فيُخَيِّل له في المنام أموراً يكرهها.

وهذا القصر من القصر التّحقيقي؛ لإنّ الرّؤيا الصّالحة من الله تعالى حقيقة، لا من الشّيطان، والرّؤيا السّيّئة من الشّيطان حقيقة، لا من الله، تعالى الله عن ذلك.

قصر مدّة حداد المتوفى عنها زوجها على أربعة أشهر وعشر:

جاءت امرأة إلى النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فقالت: يا رسول الله: إنّ ابنتي توفّي عنها زوجها وقد اشتكت عينها، أفتكحلها؟ فقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا. (مرّتين أو ثلاثاً) كلّ ذلك يقول: لا. ثم قال: إنّما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية تَرْمي بالبعرة على رأس الحول))(١).

عندما اشتكت هذه الأرملة عينها وأرادت أن تكتحل، منعها النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من ذلك إلى أن تُكْمِل مدّة الحداد. ثم جاء بعبارةٍ قصريّةٍ تعجّبيةٍ، يتعجّبُ من قصر المدّة التي لم تستطع هذه المرأة إتمامها. فقال لها: هي أربعة أشهر وعشر، فقصر لها المدّة على أربعة أشهر وعشر، على سبيل القصر الإضافي ــ كما يظهر ــ، أي: أربعة أشهر لا أكثر، ثم إنّها ليست كمُدّة الحداد في الجاهلية، حيث تبقى المرأة على تلك الحال سنةً كاملة، بل إنّ الحداد في الإسلام لم يمنع المرأة إلاّ عما تتزّين به، أمّا التّطهّر فلم يحظّره عليها وقد جاء القصر بإنّما هُنا ليحملَ معنى التَّهوين والتّخفيف عن هذه المرأة.

وفيه حثٌّ لها على الصّبر والاحتمال، حتى تنقضي عنها هذه المدّة اليسيرة.

---

(١) رواه مسلم ١١٤/١٠، ومعنى: ترمي بالبعرة على رأس الحول. هو أنّ المرأة كانت في الجاهلية إذا مات زوجها لا تغتسل ولا تمسّ ماء ولا تقلّم ظفراً، حتى ينتهي حول كامل، ثم تخرج من عزلتها، في أقبح منظرٍ، ثم تغتسل وتنتظف، ورمى بالبعرة، قيل: كناية عن رمي العدّة، وذلك مثل انفصالها من البعرة ورميها. وقيل: هو على الحقيقة حيث إنّها ترمي ببعرة تفتضّ بها. انظر: شرح النّووي ١١٤/١٠.

وفيه أيضاً معنى المواساة الطّيّبة، فيما تشعر به من ألم ووجع.

هذا وقد جيء بإنّما (بالذّات)؛ لأنّ الأمر معلوم لدى هذه المرأة فهي تعرف أنّ المدّة أربعة أشهر وعشرٌ، وهي لم تطلب إلاّ الإذن لها بالكحل و لم تُرِد ترك الحداد. والله أعلم.

قصر الأعمال المحاسب عليها في يوم القيامة على أعمال المرء نفسه:

يقول النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((يقول الله تعالى: يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إيّاها، فَمَن وجد خيراً فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلاّ نفسه))[١].

يخاطب الله سبحانه وتعالى عباده بأسلوب يدعو إلى الاعتبار، والتّفكّر، أسلوب رقيقِ الموعظة، بالغِ الصّراحة، جاءت إنّما في صدره لتفتحه لحمل كلّ تلك المشاعر، مذكِّرة بحقيقة لا يجهلها أحدٌ، فقد قصر قوله (هي) ضمير الغائبة، و لم يحدّد مرجعاً خاصّا لهذا الضّمير، بل جعل الأمر فيه مطلقاً، ليتأوله كلّ إنسانٍ بما يحلو له، وقد يتأوّل هذا الضّمير، على أنّه ((الأمور التي أحاسبكم عليها أو الأمور التي يتوقّف عليها فوزكم أو خسارتكم، نعيمكم أو شقاؤكم... أو نحو ذلك)).

وهو قصر للموصوف على الصّفة على سبيل القصر الإضافي؛ إذ التّقدير: إنّما هي أعمالكم، لا أعمال غيركم، وذلك ليؤكّد للخليقة كلّها عدله سبحانه وتعالى، وأنّه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأنّه لا يظلم النّاس

---

(١) رواه مسلم ١٦/١٣٣.

شيئاً، ولكن النّاس أنفسهم يظلمون، وهو من القصر التّحقيقي، وهو ـــ في نظري ـــ من التّعيين ليقرّر الله سبحانه هذه القاعدة قبل أن يسبق إلى الأذهان، أي: تصوّر.

ثم بعد ذلك مّن وجد عند الله خيراً فليحمد الله الذي أعانه ووفّقه لذلك، ومَن وجد غير ذلك فليقصر لومه على نفسه قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، فنفسه هي المستحقّة للوم؛ لأنّها فرّطت في جنب الله وكانت من الظّالمين. والله أعلم.

قصر داخلي الجنة على ضعفاء النّاس، وقصر الجنّة على كونها رحمة، وقصر النّار على كونها عذاب الله

قال النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((تحاجّت الجنّة والنّار، فقال النّار: أوثِرْت بالمتكبِّرين والمتجبِّرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلاّ ضعفاء النّاس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك مَن أشاء من عبادي، وقال للنّار: إنّما أنت عذاب أعذّب مَن أشاء من عبادي، ولكلّ واحدةٍ منهما ملْؤها، فأمّا النّار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط، قط، قط، فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض))[1].

في هذا الحديث تتحادث الجنة والنّار، وتَتَساءل الجنة: لماذا قصر الدّخول فيها على ضعفاء النّاس؟ وهذا القصر ليس إلاّ للمبالغة؛ إذ ليس

---

(١) رواه البخاري ٥٩٥/٨، ومسلم ١٨٢/١٧، وفي مسلم قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ للجنة: ((إنّما أنتَ رحمتي)).

كلّ مَن في الجنّة ضعفاء ومساكين، ولكن لأنّ أغلب مَن يدخلها هم من هذا النّوع، فجَعَلَت كأنّه لم يدخلها غيرهم(١).

أمّا النّار فَتُخبر بأنّ الله آثرها على الجنّة بكلّ متكبِّر جبّار، وكأنّها بهذا تفاخر الجنّة، أمّا الجنّة فتتحدّث بلهجة المتضرّع المسكين.

فيخاطبهما الله تعالى ويقصر الجنّة على رحمته، والنّار على عذابه، وذلك على سبيل القصر الإضافي؛ بمعنى: أنّ الجنّة رحمة لا عذاب فيها، والنّار عذاب لا رحمة فيها. وهذان القصران تحقيقيّان؛ لأنّه مَن يدخل الجنّة فقد فاز بالرّحمة حقّاً، ومَن أدخل النّار فقد باء بالعذاب حقّاً، أعاذنا الله من عذابه.

وهذا القصران للتّعيين حيث عُيِّنَ لكلٍّ من الجنّة والنّار ما هي أهل له. ثم وعدت كلّ منهما بملئها، ولكن النّار تبقى فاغرة فاها، ثم يُقْصر امتلاؤها على وضع الجبّار قدمه فيها، وذلك القصر من الحقيقيّ التّحقيقيّ، فالنّار واسعة (والعياذ بالله) وستزيد عن أهلها وتظلّ تقول هل من مزيدٍ؟ حتى يضع الجبّار قدمه عليها، فتمتلئ وينقبض بعضها إلى بعضٍ.

قصر التّصفيق في الصّلاة على النّساء دون الرّجال:

تأخّر النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن الصّلاة يوماً، فقدم الصّحابة أبو بكرٍ لإمامة الصّلاة فجاء رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، وصلّى في الصّفّ خلف أبي بكر، فصفق النّاس كثيراً، حتى التفت أبو بكر، ولما رأى

(١) انظر: فتح الباري ٨/٥٩٧.

رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ تأخّر، وتقدّم رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، وأتمّ الصّلاة، ولما فرغ قال: «أريتكم أكثرتم التّصفيق، مَن رابه شيء في صلاته فليسبّح، فإنّه إذا سبّح التُفِتَ له، إنّما التّصفيق للنّساء»(١).

بيَّن العيني ـــ رحمه الله ـــ: أنّ العلماء اختلفوا في تفسير هذا الحديث، فرأى بعضهم أنّه قد قصر التّصفيق على النّساء خارج الصّلاة، وليس في الصّلاة، وأنّ عليهن أن يسبّحن في الصّلاة كما يفعل الرّجال، وقالت طائفة: بل هو على ظاهره وأنّ المراد التّسبيح للرّجال في الصّلاة، والتّصفيق للنّساء في الصّلاة أيضاً، وهو الأصحّ (كما يرى ذلك العيني)؛ لأنّه قد جاءت رواية أخرى: «فليسبّح الرّجال وليصفّق النّساء»، بصيغة الأمر، فوضح الإشكال، وإنّما كره التّسبيح للمرأة؛ لأنّ صوتها فتنة، ولهذا منعت من الأذان والإقامة»(٢).

وهذا القصر قصر إضافي، بمعنى: أنّ التّصفيق للنّساء لا للرّجال، وهو من قصر الموصوف (التّصفيق) على الصّفة (كونه للنّساء)، وهو إلى قصر التّعيين أقرب؛ لأنّ المخاطبين كانت أذهانهم خاليةً عن هذا الموضوع. وكما نلاحظ فقد وردت الرّواية الأخرى، بنفس القصر ولكن بطريق تعريف المبتدأ بلام الجنس، وقد أفادت القصر كما نرى.

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ١٦٨/٢، ومسلم ١٤٦/٤، وقد وردت رواية أخرى فيها قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «التّسبيح للرّجال والتّصفيق للنّساء». رواه البخاري ٧٧/٣.

(٢) انظر: عمدة القارئ للعيني ٢٧٩/٧.

قال ابن حجر عن تلك الرّواية: ((فكأنّه قال: لا تسبيح إلاّ للرّجال، ولا تصفيق إلاّ للنّساء))(١).

قصر التّثاؤب على كونه من الشّيطان:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّ الله يحبّ الْعُطاس ويكره التّثاؤب، فإذا عطس فحمد الله، فحقّ على كلّ مسلمٍ سمعه أن يُشَمِّتَه، وأمّا التّثاؤب فإنّما هو من الشّيطان، فليَرُدَّه ما استطاع، فإذا قال: هاء، ضحك الشّيطان))(٢).

يعلّمنا النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ السُّنَة عند العطاس والتّثاؤب، وقد أخبرنا أنّ الله سبحان وتعالى يحبّ العطاس، ويكره التّثاؤب، وأنّ الشّيطان بعكس ذلك، ولعلّ الحكمة في ذلك أنّ التّثاؤب عنوان الكسل، والنّوم، أمّا العطاس فينشأ عن النّشاط وهما ضدّان، وقد قصر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ التّثاؤب على كونه من الشّيطان وذلك على سبيل القصر الإضافي ـــ والتّقدير: إنّما التّثاؤب من الشّيطان لا من الله ـــ كما يوحي بذلك المعنى العام للحديث.

وهو من التّحقيقيّ لتحقّق ذلك في الواقع. لكن بعض العلماء يرى أنّ إضافة التّثاؤب إلى الشّيطان من إضافة الرّضا والإرادة، أي: أنّ الشّيطان يحبّ أن يرى الإنسان متثائباً؛ لأنّها حالة تتغير فيها صورته

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ٧٧/٣.

(٢) رواه البخاري ٦٠٧/١٠.

فيضحك منه، لا أنّ المراد أنّ الشّيطان فعل التّثاؤب[١].

وهذا المعنى جيّد، ومقبول، ويكون معنى تلك العبارة القصريّة: إنّما التّثاؤب مما يحبّه الشّيطان. فتتلاءم مع ما قبلها من عبارات الحديث.

قصر بعض الحيات على كونها شياطين:

قول رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّ بالمدينة جنّاً قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً، فآذنوه ثلاثةَ أيّام فإن بدا لكم بعد ذلك، فاقتلوه، فإنّما هو شيطان»[٢].

يخبر النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بالطّريقة التي يتعامل بها الإنسان عندما يجد حيّة في منْزله، وذلك أن يأذنها ثلاثة أيّام، فإن لم تخرج قتلها، ثم أخبر عنها بالعبارة القصريّة: «إنّما هو شيطان». وهذه العبارة وإن كانت بنفس صيغة عبارة قصر وردت في حديثٍ سابقٍ[٣]، إلاّ أنّها تختلف عنها في المضمون؛ إذ المقصود بالشّيطان هنا حقيقة الشّيطان الجنّيّ، والمقصود بالقتل هنا حقيقة القتل، وليس مجازاً في الضّرب الشّديد. فمثل هذه الحيّة إن لم تذهب بعد الإنذار فهي ليست من عوامر البيوت، وليست مِمَّن أسلم من الجنّ، وإنّما هي شيطان يحلّ قتله[٤].

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٦١٢/١٠.

(٢) رواه مسلم ٢٣٥/١٤، والضّمير في قوله: «رأيتم منهم» يعود إلى حيات البيوت؛ لأنّ أوّل الحديث كان عن هذا الموضوع.

(٣) انظر ص: ٢٤٨ من هذا البحث.

(٤) انظر: شرح النّووي ٢٣٤/١٤، بتصرّفٍ.

ولهذا فالقصر هنا إضافي؛ إذ إنّ المراد: إنّما هو شيطان، لا مِمَن أسلم من الجنّ، وهو من قصر التَّعيين كما يظهر؛ لأنّ أذهان المخاطبين كانت خالية من هذا الموضوع، وهو من التّحقيقيّ؛ لأنّ تلك هي حقيقة الأمر. والله أعلم.

المبحث الثّالث: نمط خاصّ من أساليب القصر بإنّما:

إنّ التّمحيص والتّدقيق في الدّراسة ليظهر أنّ بعض الأسرار البلاغة الّتي قد تخفى في ثنايا النّصوص الكثيرة، ولقد واجهت ــ أثناء دراستي للقصر بإنّما ــ بعض الأساليب التي وردت فيها إنّما، ولكن ثمة اختلافاً بين ورود إنّما في هذه الأساليب وورودها في غيرها؛ إذ إنّه لا يمكن أن نقول عن إنّما: إنّها أداة قصرٍ في هذه الأساليب، إذا ما فهمنا هذه الجمل على ظاهرها، وعندما تأمّلت السّبب، وجدت أنّ هناك اختصاراً في تلك الجمل القصريّة، حيث يحذف صدر الجملة القصريّة، ويبقى المقصور عليه فقط، وتلك خاصّة عجيبة تفردت بها إنّما عن بقية طرق القصر.

وهذا بيان مدعَّم بالأدلّة والشّواهد الكافية، والبراهين الشّافية.

قصر الشّأن مما فعله الْمَلَك على الابتلاء:

ففي الحديث المعروف الذي ذكر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فيه الثّلاثة: الأبرص، والأقرع، والأعمى، وقصّتهم الطّويلة، التي كان في آخرها، أن أنكر كلّ من الأبرص، والأقرع فضل الله عليه، ولم يعط الْمَلَك شيئاً من النّعم فدعا عليهما بأن يعودا إلى حالتهما الأولى، ثم لما جاء إلى الأعمى وسأله اعترف بنعمة الله عليه، وطلب من الْمَلَك أن يأخذ من ماله ما يشاء، يقول النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((فقال (أي: الأعمى) قد كنتُ أعمى فَرَدَّ الله بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله فقال الْمَلَك: أمسك

مالك، فإنّما ابتليتم. فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك»[١].

نقف من هذا الحديث ــ ولضيق المقام ــ على الجملة القصريّة «إنّما ابتليتم»، ولكن أين كلّ من المقصور والمقصور عليه؟ فإذا قلنا: إنّ الفعل (ابتلى) مقصور، وضمير الْمُخاطبين (تم) مقصور عليه بصفته آخر جزء في جملة إنّما، وأنّ التّقدير: ما ابتلى إلاّ أنتم، فإنّ هذه الجملة لا معنى لها هنا في هذا السّياق؛ إذ ما هو معنى قصر الابتلاء عليهم حقيقة أو مبالغة، فليسوا وحدهم الْمُبتلين في الحقيقة كما أنّ هذه الجملة ليست للمبالغة في شدّة ابتلائهم ــ فابتلاؤهم كان بالنّعم وهو أخفّ أنواع الابتلاء ثم إنّه ليس هذا مقام مبالغة أصلاً، فالملك يريد أن يُبيِّن حقيقة هذا الأمر وأنّه على سبل الابتلاء، فحسب، فإذن ما هو التّقدير المقبول إذا لم يكن هذا التّقدير السّابق صحيحاً؟

أقول: إنّ الْمَلَك أراد أن يوضِّحَ للرّجل أنّ سؤال المال ليس على حقيقته، وإنّما هو اختبار وابتلاء له ولأصحابه. فهو في الحقيقة أراد أن ينفي عن الرّجل ما كان توقعه من أنّ هذا السّؤال حقيقة بدليل أنّه قال: «أمسك ما لك»، فهو لا يريد المال كما ظَنَّ الرّجل وإنّمايريد اختبارهم. فكلّ ما أراد الْمَلك أن يُبيِّنه للرّجل أن يقول له: ما سؤالي لك إلاّ ابتلاء. وهذا هو معنى قوله: «إنّما ابتليتم» فيصبح المقصور هنا هو السّؤال

---

(١) رواه البخاري ٥٠١/٦، ومسلم ٩٩/١٨، وفي مسلم: «أنّ الْمَلَك عندما ذكَّر الأبرص بنعمة الله عليه فقال: «ألم تك أبرص يقذرك النّاس وفقيراً فأعطاك الله، فقال الأبرص: إنّما ورثت هذا المال كابراً عن كابرٍ». الحديث السّابق. ومعنى كابر عن كابر: أي: ورثته عن آبائي الذين ورثوه.

والمقصور عليه هو الابتلاء دون الحاجة إلى أموالكم. لكن أين هذا كلّه في الجملة القصريّة «إنّما ابتليتم»؟

أقول: إنّ هناك كلاماً محذوفاً وتقديره: «إنّما الأمر أنّكم ابتليتم»، أو: «إنّما الشّأن أنّكم ابتليتم»، فالمقصور هنا هو (الأمر) أي: الشّأن الذي جئت أسألك من أجله، مقصور على الابتلاء لكم، ليس على أخذ شيء من أموالكم. وبهذا يكون القصر إضافيّاً تحقيقيّاً والمحذوف هنا كالثّابت.

وقد قدرنا هنا المحذوف بالشّأن أو الأمر، أو نحو ذلك، كما نُقدِّر؛ لأنّ ضمير الشّأن إذا جاء ما بعدها مرفوعاً، ولعلّ هذا يعزّز من قول القائلين: بأنّ إنّما هي (إنّ) أداة التّوكيد، و(ما) الكافّة فلننظر هنا إلى هذه العبارة القصريّة: «إنّما ابتليتم»، حيث كان الإيجاز فيها بيِّناً؛ لأنّها نابت عن كلام كثير هو: «ما الشّأن إلاّ أنّكم ابتليتم، وليس الأمر هو السّؤال الحقيقيّ؛ لأخذ شيء من أموالكم»، فليُتأمّل.

قصر الشّأن في أمر المنافقين على التّخيير للنّبِيّ- صلّى الله عليه وسلّم-:

ومن الشّواهد أيضاً على هذه الفكرة أنّ النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ذهب ليصلّي على عبد الله بن أبي بن سلول[1]، استجابة لطلب

---

(١) هو: عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي رأس المنافقين في الإسلام، أظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقية، وفي معركة أحد انخزل ومعه ثلاثمئة رجل، وعاد إلى المدينة، وكان كلّما حلّ بالمسلمين نازلة شمّت بهم. توفّي سنة: ٩هـ. انظر: الأعلام ١٨٨/٤.

=

ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي ـــ رضي الله عنه ـــ فمنع عمر ـــ رضي الله عنه ـــ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ من الصّلاة عليه قائلاً له: أتصلّي عليه وقد نهاك ربّك أن تصلّي عليه؟! فقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما خيّرني الله، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[التوبة من الآية: ٨٠]، وسأزيد على السّبعين»[(١)].

لقد همّ النَّبِيّ الرّحيم ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ بالصّلاة على هذا المنافق (ابن أبي) عسى أن يكون في صلاته تخفيف عنه، لعلمه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أنّ رحمة الله وسعت كلّ شيءٍ، خصوصاً وأنّه لم يأته (حتى تلك اللّحظة) نهيٌ صريح من الله عن الصّلاة على المنافقين، لكنّ عمر ـــ رضي الله عنه ـــ وهو (المحدّث الْمُلهَم) حاول أن يمنع النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ من ذلك، وأخذ يذكره بما فعل المنافقون (قالتهم الله) من خيانةٍ، ومكرٍ، وكيدٍ بالمسلمين. ولكن النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لم يقبل رأي عمر، وذهب للصّلاة على هذا المنافق، واعتذر إلى عمر من عدم قبول رأيه بقوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما خيَّرني ربّي فقال:

= أمّا ولده فكان اسمه الحباب وسمّاه النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عبد الله شهد بدراً وما بعدها، استأذن النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في قتل أبيه فقال: بل أحسن صحبته. استشهد باليمامة في قتال الرّدّة سنة: ١٢هـ. انظر: الإصابة في تمييز أسماء الصّحابة، لابن حجر ١٤٢/٦.

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٣٣٣/٨، ومسلم ١٦٧/١٥.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾...)) الخ.

وإذا ما نظرنا إلى هذه العبارة القصريّة، وحاولنا تفسيرها على أنّها عبارة قصر فسوف نجد أنّ هذه الجملة غير موافقةٍ لسياق المعنى الذي هي فيه فلو قلنا: إنّ المقصور عليه هو آخر جزء في جملة إنّما، فإنّ آخر جزء هنا هو: (لفظ الجلالة) فيكون تأويل القصر: (ما خيّرني إلاّ الله) ولكن على هذا القول لا يكون لهذه الجملة معنى؛ إذ إنّ سياق الكلام هنا لا يحتملها لا على سبيل الحقيقة، ولا على سبيل المبالغة؛ إذ كيف يحاول عمر منع النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من الصّلاة على هذا المنافق فيقول له النَّبي ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ما خيَّرني إلاّ الله))، لا أرى هناك، تطابقاً بين هذه العبارة وبين مقتضى الحال.

فالنَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أراد أن يعتذر إلى عمر من عدم قبول رأيه فجاء له بهذه الجملة القصريّة ليُبرِّرَ بها ما ذهب إليه. فوضَّح لعمر أنّ الأمر في هؤلاء المنافقين لم يكن نهياً قاطعاً عن الدُّعاء والاستغفار لهم ــ والصّلاة ما هي إلاّ دعاء واستغفار ــ، وإنّما الأمر أنّ ربِّي خيَّرني بَيْن الاستغفار وعدمه، فكأنّ النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ بقوله: ((إنّما خيّرني ربّي)) قد قال لعمر: ما الأمر فيهم إلاّ تخيير من الله لي، ليس نهياً يا عمر، فاتركني أفعل أفضل الخيارين!

وهنا نرى أنّ المقصور هو: الأمر والشّأن في هذه المسألة، والمقصور عليه هو التّخيير من الله للنَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ دون النّهي

الإلزامي. وهو قصر إضافي، للقلب؛ لأنّ عمر كان يعتقد أنّ النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قد نهي عن الصّلاة عليهم، فَقَلَب له النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ المعنى، إلى أنّ الأمر تخيير لا نهي. وهو من التّحقيقيّ في رأي النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، وإن كان في الواقع أنّ المراد ترك الاستغفار لهم. والله أعلم.

قصر الشّأن في غسل المني على غسل مكانه من الثّوب:

ومن أوضح الشّواهد على هذا النّوع من الأساليب أنّ رجلاً نَزَل عنْد عائشة ــ رضي الله عنها ــ، فأصبح يَغْسِل ثوبه، فقالت عائشة: إنّما كان يُجزِئك إن رأيته أن تغسل مكانه، فإن لم تر نضحت حوله...» الحديث[1].

لقد استشهدت هنا بشاهدٍ ليس من قول النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، كما هو المُتّبع وإنّما هو من قول عائشة ــ رضي الله عنها ــ؛ لأنّني وجدت فيه وضوحاً شديداً للفكرة التي كنت أرمي إليها، وذلك في قولها: «إنّما كان يجزئك كذا...»، فلو اعتبرنا أنّ المقصور عليه آخر جزء في الجملة لكانَ التّقدير: ما كان يجزئك إن رأيته إلاّ أن تغسل مكانه، وعندئذٍ سيكون هذا التّقدير غير موافقٍ للسّياق أبداً، إذ كيف لا يجزئه غسل الثّوب كاملاً إذا كان أجزأه الاقتصار على غسل مكان المني؟ فلا بدّ إذن من احتمالين:

---

(١) رواه مسلم ١٩٦/٣، والمقصود بقولها: تغسل مكانه، أي: مكان المني.

أحدهما: أن تكون إنّما في هذا التّعبير ليست للقصر، وإنّما هي للتّوكيد فقط بمعنى (قد) فكأنّ عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت للرّجل: ((لقد كان يجزئك إن رأيته أن تغسل مكانه))، وهذا الاحتمال واردٌ، ولعلّ من نفوا أن تكون إنّما للقصر قد صادفوا عند تَذَوُّقهم لأساليب إنّما، مثل هذه الْمُشْكلة ولهم وجهةٌ صحيحةٌ إذا اعتبروها تفيد التّوكيد فقط.

والاحتمال الثّاني: هو أنّ هناك محذوفاً في العبارة، وهو الشّأن مثلاً، أي: أنّ التّقدير: إنّما كان الشّأن إن رأيته أن تغسل مكانه لا أن تغسل الثّوب كلّه. وعلى هذا يكون المعنى: أنها نفت الأفضلية والأولوية عن غَسْل الثّوب كاملاً وأثبتتها لغسل مكان المني فقط، وبهذا يَتَحقّق القصر. والله أعلم.

قصر الشّأن في التّسليم على الاكتفاء بوضع اليدين على الفخذين:

كان الصّحابة ــ رضوان الله عليم ــ عند التّسليم من الصّلاة، يشيرون بأيديهم يميناً وشمالاً، فقال لهم رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((علام تومئون بأيديكم كأنّها أذناب خيلٍ شُمس، إنّما يكفي أحدكم أن يضع يده على فخذه، ثم يسلّم على أخيه، من على يمينه وشماله))(١).

يريد النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أن يَنْهَى أصحابه عن فعلهم

(١) رواه مسلم ١٥٤/٤، والشّمس (بإسكان الميم وضعها): هي الخيل التي لا تستقرّ بل تضطرب وتتحرّك بأذنابها وأرجلها. انظر: شرح النّووي ١٥٣/٤.

ذلك، عند التّسليم فجاء بأسلوب إنّما، مستنكراً عليهم تحريك اليدين ذات اليمين، وذات الشّمال، عند التّسليم، وقوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّما يكفي أحدكم أن يضع يده على فخذه ثم يُسَلِّم))، ليس المقصود منه ما يكفي أحدكم إلاّ أن يضع يده على فخذه، ثم يُسَلِّم؛ إذ إنّ السّياق لا يستدعي مثل هذا المعنى، وإنّما المقصود إنّما الشّأن في التّسليم أنّه يكفي أحدكم أن يضع يده... الخ. وليس الشّأن في التّسليم تكلّف الحركات الزّائدة، وهذا من القصر الإضافي، وهو لقلب حكم السّامع. والله أعلم.

قصر السّبب فيما قاله النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ لأهل النّخل على الظّنِّ:

مرّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بقومٍ على رؤوس النّخل، فقال: ((ما يصنع هؤلاء؟))، فقالوا: يُلَقِّحُونه (يجعلون الذّكر في الأنثى فتلقح)، فقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، ما أظنّ يُغْنِي ذلك شيئاً، فأخبروا بذلك فتركوه، ثم أخبر رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بذلك، فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنّي إنّمان ظننت ظنّاً فلا تؤاخذوني بالظّنّ، ولكن إذا حدّثتكم عن الله شيئاً فخذوا به...)) الحديث[1].

كما نرى في هذا الحديث أنّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ وهو بشر غير معصوم من الخطأ في الأمور العادية، ولكنه معصوم فيما

---

(١) رواه مسلم ١٥/١١٧.

يبلّغه عن الله تعالى ــ نراه قد أدلى برأيه في عملية تلقيح النّخل، فظنّ الصّحابة أنّ ذلك وحي من الله فتركوه فلم يُطلع، ولما تبيّن النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عدم صحّة ما ذهب إليه، اعتذر لأصحاب النَّخْل بعبارةٍ قصريّةٍ، جاء القصر فيها بطريق إنّما وكثيراً ما تكون إنّما أَصْلَح من غيرها في مثل هذا المقام، حيث قال ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما ظننت ظنّا...)) الخ. ولكن ليس معنى هذه الجملة القصريّة ما ظننت إلاّ ظنّاً؛ إذ لا يكون لها معنى في هذا السّياق، وإنّما المراد إنّما الشّأن في ذلك: أنّي ظننت ظنّا ليس الشّأن في ذلك الوحي، وذلك على سبيل القصر الإضافي لقلب ما كانوا يظنّونه من أنّ السّبب في قول النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ذلك هو الوحي.

وبهذا يستقيم هذا الأسلوب الاعتذاري، الذي تصدرته إنّما، ولعلّ هذا يؤكّد ما قيل عنها، بأنّها حرف رقيق يصلح للاعتذار، ونحوه. والله أعلم.

قصر الشّأن في مال أهل البيت على الأكل دون الادّخار:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا نُورث ما تركناه صدقة، إنّما يأكل آل محمّد من هذا المال ــ يعني مال الله ــ ليس لهم أن يزيدوا على المأكل...)) الحديث(١).

إنّ العلماء العارفين بأسرار اللّغة ليُحِسُّون بالاختلاف بين الأساليب، حتى ولو كانت البنية الظّاهرية في جميعها متشابهة تماماً، فهذا ابن حجر ــ رحمه الله تعالى ــ يحسّ أنّ في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم

(١) رواه البخاري ٧٧/٧، ومسلم ٧٦/١٢.

ـــ: «إنّما يأكل آل محمّد من هذا المال» اختلافاً عن أساليب القصر بإنّما، إذ يقول: «إنّما يأكل آل محمّد من هذا المال، ظاهره الحصر، وأنّهم لا يأكلون إلاّ من هذا المال، وليس هذا مراداً، وإنّما المراد العكس، وتوجيهه: أن (من) للتّبعيض والتّقدير: إنّما يأكل آل محمّد من بعض هذا المال، يعني: بقدر حاجتهم»[١]. وابن حجر عندما أحسّ بالاختلاف بين هذا الأسلوب وغيره من أساليب الحصر بإنّما، صَرَّح بأنّه ليس المقصود منه ما يأكل آل محمّد إلاّ من هذا المال، ثم حاول تبيُّن سبب الخلاف وظنّ أنّ (من) هي السّبب فيه، وأنّها بمعنى: (بعض)، وأنّ المراد: ما يأكل آل محمّد إلاّ بعض هذا المال. لا يأكلونه كلّه.

ولكن هذا التّخريج لا يؤدّي إلى معنًى صحيحٍ؛ وذلك أنّه لما قدر (مِن) بمعنى (بعض) ثم أوّل هذا البعض بأنّه قدر الحاجة، وهذا تأويلٌ، لتأويلٍ، ومع ذلك لا يفهم تأويل قدر الحاجة من (البعض) فقد يكون البعض أكثر من قدر الحاجة أو الحاجة أكثر من البعض، ثم لو أراد النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ ذلك لقال: إنّما يأكل آل محمّد من هذا المال قدر حاجتهم.

أقول: إنّ ابن حجر ـــ رحمه الله تعالى ـــ مع تقديري لاجتهاده المأجور بإذن الله تعالى ـــ لم يحسن التّخريج في هذه المسألة وإن كان له فضل في إدراك الخلاف في هذا التّعبير، هذا وإنّ الصّحيح المنتظم مع

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ٧/١٢.

السّياق، هو أنّ المقصور عليه محذوف، وتقديره الشّأن أو الحال فتكون الجملة: إنّما الشّأن أن يأكل آل محمّد من هذا المال: أي: ليس الشّأن أن يملكوه أو يدّخروه، والشّأن المقصود هنا هو حكم الله في هذا المال بجواز الأكل لآل البيت منه، فقط، دون التّملك والادّخار. فهو إذن قصر إضافي تحقيقيّ، وهو للإفراد؛ لأنّ الظّنّ الغالب هو أنّ لآل محمّد حقّاً في امتلاك ذلك المال ما دام قد دخل في حَوْزهم. والله أعلم.

قصر شأن عائشة على كونها امرأة من بنات آدم:

تقول عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ دخل عليّ رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ وأنا أبكي فقال: ((ما يبكيك يا هَنْتاه؟))، فقلت: سمعت قولك لأصحابك فمنعت العمرة، قال: ((وما شأنك؟))، قلت: لا أصلّي. قال: ((فلا يضيرك، إنّما أنت امرأة من بنات آدم، كتب عليك ما كتب عليهن، فكوني في حجّتك، فعسى الله أن يرزقكيها...)) الحديث(١).

لم يكن الشّأن في هذا الحديث، قصر عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ على كونها من بنات آدم؛ إذ ليس المقصود بهذه الجملة القصريّة ما أنت إلاّ امرأة من بنات آدم؛ لأنّ المقام ليس مقامها، فلم تكن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ تدّعي أنّها فوق بنات آدم حتى يقصرها على كونها منهن؛ إذ

---

(١) رواه البخاري ٣/٤١٩، ومسلم ٨/١٥٠.

ومعنى قوله: ((هَنْتاه)) ـــ بفتح الهاء والنّون، أو تسكين النّون ـــ كناية عن شخصٍ لا يذكر اسمه. انظر: فتح الباري ٣/٤٢٣.

لو كان المراد ما أنت إلاّ امرأة من بنات آدم، لكان المعنى: لست من الملائكة، أو من الحور اللاتي لا يحضن، مثلاً، أو غير ذلك. ففيه تقليلٌ وتهوينٌ من شأنها، ولا يقال هذا التّعبير إلاّ لتَحْجِيم من يفاخر بنفسه ويرفعها فوق مستواها، وعائشة ـــ رضي الله عنها ـــ لم تكن تفاخر، وإنّما تبكي؛ لأن الحيض منعها من الطّواف، وغيره من أعمال الحج، فهي حزينة فالمقام هنا يقتضي العزاء لها فيما فاتها من الثّواب في الْحج. هذا ما نتوقّع أن يفعله النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ حتى ولو لم يصل إلينا حديثه في هذا المقام.

يقول النّووي ـــ رحمه الله تعالى ـــ: «هذا تسليةٌ لها وتخفيفٌ عنها، ومعناه: إنّك لست مختصة به بل كلّ بنات آدم يكون منهن هذا»[(١)].

فنلاحظ هنا إشارة النّووي ـــ رحمه الله تعالى ـــ اللّطيفة الموفّقة، حيث أدرك اختلاف هذا الأسلوب عن أسلوب القصر العادي. وأنّ المقصور عليه ـــ كما وضح في عبارته ـــ هو كونها من بنات آدم، وكأنّ المقصور عليه قد استغرق كلّ جملة إنّما، فأين المقصور إذن؟

إنّ التّقدير الصّحيح (في نظري) هو: إنّما الشّأن والحال أنّك امرأة من بنات آدم، ليس الشّأن أنّ هذا مختصّ بك وحدك. وبهذا يكون الكلام جارياً على غرضِ العزاء والتّسلية لها. كما تقول (لِمَن مات له قريبٌ): كلّ النّاس يموتون وليس ذلك مختصّاً بقريبك. والله أعلم.

---

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٤٦/٨.

قصر شأن التّطهّر من الجنابة عند عدم الماء على الاكتفاء بالتّيمّم:

بعث النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عمار[١] بن ياسر ـــ رضي الله عنه ـــ في حاجةٍ، فأجنب في السّفر، ولم يجد الماء فتمرّغ في الصّعيد، كما تَتَمَرَّغ الدّابة، فذكر ذلك للنَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فقال له النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما يكفيك أن تصنع هكذا ـــ وأراه كيف يتيمّم». الحديث[٢].

ليس المراد من قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما كان يكفيك أن تصنع هكذا، ما يكفيك إلاّ أن تصنع هكذا»، فالنَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لم ينف الكفاية عمّا فعله عمّار، ولكنّ التّقدير: ما الشّأن إلاّ أنّه يكفيك أن تصنع هكذا، لا أن تتكلّف بتمريغ كلّ جسدك على الأرض، فهو قصر لشأن الأفضلية والأولوية على ما فعله النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ ونفيه عما فعله عمّار، فهو قصر إضافي للقلب. والله أعلم.

قصر الحكمة من النّذر على الاستخراج من مال البخيل:

نهى النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن النّذر، وقال: «إنّه لا يردّ شيئاً، وإنّما يستخرج به من البخيل...» الحديث[٣].

---

(١) هو: عمّار بن ياسر بن عامر الكناني، صحابي شهير من الولاة الشّجعان ذوي الرّأي، وأحد السّابقين إلى الإسلام شهد أحداً، وما بعدها. قتل في موقعة صفين الثّانية سنة: ٣٧هـــ. انظر: الأعلام للزّركلي ٥/١٩١.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ١/٤، ومسلم ٤/٦١.

(٣) رواه البخاري ١١/٤٩٩، ومسلم ١١/٩٩.

=

اختلف العلماء في سبب النّهي، فقيل: لأنّ في النّذر تكلّفاً من قبل النّاذر، وقيل: لأنّ العبادة المنذورة لا تكون خالصة لله، وإنّما هي كتعويضٍ عمّا حصل له، وقيل: لكيلا يعتقد بعض الجهلة، أنّ النّذر يردّ القدر، وسياق الحديث يؤيّد هذا[١]، وقيل: غير ذلك[٢].

وقوله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: ((إنّما يستخرج به من البخيل))، ليس المراد به ما يستخرج به إلاّ من مال البخيل؛ إذ لا يستدعي السّياق مثل هذا المعنى، وإنّما أراد النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بيان أنّ الشّأن في النّذر الاستخراج به من مال البخيل لا ردُّ القدر. والتّقدير: إنّما الشّأن في النّذر أن يستخرج به من مال البخيل، فيكون هذا قصراً إضافياً للقلب. والله أعلم.

قصر الشّأن في غسل المرأة ضفيرتها المشدودة على الاكتفاء برشِّها بالماء:

قالت أمّ[٣] سلمة ـ رضي الله عنها ـ للنَّبيّ ـ صلّى الله عليه

= والنَّذر هو: قَسَمُ الإنسان على أن يتقرّب إلى الله بقربةٍ إذا حصل له ما يريد، كأن يقول: إن شفى الله مريضي فعليّ صدقة كذا وكذا. انظر: الفتح ١١/٥٧٧.

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١١/٩٩.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ١١/٥٧٧.

(٣) اسمها: هند بنت أبي أمية، مخزومية، تزوجّها أبو سلمة ـ رضي الله عنه ـ وهاجر بها إلى الحبشة، وولدت له ثم أصيب أبو سلمة في أحد، فاعتدت منه، ثم تزوجّها النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ سنة (٤) للهجرة، توفّيت سنة: ٥٩هـ. انظر: =

وسلّم ـــ: إنّي امرأة أشدّ ضَفْرَ رأسي، أفأنقضه لغسل الجنابة؟ قال: ((لا. إنّما يكفيك أن تحثي على رأسك ثلاث حثيات، ثم تُفيضين عليك الماء فتطهرين))(١).

فقول النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّما يكفيك كذا))، ليس معناه: ما يكفيك إلاّ أن تحثّي على رأسك ثلاث حثّيات؛ إذ إنّه من البديهي أنّه يكفيها لو نقضت ضفرها وغسلته، ولكن المراد: ما الشّأن إلاّ أنّه يكفيك أن تحثّي على رأسك ثلاث حثّيات... الخ، لا أن تتكلّفي نَقْضَ شعرك، وهذا من القصر الإضافي للقلب. والله أعلم.

= الطّبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر بيروت، ٨٦/٨.

(١) رواه مسلم ٤٤/٤، ومعنى أشدّ ضَفْرَ شعري، أي: أحكم فتل شعري. والحثيات، بمعنى: الحفنات، وهي ملء الكفين من أي شيءٍ كان، والمقصود به هنا من الماء. انظر: شرح النّووي ١١/٤.

الفصل الثّالث: أسرار شواهد القصر بالنّفي والاستثناء في أحاديث الصّحيحين

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: أسرار القصر الحقيقي.

المبحث الثّاني: أسرار القصر الإضافي.

المبحث الثّالث: قصر بعض الجمل على بعضٍ (نوع خاصّ من القصر بالنّفي والاستثناء).

المبحث الأوّل: أسرار القصر الحقيقي

قصر الخروج إلى الجهاد على الإيمان بالله وتصديق رسله:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «انتـــدب الله لِمَـــن خرج في سبيله، لا يخرجه إلاّ إيمان بِيَ، وتصديق برسلي، أن أرجعه بمـــا نال من أجرٍ وغنيمةٍ، أو أدخله الجنّة...» الحديث(١).

لم يكن هناك بُدٌّ من التّأكيد على الإخلاص عند الحـــديث عـــن ذورة سنام الإسلام، لذلك أكّد ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الإخـــلاص التّامّ في ذلك؛ لأنّ في الإقدام على الجهاد بذل الرّوح وهي أغلى ما لدى الإنسان، فإذا بذلها لغير الله كانت الخسارة الكبرى، وإن بذلها خالصةً لله تعالى نال المثوبة الكبرى.

وأسلوب القصر هو أفضل أسلوبٍ للمُتَحدِّث عنـــد مـــا يريـــد استخلاص أمرٍ من أمورٍ كثيرةٍ تعلّق به وتخالطه، وهذا ما نجده في هـــذه الجملة القصريّة المعترضة، وقد جاء اعتراضها هنا في المكـــان المناســـب، لتمثل الشّرط في استحقاق ما جاء في الحديث من الثّواب، وهي من قصر الصّفة وهي (الخروج في سبيل الله) على الموصوف وهو (الإيمـــان بـــالله والتّصديق برسله) على سبيل الحقيقيّ لعموم النّفي فيه. فلا يكون ســـبب خروجه الرّياء ولا السّمعة، ولا الحمية، ولا الغنيمة، ولا أيّ سببٍ كائناً

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ١/٩٤/ ومسلم ١٣/٢٠.

ما كان[١]. وهو من التّحقيقيّ؛ لتحقّق ذلك في الواقع، وجاء هذا القصر بأقوى طرق القصر توكيداً وهو النّفي والاستثناء، ثم هو من الاستثناء المفرّغ الذي جمع مع التّوكيد الإيجاز والاختصار في العبارة.

قصر الخروج من المَنْزل ونحوه على أداء الصّلاة:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «صلاة أحدكم في جماعةٍ تزيد على صلاته في سوقه، وبيته بضعاً وعشرين درجة. وذلك بأنّه إذا توضّأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا يريد إلاّ الصّلاة، لا ينهزه إلاّ الصّلاة، لم يخط خطوة إلاّ رفع بها درجة أو حطت عنه بها خطيئة...» الحديث[٢].

وفي روايةٍ أخرى: «لا يُخرجه إلاّ الصّلاة»[٣].

في معرض الحديث عن الإخلاص نرى التّركيز في هذا الحديث على الإخلاص في الصّلاة، حيث أُكّد أمرُ الصّلاة بأسلوبٍ هو أقوى أساليب القصر، وهو النّفي والاستثناء، ثم هو من الاستثناء المفرّغ الذي جمع بين الإيجاز والتّأكيد.

وأمر الإخلاص أمرٌ قلبي، وإن لم يحصل هذا الإخلاص لم يحصل

---

(١) انظر: بهجة النّفوس، لأبي جمرة الأندلسي ١٥٨/٣.

(٢) رواه البخاري ٣٣٨/٤، ومسلم ١١٦/٣، ومعنى ينهزه، أي: يدفعه وينهضه ويحرّكه إلى الصّلاة.

(٣) رواه البخاري. انظر: الفتح ٣٣٨/٤.

الثّواب، والثّواب هنا هو رفع درجة، وحط خطيئة، بكلّ خطوةٍ إلى الصّلاة. ولكن هذا الثّواب، مَشْروط بهذا الشّرط القصريّ، الذي جاء بعدّة روايات، فمرّة تقصر إرادة الخروج من البيت، ومرّة يقصر مجرّد التّحرّك للقيام، ومرّة يقصر الخروج إلى الصّلاة، كلّ ذلك يقصر على عرضٍ واحدٍ، وهو طلب الصّلاة وحدها، دون أي عرضٍ آخر، أي: أنّ الإخلاص هو الكفيل بحصول هذا الثّواب المذكور في الحديث، ومن ثَمَّ فإنّنا نفهم من ذلك أنّ هذا الثّواب لن يحصل لِمَن أدركته الصّلاة عند عتبة المسجد فدخل وصلى. ولا لِمَن خرج يبغي عملاً آخر (ولو كان يبتغي معه الصّلاة) لولا ذلك العمل ما خرج من بيته؛ لأنّ الحديث صريحٌ في هذا الشّأن، وهو من القصر الحقيقيّ، لعموم النّفي، والتّحيققيّ لتحقّق ذلك فعلاً.

ولأهميّة الإخلاص نرى هذا الحشد الكبير من الجمل القصريّة، بطريق النَّفي والاستثناء لتقوم كَسَدٍّ منيع يَحُول دون دخول أدنى نوعٍ من الشّرك إلى قلب المسلم لينتبه إلى ذلك ويكون (بإذن الله) من المخلصين.

قصر المانع من الذّهاب إلى البيت على انتظار الصّلاة:

وفي سياق الحديث عن الإخلاص في الصّلاة يقول النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يزال أحدكم في صلاةٍ، ما دامت الصّلاة تحبسه: لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلاّ الصّلاة»[(١)].

---

(١) رواه البخاري ١٤٢/٢، ومسلم ١٦٧/٥.

في هذا الحديث نرى ثواباً عظيماً على بقاء الإنسان في المسجد، وأنّه بمجرّد هذا البقاء يكتب له أجر الْمُصَلِّي، فَمَن يستطيع أن يصلّي الوقت كلّه؟! ولكن هذا الثّواب لا يحصل لأحدٍ إلاّ بالشّرط السّالف نفسه، وهو أن يقصر بقاؤه في المسجد على طلب الصّلاة فحسب، وبهذا يتحقّق الإخلاص، الذي يريده الله، سبحانه وتعالى، في كلّ ما يأتيه الإنسان من عملٍ. والله أعلم.

قصر محبّة المسلم أخاه على كونها لله:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مِمّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النّار»(١).

في ضِمْن الحديث عن إخلاص الأعمال لله تعالى، نرى أنّ الإخلاص قد دخل حتى في الحبّ، ليجرّد هذه العاطفة من كلّ شائبةٍ، والحبّ يعني الولاء. والإنسان إذا استطاع أن يخلص في الحبّ لله، فقد وصل إلى مرحلةٍ يجد فيها حلاوة الإيمان فعلى المسلم:

أوّلاً: أن تكون محبّة الله ورسله في قلبه أكبر من محبّة غيرهما.

ثانياً: على الإنسان أن يوجّه كلّ محبّةٍ وميلٍ وعاطفةٍ، لكي تتلاءم مع محبّة الله، فيصبغ كلّ محبّةٍ لسوى الله ورسوله بهذه الصّبغة الرّبانية(٢).

---

(١) رواه البخاري. انظر: ١/٦٠.

(٢) انظر: قطوف من رياض السّنة ص: ١٤٨-١٤٩، بتصرّفٍ.

لهذا نجد في عقيدتنا أنّ محبّة رسل الله وأنبيائه ــ عليهم السّلام ــ ومحبّة عباده المؤمنين هي من محبّة الله. وأنّ غير الله سبحانه وتعالى يحبّ في الله، لا مع الله، وأنّ المحبّ يحبّ ما يحبّ، ويبغض ما يبغض، ويوافق محبوبه في كلّ حالٍ. والله يحبّ المحسنين، والمتّقين، والمتطهّرين، ونحن نحبّ مَن أحبّ الله. والله لا يحبّ الخائنين، ولا المفسدين، ولا المستكبرين، ونحن لا نحبّهم أيضاً(١).

لهذا جاء القصر في الشّرط الثّاني للصّفة (وهو محبّة النّاس) على الموصوف (وهو أن تكون هذه المحبّة في الله تعالى)، حقيقةً لا مبالغةً، لِمَن يريد أن يذوق حلاوةَ الإيمان.

ثم جاء الشّرط الأخير وهو: أن يكره العودة إلى الكفر، كما يكره أن يقذف في النّار. أو إذا فسّرناه على معنى الحبّ قلنا: أن يحبّ ألا يعود في الكفر كما يحبّ ألا يقذف في النّار. والله أعلم.

قصر مبايعة غير المخلص الإمام على طلب الدّنيا:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم، رجل له فضل ماء في الطّريق، فمنعه من ابن السّبيل، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلاّ لدنيا، فإن

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطّحاوية، للقاضي علي بن عليّ بن أبي العزّ الدّمشقي، تحقيق: محمّد عون، مكتبة البيان، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ص: ٤٣٣، بتصرّفٍ.

أعطاه منها رضي وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدَّقه رجل...» الحديث(١).

نرى في هذا الحديث ثلاثةً مِنْ مَنْ غضب الله عليهم غضباً شديداً (والعياذ بالله):

أحدهم: منع النّاس ماء لا يحتاج إليه، فترى عابري السّبيل، وقد يبست أكبادهم، لا يُبُلّها بفضل هذا الماء؛ لأنّه ليس للرّحمة إليه سبيل!

والثّاني: رجل بايع إماماً وعاهده على الوفاء، ولكنّه لا يريد بذلك وجه الله ولا يريد ثوابه، وإنّما يريد الدّنيا، وقد استحقّ هذا العقاب؛ لأنّ فعله هذا بعكس فعل المخلصين لله تماماً؛ إذ إنه قد أخلص عمله لغير الله ــ والعياذ بالله ــ حيث قَصَرَ مبايعته لهذا الإمام على الدّنيا، دون الله، ودون ابتغاء الأجر في الآخرة، وذلك على سبيل القصر الحقيقي التّحقيقيّ، وقد تحقّق فيه هذا القصر عندما رَضِيَ بالحصول على الدّنيا، وسخط عند عدم الحصول على شيءٍ منها.

والثّالث: الكذّاب الذي لم يكتف بالكذب وإنّما أقسم عليه، وبهذا يكون قد كذب وغش وحنث، ثم إنّه أراد أن يدخل إلى أمرٍ هو من اختصاص المولى، فسعر البيع في السّوق يحدّده الله سبحانه، وهذا الرّجل يريد أن يغيّر في هذا الميزان لصالحه.

---

(١) رواه البخاري ٣٤/٥، ومسلم ١١٥/٢.

فهؤلاء الثّلاثة قد بَلَغُوا الغاية في أعمال السّوء، فالأوّل اشْتَطَّ في اللّؤم وعدم الرّحمة، والثّاني: اشْتَطَّ في الاستغناء عن ثواب الله تعالى، والثّالث: اشْتَطَّ في الكذب فكان جزاؤهم أن عوقبوا بالطّرد والإبعاد عن الله تعالى، ورحمته وأُخِذُوا إلى النّار من مكانٍ قريبٍ دون ما سؤال أو جواب. والعياذ بالله.

قصر جرّ الإزار على الخيلاء:

قال رسول الله ــــ صلّى الله عليه وسلّم ــــ: «مَن جَرَّ إزاره، لا يريد إلاّ الْمَخيلة، فإنّ الله، لا ينظر إليه يوم القيامة»(١).

في هذا الحديث رجل شبيهٌ بسابقيه في الحديث الْمُتقدّم، حيث قد قَصَر نيَّته، من جرِّ ثوبه على طلب الخيلاء، والكبرياء، قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، أي: أنّه قد قصر فعله السّيّئ على نيّة أسوأ منه، وغالى في عصيانه حتى استحقّ بهذا العقاب، والعياذ بالله.

قصر حلّ دم المسلم على إحدى ثلاثٍ: قتل النّفس، أو الزّنا بعد الإحصان، أو ترك الدّين:

وقال رسول الله ــــ صلّى الله عليه وسلّم ــــ: «لا يحلّ دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّي رسول الله إلاّ بإحدى ثلاثٍ: النّفس بالنّفس، والثّيّب الزّاني، والمفارق لدينه، التّارك للجماعة»(٢).

إنّ دمَ المسلم برغم حرمته العظيمة التي هي أعظم من حرمة الكعبة،

---

(١) رواه مسلم ٦٢/١٤، ومعنى الْمخيلة: أي: الخيلاء.

(٢) رواه البخاري ٢٠١/١٢، ومسلم ١٦٥/١١.

قد يستحلّ ولكن بإحدى ثلاثٍ:

الأولى: قتل المؤمن عَمْداً فيكون الجزاء من جنس العمل.

والثّانية: الزّنا مع الإحصان.

والثّالثة: ترك الإسلام وجماعة المسلمين.

وهذا القصر هو من الحقيقيّ التّحقيقيّ -كما هو ظاهر الحديث-، إلاّ أنّ بعض العلماء يرى أنّه منسوخٌ بآية المحاربة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة من الآية: ٣٣].

لأنّها أباحت القتل، بمجرّد الإفساد في الأرض.

وكذلك، فهناك حالات يحلّ فيها دم المسلم غير هذه الثّلاث، كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[الحجرات من الآية: ٩](١).

وكقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((مَن وجدتموه يعمل عمل قوم لوطٍ فاقتلوه))(٢).

---

(١) أوّلها: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾

(٢) مشكاة المصابيح، للشّيخ التّبريزي، تحقيق: الشّيخ محمّد نصار الدّين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي، بدمشق، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٨١هـ، ٢/٢٩٤، وقال عنه الألباني في التّحقيق: إنّه حسن.

وغير ذلك[١].

إلاّ أنّ هناك من العلماء مَن يرى أنّ مثل هذه الأمور تدخل تحت الثّلاث المذكورة، في حديثنا هذا، فاللّواط يدخل مع الزّنا، وقتال الفئة الباغية يدخل تحت قتل التّارك لدينه المفارق للجماعة، وهكذا[٢]، وهذا هو الرّاجح ــ في نظري ــ. والله أعلم.

قصر القتال بمكّة للنَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على ساعةٍ من نهارٍ (وصور أخرى):

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يوم فتح مكّة: (... فإنّ هذا بلدٌ حَرَّم الله يوم خلق السّموات والأرض وهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، وأنّه لم يحلّ القتال فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلاّ ساعةً من نهارٍ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا يُنَفَّر صيده، ولا يَلْتَقِطُ لقطته إلاّ مَن عرفها، ولا يختلى خلاها، قال العبّاس[٣]:

---

(١) انظر هذه الأقوال ومزيداً في: فتح الباري ١٢/٢٠٢-٢٠٤، وفي جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي ص: ١٢٨، وغيرهما.

(٢) انظر: الفتح ١٢/٢٠٤.

(٣) هو: العباس بن عبد المطلب بن هاشم، عمّ رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ والجدّ الأعلى للخلفاء العبّاسيّين، أسلم عام الفتح، وشهد الفتح، وكان رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يجلّه ويعظمه ويقول هذا بقية آبائي، توفّي سنة: ٣٢هـ، بالمدينة.

انظر: البداية والنّهاية، للحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ومكتبة =

يا رسول الله: إلاّ الإذخر؛ فإنّه لقَيْنهم وبيوهم، فقال: إلاّ الإذخر...»[١].

وهناك رواية أخرى يقول فيها النبي ﷺ إنما أحلّت لي ساعة من نهار[٢].

في هذا الحديث ثلاث جمل قصريّة:

الأولى: قصر فيها حلّ القتال بمكّة للنّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ على ساعةٍ من نهار على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ. ونلاحظ أنّ هذه الجملة القصريّة، قد وردت بطريقين من طرق القصر النّفي والاستثناء، وإنّما، وهذا يؤكّد دلالة إنما على القصر.

كما نستفيد منه أنّ (إنّما) قد تجيء، في أمرٍ غير معلومٍ لدى المخاطب؛ لأنّا لا نستطيع أن نقول: إنّ هذا معلوم لدى المخاطبين.

هذا وإنّي لا أرى سبباً بلاغيّاً لورود العبارة بهذين الأسلوبين القصرّين، إلاّ أن يكون ذلك من باب الْمُبالغة بين الأساليب القصريّة، وأنّه لا غضاضة في أن ينوب بعضها عن بعضٍ، خصوصاً طريقاً: إنّما والنّفي والاستثناء.

= النّصر، الرّياض، الطّبعة الأولى، سنة: ١٩٦٦م، ٧/١٦١.

(١) رواه البخاري ٤/٤٦، ومسلم ٩/١٢٥، ومعنى يعضد شوكه: أي: لا يقطع، ومعنى يختلى خلاها: الخلا الرّطب من النّبات، ومعنى يختلى: أي: يقطع. ومعنى قَيْنهم: لِحَدَّادِهم يستعملها في الحدّادة. انظر: فتح الباري ٤/٤٣، ٤٨، ٤٩.

(٢) رواه البخاري ج١/١٩٨، ومسلم ج٩/١٢٨.

وفي العبارة الثّانية: قصر فيها التقاط لقطة مكّة المكرّمة، على مَن سيعرّفها، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ.

أمّا العبارة الثّالثة: فقد قسمت إلى قسمين:

القسم الأوّل: هو: ولا يختلى خلاها.

والقسم الثّاني: هو: (إلاّ الإذخر)، حيث فصّل بين هذين القسمين، سؤال العباس.

يقول ابن حجر: «وفي قوله: إلاّ الإذخر، استثناء بعض من كلٍّ، لدخول الإذخر في عموم ما يختلى، واستدلّ به على جواز الفصل بين المستثنى والمستثنى منه»(١).

ومذهب الجمهور على أنّ هذا الاستثناء في حكم المتّصل لاحتمال أن يكون النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أراد أن يقول: إلاّ الإذخر، فشغله العبّاس بكلامٍ، ثم عاد إلى وصل كلامه، فقال: «إلاّ الإذخر»(٢). وهو قصر حقيقيّ تحقيقيّ. والله أعلم.

قصر حلّ صوم المرأة تطوّعاً، على موافقة زوجها، وقصر إذنها لأحد في بيته على رضاه:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يحلّ للمرأة أن تصوم، وزوجها شاهد، إلاّ بإذنه، ولا تأذن في بيته إلاّ برضاه...» الحديث(٣).

---

(١) انظر: فتح الباري ٤/٤٩.

(٢) انظر: فتح الباري ٤/٤٩.

(٣) رواه البخاري ٩/٢٩٥، ومسلم ٧/١١٥.

لم يحلّ الإسلام للمرأة، أن تصوم، صوم التّطوّع دون أن تطلب الإذن من زوجها في ذلك، وكذلك لا يحلّ لها، أن تأذن لأحدٍ من أهلها أو نحوهم في بيته إلاّ بإذنه، والقصران (في هاتين الجملتين) حقيقيّان تحقيقيّان، فهما حكمان شرعيّان لا يجوز الإخلال بهما، بل لقد قال الجمهور: يحرم عليها صوم التّطوّع، إلاّ بإذن زوجها[(١)].

قصر حلّ المسألة على ثلاثة أصناف من النّاس:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّ المسألة لا تحلّ إلاّ لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلّت له المسالة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يصب قواماً من عيشٍ ــ أو قال: سداداً من عيشٍ ــ ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا، من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيشٍ...» الحديث[(٢)].

لا يريد الإسلام من المسلم أن يُذِلّ نفسه لغير الله تعالى، ولا شكّ أنّ في سؤال النّاس أموالهم ذُلاًّ مهما كان السّبب الدّافع له؛ لذلك قصرت المسألة في هذا الحديث على هؤلاء الثّلاثة، ثم إنّها لم تبح لهم دائماً، وإنّما إلى أن يزول السّبب الملّح الذي دعا كلاً منهم إليها، وفي منع المسألة عن

---

(١) انظر: فتح الباري ٢٩٦/٩.

(٢) رواه مسلم ١٣٣/٧، والحمالة: الدَّين لإصلاح ذات البين، وقواماً من عيشٍ؛ أي: سداداً من عوز.

غير هؤلاء الثّلاثة حكمة أخرى، وهي أنّه لو أبيحت المسألة لتواكل النَّاس، وتطفّل الفقراء على الأغنياء، وفسدت الحياة لخلود كثيرٍ من النّاس إلى السّؤال، وتركهم الشّقاء من أجل كسب الزّرق بالعمل الذي هو شرف للإنسان. والله أعلم.

قصر كمال النّساء على آسية ومريم ـ عليهما السّلام ـ:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «كمل من الرّجال كثير، ولم يكمل من النّساء إلاّ آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران...» الحديث(١).

إنّ كمال البشر هو في الالتزام التّام بدين الله، وعبادته حقّ العبادة، والصّبر الجميل على المصائب، والتّحفّظ من الزّلل حتى في حال الضّرورة، أو هو التّناهي في جميع الفضائل وخصال البرّ والتّقوى وهذا ما يراه أكثر أهل العلم(٢).

لهذا كان القليل من البشر هم الذين حازوا هذا الشّرف العظيم، وكان أكثرُ مَن وصل إلى مرتبة الكمال هم من الرّجال، أهل الصّبر والجلد وعلى رأس هؤلاء الرّجال الأنبياء ـــ عليهم السّلام ـــ.

أمّا جنس النّساء فلم يصل منه مرتبة الكمال إلاّ اثنتان، قصرت عليهما صفة الكمال قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، كما هو ظاهر الحديث، وهذا

---

(١) رواه البخاري ٦/٤٤٦، ومسلم ١٥/١٩٩.

(٢) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٥/١٩٨.

الكمال لا تستطيعه أيُّ أنثى مِمَن يطلبن الكمال من بنات آدم، غير آسية ومريم ـــ عليهما السّلام ـــ.

هذا وقد استدلّ بعض العلماء بهذا الحصر على أنّهما نبيّتان؛ لأنّ أكمل النّوع البشري، الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الصّدّيقين، والشّهداء فلو كانتا غير نبيّتين للزم أن لا يكون في النّساء وَلِيَّة، أو صدّيقة، أو شهيدة، والواقع أنّ هذه الصّفات في كثيرٍ منهن موجودة، فكأنّ معنى الحصر في هذا الحديث: لم يُنَبّأ من النّساء إلاّ فلانة وفلانة(١).

وفي الحقيقة إنّني لا أستطيع الفصل في هذه المسألة، هل الكمال هنا هو النّبوّة؟ أم غيرها؟ إلاّ أنّني لا أرى أن يكون المراد به النُّبوّة؛ لأنّه ليس هناك ما يدلّ على ذلك(٢). ولكن لعلّ الكمال المراد هنا هو منْزلةٌ بين الولاية والنّبوة، تجاوزها الأنبياء، وصل إليها كثير من الرّجال، ولم يصل إليها من النّساء إلاّ آسية ومريم.

وهذا القصر عموماً يدلّ على النَّقص الشّديد في النّساء؛ إذ إنّه على كثرتهن لم يكمل منهن إلاّ اثنتان. ويقطع ألسنة مَنْ ينادون بمساواة النّساء بالرّجال.

وكلّ من هاتين المرأتين ابتليت؛ مريم في نفسها، وآسية في زوجها،

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ٤٤٧/٦.

(٢) وأظنّه لو كان المعنى: لا نبيّة إلاّ آسية ومريم، لذكر النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ ذلك صريحاً، وما الذي يمنعه من ذلك؟

وقد نجحتا في الاختبار واستحقّتا هذه المنْزلة التي قصرت عليهما دون النّساء، وصارتا مضربَ المثل القرآني للنّساء المؤمنات. والله أعلم.

قصر سبب الخروج من الجنّة على خطيئة آدم ــ عليه السّلام ــ:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((يَجْمع الله تبارك وتعالى النّاس فيقوم المؤمنون، حتى تُزْلف لهم الجنّة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنّة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنّة إلاّ خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلك...)) الحديث(١).

يشتاق المؤمنون إلى الجنّة في ذلك اليوم الشّديد ــ يوم يقومُ الأشهاد ــ فيأتون إلى آدم أبي البشر جميعاً، يطلبون منه أن يشفع لهم بدخول الجنّة، فيَرُدُّ عليهم آدم بعبارةٍ قصريّةٍ جاء النّفي فيها على شكل استفهام خرج إلى معنى النّفي والتّعجّب، ويقصر آدم لهم صفة الخروج من الجنّة على الموصوف وهو خطيئة آدم على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقي، وإذا ما لاحظنا هذا الأسلوب القصريّ وجدناه يحتوي على تعريضٍ بالسّامعين، وكأنّه يقول لهم: هل يليق بي أن أكون سبباً في دخولكم الجنّة، وأنا سبب خروجكم منه؟ أنسيتم خطيئة أبيكم آدم؟! وفي هذا دليل على أنّ التّعريض ليس خاصاً بـــ (إنّما) ولكنه قد يكون بالنّفي والاستثناء خصوصاً ما جاء فيه النّفي على شكل استفهام كهذا

---

(١) رواه مسلم ٣/٧٠، ومعنى تزلف؛ أي: تقرب.

الحديث.

ولم يقل أخرجني أو أخرجنا ولكنه قال: أخرجكم، لتقوّي حجّته، وليتمّ له العذر ويخرج من الحرج في مثل هذا الموقف.

قصر مشابهة الولد لأخواله على تَغَلُّب ماء المرأة:

جاءت امرأة إلى رسول الله يوم يقوم الأشهاد، وقالت له: هل تغتسل المرأة إذا احتملت وأبصرت الماء؟ فقال: «نعم». فقالت لها عائشة: تربت يداك وأُلّت، فقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «دعيها. وهل يكون الشَّبه إلاّ من قبل ذلك...» الحديث(١).

نلاحظ في هذا الحديث حِرْص النّساء في عهد النّبوّة على تَعُلُّم أمور دينهن حتى إنّهن يسألن عن كلّ ما يردن من غير استحياء في الدّين، وقد لامت عائشة ــ رضي الله عنها ــ هذه المرأة على سؤالها بهذه الصّراحة وأرادها، أن تكنّي عن ذلك. ولكن النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مَنَع عائشة من لوم هذه المرأة، وجاء لها بعبارةٍ قصريّةٍ فيها تعريض بعدم فهم عائشة لهذه المسألة، وفيها لومٌ لها على لومها تلك المرأة.

والقصر هنا كالقصر في الحديث السّابق، جاء النَّفي فيه بأسلوب استفهام إشارة إلى بداهة هذا الأمر، وأنّ شبه المولود لأمّه، لا يكون إلاّ

---

(١) رواه مسلم ٢٢٥/٣، ومعنى تربت يداك؛ أي: لصقت بالتّراب، والمراد: لا أصبت خيراً، ومعنى قولها: أُلّت؛ الألة ــ بضم الهمزة وتشديد اللام ــ هي الحربة، والمعنى: أصابتك الحربة. انظر: القاموس المحيط، مادة ترب، وما ألّ.

بسبب علوّ ماء المرأة ماء الرّجل. والله أعلم.

قصر سفر المرأة على معيَّة زوجها، أو ذي محرمٍ (وصور أخرى):

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تسافرُ المرأة مسيرةَ يومين إلاّ معها زوجها أو ذو محرمٍ، ولا صوم في يومين الفطر والأضحى، ولا صلاة بعد الصّبح حتى تطلع الشّمس، ولا بعد العصر حتى تغرب، ولا تشدّ الرّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا...»[(١)].

هذا الحديث جمع أربعة أحكام شرعية، بطريقةٍ قصريّة بليغةٍ. كان القصر فيها جميعاً حقيقيّاً تحقيقيّاً:

فالأوّل قصرت فيه الصّفة وهي سفر المرأة مسيرة يومين على وجود المحرم أو الزوج.

هذا وقد قال بعض الفقهاء: إنّ سفر المرأة محرَّم إلاّ مع ذي محرمٍ سواء كان السّفر يوماً أو يومين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك أو أقلّ، وقد اعتمدوا في ذلك على حديث آخر يقول فيه النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ولا تسافر المرأة إلاّ مع ذي محرم»[(٢)]، وهذا يتناول كلّ ما يُسَمّى سفراً[(٣)].

---

(١) رواه البخاري ٤/٢٤٠، ومسلم ٩/١٠٥.

(٢) رواه مسلم ٩/١٠٩.

(٣) انظر في ذلك: شرح النّووي على صحيح مسلم ٩/١٠٣.

وهذا الرّأي ــ في نظري ــ رأي صائب، يؤيّده ما نراه في زماننا هذا من سرعة وسائل النّقل فمسيرة ساعة الآن بالطّائرة تعادل مسيرة نصف شهر بالمقياس القديم، لذلك فنفي السّفر مطلقاً بدون قيود، هو الأصحّ والأولى، هذا ولا ينفي أن يكون هذا القصر حقيقيّاً تحقيقيّاً، ما استثناه الفقهاء لبعض الحالات، كالكافرة إذا أسلمت في دار الحرب(١)، أو الأسيرة، إذا تَخَلَّصت أو امرأة انقطعت من الرّفقة فوجدت رجلاً مأموناً فرافقها إلى أهلها ونحو ذلك(٢). حيث إنّ هذه الحالات اضطرارية، أمّا السّفر المراد في الحديث فهو السّفر الاختياري-كما يظهر. والله أعلم.

أمّا الشّاهد الثّاني، فقد قُصِرت فيه الصّلاة بعد الصّبح على الموصوف وهو ما بعد طلوع الشّمس، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقي.

أما الشّاهد الثّالث: فقصرت فيه الصّلاة بعد العصر على ما بعد غروب الشّمس وليس هذان القصران من قصر الموصوف على الصّفة؛ لأنّ التّقدير في هذين القصرين ــ كما يرى ابن حجر ــ: لا تصلّوا...(٣).

وقد جاء الاستثناء في هذين القصرين بـــ «حتى» وهي غالباً ما

---

(١) ودار الحرب هي: كلّ موضعٍ ظهر فيه حكم الشّرك والقوّة فيه للمشركين. انظر: المبسوط لشمس الدّين السّرخسي، دار المعرفة، بيروت، سنة: ١٤٠٦هـ ١١٤/١٠.

(٢) انظر استثناء العلماء من ذلك في: فتح الباري ٧٦/٤.

(٣) انظر: فتح الباري ٦١/٢.

تكون أداة استثناء إذا كان الحديث عن أمرٍ يتعلّق بالزّمن، وقد جعلتها في مثل هذه الشّواهد القصريّة على تأويل «إلاّ بعد» فلو حذفت (حتى) من الشّاهدين القصريَين وجعلت بدلاً منها (إلاّ بعد) وقلت ـــ في غير الحديث ـــ: لا صلاة بعد الفجر إلاّ بعد أن تطلع الشّمس، لاستقام المعنى(١). لكنَّ (حتى) هُنَا لها موقع بلاغيّ حسن، حيث إنّها جعلت كحَدٍّ دقيقٍ فاصلٍ بين الأمرين، فما قبلها لا يجوز، وما بعدها جائزٌ، أمّا قولنا: (إلاّ بعد) فهي لم توضّح الحدّ الفاصل تماماً، بل ركّزت على ما وراء ذلك الحدّ، كما أنّ التّعبير بحتى فيه إيجازٌ، حيث إنّها نابتٌ عن (إلاّ) أداة الاستثناء و(بعد) الظّرفية، فَتَحقّق الإيجاز بالقصر. فضلاً عن أنّ القصر أصلاً من أساليب الإيجاز. والله أعلم.

أمّا الشّاهد الرّابع: فَقُصرت فيه صفة شدِّ الرّحال (وهي كناية عن السّفر) على المساجد الثّلاثة: (الحرام، والأقصى، والنّبوي)، ويرى بعض العلماء أنّه ليس المراد بشدّ الرّحال السّفر مطلقاً؛ وإنّما السّفر للعبادة، أمّا قصد غيره هذه المساجد للزّيارة، أو التّجارة، أو النّزهة، فلا يدخل في هذا المعنى(٢).

وبعضهم يرى تحريم شدّ الرّحال مطلقاً، إلى غير هذا الثّلاثة المساجد عملاً بظاهر الحديث.

هذا ويرى بعض الباحثين أنّ المراد: لا يجب شدّ الرّحال إلاّ إلى هذه

---

(١) هذا دليل على أنّ حتى تحمل معنى الاستثناء وزيادة عليه.

(٢) انظر: فتح الباري ٣/٦٥، وقد قدّر ابن حجر أنّ المستثنى منه هنا هو: لا تشدّ الرّحال تعبداً إلى مسجد إلاّ هذه الثّلاثة. انظر: الفتح ٣/٦٦.

المساجد الثّلاثة[(١)]. ولكنّه لا دليل على وجوب شدّ الرّحال إلى المسجد النّبويّ، والمسجد الأقصى، وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ بعض المسلمين قد خالفوا ما جاء في هذا الحديث. فنراهم يترحّلون لزيادة مساجدَ معيَّنةٍ، لبعض الأولياء، والأئمة، كما يزعمون أو حتى لزيارة بعض المساجد، التي دفن بها بعض الصّحابة، أو الصّالحين. وهذا لا يجوز؛ لأنّ سياج القصر مقوي لا يجوز تعديه.

قصر الدّخول على المعذّبين على حال البكاء:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لأصحابه لما مَرُّوا بالحِجْر، ديار ثمود، في حال توجّههم إلى تبوك: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين، إلاّ أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»[(٢)].

في هذا الحديث تحذير للمؤمنين من المرور على أماكن الأمم التي أهلكت بعذاب الله (والعياذ بالله)، على وقد قصر النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ (مرور المسلمين بديار الهالكين) على حالة واحدة، وهي كونهم باكين خائفين من عذاب الله، متصوِّرين حالةَ أولئك القوم وما حلّ بهم، وهذا القصر حقيقيّ تحقيقيّ ـــ كما هو ظاهر الحديث ـــ، وليس للمبالغة.

قال ابن حجر: «فَمَن مَرَّ عليهم ولم يتفكّر فيما يوجب البكاء،

---

(١) انظر: الحديث النّبوّي من الوجهة البلاغية، لعزّ الدّين السّيّد ص: ١٢٥.

(٢) رواه البخاري ١/٥٠، ومسلم ١٨/١١٠، والحجر هو: اسم ديار ثمود، بوادي القرى بين المدينة والشّام. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، سنة: ١٣٧٥هـ، ٢/٢٢١.

اعتباراً بأحوالهم فقد شابههم في الإهمال»[١].

ونلاحظ في هذا الحديث قصر الصّفة المأخوذة من الفعل، والفاعل، والجار والمجرور على الحال؛ لأنّ جملة: أن تكونوا باكين حال، بمعنى المفرد، فكأنّ المعنى: لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلاّ باكين، فأباح الدّخول على وجه البكاء والاعتبار[٢]. والله أعلم.

قصر حِلِّ تناجي الاثنين دون الثّالث على مخالطة النّاس:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إذا كنتم ثلاثةً، فلا يتناجى رجلان دون الآخر، حتى تختلطوا بالنّاس، أجل إنّ ذلك يحزنه»[٣].

هذا الحديث يؤدّبنا بأدبٍ من آداب الأخوّة والصّداقة في الإسلام، وهو المحافظة على مشاعر الصّديق، والرّفيق مما يحزّنه، حيث قصر تفرد الجماعة بالمناجاة دون أحدهم على ما بعد الاختلاط بالنّاس. وهذا القصر تحقيقيّ، فالنّهي هنا للتّحريم[٤].

وقد بيّن النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الحكمة من هذا التّشريع،

---

(١) انظر: فتح الباري ١/٥٣١.

(٢) انظر: عمدة القارئ ٤/١٩١.

(٣) رواه البخاري ١١/٨٣، ومسلم ١٤/١٦٨.

وقوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «أجل»، ومعناها: من أجل. قال الخطابي: «وقد نطقوا بهذا اللّفظ بإسقاط من وذكر لذلك شاهداً. (الفتح ١١/٨٣).

(٤) انظر: شرح النّووي ١٤/١٦٧.

وهي أنّ التّناجي يحزن الشّخص الذي لم يدخل في هذه المناجاة؛ لاعتقاده بأنّهم يأتَمِرُون به،أو على الأقلّ سيُحِسُّ بالعزلة وكأنّه شخص على هامش الصّداقة. وفي الحقيقة، أنّ هذه أخلاق النّبوّة، ولن يُعثر في الحضارات على نظيرها، فهي أرقى ما وصل إليه الذّوق، وحسن الأدب(١).

والجدير بالذّكر أنّ المراد بالنّجوى ــ هنا ــ النّجوى في الخير، أمّا النّجوى في الشّرّ فهي محرَّمة عند الاختلاط، بالنّاس وعند الانفراد عنهم كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾[المجادلة من الآية: ٩]، وعلى هذا، فقد حُرِّمت المناجاة في الخير في هذه الحالة، مراعاة لشعور الصّديق(٢).

هذا وقد جاء النّفي هنا على سبيل النّهي، وذلك لأنّ الأمر فيه لا يَحْتَمل التّساهل، وإنّما هو جانب هام من جوانب العلاقات الاجتماعية لا بدّ من حسم الْحُكْم فيه، بهذا النّهي والاستثناء. والله أعلم.

قصر حِلِّ نكاح الأيم على استئمارها (وصورة أخرى):

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تُنكح الأيم حتى تُستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تستأذن، قالوا يا رسول الله: كيف إذنها؟ قال: أن تسكت»(٣).

---

(١) انظر: قبسات من السّنة، لأحمد البسيوني ص: ٢٥٥.

(٢) انظر: الأدب النّبوّي للخولي، ص: ١٧٦، بتصرّفٍ، وزيادةٍ.

(٣) رواه البخاري ١٩١/٩، ومسلم ٢٠٢/٩.

الحديث هنا عن تزويج البكر والثّيّب، ولكلّ واحدةٍ منها وضع خاص بها، لذلك اختلف الحكم المشروع في حقّهما في الزّواج، فأمّا بالنّسبة للبكر التي عادةً ما تكون أشدّ حياء (خصوصاً) فيما يتعلّق بمسألة الزّواج، فقد قصر النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ نكاحها على استئذانها، وهذا الاستئذان فيه مراعاة لحقّها الشّرعيّ من جهةٍ فهي إنسان كامل الحرية، وفيه محافظة على حيائها من جهةٍ أخرى، حيث جعل سكوتها بياناً وخطاباً بموافقتها.

أمّا بالنّسبة للمرأة التي جرّبت الحياة الزّوجية ثم فارقتها إمّا لموت زوجها أو طلاقها، أو نحو ذلك، فقد ميّز الإسلام بينها وبين البِكر، إذ قصر نكاحها على استئمارها. فبحكم معرفتها بالزّواج تحكم الآن بقبوله أو رفضه.

يقول ابن حجر: «الاستئمار يدلّ على تأكيد المشاورة وجعل الأمر إلى المستأمرة، ولهذا يحتاج الولي إلى صريح إذنها في العقد، فإن صرّحت بمنعه امتنع اتّفاقا»[١].

وبهذا ــ يظهر لي ــ أنّ البكر إذا رفضت الزّواج خجلاً أو نحو ذلك، ورأى وليّها أنّ من مصلحتها زواجها فلا بأس بذلك، وذلك على رأي مَن ذهب إلى هذا القول من الفقهاء[٢]. والله أعلم.

قصر حلب ماشية الغير على استئذانه:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يحلبن أحد ماشية

(١) انظر: فتح الباري ١٩٢/٩.

(٢) وهو قول الشّافعي، وأحمد، ومالك، وغيرهم. انظر: فتح الباري ١٩٣/٩.

أحدٍ إلاّ بإذنه»(١).

وفي روايةٍ أخرى يقول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يحلبن أحدٌ ماشية امرئ بغير إذنه»(٢).

هنا تأكيد على وجوب الاستئذان، فيما يخصّ حلب ماشية الغير، وأنّ ذلك لا يجوز بغير إذنه، هذا ما عليه الجمهور، لكنّ كثيراً من السّلف استثنوا من ذلك، ما إذا علم طيب نفس صاحبه دون استئذان، وأمّا عند الحاجة فذهب كثير منهم إلى جواز ذلك سواء علم بطيب نيّته، أو لم يعلم، ولهم في ذلك أدلّة(٣).

وفي الحقيقة، فإنّ مَن علم بإذن صاحبها فكأنّه استأذنه، وهو مندرج تحت هذا الحديث وليس بمستثنى منه، أمّا حال الضّرورة، فالضّرورات تبيحُ المحظورات، وليس القصر في هذا الحديث إلاّ حقيقيّاً تحقيقيّاً فيما لا ضرورة فيه.

هذا وقد جاء الاستثناء مرّة بإلاّ، ومرّة بغير، وكلاهما في الاستثناء سواء. والله أعلم.

قصر ملل الله من عبادة العبد على ملل العبد من عبادته:

عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، دخل عليها، وعندها امرأة فقال: «مَن هذه؟»، قالت: فلانة ــ تذكر

---

(١) رواه البخاري ٥/٨٨، ومسلم ١٢/٢٨.

(٢) رواه البخاري ٥/٨٨.

(٣) انظر: فتح الباري ٥/٨٩.

صلاهًا ـــ قال: ((مَهْ. عليكم بما تطيقون فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تَمَلّوا))[١].

إنّ النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لَمَّا أراد تنبيه هذه المرأة (وكلّ مَن يفعل مثل فعلها، مِمَّن يكثرون من النّوافل) إلى الاعتدال في ذلك جاء بعبارةٍ قصريّةٍ وهي قوله: ((لا يَمَلُّ الله، حتى تَمَلّوا))، قصر فيها المَلل بالنّسبة لله تعالى، على ما بعد ملل المُتعبِّد من عبادته.

هذا وقد اختلف العلماء في تفسير هذه العبارة القصريّة، فقال المحقّقون معناه: لا يعاملكم معاملة المال، فيقطع عنكم ثوابه وجزاءه، حتى تقطعوا أعمالكم[٢].

ويرى بعضهم أنّه لا قصر في الجملة، وإنّما المراد: لا يَمَلّ الله إذا مللتم[٣].

---

(١) رواه البخاري ١/١٠١.

وقد قال النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ هذه العبارة القصريّة نفسها للصّحابة عندما أخذوا يقتدون به في صلاته ليلاً. وذلك في حديثٍ رواه البخاري ١٠/٣١٤، ومسلم ٦/٧١.

وفي مسلم وردت رواية أخرى وهي: ((لا يسأم الله حتى تسأموا)). ٦/٧٣، وهي بمعنى العبارة السّابقة.

والملال: استثقال الشّيء، ونفور النّفس منه، وهو محال على الله بالاتّفاق. انظر: الفتح ١/١٠١.

(٢) أي: أنّه من مجاز التّشبيه، شُبّه قطع المزيد من الأجر، بقطع المال ما ملّ منه. انظر: الإشارة في الإيجاز للعزّ بن عبد السّلام ص: ٥٣.

(٣) لا أعتقد أنّ اللّغة تؤيّد هذا القول؛ إذ كيف تؤول (حتى) بمعنى: إذا، ولكلّ =

واستدلّوا على ذلك ببعض شواهد من العربية، وقالوا: هو مثل قولك: فلان لا ينقطع حتى ينقطع خصومه، معناه: لا ينقطع إذا انقطع خصومه، ولو كان معناه: ينقطع إذا انقطع خصومه، لم يكن له فضل على غيره[١].

ولكنّي أرى أنّ هذا التّعبير أسلوبٌ من أساليب التّعبير عند العرب، لا يقصد منه المعنى الحرفي لكلماته، وإنّما المراد: أن يكون الجزاء من جنس العمل، وكأن هذا الرّجل الذي تتناقص عبادته يوماً بعد يومٍ مللاً من كثرتها، ينقص الله له أجره يوماً بعد يومٍ كما يفعل مَن يَمَلّ من شيءٍ، وهذه من المشاكلة في اللّفظ؛ لأنّ إحدى اللّفظتين وافقت الأخرى في مادتها، وخالفتها في معناها، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة من الآية: ١٩٤][٢]، إذ المعنى: فجاوزه على اعتدائه، فسمّاه اعتداء وهو عدل، لتزدوج اللّفظة الثّانية مع الأولى. وهذا كثير في كلام العرب، والعرب تحبّ أن تشاكل في الألفاظ، وهي لا تقصد بالكلمة التي تشاكل بها معناها الأصليّ. والله أعلم.

قصر ما يأتي به الحياء على الخير:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «الحياء لا يأتي إلاّ

= حرفٍ معناه الخاصّ به. والله أعلم.

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٦/٧١.

(٢) أوّلها: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

بخيرٍ))[(١)].

إنّ ما لم يأتِ فيه حكم من الدِّين، فالحياء مقياسه ومحتكمه، والدّين لا حياء فيه، ولا حياء في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والسّؤال عن أمور الدِّين ونحو ذلك[(٢)].

وقد جاء النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بهذه الجملة القصريّة التي بُنِيت كلّها على أقوى طرق القصر جميعاً، وهو النّفي والاستثناء، وجاءت كذلك بأسلوب الاستثناء المفرّغ المؤكّد، وبكلّ هذه التّأكيدات يقصر النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ما يأتي به الحياء)) على الخير، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ. كما هو ظاهر الحديث إذن فالحياء خير كلّه.

وهكذا نجد هذه العبارة المعبّرة حقّاً، عن مضامين كثيرة، فالنَّبِيّ ــ عليه السّلام ــ لم يقل مثلاً: الحياء يأتي بالخير، بل جاء بالقصر في هذه العبارة لكي يربط بين الحياء والخير، ربطاً لا انفكاك له، حيث صار الخير والحياء بهذا القصر كوجهين لعملةٍ واحدةٍ. فحيثما وجدت الحياء وجدت الخير، ولهذا فعند ما تلاشت النّبوات السّابقة لم يدرك النّاس منها إلاّ بعض المعاني، ومنها: ((إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت))[(٣)].

وفي النّهاية نلاحظ أنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قد جاء

---

(١) رواه البخاري ١/٥٢١، ومسلم ٢/٦.

(٢) انظر: الأدب النّبويّ للخولي ص: ١٥٦، بتصرّفٍ.

(٣) انظر: الطّبراني في المعاجم الكبير ٣/٢٣٧.

بكلمة (خير) نكرةً لتدلّ على عموم الخير، فلا نتوقّع من الحياء خيراً معيّناً بل علينا أن نتوقّع منه أيّ خيرٍ. والله أعلم.

قصر مجيء الوحي في ثوب امرأة على عائشة ــ رضي الله عنها ــ:

غارَت نساء النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ من عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ، «وذلك عند ما كان النّاس يتحيَّنُون اليوم الذي يكون فيه رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عندها، فيرسلون إليه بالهدايا»، فلَمَّا ضِقْن بذلك كلَّمْن أم سلمة، لتكلّم رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في هذا الأمر، فكلّمته ثلاثاً فلم يردّ عليها، ثم قال لها بعد ذلك: لا تُؤذيني في عائشة، فإنّ الوحي لم يأتني في ثوب امرأة إلاّ عائشة، قالت: أتوب إلى الله من أذاك، يا رسول الله»[1].

نرى في هذا الحديث كيف غارت نساء النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ من عائشة ـــ رضي الله عن الجميع ـــ؟ وكيف أرسلن أم سلمة لتطلب منه أن يخبر النّاس بعدم تخصيص يوم عائشة بهداياهم، فلَمّا ألَحّت أم سلمة على النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في الطّلب أراد أن يعلمها هي واللاتي أرسلنها، بفضل عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ، فجاء بجملةٍ قصريّة، قصر فيها إتيانَه الوحي في ثوب امرأة على عائشة، ولكن العجيب في هذا القصر أنّه احتوى على حذف جزء من المقصور عليه، إذ التّقدير

---

(١) رواه البخاري ٥/٢٠٥.

لم يأتِني الوحي في ثوب امرأة إلاّ ثوب عائشة[١].

وعلى هذا يكون هذا القصر لتعظيم ثوب عائشة ــ رضي الله عنها ــ، بالدّرجة الأولى ثم يؤدّي ذلك إلى تعظيم عائشة ــ رضي الله عنها ــ، أي: أنّ ثوبها لطهره ونقائه وطيبه نزل فيه الوحي، فكيف بعائشة ــ رضي الله عنها ــ؟ وهذا أسلوب بليغ في المدح والثّناء، حيث لا يبدأ بمدح الممدوح، مباشرة، وإنّما يمدح شيء ما يختصّ بالممدوح، ومن ثم يتوصل منه إلى مدح الممدوح.

قصر حلّ الأكل في آنية أهل الكتاب على عدم وجود غيرها:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ (عند ما سُئل عن آنية أهل الكتاب): «فلا تأكلوا في آنيتهم إلاّ أن لا تجدوا أبداً، فإن لم تجدوا أبداً، فاغسلوها وكلوا فيها...» الحديث[٢].

هذا قصر للصّفة وهي: الأكل في آنية أهل الكتاب، على الموصوف، وهو الحالة التي تَنْعدم فيها الأواني غير أواني أهل الكتاب. وهنا نلاحظ التّأكيد على التّحَفُّظ الشّديد من آنيتهم، وأنّه لا يلجأ إليها إلاّ في حال الضّرورة القصوى ولهذا كرّر ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ كلمة (أبداً) مرّتين. والله أعلم.

---

(١) وعلى هذا يمكننا القول إنّه يجوز حذف جزء من المقصور عليه، إذا علم من السّياق كما فعل النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في تعبيره هذا.

(٢) رواه البخاري ٩/٦٢٣.

قصر مسح اليد بعد الأكل على لَعْقِها أو إلعاقها:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إذا أكل أحدكم طعاماً، فلا يمسح يده حتى يلعقها أو يلعقها»(١).

هذه سنةٌ من سننه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في الأكل، حيث نهى مَن أكل طعاماً عن مسح يده قبل لعقها أو إلعاقها، وذلك تحرّياً للبركة، فإنّه لا يُدري أين تكون من الطعام(٢).

قصر جواز المشيّ في إحدى الحذاءين على إصلاح صاحبتها:

وقال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إذا انقطع شِسْع أحدكم، فلا يمشي في الأخرى، حتى يصلحها»(٣).

لم يترك النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أمراً فيه خير إلاّ أدّب الأمّة عليه، مهما كان هذا الأمر صغيراً. لهذا جاء النّدب بإصلاح النَّعل المنقطعة قبل المشي في الأخرى.

وأمّا الحكمة من ذلك فقد قيل: إنّ في المشي بحذاء واحدةٍ تشويهاً ومُثْلةً، وقيل: لأنّه لا يستقيم المشي بواحدةٍ فيُسبب العثار(٤). أو لربّما كان القصد من ذلك العدل بين الأعضاء، إذ إن لبدن الإنسان عليه حقّاً. أو لأنّ ذلك مما ينافي الذّوق السّليم. أو لكلّ ذلك. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم ٢٠٣/١٣.

(٢) انظر: شرح النّووي ٢٠٣/١٣.

(٣) رواه مسلم ٧٥/١٤.

(٤) انظر: شرح النّووي ٧٥/١٤.

قصر إحساس موسى ـ عليه السّلام ـ بالتّعب، على مجاوزة المكان المأمور به:

قال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ (وهو يعرض قصّة موسى ـــ عليه السّلام ـــ مع فتاة): «﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[1]. ولم يجد مُوسى مسّاً من النّصب حتى جاوز المكان الذي أمر به...»[2].

قصر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ شُعور موسى بالتّعب على ما بعد مجاوزة المكان الذي أمر به، وذلك لكي يَتحقّق ما أراده الله لَهُ من مقابلة الخضر. فسبحان الحكيم الذي يضبط الأمور بموازين لا يمكن أن تخرج عنها أبداً. والله أعلم.

قصر معرفة المفتون الحقَّ على ما أشرب من هواه:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «تُعرض الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلبٍ أُشربها نُكت فيه نكتةٌ سوداء، وأيّ قلبٍ أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصّفا، فلا تَضُرّه، ما دامت السّموات والأرض، والآخر أسود، مرباداً، كالكوز مجخّياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلاّ ما

---

(١) يشير بذلك إلى الآية في سورة الكهف والتي أوّلها: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[الكهف: ٦٢].

(٢) رواه البخاري ٢١٨/١.

أشرب من هواه))[١].

يبيّن الحديث أنّ القلوب حيالَ هذه الفتن على نوعين: نوع عصمه الله وأكسبه مناعةً، فلا يضرّه من هذه الفتن شيء. ونوع فتن بها واتّبعها وتزوّد منها، حتى أصبح مطموس البصيرة منكوس الفطرة لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً، فصار قلبه كالإناء المقلوب، الذي لا يمسك شيئاً. أي: أنّ قلبه لا يمسك من الإيمان والخير شيئاً.

وقد قصر النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هنا صفتين: (إحداهما: معرفة المعروف، والثّانية: إنكار المنكر) على الموصوف، وهو ما أشرب من هواه، قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، والعياذ بالله.

وهنا نلاحظ أنّه قد تدمج جملتان في عبارةٍ قصريّة واحدةٍ، ما دام المقصور عليه واحداً في كلتيهما، وذلك توخّياً للإيجاز، ومراعاةً لتناسق الكلام، كما أنّ في العبارة ــ أيضاً ــ مقابلةً بين قوله: ((يعرف معروفاً،

---

(١) رواه مسلم ١٧٢/٢.

ومعنى قوله: كالحصير، أي: كما يُنْسجُ الحصير عوداً حيث شبّه عرض الفتن على القلوب بعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً واحداً.

قوله: أشربها، أي: دخلت فيه دخولاً تاماً.

وقوله: نكتة، أي: نقطعة.

وقوله: مرباداً، الرّبدة: اختلاطُ البياض والسّواد، أو السّواد والكدرة.

وقوله: كالكوز مجخياً: الكوز وعاء معروف، ومعنى مجخياً أي: مقلوباً.

انظر: شرح النّووي /١٧٢-١٧٣.

ويُنْكر منكراً»، للتّضادّ بين الفعلين والاسمين. والله أعلم.

قصر زيادة الكاذب في دعواه على القلّة:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في حديثٍ طويلٍ: «...ومَن ادّعى دعوى كاذبة ليتَكَثَّر بها، لم يزده الله إلاّ قلّة...» الحديث(١).

يُبيِّن النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في هذا الجزء من الحديث: أنّ مَن ادّعى دعوى كاذبة ليأخذ بها أموال النّاس إلى أمواله، ويتّخذ هذه الدّعاوى سبيلاً للاستكثار من الأموال، فإنّ جزاءه سَيَكون بعكس ما يريد تماماً، وأنّه لن يزداد إلاّ قلّة بأن يمحق الله ما جمع وينزع منه البركة.

وقد عبّر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن ذلك بأسلوب القصر ــ ولكنه أسلوب قصرٍ عجيب ــ حيث قصرت الزّيادة في أمواله على القلّة، وهذا قد يبدو غير مفهوم لأوّل وَهْلة، ولكن هذا الأسلوب هو تأكيد للشّيء بما يُشْبِه ضِدّه، فقد أكّد هنا النَّقْص بما يشبه الزّيادة حيث استثنى القلّة من الزّيادة وهما ضدّان. وهذا الاستثناء من النّوع المفرّغ الذي فيه التّوكيد بأعلى درجاته، وفيه الإيجاز بحذف المستثنى منه، إذ التّقدير: لم يزده الله شيئاً إلاّ قلّة. وفي العبارة طباق بين الزّيادة والقلّة، وبهذا تكون هذه العبارة القصيرة قد حوت كثيراً من المعاني البلاغية.

---

(١) رواه مسلم ١١٩/٢.

قصر موت المسلم على إحسان الظّن بالله تعالى:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قبل موته بثلاثة أيّام: «لا يموتن أحدكم، إلاّ وهو يُحسن الظّنّ بالله ــ عزّ وجلّ ــ»[1].

إنّ الإنسان عند ما تَحينُ له ساعة الوداع من الدّنيا، ويرى أنّه لا مفرّ له من الموت، يضطرب ويخاف، ويعود بذاكرته إلى ما قدم في سالف عمره، فيذكر أعماله السّيئة فيزداد خوفاً وحزناً، وقد يرى أنّه هالك لا محالة! ولكنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لم يترك لأحد أن يتمادى في قُنوطه؛ لهذا ربط النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بين موت المسلم وإحسان الظّنّ بالله على سبيل القصر الحَقِيقيّ التّحقيقيّ لكيلا يَظُنّ إنسان مَهْما بلغت ذنوبه أنّه لن ينفعه حسن الظّنّ بالله.

وهذا القصر للصّفة المأخوذة من الفعل والفاعل، على الموصوف وهو الحال. والتّقدير: لا يموتن أحدكم إلاّ محسناً الظّنّ بالله، أي: أنّ الجملة التي بعد أداة الاستثناء تؤول بمفردٍ؛ لأنّها في محلّ نصب حال. والله أعلم.

قصر اليهود سبب امتناع موسى ــ عليه السّلام ــ من الاغتسال معهم على الأدرة:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عُرَاة، يَنْظر بعضهم إلى بعضٍ، وكان مُوسى يَغْتَسِل وَحده، فقالوا: ما يَمْنع موسى أن يغتسل معنا إلاّ أنّه آدر، فذهب مَرّة يغتسل،

---

(١) رواه مسلم ١٧/٢٠٩.

فوضع ثوبه على حجرٍ، فَفَرَّ الحجر بثوبه، فخرج موسى في إثره يقول: ثوبي يا حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأسٍ...» الحديث[١].

فقاتل الله اليهود كيف قصروا تصوّراتهم، واحتمالاتهم لموانع اغتساله معهم على كونه آدر، ولم يخطر ببالهم الحياء؛ لأنّهم لا يعرفونه! ولم يخطر ببالهم إلاّ كونه ذا عيبٍ في عورته.

قصر الدّخول في الصّفّ الأوّل على الاستهام عليه:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لو يعلم النّاس ما في النّداء، والصّفّ الأوّل ثم لم يجدوا إلاّ أن يستهموا عليه لاستهموا...» الحديث[٢].

نلاحظ أنّ في قوله: «لم يجدوا إلاّ أن يستهموا» قصراً، وهذا القصر قد جاء ليصنع من هذه العبارة دلالة على المبالغة، فهذه التّركيبة القصريّة رَفَعَتْ مستوى المبالغة في هذه العبارة إلى حدٍّ عالٍ جدًّا، وهذا يجعلنا نَشْعر أكثر وأكثر بعظمِ هذا الأمر، وأنّه مَغْنَمٌ عظيمٌ لِمَن فاز به، وخسارة عظيمة، لِمَن فاته وصناعة المبالغة هذه سِرٌّ من أسرار الأسلوب القصريّ. والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري ١/٣٨٥، ومسلم ٤/٣٣، ومعنى آدر، أي: منتفخ الخصية.

(٢) رواه البخاري ٢/٩٦.

قصر الكلام يوم القيامة على الرّسول وقصر العلم بعظم كلاليب جهنم على الله تعالى:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ (في حديثٍ طويلٍ عن يوم القيامة): «...فيُضرب الصِّراط بين ظهراني جهنّم، فأكون أوّل مَن يجوز من الرّسل، ولا يتكلّم يومئذٍ إلاّ الرّسل، وكلام الرّسل يومئذٍ: اللهم سلِّم سلِّم، وفي جهنّم كلاليب مثل شوك السّعدان، هل رأيتكم السَّعدان؟ قالوا: نَعَم، قال: فإنّها مثل شوك السّعدان، غير أن لا يعلم قدر عظمها إلاّ الله...» الحديث[1].

في قصر الكلام في ذلك المشهد على الرُّسُل دليل على شدَّة الخوف، والفزع الذي يخيّم على الخليقة بأكملها، وفي قصر كلام الرّسل، على دعائهم الله بأن يسلّمهم، دليل على خطر جهنّم ومدى الخوف منها، حتى أنّ الأنبياء وهم صفوة الخلق يتعوّذون منها. وبعد أن وصف لهم النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ هيئة كلاليب جهنّم، لم يستطع أن يصف لهم حَجْمها، وإنّما وَكَل ذلك إلى الله وحده؛ لأنّها أكبر من أن يحيط بها وصف، والعياذ بالله منها.

قصر الألوهية على الله وحده:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «مَن قال: لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ،

---

(١) رواه البخاري ١٣/٤١٩، ومسلم ٣/٢١.

في يومٍ مئة مرّة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة خطيئة...» الخ[(١)].

في هذا الذّكر قصر للصّفة (وهي الألوهية) على الموصوف (وهو الله سبحانه) وذلك على سبيل العموم، فهو (إذن) قصر حقيقيّ، وهو من التّحقيقيّ بلا جدال، أما كلمة (وحده)، بعد هذه العبارة فهي تأكيد لهذا القصر، وأنّ الله هو وحده المنفرد بالألوهية، لكنّنا إذا نظرنا إلى قوله: (لا شريك له) نَرَى كأنّ القصر هنا قد تحول إلى قصرٍ إضافيٍّ، فالقصر إذا أطلق، كان قصراً حقيقيّاً، لكن إذا قيد بشيءٍ كان إضافيّاً، لهذا فإنّ قوله: (لا شريك له) تأكيد على انفراد الله بالعبادة دون مشارك له، وكأنّها توحي بالرّدّ على مخاطبٍ كان يعتقد هذا الاشتراك، وليس هناك من مخاطبٍ يخاطب بهذا الذّكر، فهو مِمّا يقوله الإنسان فيما بينه وبين نفسه إذن فما السّبب في هذا؟ لم أرَ هناك تبريراً لهذا التّداخل بين القصر الحقيقيّ والإضافي إلاّ كون هذه العبارة جوهر الاعتقاد عند المسلم، وأفضل الذّكر على الإطلاق، وهي شعار المسلمين الموحِّدين، وهي أوّل كلمةٍ يجب أن يقولها مَن يدخل في هذا الدِّين، وهي الكلمة التي جاء بها كلّ الأنبياء من قبل، بل هي الكلمة التي يؤمن بها كلّ مخلوقٍ.

إنّها كلمة التّوحيد، إذن، فليس بغريبٍ أن يصوغ النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم: ٣-٤]، هذه

---

(١) رواه البخاري ٦/٣٣٩.

العبارة بهذه الطّريقة ليجعل قائلها يتبرّأ من كلّ شركٍ كثيراً كان أو قليلاً، فعبّر أوّلاً بنفي الشّرك على سبيل العموم، ثم أكّده بقوله: (وحده) ثم نفى الشّرك على سبيل الخصوص بقوله: (لا شريك له) وبهذا تكون هذه العبارة متميّزة عن غيرها من الأساليب القصريّة؛ وذلك لأهميّتها، وشمول معناها، وقد نقول: إنّه يجوز أن يجمع بين القصر الحقيقيّ والإضافيّ في عبارةٍ واحدةٍ ولا يكون هنالك مخاطب نردّ عليه كما في هذه العبارة. والله أعلم.

قصر علم المغيّبات الخمس على الله تعالى:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «خمسٌ لا يعلمها إلاّ الله: لا يعلم أحدٌ ما يكون في غد، ولا يعلم أحدٌ ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفسٌ ماذا تكسب غداً، وما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت، وما يدري أحدٌ متى ينزل المطر»(١)، كلّ هذه الأمور مقصور علمها على الله سبحانه؛ لأنّها من علم الغيب(٢).

وهذا الحديث مأخوذٌ من الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[لقمان: ٣٤].

هذا وقد جاء القصر هنا بطريق النّفي والاستثناء؛ لأنّه أقوى الطّرق في الدّلالة على القصر؛ لأنّه، يصلح غالباً في الأمور العظام خصوصاً ما

---

(١) رواه البخاري ٢/١٦٧، ومسلم ١/١٦٤.

(٢) لهذا قال القرطبي: «لا مَطمع لأحدٍ في علم شيء من هذه الخمسة، لهذا الحديث».
انظر: فتح الباري ١/١٢٢.

كان من صفات الخالق سبحانه، ولا أعتقد أنّه يحسن في مثل هذه العبارة القصريّة أن يأتي بطريقٍ غير طريق النّفي والاستثناء، ولو عبّرنا بأي طريقٍ آخر هنا لكان ضعيفاً، في مثل هذا المقام. والله أعلم.

قصر التّعذيب بالنّار على الله تعالى:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنِّي أمرتكم أن تحرّقوا فلاناً وفلاناً بالنّار وإنّ النّار لا يُعذِّب بها إلاّ الله، فإن أخذتُمُوهما فاقتلوهما...» الحديث[1].

الصّفة المقصورة هنا هي: حَقّ التّعذيب بالنّار، حيث قصرت على الله وحده[2]، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ. والله أعلم.

قصر الظّلّ يوم القيامة على ظلّ الله وحده:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «سبعةٌ يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظِلّ إلاّ ظلّه...» وذكر الحديث المعروف[3].

الصّفة المقصورة هنا هي وجود أيّ شيءٍ يُمكن أن يُسَمّى ظِلاًّ؛ لأنّ (ظِلاًّ) نكرة وهي دالّة على العموم، فتشمل كلّ ما يُسَمَّى ظِلاًّ، وظِلّ الله،

---

(١) رواه البخاري ٦/١١٥.

(٢) يرى بعض العلماء: أنّ النّهي عن التّعذيب بالنّار ليس للتّحريم، وأن قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هذا، على سبيل التّواضع لله تعالى. انظر: فتح الباري ٦/١٥٠.

وكأنّهم يرون: أنّ القصر هنا غير تحقيقيّ، وإنّما للمبالغة، ولكنّي لا أرى ذلك، وأنّه لا يحقّ لأحدٍ أن يعذّب بالنّار غير الله وإن فعله أحدٌ فهو مخالفة.

(٣) رواه البخاري ٣/٢٩٣، ومسلم ٧/١٢٠.

قيل المراد به: ظِلّ عرشه(١).

وقيل: هو كناية عن الكرامة والكنف، والكفٍّ عن المكاره(٢).

وقيل: المراد به: الراحة والنّعيم(٣). والله أعلم.

قصر الالتجاء والنّجاء على كنف الله تعالى:

كان النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يقول عند النّوم: «اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا مَلْجأ ولا منجا منك إلاّ إليك...» الحديث(٤).

في هذا الحديث عبارةٌ قصريّةٌ واحدةٌ، لكن هذه العبارة في غاية من الإيجاز إذ لو نظرنا إلى أصلها الأوّل لوجدنا أنّها تَتكوّن من جملتين:

الأولى: لا ملجأ من بأسك إلاّ إليك.

والثّانية: لا منجا من بأسك إلاّ إليك.

فحُذِفت كلمة (بأس) أو ما في معناها من الجملتين، لدلالة السّياق عليها، ثم لما كانت (ملجأ ومنجا) صفتين مشتقّتين، من فعلين يتعدّيان(٥)

(١) انظر: فتح الباري ١٤٤/٢.

(٢) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٢١/٧.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٢٣/١٦.

(٤) رواه البخاري ٣٥٧/١، ومسلم ٣٣/١٧.

(٥) انظر في ذلك: معجم الأمثال المتعديّة بحرف، لموسى الأحمدي، دار العلم، بيروت، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٩٨٣م، وقد ذكر أنّ الفعل (لجأ) يتعدّى بحرف الجرّ (إلى). =

بحرفي الجرّ: (من، وإلى) جاز عطف إحداهما على الأخرى، مع حذف حرفي الجرّ من إحدى الجملتين، ودمجتا في عبارةٍ قصيرةٍ: (لا ملجأ ولا منجا منك إلاّ إليك)، وقصرت كلّ صفةٍ مع حذف الجرّ (من) على الموصوف، وهو كون ذلك إلى الله، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ.

وهذا الإيجاز كلّه إضافة إلى الإيجاز الحاصل من القصر أصلاً، وهو من هي بلاغة النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ.

قصر حقيقة الْمُلَك على الله تعالى:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((أغيظُ رجلٍ على الله يوم القيامة، وأخبثُه وأغيظُه عليه، رجلٌ كان يُسَمَّى ملك الأملاك، لا ملك إلاّ الله...))(١).

ليس هناك من البشر أو الخلق جميعاً مَن يحقّ له أن ينصب نفسه ملكاً على كلّ الملوك. لهذا كانت المنْزلة مقصورةً قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً على الله وحده؛ لأنّه أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، ومالك الأملاك... الخ. والله أعلم.

= أمّا (نجا) فيتعدّى بحرف الجر (من) ص: ٣٣٣، ٣٦٩، ولكنّه لم يتعرّض إلى تعدّية الفعل بالنّسبة لمتعلّقين، وقد رأيت أنّ هذين الفعلين يتعدّيان بحرفي الجرّ (من) و(إلى) كما تقــول: ســار زيد من الرّياض إلــى المدينة ونحو ذلك. والله أعلم.

(١) رواه مسلم ١٤/١٢٢، والمراد بأغيظه: أي: أخبثه أو أذلّه. انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٤/١٢١.

قصر غفران الذّنوب على الله تعالى (وصور أخرى):

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في دعائه: «اللهم إنّي ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذّنوب إلاّ أنتَ، فاغفر لي مغفرةً من عندك»(١).

وجاءت زيادة في مسلم، وهي قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «واهدِني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلاّ أنتَ، واصرف عنّي سَيِّئها، لا يصرف عنّي سَيِّئها إلاّ أنتَ»(٢).

إنّ قول النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يَغْفِرُ الذّنوبَ إلاّ أنتَ»، جملةٌ معترضة بين قوله: «ظلمت نفسي ظلماً كثيرا»، وبين قوله: «فاغفر لي مغفرةً»، وفائدة هذه الجملة، الإقرار بأنّ الله هو الذي يغفر الذّنوب لا غيره(٣).

وكذلك الجملة في الحديث الثّاني، وهي: «لا يهدي لأحسنها إلاّ أنتَ» وهذا كلّه دليلٌ على الإخلاص في الاعتقاد، ومن نسبة الأفعال إلى فاعلها الحَقيقيّ، وهذا ما يريده الله تعالى، من العبد. والله أعلم.

قصر الشّفاء على شفاء الله تعالى:

وكان رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إذا أتى مريضاً

---

(١) رواه البخاري ٣١٧/٢، ومسلم ٢٨/١٧.

(٢) رواه مسلم ٥٨/٦.

(٣) انظر: عمدة القارئ ١١٩/٦.

يَقُول: اذهب البأس ربّ النّاس، اشف، أنتَ الشّافي، لا شفاء إلاّ شفاؤك...» الحديث[١].

وفي روايةٍ: «أذهب البأس ربّ النّاس بِيَدك الشّفاء، لا كاشف له إلاّ أنتَ»[٢].

في هذا الحديث كمال العرفان لله تعالى بفضله، عندما أُسْنِدَت هذه الأفعال إلى فاعلها الحقيقيّ وهو الله تعالى، ثم قُصِرت عليه، وقَمِنٌ أن يستجيب الله الدّعاء، إذا كان بهذا الإخلاص، فقد قصر كلّ الرّجاء عليه دون غيره قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً في الاعتقاد والسّلوك.

قصر الحلف على كونه بالله تعالى:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «مَن كان حالفاً فلا يحلف إلاّ بالله»[٣].

قال العلماء: «السّرّ في النّهي عن الحلف بغير الله، أنّ الحلف بالشّيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنّما هي لله وحده، وظاهر الحديث تخصيص الحلف بالله خاصّة، لكنّ الفقهاء اتّفقوا على أنّ اليمين تنعقد بالله، وذاته، وصفاته العلية، وكأنّ المراد بقوله بالله ـــ الذّات العلية لا خصوص لفظ الله...»[٤].

---

(١) رواه مسلم ١٤/١٨٠.

(٢) رواه مسلم ١٤/١٨١.

(٣) رواه البخاري ٧/١٤٨، ومسلم ١١/١٠٦.

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر ١١/٥٣١.

قصر قول النَّبِيِّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ما يرضي الله تعالى:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يوم موت ابنه إبراهيم: ((إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يرضي ربّنا، وإنّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون))(١).

في مثل هذه المواقف التي تُحزن القلب، وتُدمع العين، نجد أجمل الصّبر منه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، ويظهر جليّاً في هذه العبارة القصريّة؛ إذ أنّ هذا القصر يدلّنا على شدّة تحفّظه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من زلّة القول، وقت الهول، حيث لا يستطيع أكثر النّاس تمالك أَنْفُسِهم، كما يطلعنا على مدى هذا الرّضا بقدر الله وحكمه. والله أعلم.

قصر الإنقاذ النّهائي من النّار على الله تعالى:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((يقول الله ــ عزّ وجلّ ــ يوم القيامة: شفعت الملائكة، وشفع النّبيّون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلاّ أرحم الرّاحمين، فيقبض قبضةً من النّار، فتُخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط...)) الحديث(٢).

بعد أن يشفع كلّ المخلوقين المأذون لهم بالشّفاعة في ذلك اليوم، يبقى في النّار أناسٌ لم يعملوا خيراً قط، فيقصر الله سبحانه وتعالى، بقاء مَن يستطيع أن ينقذهم، عليه سبحانه، ثم إنّه لم يقل لم يبق إلاّ أنا مثلاً،

---

(١) رواه البخاري ١٧٣/٣، ومسلم ٤٩/١٥.

(٢) رواه مسلم ٣٢/٣.

وإنّما قال: ((لم يبق إلاّ أرحم الرّاحمين))؛ لأنّ ذلك الموقف يَتَطَلَّب الرّحمة العظمى، التي تشمل دائرتها حتى أولئك الذين هم بمنأى عن أن تشملهم الرّحمة العادية فهم لم يعملوا أيّ فعلٍ يقرّبهم من الرّحمة. والله أعلم.

قصر البقاء في النّار بعد الشّفاعة المحمّدية على مَن حبسه القرآن:

وفي حديثٍ طويلٍ عن الشّفاعة، يقول النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في نهايته: ((...ثم أشفع فيُحدُّ لي حدّاً، فأدخلهم الجنّة، ثم أرجع فأقول: يا ربّ: ما بقي في النّار إلاّ من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود))[(١)].

في هذه العبارة القصريّة دليلٌ على أنّه لن يُبْقَى الله في النّار إلاّ أهل الكفر، والشّرك، والنّفاق، والعياذ بالله.

وفيها دليلٌ على رحمة الله بالمؤمنين، حتى لو لم يفعلوا خيراً.

وفيها أيضاً دليلٌ على عظم شفاعة النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ حتى إنّها لا تُبْقِي في النّار إلاّ مَن وجب عليه الخلود. وتلك شفاعة عظمى، وفضل عظيم من الله عليه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ وعلى المؤمنين. والله أعلم.

قصر صحّة الصّلاة على ما كان بقراءة:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا صلاةَ إلاّ بقراءة))[(٢)].

---

(١) رواه البخاري ١٣/٣٩٢، ومسلم ٣/٥٨.

(٢) رواه مسلم ٤/١٠٤، والمراد بالقراءة: قراءة الفاتحة. انظر: شرح النّووي ٤/١٠٤- =

في هذا الحديث نفي لصفة الصّلاة عن كلّ ما يؤدَّى على شكل صلاةٍ، وإثباتها لما كان معه قراءة للفاتحة، وهو من الحقيقيّ التّحقيقيّ.

قصر المانع لخروجه ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ للتّراويح على خوفه أن تُفْرَضَ على المسلمين:

تأخّر النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن الصّحابة في اللّيلة الثّالثة، أو الرّابعة من رمضان ولما خرج إليهم قال: «لم يمنعني من الخروج إليكم إلاّ أنّي خشيت أن تُفْرَضَ عليكم»، أي: صلاة التّروايح[1].

إنّ السبب الوحيد لعدم خروجه ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ هذا، هو أنّه خشي أن تُفْرَضَ عليهم، فهو لا يريد منهم أن يُلْزِموا أنفسهم بها؛ لأنّ ذلك قد يؤدّي إلى افتراضها عليهم؛ لذلك أشفق عليهم مِنها، وصدق الله عند ما وصفه بقوله:﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة من الآية:١٢٨].

قصر رفع النّساء رؤوسهن من السّجود على ما بعد استواء الرّجال جلوساً:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ للنّساء في المسجد: «لا ترفعن رؤوسكن حتى يستوي الرّجال جلوساً...»[2].

= ١٠٥.

(١) رواه البخاري ٣/١٠، ومسلم ٦/٤١.

(٢) رواه البخاري ١/٤٧٢، ومسلم ٤/١٦٠.

النّفي هنا جاء في إطار النّهي للنّساء عن رفع رؤوسهن من السّجود، إلاّ بعد استواء الرّجال جلوساً، وهو قصر حقيقيّ تحقيقيّ، وليس لمبالغة، والحكمة من ذلك أنّ بعض الصّحابة كان فقيراً لا يجد من الثّياب إلاّ يستر عورته، وقد تنكشف عورته عند السّجود فيراها النّساء من خلفهم، فجاء هذا النَّهي[1]. والله أعلم.

(١) انظر: فتح الباري ١/٤٧٣.

قصر إباحة الجلوس لِمَن دخل المسجد على ما بعد أداء تحيّة المسجد:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتى يصلِّيَ ركعتين...))(١).

هذا الحديث على تقدير: لا يَجلِس إلاّ بعد أن يصلِّي ركعتين، وهذا القصر حقيقيّ تحقيقيّ؛ لأنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لَمْ يتركها على أيّ حالٍ، بل أمر مَن دخل يوم الجمعة ــ وهو يخطب ــ أن يقوم ويصلِّي ركعتين(٢).

قصر قبول صلاة المُحْدِث على ما بعد تطهّره:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا تُقْبَل صلاةُ مَن أحدثَ حتى يَتَوَضّأَ))(٣).

المراد بالقبول هنا: هو ما يرادف الصِّحّة؛ لأنّه لما كان الإتيان بشروطها مظنّة الصّحّة التي ثمرتها القبول، عبّر بالقبول عنها مجازاً(٤).

وقوله: ((يتوضّأ)) ليس خاصاً بالوضوء وحده، وإنّما المقصود يتطهّر بماء أو ترابٍ ولكنْ ذكر الوضوء؛ لأنّه هو الأصل(٥).

---

(١) رواه البخاري ٤٨/٣، ومسلم ٢٢٦/٥.

(٢) انظر: شرح النّووي ٢٢٦/٥.

(٣) رواه البخاري ٢٣٢/١، ومسلم ١٠٤/٣.

(٤) انظر: فتح الباري ٢٣٥/١.

(٥) انظر: شرح النّووي ١٠٣/٣.

وعلى هذا فلا يظنّ أحدٌ أنّ هذا القصر للمبالغة في أهميّة الوضوء، فليس هذا موضعاً للمبالغة، وإنّما قوله: ((يتوضّأ)) يعني: يتطهّر وقد أجْمَعَتِ الأمّة على أنّ التّطهّر واجبٌ لصحّة الصّلاة[١].

قصر التّكفير عن تأخير الصّلاة على أدائها:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((مَن نَسِيَ صلاةً فليُصَلِّ، إذا ذكرها، لا كفّارة لها إلاّ ذلك))[٢].

هذا الحديث يؤكّد يسر الإسلام وسماحته، حيث قصر تكفير الصّلاة على أدائها عند ما يذكرها الإنسان، ويرى العيني ـــ رحمه الله تعالى ـــ: ((أنّ هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أنّه لا يكفرها غير قضاؤها.

والآخر: أنّه لا يلزمه في نسيانها، غرامةٌ ولا صدقةٌ، ولا زيادة. إنّما يصلّي ما ترك))[٣].

وهذان الوجهان هما في الحقيقة وجه واحد؛ لأنّ الغرامة، والصّدقة، والتّضعيف تدخل ضمن الكفّارة، وما الكفّارة في الحقيقة إلاّ عقوبة على ترك أمر وجب فعله.

هذا وقد جاء القصر هنا ليزيد من طمأنينة مَن ظنّ أنّه ارتكب إثماً

---

(١) انظر: شرح النّووي ١٠٢/٣.

(٢) رواه البخاري ٧٠/٢، ومسلم ١٩٣/٥.

(٣) انظر: عمدة القارئ ٩٣/٥.

بنسيان الصّلاة، وكأنّ الحديث يقول لِمَن نَسِيَ صلاةً: لا تخف، فالمطلوب منك هو أداؤها فقط.

وهنا سرّ بلاغيّ آخر من قصر الكفّارة على أداء الصّلاة، وهو أنّ مَن نسي صلاة، وأراد أن يقدم أفضل قربة بدلاً عن الفريضة، فإنّ لن يجد شيئاً يغني عنها؛ لأنّه ليس هناك أعظم برّاً من أدائها في وقتها، كما جاء في الحديث القدسيّ: ((وما تقرّب إليّ عبدي بشيءٍ أحبّ مِمّا افترضته عليه))[(١)].

قصر غمس اليد في الإناء بعد النّوم على ما بعد غسلها ثلاثاً:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً، فإنّه لا يدري أين بَاتَت يده))[(٢)].

نلاحظ في هذا الحديث مدى الطّهارة والنّظافة التي يدعو إليها الإسلام، وهذا النّمط من النّظافة، لا مثل له في تاريخ البشريّة حيث إنّ الشّكّ في طهارة الشّيء يتطلّب تطهيره، وهذا النّهي عن غمس اليد في الإناء قبل غسلها مجمع عليه. لكن جماهير العلماء المتقدّمين، والمتأخّرين، على أنّه نهي تنْزيه لا نهي تحريم، فلو خالف وغمس يده في الإناء لم يَفْسُد الماء. ولم يأثم[(٣)].

---

(١) رواه البخاري ١١/٣٤١.

(٢) انظر: شرح النّووي ٣/١٨٠.

(٣) انظر: شرح النّووي ٣/١٨٠.

ومهما يكن فإنّ القصر هنا تحقيقيّ؛ لأنّ هذا هو المطلوب فعله لكي تتمّ النّظافة والنّفي هنا قد جاء على شكل نهي؛ لأنّ الْمُراد تنفيذه فيما يُسْتَقْبل. وليكون أدعى إلى التّنفيذ، ولا يظنّ أحد أنّ النّهي ليس فيه نفي، فالنّفي موجود وهو على تقدير: لا يجوز أن يغمس يده في الإناء حتى يغسلها. والله أعلم.

قصر اقتراب آكل الثّوم من المسجد، على ما بعد ذهاب ريحه:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «مَن أكل من هذه البقلة، فلا يقرَبَنَّ مساجدنا حتى يذهب ريحها ــ يعني: الثّوم ــ»(١).

في هذا الحديث نُلاحظ شدّة المحافظة على صيانة المسجد، ومشاعر المصلّين فيه، فلا يجوز الدُّخول مع المصلّين برائحةٍ كريهةٍ.

قصر المانع من تكليفه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ جابراً ــ رضي الله عنه ــ على الصّلاة:

سلّم جابر(٢) بن عبد الله على رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، وهو يُصلّي على بعيره، فأخذ يومئ إليه فلمّا فرغ قال له: «لم يمنعني أن

(١) رواه مسلم ٥/٤٨.

(٢) هو: جابر بن عبد الله بن حرام، صحابي جليل، شهد العقبة مع السّبعين، وكان صغيراً، شهد الخندق وما بعدها، توفّي جابر بالمدينة سنة: ٧٨هـ، بعد أن ذهب بصره. انظر: صفوة الصّفوة للإمام جمال الدّين بن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، النّاشر دار الوعي بحلب، الطّبعة الأولى سنة: ١٣٨٩هـ، ١/٦٤٨.

أكلّمك إلاّ أنّي كنت أصلّي»[(١)].

وفي روايةٍ: «إنّما مَنَعَني أن أردّ عليك، أنّي كنت أصلّي»[(٢)].

من الملحوظ هنا أنّ هذه العبارة القصريّة، قد جاءت بطريقي: (النّفي والاستثناء وإنّما) ولكن الذي يظهر هنا، أنّ هذا الاختلاف إنّما هو من الرّاوي؛ لأنّ المتوقع أن يكون النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: قد قال هذه العبارة بأحد هذين الطّريقين مرّة واحدة؛ لأنّ الحادثة هذه قد حدثت مرّة واحدة. والله أعلم.

قصر الصّلاة بعد الإقامة على المكتوبة:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إذا أقيمت الصّلاة فلا صلاة إلاّ المكتوبة»[(٣)].

هذا أسلوب خبري أريد مِنْه النّهي، أيّ: لا تصلّوا بعد إقامة الصّلاة المكتوبة، هذه العبارة القصريّة إن فُهِمت على أنّ معناها بُطلان النّافلة إذا أُقيمت الفريضة، فهذا وارد؛ لأنّ النّفي قد انصبّ على الصّلاة نفسها، أي: إنّ كلّ صلاةٍ تنفل تبطل بالإقامة، سواء بدأ بها قبل الإقامة أو بعدها، وأنّه يجب على الْمُصلّي قطعُ النّافلة، والدّخول في المكتوبة، وهذا المفهوم يساند قول مَن ذهب إلى استحباب قطع النّافلة والدّخول في المكتوبة[(٤)].

---

(١) رواه مسلم ٥/١٨.

(٢) رواه البخاري ٣/٨٦.

(٣) رواه مسلم ٥/٢٢١.

(٤) انظر: المغني لابن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطّبعة الأخيرة، ٢/١٢. =

ولكنّ أكثر الفقهاء فهموا هذا الحديث على أنّه نهي صريح عن افتتاح نافلةٍ بعد الإقامة ولهم في ذلك تفصيلٌ لا يسوغ ذكره هنا[١]. والله أعلم.

قصر الصّدقة في العبد على صدقة الفطر:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ليس في العبد إلاّ صَدَقة الفطر))[٢].

وهذا الحديث صريح في وجوب صدقة الفطر على السّيّد عن عبده، سواء كان للقُنْيَة أم للتّجارة[٣].

قصر قبول الله تعالى للصّدقة على ما طاب منها:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((مَن تصدّق بعدل تمرةٍ من كسب طيّبٍ ــ ولا يقبل الله إلاّ الطّيّب ــ فإنّ الله يتقبّلها بيمينه...)) الحديث[٤].

= لكنّ الذّين ذهبوا إلى قطع النّافلة والدّخول في المكتوب لم يَبْنُوا حكمهم على هذا الحديث، وإنّما بَنَوه على أنّ ما يدركه من الجماعة أعظم أجراً مما يفوته من النّافلة؛ لأنّ صلاة الجماعة تزيد على صلاة الفرد سبعاً وعشرين درجة. (المغني ١٢/٢).

(١) انظر: شرح النّووي ٢٢٢/٥.

(٢) رواه مسلم ٥٦/٧.

(٣) انظر: شرح النّووي ٥٥/٧.

(٤) رواه البخاري ٢٧٨/٣، ومسلم ٩٨/٧، والمراد بالطّيّب هنا: الحلال.

قال العيني: «قوله: (لا يقبل الله إلاّ الطّيّب) جملة معترضة، واردة على سبيل الحصر بين الشّرط والجزاء، تأكيداً، وتقريراً، للمطلوب في النّفقة»[١].

قصر لبس الخفاف للمحرم على مَن لم يجد نعلين:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عند ما سُئل عن لبس المحرم ــ: «لا يلبس القمص، ولا التّمائم، ولا السّراويلات، ولا البرانس، ولا الخفاف إلاّ أحد لا يجد نعلين فلْيَلبس خفّين وليقطعهما أسفل الكعبين»[٢].

الشّاهد هنا هو في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ولا الخفاف إلاّ أحد لا يجد نعلين...» الخ؛ إذ المعنى: لا يلبس المحرم الخفاف إلاّ أحد لا يجد نعلين، فإنّه يلبس الخفين، بشرط أن يقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين»[٣]. وذلك قصر لصفة لبس الخفاف، على مَن لم يجد نعلين.

وهنا إيجاز بالحذف، إذ التّقدير ولا يلبس الخفاف إلاّ أحد لم يجد نعلين كما أنّ المستثنى منه محذوف تقديره: لا يلبس المحرم الخفّين إلاّ أحد لا يجد نعلين[٤].

---

(١) عمدة القارئ ٢٧١/٨.

(٢) رواه البخاري ٤٠٢/٣، ومسلم ٧٣/٨، والمقصود بالخفاف هنا: كلُّ ما يستر الرِّجْل. انظر: الفتح ٤٠٢/٣.

(٣) انظر: عمدة القارئ للعيني ١٦١/٩.

(٤) المصدر السّابق ١٦١/٩.

هذا وجه، وهناك وجه آخر وهو أن يكون الاستثناء منقطعاً وإلاّ هنا بمعنى (لكن) وهو صحيح أيضاً. وحينئذٍ لا قصر في الجملة. والله أعلم.

قصر طواف الحائض بالبيت على ما بعد الاغتسال:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لعائشة عند ما حاضت في الحجّ: ((هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، فاقضي ما يقضي الحاجّ، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تغتسلي))(١).

استُدِلّ به على أنّ الطّواف لا يصحّ من الحائض وهذا مجمع عليه(٢).

قصر إحلال النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ من الإحرام على ما بعد النّحر:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّي لبَّدت رأسي، وقلّدت الهدي، فلا أحلّ حتى أنحر))(٣).

وفي روايةٍ: ((لا يحلّ مني حرام حتى يَبْلغ الهدي مَحِلّه))(٤).

---

(١) رواه مسلم ١/١٤٧.

(٢) انظر: شرح النّووي ٨/١٤٧.

(٣) رواه البخاري ٣/٤٢٢، ومسلم ٨/٢١١.

والتّلبيد: هو إلزاق الشّعر بصمغٍ أو نحوه، لكيلا يشعث الشّعر أو يُقْمِل، وقلّدت الهدي: أي: وضعت عليه شعاراً ليعلم أنّها هدي. انظر: لسان العرب مادة: قلّد، ولبّد.

(٤) رواه مسلم ٨/١٦٧.

في هذا الحديث لم يُصْدِر النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أمره، إلى الصّحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ بفعل شيءٍ، وإنّما أخبر عن نفسه، وما يفعله وذلك أنّ الحجّ كان لأوّل مرّةٍ، فهو يريد أن يُطَبِّقَ أحكام الحجّ على نفسه، حتى يكون قدوةً للمسلمين، فجاء كثير من أحكام تلك الحجّة على هذا النّحو. والله أعلم.

قصر الذّبح يوم النّحر على ما بعد الصّلاة:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في خطبته يوم النّحر: ((لا يذْبَحَنَّ أحدٌ حتى يصلّي))(١).

في هذا الحديث قصر لذبح الأضحية على ما بعد الصّلاة، وهو قصر حقيقيّ تحقيقيّ. والفقهاء مُجْمِعُون على أنّه إذا صلّى مع الإمام، ثم ذبح، فقد أجزأته، أمّا لو ذبح حتى قبل الفجر يوم النّحر، فلا تجزي(٢).

قصر الأضحية من الغنم على الْمُسِنَّة:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا تذبحوا إلاّ مُسِنّة، إلاّ أن يَعْسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضّأن))(٣).

في هذا الحديث قُصِر الذّبح يوم النّحر على الْمُسِنَّة، ثم قصر ذبح غير الْمُسِنّة على حال العسر، إذا التّقدير: لا تذبحوا غير مُسِنّة إلاّ أن يعسر

---

(١) رواه مسلم ١١٤/١٢.

(٢) انظر: شرح النّووي ١١٠/١٣.

(٣) رواه مسلم ١١٧/١٣.

عليكم، وكلا العبارتين القصريّتين من القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، وهكذا نرى هذا الإيجاز من دمج القصرين في عبارةٍ واحدةٍ.

قصر الانصراف عن الحجّ على ما بعد طواف الوداع:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا ينفرَنّ أحدكم، حتى يكون آخر عهدٍ بالبيت»[١].

في هذا الحديث قصرٌ للانصراف من الحجّ على ما بعد طواف الوداع، وكان هذا دليلاً لأكثر العلماء على وجوب طواف الوداع، على كلّ حاجٍّ عدا الحائض؛ فإنّه يسقط عنها، وذلك لأدلّة أخرى[٢].

قصر صيام رمضان على رؤية الهلال:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له...»[٣].

اختلف العلماء حول هذا الحديث، فالحنابلة يرون أنّ الجملتين القصريّتين في هذا الحديث: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه» خاصّة بحال الصّحو، وأمّا الغيم، فله حكم آخر، وعلى هذا فالقصر هنا حقيقيّ تحقيقيّ.

أمّا الجمهور فإنّهم يرون أنّ الجملتين القصريّتين السّابقتين، لا

---

(١) رواه مسلم ٩/٧٨.

(٢) انظر: شرح النّووي ٩/٧٩.

(٣) رواه البخاري ٤/١١٩، ومسلم ٧/١٨٩.

تختصّان بالصّحو بل تشمل حال الصّحو والغيم، وكأنّهم يرون أنّ القصر هنا للمبالغة، وليس هو من التّحقيقيّ، ويرون أنّ المراد بقوله: «فاقدروا له»، أي: انظروا أوّل الشّهر، وأحسبوا تمام الثّلاثين(١).

ولكن يظهر لي أنّ رأي الحنابلة هو الأقرب للصّواب، وأنّ القصر هنا حقيقيّ تحقيقيّ، ولكنّه خاصّ بحال الصّحو فقط. والله أعلم.

قصر تقدّم رمضان بصيام على مَن كان ذلك عادةً له:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تقدّموا رمضان بصومٍ يوم ولا يومين، إلاّ رجلٌ كان يصوم صوماً فليَصُمْه»(٢).

وهذا تصريح بالنّهي عن استقبال رمضان بصوم يوم أو يومين، لِمَن لم يصادف ذلك عادةً له(٣). لهذا قُصر تقدّم رمضان بصومٍ على مَن له عادة، دأب عليها قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً.

قصر الدّخول من باب الرّيّان على الصّائمين:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّ في الجنّة باباً، يقال له الرّيّان يدخل منه الصّائمون يوم القيامة، لا يدخل منه غيرهم»(٤).

إنّ اختصاص الصّائمين ببابٍ في الجنّة يدخلون معه لهو شرفٌ لهم؛

---

(١) انظر: فتح الباري ١٢١/٤، بتصرّفٍ كبيرٍ وزيادةٍ للتّوضيح.

(٢) رواه مسلم ١٩٤/٧.

(٣) انظر: شرح النّووي ١٩٤/٧.

(٤) رواه البخاري ١١١/٤، ومسلم ٣٢/٨.

لأنّهم وفدٌ خاص ومدخلهم هذا له صفات خاصّة تتلاءم مع فضلهم، وذلك كما يستقبل رئيس الدّولة كبار الضّيوف من بوابةٍ ومكانٍ خاصٍّ ليس مع عامّة الشّعب. ولله ولجنته المثل الأعلى. والله أعلم.

قصر بيع الذّهب والفضّة بمثلهما على التّساوي في الوزن:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا تبيعوا الذّهب بالذّهب إلاّ سواء بسواء، والفضّة بالفضّة إلاّ سواء بسواء»[(١)].

وفي روايةٍ: «لا تبيعوا الذّهب بالذّهب، إلاّ وزناً بوزنٍ»[(٢)].

في هذا الحديث شاهدان للقصر:

أحدهما: قصر بيع الذّهب بالذّهب، على كونه سواء بسواء، أو وزناً بوزنٍ.

والثّاني: قصر بيع الفضّة بالفضّة، على حالة تساوي وزن الْمَبِيع والْمُشْتَرِي، ولكن جملة القصر الثّانية لم يذكر منها إلاّ الاستثناء فقط، وذلك لأنّ المنفي معلوم من السّياق. فهذا إيجاز بالحذف مع الْقَصْر.

قصر بيع الطّعام على استيفائه من البائع الأوّل:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «مَن اتباع طعاماً، فلا يبعه حتّى يستوفيه»[(٣)].

(١) رواه البخاري ٣٧٩/٤، و١١/٩-١٠، وفي مسلم «إلاّ مثلاً بمثلٍ».

(٢) رواه مسلم ١٩/١١.

(٣) رواه البخاري ٣٤٤/٤، ومسلم ١٦٨/١٠.

في هذا الحديث النّهي عن بيع الطّعام قبل استيفائه من البائع الأوّل، ولعلّ الحكمة في ذلك هي ألاّ يحصل تغرير بالمشتري الأخير. والله أعلم.

قصر تَلَقِّي السّلع على ما بَعْدَ نُزولها السّوق:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا تلقوا السِّلع حتّى يُهْبَط بها إلى السّوق»[١].

فالتّلقّي الذي لم ينه عنه هو ما بلغ السّوق[٢].

قال العلماء: «إنّ الحكمة من هذا النّهي إزالة الضّرر عن الجالب، وصيانته عن الخدعة[٣].

ويمكن أن يعدّ هذا من الإضافي والمنفي هو تلقّي السّلع في الطّريق.

قصر بيع التّمر على ما بعد صلاحه:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا تبتاعوا التّمر حتّى يبدوَ صلاحُهُ، وتذهب عنه الآفة»[٤].

في هذا الحديث النّهي عن الخداع في البيع، ولذلك قصر بيع التّمر على ما بعد صلاحه وذهاب الآفات التي تمنع خروجه، فالإسلام إنّما يريد الصّراحة والوضوح فلا يباع إلاّ شيءٌ صالحٌ، بدا صلاحه، أمّا ما لم يُرَ منه

---

(١) رواه البخاري ٣٧٣/٤.

(٢) انظر: فتح الباري ٣٧٦/٤.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٦٢/١٠.

(٤) رواه مسلم ١٧٩/١٠.

الصّلاحُ فمن الظّلم بيعه. والله أعلم.

قصر انعقاد البيع على ما بعد التّفرّق:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «كلّ بيِّعَين لا بيع بينهما، حتّى يتفرّقا، إلاّ بيع الخيار»(١).

في هذا الحديث يقصر النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، تمام الْبيْع على تفرّق المتبايعَين. وأنّ لكلّ منهما الخيارَ في المجلس قبل التّفرّق. أمّا قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إلاّ بيع الخيار»(٢)، فإنّي أرى أنّه استثناء من مثبتٍ، ويكون المعنى: كلٌّ بعيِّعَين لا بيع بينهما حتّى يتفرّقا، فيثبت البيع بالتّفرّق إلاّ بيع الخيار، فإنّه إلى أجله ويكون هذا الاستثناء

---

(١) رواه مسلم ١٠/١٧٥.

(٢) للعلماء ثلاثةُ أقوالٍ في تفسير قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم: «إلاّ بيع الخيار»:

أحدها: أنّ المراد التّخيير بعد تمام العقد، وقبل مفارقة المجلس، وتقديره: لهما بيع الخيار ما لم يتفرّقا إلاّ أن يتخايرا في المجلس، ويختارا إمضاء البيع بالتّخاير لا بالتّفرّق.

والثّاني: أنّه في البيع الذي شرط فيه خيار الشّرط ثلاثة أيّام، فما دون، وأنّ البيع لا يلزم إلاّ بانقضاء هذه المدّة.

والثّالث: أنّه للبيع الذي شرط فيه عند العقد أنّه لا خيار في المجلس فيصبح وجود المجلس كعدمه والبيع لازم بالعقد.

انظر: شرح النّووي ١٠/١٧٤.

ولكنّي أختار الرّأي الثّاني؛ لأنّ الكلام يستقيم معه، ويستقيم معه التّصوّر أيضاً. والله أعلم.

لزيادة مدّة الخيار، إلى ما بعد التّفرّق. والله أعلم.

قصر بيع المال المشترك على استئذان الشّريك:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((مَن كان له شريك في رَبْعةٍ أو نخلٍ، فليس له أن يبيع حتّى يؤذن شريكه))(١).

من هذا الحديث نلاحظ المحافظة على حقّ الشّريك في الشُّفْعَة(٢)، والحكمة في ذلك إزالة الضّرر عن الشّريك(٣). لهذا قصر بيع الرّبعة، أو النّخل المشتركة أو نحوهما على استئذان الشّريك، والشّفعة التي يَرَاها العلماء هي، فيما لم يُقْسَم، أمّا إذا كان هذا الْمَبيع مقسوماً فلكلّ أن يبيع قسمه بدون شفعة.

قصر الاحتكار على الخاطئ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا يحتكر إلاّ خاطئ))(٤).

هذا الحديث صريح بتحريم الاحتكار، وهو أن يَحْتَكر القوتُ في وقتٍ كثرته ليبيعَه على النّاس بسعرٍ غالٍ وقتَ ندرته. ولهذا جاء المنع عنه؛

---

(١) رواه مسلم ١١/٤٥، ومعنى الرَّبْعَة ــ بفتح الرّاء، وإسكان الباء ــ: الدّار والمسكن، ومطلق الأرض. انظر: شرح النّووي ١١/٤٥.

(٢) والشّفعة ــ بضم الشّين ــ هي في الشّرع: هي أحقِيّة الشّريك في ابْتّاع حقّ شريكه، (إذا أراد أن يبيعه إلى أجنبي)، بمثل العوض الْمُسَمَّى. انظر: الفتح ٤/٤٣٦.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١١/٤٥.

(٤) رواه مسلم ١١/٤٣، ومعنى الخاطئ: أي: العاصي الآثم.

لأنّ هذا خلق سيّء وفيه إضرار بعامّة النّاس[١].

قصر الإسلاف على الكيل المعلوم والوزن المعلوم:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «مَن أسلفَ فلا يسلف إلاّ في كيلٍ معلومٍ ووزنٍ معلومٍ»[٢].

ولعلَّ الحكمةَ من ذلك هو الابتعاد عن الخداع في البيع والصّراحة عند التّبايع فيحصل بذلك الإنصاف. والله أعلم.

قصر قيام السّاعة على ما بعد ظهور أماراتها:

وردت أحاديث كثيرة عن قيام السّاعة سأذكرها جملةً ثم أتبعها بتعليق عام.

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تقوم السّاعة حتّى ينْزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسّر الصّليب، ويقتل الخنْزير، ويضع الجزية»[٣].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تقوم السّاعة، حتّى تقاتلوا اليهود...»[٤].

---

(١) انظر: شرح النّووي ٤٣/١١، بتصرّفٍ.

(٢) رواه مسلم ٤٢/١١.

انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٤٢/١١، والسّلف: هو السَّلم. وتعريفه في الشّرع: إثبات مالٍ في الذّمّة بمبذولٍ في الحال. انظر: شرح النّووي ٤١/١١.

(٣) رواه البخاري ١٢١/٥.

(٤) رواه البخاري ١٠٣/٦، ومسلم ٤٤/١٨.

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا تقوم السّاعة، حتّى تقاتلوا التُّرك))[١].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا تقوم السّاعة، حتّى تقتتل فئتان فيكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة))[٢].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا تقوم السّاعة، حتّى يُبْعث دجَّالون كذّابون قريباً من ثلاثين، كلّهم يزعم أنّه رسول الله))[٣].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا تقوم السّاعة، حتّى يطوف أحدكم بصدقته فلا يجد مَن يقبَلُها منه))[٤].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا تقوم السّاعة، حتّى تطلع الشّمس من مغربها))[٥].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّ السّاعة لا تقوم، حتّى لا يقسم ميراث، ولا يُفْرح بغنيمة))[٦].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا تقوم السّاعة،

---

(١) رواه البخاري ٦/١٠٤، ومسلم ١٨/٣٦-٣٧.

(٢) رواه البخاري ٦/٦١٦، ومسلم ١٨/١٣.

(٣) رواه البخاري ٦/٦١٦، ومسلم ١٨/٤٥.

(٤) رواه البخاري ٣/٢٨١.

(٥) رواه البخاري ١١/٣٥٢، ومسلم ٢/١٩٧.

(٦) رواه مسلم ١٨/٢٤.

حتّى لا يقال في الأرض: الله، الله»[١].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تقوم السّاعة، حتّى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»[٢].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تقوم السّاعة، حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيقول: يا ليتني مكانه»[٣].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تقوم السّاعة، حتّى يَخْرج رجلٌ من قحطان يسوق النّاس بعصاه»[٤].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تقوم السّاعة، حتّى يكثر فيكم المال فيفيض، حتّى يهمَّ ربّ المال من يقبل صدقته»[٥].

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تقوم السّاعة، حتّى يقبض العلم، وتكثر الزّلازل، ويتقارب الزّمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج (يعني: القتال)»[٦].

---

(١) رواه مسلم ١٧٨/٢، ومعناه: زوال التّوحيد.

(٢) رواه مسلم ١٥٣/٩.

(٣) رواه مسلم ٣٤/١٨.

(٤) رواه البخاري ٥٤٥/٦، ومسلم ٣٦/١٨.

ومعنى يسوق النّاس: هو كناية عن الْمُلْك فَشَبَّهه بالرّاعي وشبّه النّاس بالغنم، ووجه الشّبه التّصرّف الذي يملكه الرّاعي في الغنم. وانظر: الفتح ٥٤٦/٦.

(٥) رواه البخاري ٢٨١/٣، ومسلم ٧٩٧، وزاد مسلم: «وحتّى تعود الجزيرة مروجاً وأنهارا».

(٦) رواه البخاري٥٢١/٢،وفي مسلم:«لا تقوم السّاعة حتّى يكثر الهرج»١١٣/١٨.

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا تقوم السّاعة، حتّى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى))(١).

وقال رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم-: ((لا تقوم السّاعة، حتّى تروا قبلها عشر آيات،فذكر الدّخان،والدّجّال،والدّابّة،وطلوع الشّمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم-صلَى الله عليه وسلّم-،ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد النّاس إلى محشرهم))(٢).

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا تقوم السّاعة، حتّى يحسر الفرات عن جَبَل من الذّهب، يقتتل النّاس عليه، فيقتل من كلّ مئةٍ تسعة وتسعون))(٣).

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا تقوم السّاعة، حتّى يَنْزل الرّوم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيشٌ من المدينة من خيار أهل الأرض))(٤).

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا تقوم السّاعة،

---

(١) رواه البخاري ١٣/٧٨، ومسلم ١٨/٣٠، وبصرى هي بلد بالشّام من أعمال دمشق.انظر:معجم البلدان،لياقوت،دار صادر،بيروت،سنة:١٣٧٤هـ-١/٤٤٠.

(٢) رواه مسلم ١٨/٢٧.

(٣) رواه مسلم ١٨/١٨.

(٤) رواه مسلم ١٨/٢١، ودابق: قرية بحلب بينها وبين حلب أربعة فراسخ. انظر: معجم البلدان، لياقوت ٢/٤١٦.

حتّى تضطرب أَلَيَات نساء دوس حول ذي الخلصة»، وكانت صنماً تعبدها دوس في الجاهلية[١].

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدّنيا حتّى يأتي على النّاس يوم لا يدري القاتل فيهم قَتَل، ولا المقتول فيم قُتِل...»[٢].

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يذهب اللّيل والنّهار حتّى تعبد اللات والعزّى»[٣].

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «هل سمعتم بمدينة جانب منها في البرّ وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: لا تقوم السّاعة حتّى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحق...»[٤].

هذه الشّواهد تدور حول موضوعٍ واحدٍ وهو قصر قيام السّاعة على ما بعد ظهور علامتها، وقد جاء القصر هنا ليؤكّد ظهور تلك

---

(١) رواه مسلم ١/٣٢.

ودوس قبيلة تنتمي إلى عدنان بن عبد الله بن زهران. انظر: جمهرة أنسان العرب، لابن حزم ص: ٣٧٩.

(٢) رواه مسلم ١٨/٣٥.

(٣) رواه مسلم ١٨/٣٥.

(٤) رواه مسلم ١٨/٤٣.

وبنو إسحق؛ هم: من بني إسماعيل. والمدينة، هي: القسطنطينية. انظر: شرح النّووي ١٨/٤٤.

العلامات قبل قيام السّاعة، وأنّ الزّمان حافل بمصائبَ، وفتنٍ سوف تغير معالم الخير والعدل، وكلّ هذه الفتن والكوارث ستكون في هذه الحياة، نُذُراً للسَّاعة التي هي أدهى وأمرّ، من كلّ ذلك، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، هذا وقد يُظَنّ البَعض أنّ ذكر هذه الأمور هي من قبيل المبالغة، فإذا سمع مثلاً: «لا تقوم السّاعة حتّى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة»، ظنّ أنّ هذا كناية عن عودة الشّرك مثلاً دون عودة صنم دوس، واجتماع النّساء حوله، لكن مثل هذا الظّنّ خاطئ. فهذه الأمور كلّها حقائق والقصر في الجميع تحقيقيّ.

هذا ويمكن اعتبار كلّ قصرٍ جاء فيه الاستثناء بحتّى من القصر الإضافي. وأنّ المنفي هو: أن تقوم السّاعة قبل ما ذكر.

قصر قيام السّاعة على يوم الجمعة:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا تقوم السّاعة، إلاّ في يوم الجمعة»(١).

وفي هذا الحديث قصرُ قيام السّاعة على يوم الجمعة، دون بقية أيّام الأسبوع على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ. والله أعلم.

قصر قيام السّاعة على شرار الخلق:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا تقوم السّاعة، إلاّ على شرار الخلق»(٢).

---

(١) رواه مسلم ١٤٢/٦.

(٢) رواه مسلم ٨٨/١٨.

يخبر النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: أنّ البشرية تنتهي إلى حثالتها، وهم شرار الخلق، وأنّ السّاعة سوف تقوم على رؤوسهم وحدهم. وهذا القصر هو من الحقيقيّ كما هو ظاهر الحديث، وقد يقال: إنّه إضافي على تقدير: لا على خيارهم، ولكن ما لا يحتاج إلى تقدير أسلم. والله أعلم.

قصر الباقي من الجيش الذي يغزو الكعبة على الشّريد:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ليؤمن هذا البيت جيشٌ يغزوه، حتّى إذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأوسطهم، وينادي أوّلهم آخرهم، ثم يخسف بهم فلا يبقى إلاّ الشّريد، الذي يخبر عنهم»(١).

في هذا تصوير لهول الفادحة التي ستنْزل بأشباه أبرهة الأشرم، والقصر هنا على حقيقته.

قصر استحقاق الوسيلة على عبدٍ من عباد الله:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «... سَلُوا الله لِيَ الْوَسيلة فإنّها منْزلةٌ في الجنّة لا تنبغي إلاّ لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو...»(٢).

لقد أَعَدَّ في الجنة درجاتٍ وجعل منها درجةً غاليةً جدًّا، ومقصورة على عبدٍ واحدٍ من عباد الله المخلصين، لا يمكن أن ينافسه فيها أحدٌ، ولو تسابقت الخليقة كلّها من عهد آدم إلى أن تقوم السّاعة، فسوف يُقَصِّر

---

(١) رواه مسلم ٦/١٨، والشّريد: هو مَن شرد وسلم من الخسف.

(٢) رواه مسلم ٨٥/٤.

عَزْمهم عنها عدا واحد منهم، والمؤشّرات كلّها تشير بأنّ صاحبها هو نبيّنا محمّد ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، نسأل الله له الوسيلة.

قصر القعود لتابع الجنازة على ما بعد وضعها:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا، فمَن تبعها فلا يقعد حتّى توضع...» الحديث(١).

هذه بعض آداب الجنازة حيث نهى النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من تبع الجنازة عن القعود حتّى توضع، وقد اختلف العلماء في هذا القيام، هل هو واجب، أم مستحب(٢)؟ ولكنَّ هذا لا يخرجه من كونه قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً. والله أعلم.

قصر ما أُنْزِل في شأن الحمير على الآيتين الأخيرتين من سورة الزّلزلة:

سُئِلَ رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن الحمر، فقال: «ما أُنْزل عليّ فيها إلاّ هذه الآية الجامعة الفاذّة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزّلزلة: ٧-٨]، الحديث(٣).

---

(١) رواه البخاري ١٧٨/٣، ومسلم ٢٨/٧، وفي مسلم: «إذا تبعتم جنازة فلا تجْلسوا حتّى توضع».

(٢) انظر: فتح الباري ١٧٩/٣.

(٣) رواه البخاري ٦٤/٦، ومسلم ٦٧/٧.

ومعنى الفَاذّة: أي: منقطعة النّظير والجامعة الشّاملة لِكُلّ خيرٍ. انظر: الفتح ٦٥/٦.

والمراد من هذا الحديث: أنّ مَن عمل باقتناء الحمير طاعةً رأى ثواب ذلك، ومَن عمل به معصيةً لقي عقاب ذلك[١].

وهذا يعني: أنّه لم يَنْزِل على النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في حُكمها نهي، وأنّها من المسكوت عنه للإباحة، لذلك جاء النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بهذا الأسلوب القصريّ، ليذكرهم، أنّ ما لم يأت فيه نَصٌّ بالتّحريم فهو يسير على القاعدة التي في هذه الآية. فهو لم يقل لم يَنْزل عليّ في شأنها شيءٌ، ولكن قال هذه العبارة. فهذا أسلوب مُتَمَيّز، ليلفت انتباه النّاس ويذكّرهم بأنّ كلّ شيء موزون بميزان الشّرع العام إذا لم يكن له ميزان خاص به. والله أعلم.

قصر إمامة الرّجل في سلطانه على إذنه (وصورة أخرى):

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا يؤمن الرّجلُ الرّجلَ في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلاّ بإذنه))[٢].

في هذا الحديث وجوب احترام أحَقِّيَّة كلّ ذي حقٍّ في حقّه، وكلّ صاحب ملكٍ في ملكه، لهذا قصرت صفات الإمامة، والقعود في البيت على إذن صاحب الشّأن، على سبيل القصر التّحقيقيّ؛ لا على سبيل المبالغة. والله أعلم.

---

(١) انظر: فتح الباري ٦/٦٥.

(٢) رواه مسلم ٥/١٧٣، والمقصود بتكرمته: أي: فراشه.

قصر دخول الرّجل على المغيبة على معيّة غيره من الرّجال:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يدخلن رجلٌ بعد يومي هذا على مُغِيبة إلاّ معه رجل أو اثنان»(١).

في هذا الحديث يوصي النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بالاحتياط من كلّ ما قد يؤدّي إلى الفاحشة، فقصر (الدّخول على المرأة التي غاب عنها زوجها) على اثنين أو ثلاثة.

يقول النّووي ـــ رحمه الله تعالى ـــ: «ظاهر هذا الحديث جواز خلوة الرّجلين أو الثّلاثة بالأجنبية، والمشهور عندنا (الشّافعية) تحريمه، فَيُتَأوّل الحديث على جماعة يبعد وقوع منهم المواطأة على الفاحشة(٢).

وهذا قولٌ سديدٌ، فكأنّ المراد: لا يدخلنّ رجل على مغيبة إلاّ مع جماعة يبعد وقوع الفاحشة منهم. والله أعلم.

قصر الحداد فوق ثلاثٍ على الزّوج:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يحلّ لامرأةٍ تؤمن بالله، واليوم الآخر تُحِدُّ على ميِّتٍ فوق ثلاث، إلاّ على زوجٍ أربعة أشهر وعشراً»(٣).

---

(١) رواه مسلم ١٤/١٥٥، والْمغيبة ـــ بضمّ الميم وكسر الغين ـــ: التي غاب عنها زوجها. انظر: شرح النّووي ١٤/١٥٥.

(٢) شرح النّووي على صحيح مسلم ١٤/١٥٥.

(٣) رواه مسلم ١٠/١١٢.

وفي رواية أخرى يقول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا تحدّ المرأة فوق ثلاثٍ إلاّ على زوجٍ؛ أربعة أشهر عشراً، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلاّ ثوب عصب، ولا تكتحل إلاّ إذا طهرت))(١).

هذان الحديثان يؤكّدان عظم حقّ الزّوج على زوجته، حيث قصرت صفة الحداد فوق ثلاثٍ عليه وحده، ولم يكن هذا الحداد فوق الثّلاث بقليلٍ، بل حُدِّدَ بأربعة أشهر وعشر، ولم يُكْتَف بهذا القصر بل قُصِر (لبسها ثوباً مصبوغاً) على ثوب عصب وقصر (اكتحالها) على ما بعد طهرها.

وفي ذلك حِكمة أخرى من هذه العدّة وهي ظهور حملها إن كانت ذات حملٍ، وفي منعها من الزّينة حكمة أخرى وهي صونها عن الخطاب قبل انتهاء العدّة.

قصر الحمل في نساء سليمان على واحدةٍ:

ومن قصص سليمان بن داود ــ عليهما السّلام ــ أنّه طاف على مئة امرأة قائلاً: كلّهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((فلم يقل: إن شاء الله، فلم تحمل منهن إلاّ واحدة جاءت بشقِّ رجل))(٢).

وهذا الحديث تنبيهٌ على آفة التَّمَنِّي، من غير تفويضٍ إلى الله بالأمر، وهذا نبيّ الله سليمان عند ما شُغل بالْمُنى عن قوله:إن شاء الله، جاءه

(١) رواه مسلم ١٠/١١٨. وثوب العصب؛ هو: برود اليمن يعصب غزلها.

(٢) رواه البخاري ٦/٣٤، ومسلم ١١/١١٨.

العقاب من الله، حتّى قُصِر حملُ مئة امرأة على واحدةٍ، ثم إنّها لم تأتِ برجلٍ كاملٍ، أتت بشقّ رجلٍ. فلننظر كيف يَتضاءل الشّيء إذا خلا من مشيئة الله تعالى وذكره.

والقصر جاء هنا للتّقليل والتّحقير لِمَا حصل له بالنّسبة لما تَمَنَّاه هكذا اقتضت حكمة الله أن يُبْتَلى سليمان بشقّ رجلٍ، ولو لم يأت هذا الشّقّ لكان أحسن، ولكنّ ذلك درس يتعلّم منه كلّ مَن عرف هذه القصّة. والله أعلم.

قصر ما بقي من النّبوّة على المبشّرات:

قال رسول الله ــــ صلّى الله عليه وسلّم ــــ: «لم يبق من النُّبوّة إلاّ الْمُبشِّرات، قالوا: وما الْمُبَشِّرات؟ قال: الرّؤيا الصّالحة»(١).

يرى ابن حجر: «أنّه وإن كان ظاهرَ الاستثناء في الحديث، أنّ الرّؤيا جزء من أجزاء النّبوة، إلاّ أنّها ليست نبوّة، وأنّ المراد تشبيه أمر الرّؤيا بالنّبوّة، أو لأنّ الشّيء لا يستلزم ثُبوت وصفةٍ له كمَن قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، بصوتٍ مرتفعٍ، لا يُسَمَّى مؤذناً»(٢).

وهذا القول (في نظري) صحيحٌ، ولكن يحتاج إلى توضيحٍ أدقّ؛ لأنّ الحديث قد استثنى الْمُبشِّرات من النُّبوّات صريحاً، فأقول: إنّ المراد بالنّبؤات: معناها اللّغوي وهو التّنبّؤ بما سيكون، وليس إنْزال الوحي بالْمَلَك، لهذا

---

(١) رواه البخاري ٣٧٥/١٢، ومسلم ١٩٦/٤.

(٢) انظر: فتح الباري ٣٧٥/١٢.

فتشترك في هذا المعنى اللّغوي نبّوات الأنبياء، ومبشّرات الصّالحين، لذلك جاز القصر، وإلاّ كيف يستثنى شيء من أشياء ليس هو منها. والله أعلم.

قصر الإخبار بالرّؤيا الحسنة على الأحبّة:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن الرّؤيا الحسنة: «... فإن رأى رؤيا حسنة، فلْيُبْشِر، ولا يخبر بها إلاّ مَن يحب»[١].

لعلّ الحكمة من مجيء القصر في هذا الحديث هي الخوف من الحسد ـــ والعياذ بالله تعالى منه ـــ، ولذلك قصر الإخبار بالرّؤيا على أحباب الإنسان، دون مَن لا يحبُّهم على سبيل العموم. والله أعلم.

قصر تصديق بعض الأنبياء على رَجُلٍ واحدٍ:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «أنا أوّل شفيعٍ في الجنّة، لم يُصَدّق نبيّ من الأنبياء ما صُدقت، وإنّ من الأنبياء ما يصدقه من أمّته إلاّ رجلٌ واحدٌ»[٢].

هذا الحديث يبيّن لنا فضله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ على سائر الأنبياء، ويؤكّده هذا القصر، كَما يُؤَكّد لنا هذا القصر إصرار بعض الأمم على الكفر حتّى إنّه لا يؤمن منها إلاّ رجلٌ واحدٌ.

قصر خَيْر المحاسَب على تجاوزه عن المعسرين:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «حوسب رجل مِمَن

---

(١) رواه مسلم ١٥/١٩.

(٢) رواه مسلم ٣/٧٣.

كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير، إلاّ أنّه يخالط النّاس، وكان موسراً، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال: قال الله ـــ عزّ وجلّ ـــ: نحن أحقّ بذلك منه تجاوزوا عنه»[١].

في هذا الحديث تأكيد على فضل التّجاوز عن المعسر، والسّماحة في المعاملة لهذا كان هذا الخلق الطّيّب (رغم أنّه لم يوجد لهذا الرّجل غيره) سبباً في صفح الله سبحانه عنه وقد جَعَل جزاءه من جنس عمله. وتجاوز عن عسرته من الحسنات في ذلك اليوم. والله أعلم.

قصر قبض الأنبياء على ما بعد رؤية منازلهم في الجنّة (ونحوه):

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّه لم يقبض نَبِيٌّ قط، حتّى يرى مقعده من الجنّة ثم يَحْيا ـــ أو يخيّر ـــ ...» الحديث[٢].

نرى هنا فضل الأنبياء حيث يُخَيّرون بين الدّنيا والآخرة، عند الموت وغيرهم يأتيه الموت من غير أن يُنَّه بشيءٍ.

قصر محبّة العودة إلى الدّنيا من أهل الخير عند الله على الشّهداء:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ما من عبدٍ يموت له عند الله خير، يَسُرّه أن يرجع إلى الدّنيا إلاّ الشّهيد، لِمَا يرى من فضل الشّهادة، فإنّه يسّره أن يرجع إلى الدّنيا فيقتل مرّة أخرى...»[٣].

---

(١) رواه مسلم ٢٢٦/١٠.

(٢) رواه البخاري ١٣٦/٨.

(٣) رواه البخاري ٢٣/٦، ومسلم ٢٤/١٣.

لقد خُصَّ الشّهيد بهذه الميزة العجيبة الغريبة، حيث إنّه يريد أن يرجع إلى الدّنيا خلافاً لأهل الجنّة كلّهم، لكي يُقْتَل مرّة أخرى فيزداد فضلاً، وفضلاً! هذا هو حاله وهو في الجنّة منتهى الغايات، التي ما يلقى فيها الإنسان عصا التّرحال حتّى يتنفس الصّعداء من هذه الرّحلة الشّاقّة الْمُضْنِية، لكنَّ الشَّهيد لديه نفسٌ طويلٌ للمتابعة والازدياد، والتّنقّل إلى أعلى المستويات، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وسيزول استغرابنا من هذا الأمر إذا ما تَذَكَّرنا أنّ الشَّهيد هو الذي بذل أغْلى ما لديه حقّاً في سبيل الله تعالى، وجرَّب الموت في سبيل الله، وأنّه لا يجد فيه من الألم إلاّ كما يجد من القرصة، فأحبّ المعاودة؛ لأنّه قد رأى أنّ التّكلفة قليلةٌ، والمكتسب ثمينٌ!

والقصر هنا هو للصّفة على الموصوف، وليس العكس (كما قد يفهم من ظاهر الحديث)؛ إذ التّقدير: ما يسرّ الرّجوع إلى الدّنيا عبداً مات له عند الله خير إلاّ الشّهيد، ولكن التّركيب الذي اختاره النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أجود، وأجمل، وأبلغ؛ وذلك عند ما جعل النّفي وكأنّه منصبٌّ على (عبد) النّكرة لتشمل جميع العباد، ليخرج الشّهيد من بينهم بطريقة لافتة للنّظر. ومعبرة كلّ التّعبير عن فضل الشّهادة الشّهيد. والله أعلم.

قصر ما يحول بين رؤية أهل الجنّة ربّهم على رداء الكبرياء:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في حديثٍ عن أهل

الجنّة: ((وما بين القوم، وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلاّ رداء الكبر، على وجهه في جنّة عدن))(١).

هذا الحديث من المرغّبات في ثواب الجنّة، إذ إنّه يصوِّر لنا متعة أهل الجنّة ونعيمهم، فهم على مقربةٍ من ربّهم، ثم لكي يشوّقنا ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أكثر إلى الجنّة، قصر الْمَانِعَ لهم من رؤية الله الحقيقية على رداء الكبر على وجْهه الكريم.

وأمّا قوله: (رداء الكبر) فيرى بعض العلماء: أنّها كناية، وأنّه لا رداء بمنع من الرّؤية، ولا وجه إذ يرون أنّ ذلك يُعَدّ تجسيماً(٢).

ولكنّ الوجهَ ثابتٌ لله تعالى، من غير تشبيهٍ ولا تَمْثِيلٍ، ولا تعطيلٍ، وقد جاء في الحديث القدسي: ((الكبرياء ردائي))(٣)، فنحن نقف عند هذا الحدّ. والله أعلم.

قصر ما يَزْداده المؤمن من عمره على الخير:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا يَتَمَنَّى أحدُكم الموتَ، ولا يَدْعُ به من قبل أن يأتيه، إنّه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنّه لا يزيد المؤمنَ عمرُه إلاّ خيراً))(٤).

---

(١) رواه البخاري ٦٢٤/٨، ومسلم ١٧/٣.

(٢) انظر: في ذلك فتح الباري ٢٣٢/١٣، وعمدة القارئ للعيني ٢١٧/٩.

(٣) رواه ابن ماجه. انظر: سنن ابن ماجه، بتحقيق: محمّد مُصْطَفى الأعصمي، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٣هـ، ٤٢١/٢.

(٤) رواه مسلم ٨/١٧.

في هذا الحديث النّهي عن تَمَنِّي الموت بسبب تضجّر الإنسان من الدّنيا ومصائبها، وأنّ عليه الإيمان بالقضاء والقدر، والتّصبّر على كلّ ما يحدث له وقد ساق النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في هذا الحديث بُشْرَى لكلّ مؤمنٍ، حيث قصر زيادة عمر المؤمن على حصول الْخَيْر فلماذا يضجر المؤمن من الخير؟!

قصر وجود الْخَيْر في كلّ أمرٍ على المؤمن:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((عجباً لأمر المؤمن، أمره كلُّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له...))[١].

في هذا الحديث الارتباط التّام بين حياة المؤمن وبين الْخير الدّائم في جميع الأحوال. وذلك فضل من الله على المؤمنين؛ لأنّهم جعلوا من كلّ أمر في حياهم عبادةً لله ليس فقط فيما يأتون ويذرون، ولكن حتّى فيما يتعرّضون له من ضرّاء وشدّة، مما ليس لهم يد في وقوعه، ففي حال النّعم لا تراهم يلهون ناسين، وإنّما هم شاكرون لله تعالى على فضله، وفي حال النِّقم يصبرون ويحتسبون، لذلك قصر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الْخير عليهم في كلّ الحالات قصراً حقيقيّاً.

---

(١) رواه مسلم ١٢٥/١٨.

قصر الدّعاء على النَّفس على الْخير:

دخل رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على أبي[١] سلمة، وقد شَقَّ بصر فأغمضه ثم قال: إنّ الرّوح إذا قبض تبعه البصر، فضجَّ ناسٌ من أهله، فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلاّ بخيرٍ، فإنّ الملائكة يؤمِّنون ما تقولون»[٢].

في هذا الحديث إرشاد لِمَن فقد شخصاً يحبّه، بأن لا يدعوَ على نفسه إلاّ بالخير؛ لأنّ بعض النّاس قد يدعو على نفسه بشرّ، وذلك من هول المصيبة، والحقيقة: إنّني أرى أنّ هذا القصر هو من إثبات الشّيء بما يشبه ضدّه، حيث إنّ قوله: «لا تدعوا على أنفسكم»، نهيٌ عن الدّعاء عليها[٣]. فلما قال: (إلاّ) ظُنَّ أن سيأتي بمستثنى من جنس ما هو دعاء على الأنفس، لكنه قال: خير، صار هذا من أشدّ التّأكيد على منع الدّعاء على النّفس بالشّرّ. والله أعلم.

---

(١) هو: عبد الله بن عبد الأسد بن هلال، وهو أوّل مَن هاجر إلى الحبشة، وشهد بدراً، تزوّج أمّ المؤمنين (أمّ سلمة) قبل النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، وتوفّي في عهد النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ.

انظر: كتاب نسب قريش لأبي عبد الله الزّبيري، تحقيق: أ. ليفي لروفنسال، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ٣٧٣/٢.

(٢) رواه مسلم ٢٢٣/٦.

(٣) وذلك أنّ الفعل دعا، إذا تعدّى بحرف الجرّ (على)، كان المراد الدّعاء بالشّرّ، فإذا قيل: دعا عليه، أي: طلب له الشّرّ.

انظر: معجم الأفعال المتعدّية بحرف، تأليف: موسى بن محمّد الأحمدي، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٩٨٣م، ص: ١٠٠.

قصر رؤية المؤمن ربّه على ما بعد الموت:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «تعلموا: أنّه لن يرى أحدٌ منكم ربّه ـــ عزّ وجلّ ـــ حتّى يموت»[١].

في هذا الحديث تأكيدٌ على رؤية الله تعالى في الآخرة، وهو مذهب أهل الحقّ[٢]. ويردّ على مَن يقول برؤية الله في الدّنيا[٣].

قصر مَن يدع النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في جزيرة العرب على المسلمين:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لأخرجن اليهود والنّصارى من جزيرة العرب حتّى لا أدع إلاّ مسلماً»[٤].

نرى في هذا الحديث مدى كُره النَّبِي ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ لليهود والنّصارى، وكيف أنّه سيطردهم طرب الكلاب حتّى تَطهّر منهم البلاد، ويقتصر البقاء في جزيرة العرب على المسلمين وحدهم، وقد جاء المستثنى (مسلماً) ليؤكّد بشدّة، على طرد اليهود والنّصارى واحداً واحداً، مع التّأكُّد من الباقين مسلماً مسلماً، وذلك حتّى لا يفهم أنّ هذا الطّرد

---

(١) رواه مسلم ١/٥٦.

(٢) انظر: شرح النّووي ١٨/٥٦.

(٣) انظر: شرح النّووي ١٨/٥٦.

(٤) رواه مسلم ١٢/٩٢.

وجزرة العرب، المراد بها هنا: أرض الحجاز كما يرى ذلك بعض العلماء.

انظر: شرح النّووي ١٢/٩٠.

هو لجملة اليهود والنَّصارى وأن لا حرج في بقاء العدد اليسير منهم.

قصر رأي النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في الأرض التي وُجّه إليها على يثرب:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((عندما أراد الهجرة: إنّه قد وُجّهت لي أرض ذات نخلٍ، لا أراها إلاّ يثرب...))[١].

يقصر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مرتآه في الأرض على يثرب، ورأى هنا هي القلبية وليست البَصرية، وكأنّه قال: ما جاء في قلبي إلاّ يثرب. والله أعلم.

قصر علم النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في الْمُتَّهَمِين بالإفك على الْخَيْر:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وهو على الْمُنبر بعد حادثة الإفك ــ: ((يا معشر المسلمين: مَن يعذرنِي في رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما يدخل على أهلي إلاّ معي...)) الحديث[٢].

وفي روايةٍ: ((ولا غِبت في سفرٍ إلاّ غاب معي))[٣].

إنّ طريق النّفي والاستثناء (كما ذكرت سابقاً) طريق يَحْمل من

(١) رواه مسلم ١٦/٣١، وأرى بضم الهمزة وفتحها. انظر: شرح النّووي ١٦/٣١.

(٢) رواه البخاري ٨/٤٨٧.

(٣) رواه البخاري ٨/٤٨٧، ومسلم ١٧/١١٥.

التّأكيد والقوّة ما يجعله أهلاً للمواقف التي تحتاج إلى شدّة وصرامة، والموقف في هذا الحديث، هو موقف تَبْرِئٍ مَن هَم المنافقين، لذلك أكثر النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من هذا الأسلوب، كما نراه هنا فعندما ذكر أهله، أتبع ذلك بجملةٍ قصريّةٍ تبرِّئهم من كلّ عيبٍ، وعند ما ذكر صفوان بن الْمُعَطل السّلمي(١)، أتبعه بثلاث جملٍ قصريّةٍ تبرِّئه، وكلّ هذا من القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، وذلك لأنّه من آكد أنواع القصر بلا شكّ.

هذا، وإنّ في حديث النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ (هذا) تألّماً مما حدث، وأرى أنّ جُمَل القصر السّابقة كأنّها حُملت أكبر قسطٍ من الألم فكأنّ لسان حاله يقول: إنّ هذا الحديث الذي سمعت يؤلمني، وأكثر ما يؤلمِني أنّه أسند إلى رجلٍ ما علمت عليه إلاّ خيراً وكذلك لحق بأهلي الذين لا أعلم عليهم إلاّ خيراً.

فَنَبْرة الألم تظهر عاليه في هذه الجمل القصريّة خاصّة. والله أعلم.

قصر الأكل على الطّيب منه:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((أوّل ما ينتن من الإنسان بطنه، فمَن استطاع أن لا يأكل إلاّ طيباً فليفعل..))(٢).

---

(١) هو: صفوان بن الْمعطل بن ربيعة السّلمي، صحابي جليل شهد الخندق سكن المدينة، هو الْمُتَّهم في قصّة الإفك، قتل في خلافة عمر شهيداً في غزوة أرمينية، سنة: ١٩هـ. انظر: الإصابة في أسماء الصّحابة، لابن حجر العسقلاني ١٥٢/٥.

(٢) رواه البخاري ١٢٨/١٣.

هذا الحديث يحُثّ على تحرّي المطعم الحلال، بقدر الاستطاعة، حيث قصر أكل الإنسان على الطّيب، وجاء الاستثناء مفرّغاً ليكون أكثر توكيداً وشمولاً؛ ليكون طالب الأكل ليس أمامه خيار إلاّ الطّيب.

قصر أكله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على ما ذكر اسم الله عليه:

قبل نزول الوحي على النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قُدِّمَت له سفرة طعام فأبى أن يأكل منها وقال: ((إنّي لست آكُلُ مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلاّ ما ذكر اسم الله عليه))(١).

إنّ هذه العبارة القصريّة التي قالها النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ــ قبل مبعثه لتُؤَكِّد كلّ التّأكيد أنّ النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ كان حتى قبل البعثة موحِّداً في كلّ أنواع العبادة، لذلك ردّ على المشركين بهذه العبارة القصريّة القاطعة. والله أعلم.

قصر ما يجده الصّائد من أثرٍ للقتل في صديه على أثر سهمه:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((...وإن رميت سهمك، فاذكر اسم الله، فإن غاب عنك يوماً، فلم تجد فيه إلاّ أثر سهمك، فكل: إن شئت))(٢).

جاء القصر هنا ليؤكّد التّحرّي الدّقيق من أنّ سهم الصّائد هو سبب وفاة صيده لا غيره، وهذا دليل من استحلّ هذا الصّيد، وهناك مَن يرى

(١) رواه البخاري ٧/١٤٢.

(٢) رواه مسلم ١٣/٧٨.

تحريمه مستدلاً بغير ذلك من الأدلة(١).

قصر ما يراه النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ جائزاً مما تنفقه المرأة من مال زوجها على المعروف:

جاءت هند بنت عتبة ــ رضي الله عنها ــ إلى رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، تسأله عن إطعام عيالها من مال زوجها بغير إذنه، فقال لها النَّبِي صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا أراه إلاّ بالمعروف))(٢).

ومعناه: لا تُنْفِقِي إلاّ بالمعروف(٣)، أي: قد الحاجة.

قصر شهادة النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على الْحَقِّ:

أتى رجلٌ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ــ، ليشهد له على نِحْلِة أحد أبنائه غلاماً، من الرّقيق. فقال: رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((أَلَه إخوة؟ قال:نعم. قال:أفكلّهم أطعيته؟ قال: لا. قال: فليس يصلح هذا، وإنّي لا أشهد إلاّ على حقٍّ))(٤).

في هذا الحديث كراهية المفاضلة بين الأبناء في الهِبة، لِئَلاَّ يؤدّي ذلك إلى حزازات بينهم، وقد أجاب النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بعبارةٍ قصريّةٍ قصر فيها شهادَتَه على الحقّ. أي: أنّ فعلك هذا أيّها الرّجل ليس

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٧٩/١٣.

(٢) رواه البخاري ٥٠٧/٧، ومسلم ١٠/١٢.

(٣) انظر: شرح النّووي ١٠/١٢.

(٤) رواه مسلم ٦٩/١١.

حقّاً، فاعدل عنه ففي هذه العبارة تعريضٌ مباشرٌ كالتّصريح، بأنّه قد فعل ما ليس بحقٍّ. والله أعلم.

قصر تكليف الْمَمْلُوك من العمل على ما يستطيعه:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن حقّ الْمَمْلوك ــ: ((لِلْمَمْلوك طعامه وكسوته، ولا يكلّف من العمل إلاّ ما يطيق))[١].

إنّه مع تأكيد هذه الْجُملة القصريّة (في قصر تكليف الْمَمْلوك على ما يسطيع) أجمع العلماء على عدم تكليف الْمَمْلوك ما لا يطيقه، فإن كان ذلك، لزم سيّده أن يعينه[٢]. وذلك لأنّه مخالف لسنة الله في عباده، حيث لم يكلّفهم من العمل إلاّ ما يطيقون، فكيف لهذا السّيّد (وهو ربّ للخادم) أن يكلّفه بما لا يطيق؟

قصر شرب الْخَمْر في الآخرة لِمَن شربها في الدّنيا على توبته:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((مَن شرب الْخَمْر في الدّنيا، لم يشربها في الآخرة إلاّ أن يتوب))[٣].

عندما قصر النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ شرب الْخَمر في الآخرة (بالنّسبة لِمَن شربها في الدّنيا) على مَن تاب عنها، استدلّ به العلماء على أنّ التّوبة تكفّر الذّنوب، وقد أجمعوا على ذلك[٤].

---

(١) رواه مسلم ١٣٤/١١.

(٢) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٣٣/١١.

(٣) رواه مسلم ١٧٣/١٣.

(٤) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٧٣/١٣.

قصر الجلد فوق عشر جلدات على الحدّ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يجلد فوق عشر جلدات، إلاّ في حدٍّ من حدود الله»(١).

وفي روايةٍ: «لا عقوبة فوق عشر جلدات إلاّ في حدٍّ من حدود الله»(٢).

اختلف الفقهاء في تعريف الحدّ فمنهم مَن قال: إنّه ما حَدَّ الشّرع فيه عقوبة كالزّنا، وشرب الخمر، ونحوهما.

ومنهم مَن قال: إنّه في ارتكاب عموم نواهي الشّرع(٣).

ومهما كان من أمرٍ، فالقصر حقيقيّ تحقيقيّ، على رأي كليهما ولكن مَن قال بأنّه يجوز الزّيادة على عشر جلدات في غير الحدود، فإنّه لا يرى ذلك إلاّ في الكبائر وتدخل تحت اسم الحدود(٤). والله أعلم.

قصر جواز قطع يد السّارق على ربع دينار فصاعداً:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تقطعُ يد السّارق إلاّ في ربع دينار فصاعداً»(٥).

يرى كثير من العلماء على أنّه لا تقطع يد السّارق إلاّ في ربع دينار

---

(١) رواه البخاري ١٢/١٧٦، ومسلم ١١/٢٢٠.

(٢) رواه البخاري ١٢/١٧٩.

(٣) انظر: فتح الباري ١٢/١٧٧-١٧٨.

(٤) انظر: فتح الباري ١٢/١٧٨، وشرح النّووي ١١/٢٢١.

(٥) رواه مسلم ١١/١٨١.

ذهبٍ فصاعداً، أو ما يعادلها[١]. وعلى هذا فالقصر عندهم حقيقيٌّ تحقيقيٌّ. والله أعلم.

قصر قتل الغلام على فِعل الْمَلِك ما يأمر به الغلام:

وفي الحديث الذي ذكر فيه النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: قصّة السّاحر والرّاهب والغلام. ذكر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في نهايته كيف أراد الْمَلِك قتل الغلام فلم يستطع، يقول النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «فقال ــ أي: الغلام ــ للْمَلِك: إنّك لست قاتلي حتّى تفعل ما آمرك به، فقال: ما هو؟ قال: تجمع النّاس في صعيدٍ واحدٍ وتَصْلِبُني على جذعٍ، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السّهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني فإنّك إذ فعلت ذلك قتلتي...» الحديث[٢].

في قول الغلام: «إنّك لست قاتلي حتّى تفعل ما آمرك»، قصرٌ، جاء فيه النّفي بليس والاستثناء بحتّى، وذلك مبالغةً في تيئيس الْمَلِك من البحث عن طريقة أخرى لقتل الغلام. وأنّ الطّريق الوحيد لقتله هو اتّباع ما يأمر به، وليحرّك ما فيه من عقلٍ أو إيمانٍ ليدرك أنّ هذا الأمر ليس طبيعيّاً، وأنّ القوّة التي يستند عليها هذا الغلام هي من عند الله وحده.

هذا، وإنّ في النفي بـــ (ليس) شدّةً وتأكيداً ليست في بقية أدوات

---

(١) انظر: شرح النّووي ١١/١٨٢.

(٢) رواه مسلم ١٨/١٣٢.

النّفي. والله أعلم.

قصر جواز حماية الأرض على ما كان لله ورسوله:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا حمي إلاّ لله ورسوله))(١).

جاء الإسلام ليُبْطِل كلّ أنواع الاحتكار التي اعتادها الجاهلون كأن يحمى القوّي لنفسه ما يشاء من الأرض، أمّا الضّعيف المسكين فلا يستطيع ذلك، ولهذا فقد قصر الشّرع حمى الأرض على كونه لله ورسوله فقط، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، وأن يكون هذا الحمى لمصلحة المسلمين لا لشخص الإمام(٢). والله أعلم.

قصر ما يزيده الإسلام لأحلاف الجاهلية الْخَيِّرة على الْخَيْر:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا حلف في الإسلام، وأيّما حلفٍ كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلاّ شدّة))(٣).

والمراد بالحلف الذي يؤكّده الإسلام ما كان على التّناصر في الحقّ

---

(١) رواه البخاري ٥/٤٤.

وأصل الْحِمَى عند العرب: أنّ الرّئيس إذا نزل مكاناً مخصباً استعوى كلباً في مكانٍ عالٍ، فإلى حيث انتهى صوته حماه فلا يرعى فيه غيره. انظر: فتح الباري ٥/٤٤.

(٢) انظر: فتح الباري ٥/٤٤.

(٣) رواه مسلم ١٦/٨٢.

والْخير ونحو ذلك، وليس ما كان مخالفاً للإسلام، كحلف التّوارث، ونحوه[(١)].

ولهذا ذكر النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إقراره لحلف الجاهلية في الْخير، وجاء بهذه الجملة القصريّة ليؤكّد بذلك حديث: ((إنّما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))[(٢)].

وهذا التّأكيد على القوّة التي يعطيها الإسلام لِما اقرّه من أحلاف الجاهلية، جاء بطريق إثبات الشّيء بما يُشْبِه ضدَّه، حيث إنّ (لم يزده الإسلام) تنفي الزّيادة، ولما جاءت (إلاّ) كأنّها أوحت بزيادةٍ يسيرةٍ، ولكنه لما قال: ((شِدَّةً))، انقلب تصور السّامع على عقبه. وصار المعنى أنّ الإسلام يؤكّد ذلك للحلف ثم يؤكّده. والله أعلم.

قصر اعتلاء أُحْدٍ على النَّبِي ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وأبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، ــ رضي الله عنهم ــ:

صعد النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أحداً ومعه: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان ــ رضي الله عنهم ــ فَرَجَفَ بهم، فضربه برجله وقال: ((اثبت أحد، فما عليك إلاّ نَبِيٌّ، أو صدِّيقٌ، أو شهيدان))[(٣)].

---

(١) انظر: شرح النّووي ١٦/ ٨٢.

(٢) رواه الإمام أحمد. انظر: مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي للطّباعة، بيروت، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٣٩٨هــ، ٢/ ٣٨١.

(٣) رواه البخاري ٧/ ٤٢، ومسلم ١٥/ ١٩٠، وحرف العطف: (أو) هنا بمعى: الواو. =

جاء قصر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ اعتلاء أحد على نَبِيٍّ، أو صدِّيقٍ، أو شهيدين ــ كما يظهر لي ــ لقصد التّواضع، أي: كأنّه يَقول لأحد: لا يليق بك هذا الارتجاف يا أحد، فما عليك كلّ الأنبياء، ولا كلّ الصّدّيقين، ولا كلّ الشّهداء. وكأنّ في هذا القصر معنى التّواضع لله ربّ العالمين. والله أعلم.

قصر دخول أوّل الصفّ الجنّة على دخول آخره:

عن أبي حازم، عن سهل بن سعد أنّ رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قال: «ليدخلن الجنّة من أمتي سبعون ألفا أو سبعمائة ألف، لا يدري أبو حازم أيّهما قال: متماسكون، آخذ بعضهم بعضاً، لا يدخل أوّلهم حتّى يدخل آخرهم...» الحديث(١).

نلاحظ في هذا الحديث هذا العدد العظيم، الذي سَيَدخل الجنّة دفعةً واحدةً، كما يدخل الرّجل الواحد، لا يتأخّر منهم أحدٌ ولا يتقدّم منهم أحدٌ. وقد جاء النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ (في وصفهم) بهذه العبارة القصريّة: «لا يدخل أوّلهم، حتّى يدخل آخرهم»، حيث قصر (دخول أوّلهم الجنّة) على (دخول آخرهم الجنّة).

والعجيب هنا أنّ حتّى التي ذكَرتُ سابقاً أنّ تأويلها بـــ (إلاّ بعد) لم تكن الآن على هذا التأويل، وإنّما تأويلها في هذا الحديث بـــ (إلاّ مع)

= انظر: فتح الباري ٧/٤٩.

(١) رواه مسلم ٣/٩٢.

والتّقدير: لا يدخل أوّلهم إلاّ مع آخرهم.

وهذا كناية عن دخولهم صفّاً واحداً، وهذا القصر دليل على سعة باب الجنّة[1]. (جعلنا الله من أهلها)، وهذا القصر من الحقيقيّ التّحقيقيّ. والله أعلم.

(١) انظر: شرح النّووي ٩٢/٣.

المطلب الثّاني: شواهد القصر الحقيقيّ مبالغة

قصر إيمان المؤمن على ما بعد تغليبه حبَّ النَّبِيّ-صلّى الله عليه وسلّم- على كلّ البشر:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من والده، وولده، والنّاس أجمعين))[١].

في هذا الحديث ربط النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بين الإيمان وبين حبٍّ أمّته له ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: وقد جعل الأمر الثّاني كالشّرط الأوّل.

إنّ كلّ شيءٍ يرتبط بالإيمان فلا شكّ أنّه أمرٌ عظيمٌ، يجب على كلّ إنسانٍ أن يتأكّد من وجوده في نفسه، وأن يتحقّق منه كما يتحقّق من الإيمان نفسه، ومعنى: ((يؤمن)) في هذا الحديث، أي: يؤمن إيماناً كاملاً، وقد ذكر الولد؛ لأنّ أكثر النّاس لهم أولاد[٢].

ومعنى هذا الحديث أنّ مَن استكمل الإيمان، علم أنّ حقّ النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ آكد عليه من حقّ أبيه، والنّاس أجمعين؛ لأنّه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ استنقذنا من النّار وهدانا من الضّلال[٣]؛ لهذا فإن مَنْ لم يجد في نفسه ذلك الميل لم يكمل إيمانه[٤]. ومصداقيّة هذا الحبّ وعلامته اتّباع

---

(١) رواه البخاري ١/٥٨، ومسلم ٢/٢٥.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ١/٥٩.

(٣) انظر: شرح النّووي ٢/١٦.

(٤) انظر: فتح الباري ١/٥٩.

سنته، والدّفاع عنها، وليست هذه المحبّة المطلوبة مجرّد كلمةٍ تقال، خلواً من حسن الفعال[1].

والقصر هنا للصّفة وهي الإيمان على الموصوف، وهو تحقّق زيادة محبّة النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على محبّة الولد، والوالد، والنّاس أجمعين. وهو ــ كما يظهر ــ من الحقيقيّ للمبالغة في أهمّية محبّة النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، بناء على ظاهر الحديث؛ لأنّ ظاهره نفي تحقّق الإيمان، والإيمان يتحقّق بأركانه المعروفة، وحتّى لو قلنا: إنّ المراد هنا هو كمال الإيمان فإنّ القصر للمبالغة أيضاً؛ لأنّ كمال الإيمان له شروط كثيرة كلّها تؤدّي إلى كمال الإيمان، ولو جرّدنا هذه العبارة من المبالغة لكانت: من شروط كمال الإيمان أن أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين، وهذه الحقيقة لكنّ القصر قد دخل هنا ليشيع هذه الحقيقة بالمبالغة فتغير تركيب العبارة، لدخول القصر عليها، إلى الصّورة التي هي عليها في الحديث.

قصر إيمان المؤمن على ما بعد مساواته ما يحبّ لأخيه بما يحبّ لنفسه:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يؤمن أحدكم، حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[2].

---

(١) انظر نحواً من هذا القول في: فتح الباري ١/٥٩.

(٢) رواه البخاري ١/٥٧، ومسلم ٢/١٦.

وفي هذا الحديث رَبْط الإيمان (مرّة أخرى) بحبّ المسلم لأخيه ما يحبّ لنفسه. ولابن حجر ــ رحمة الله عليه ــ كلام دقيق، ومفيد عند هذا الحديث، يقول فيه: «المراد بنفي (كمال الإيمان) نفي اسم الشّيء على معنى نفي الكمال عنه، وهو مستفيض في كلامهم، كقوله: فلان ليس بإنسانٍ، فإن قيل: فيلزم أن يكون مَن حصلت له هذه الخصلة مؤمناً كاملاً، وإن لم يأت ببقية أركان، أجيب بأنّ هذا ورد مورد المبالغة»[١].

وعلى هذا فالكلام في هذا الحديث كالكلام عن الحديث السّابق، إلاّ أنّ الكراماني قد قال: «ومن الإيمان أيضاً أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشّرّ ولم يذكره لأنّ حبّ الشّيء يستلزم لبغض نقيضه»[٢].

وعلى هذا ففي هذا التّعبير إيجاز قصر بيِّن فبالإضافة إلى الإيجاز الذي في الجملة القصرية هناك إيجاز في الاكتفاء بذكر الحبّ عن ذكر البغض، حيث يفهم ذلك من السّياق.

وهذا الشّرط قد يظهر على أنّه من الصَّعْبِ الممتنع، لكنه في الحقيقة سهل على القلب السّليم، وإنّما يَعْسر على القلب السّقيم ــ أعاذنا الله من ذلك ــ[٣].

وإذا تحقّق هذا الشّرط في مجتمع كان مجتمعاً إيمانيّاً، وكان كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمى، أمّا

(١) فتح الباري ١/٥٧، وقد ذكر الكرماني كلاماً قريباً من هذا ١/٩٥.

(٢) انظر: الكرماني على صحيح البخاري ١/٩٥.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٧/٢.

إذا فقد هذا الشّرط من مجتمع، كان مجتمعاً غير إيمانيّ، وتنتشر فيه الأنانية، ويَذبلُ فيه الإيمان في القلوب، ويصبح النّاس ذئاباً بشريّة، وتفسد الحياة، ويسود الظّلم، والحقد، وتعمّ الكراهية، والبغض ـــ والعياذ بالله ـــ(١).

قصر حبّ الأنصار على المؤمن، وبغضهم على المنافق:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «الأنصار لا يحبّهم إلاّ مؤمن، ولا يبغضهم إلاّ منافق...» الحديث(٢).

أراد النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أن يوضّح فضل الأنصار، فربط حبّهم بالإيمان وربط بغضهم بالنّفاق. ولكنّه ليس ربطاً عاديّاً وإنّما هو ربطٌ مع قصر، حيث قصر الحبل الرّابط حتّى صار الشّيْئان الْمَرْبُوطان كأنّهما شيءٌ واحدٌ، أي: صار حبّ الأنصار إيماناً، وبغضهم نفاقاً.

وليس هذا مجال تعداد فضائل الأنصار الذين احتضنوا الدّعوة وضحّوا من أجلها بنفوسهم ونفائسهم فبلغوا بسخائهم وأريحيتهم، منْزلةً يَقصّر حتّى الخيال عن محاكاتها أو إيجاد شبيه لها. مَنْ مِن المؤمنين لا يحبّ الأنصار؟! وقد مدحهم النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بمدائح شتّى، وقال: «لو سَلَكَ النّاس شعباً، وسلك الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار»(٣). إلى غير ذلك من الأحاديث التي جاءت في فضلهم.

---

(١) انظر: الوافي في شرح الأربعين النّوويّة، د. مصطفى البغا، ومحي الدّين منتو ص: ٨٩.

(٢) رواه البخاري ١١٣/٧، ومسلم ٦٣/٢.

(٣) رواه البخاري ١١٣/٧، ومسلم ٦٣/٢.

وهل بقي مَن يُبْغِض الأنصار مِمَّن يدّعي الإسلام غير المنافقين أعداء الله؟!

لهذا قصر النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ حبّهم على المؤمن، ثم قصر بغضهم على المنافق، ولم يكتف بقصرٍ واحدٍ كما في الشّواهد السّابقة، ليؤكّد أنّ بغضهم نفاق ليس غير ــ والعياذ بالله ــ.

وهذان القصران للمبالغة حيث إنّه قد يحبّ الأنصار حتّى غير المسلمين، لكنّه لما كان أغلبُ مَن يحبّهم حبّاً حقيقيّاً هم المؤمنون اقتصر على ذكرهم.

كما أنّه قد يبغض الأنصار الكفّار الذين ليسوا بمنافقين،ونحو ذلك.

هذا، وإنّ المراد بحبّهم حبّ جميعهم، وبغضهم بغض جميعهم؛ لأنّ ذلك للدّين، ولكن مَن أبغض بعضهم لمعنىً يسوّغ البغض شرعاً، فليس ذلك داخلاً في المنافقين(١).

ونلاحظ من الأمور البلاغية في هاتين الجملتين مقابلةً، بين يحبّهم، ويبغضهم، ومؤمن، منافق. وهذه المقابلة تعطي السَّامعَ تصوّراً لأَبْعَادِ الْحُبِّ والْبُغض المذكورين في الحديث. والله أعلم.

قصر النّصر في الْمَعارك على كونه بالضّعفاء:

رأى سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ أنّ له فضلاً على مَن دونه من الصّحابة في بعض الْمعارك، وذلك بسبب شجاعته أو نحو ذلك،

(١) انظر: فتح الباري ١١٣/٧.

فقال له النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((هل تنصرون إلاّ بضعفائكم؟))[(١)].

لم يكن سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ متكبِّراً على غيره من الصّحابة، وإنّما قال له النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هذه العبارة خوفاً من أن يؤدّي به هذا الشّعور إلى شيءٍ من الكبر أو الغرور، والنَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يريد أن يُرَبِّي الصّحابة على أخلاقه التي يتخلّق بها، فيريد من الشّجاع أن يسير بين الجنود وكأنّه ليس بشجاع، ويريد من الأمير أن يسير مع الرّعية وكأنّه لا سلطان له، وذلك هو التّواضع بحقيقته، لهذا أجاب النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ سعد بن أبي وقاص بهذه العبارة القصريّة التي جاء فيها النَّفي على شكل استفهام، وذلك تعريضٌ بسعد ــ رضي الله عنه ــ لحثّه على التّواضع ونفي الزّهو عنه[(٢)]. وتأويل هذه العبارة: أنّ الضّعفاء أشدّ إخلاصاً في الدّعاء، وأكثر خشوعاً في العبادة، لخلاء قلوبهم من التّعلّق بزخرف الدّنيا[(٣)].

وهذا القصر حقيقيّ للمبالغة في قصر النَّصر على الضّعفاء؛ إذ ليس الضّعفاء وحدهم السّبب الوحيد للنّصر.

وهكذا نرى في هذه العبارة الصّغيرة، عدداً كبيراً من المعاني منها:

الإيجاز، والقصر، والاستفهام، والنّفي مع الإنكار، والتّعريض، ومن معانيها أيضاً التّحذير من الكبر، والحثّ على التّواضع، وبيان أهمّيّة

---

(١) رواه البخاري ٦/٨٨.

(٢) انظر: فتح الباري ٦/٨٩.

(٣) انظر: عمدة القارئ ١٤/١٧٩.

الضّعفاء، ووجوب مراعاتهم في الحرب وغيره، وأنّهم سببٌ مهمٌّ من أسباب النّصر، ثم ما في هذه العبارة من المبالغة أيضاً في تقدير الضّعفاء والمساكين، فما أبلغها من عبارة!

قصر الْخَيْر على خير الآخرة:

عند ما قَدِم النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ المدينة قام ببناء مسجده الشّريف، وأخذ الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ يعملون معه ويرتجزون، والنَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يقول: «اللهم لا خير إلاّ خير الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»[١].

وفي يوم الخندق، كان النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يقول:

اللهم لا عيش إلاّ عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة»[٢]

في هذين الحديثين شاهدان، بمعنىً واحدٍ:

أحدهما: قصر للْخَيْر على خير الآخرة.

والثّاني: قصر للعيش على عيش الآخرة.

والمراد بذلك الْخَيْر الحقيقيّ والعيش الحقيقيّ، الذي لا نفاد له، ولا أنعم ولا أرغد منه، لكن تنكير (الخير، والعيش) يعني: عموم كلّ عيشٍ وخيرٍ، وهذا يؤدّي إلى المبالغة في نعيم الآخرة، وأنّ نعيم الدّنيا لا شيء بالنّسبة له.

---

(١) رواه البخاري ١/٥٢٤، ومسلم ٥/٨.

(٢) رواه البخاري ٦/١١٧.

لكن المبالغة هنا ليست كبيرة، بل تكاد تكون كالحقيقية لعدم المقارنة بين ما في الدّنيا وما في الآخرة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾[العنكبوت من الآية: ٦٤][^1]، أي: وإن كان غيرها يُسَمَّى حياةً، لكن الآخرة هي الحياة الحقيقية.

وهكذا نجد أحاسيس النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، ومشاعره منصرفة إلى الآخرة في كلّ حينٍ، يرى أنّ النّعيم نعيمها، والعذاب عذابها.

قصر جزاء الحجّ المبرور على الجنّة:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «العمرة إلى العمرة كفّارةٌ لما بينهما، والحجّ المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنّة»[^2].

في هذا الحديث نرى فضل الحجّ وعظم ثوابه، ولكنَّ الحجّ الموعود، بهذا الأجر هو الحجّ الْمَبْرُور الذي لا يُخَالطه إثم، أو الذي قَبِله الله تعالى، والجزاء الكبير لهذا الحجّ هو الجنّة، ولكن لنَنْظر كيف عبَّر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن هذا المعنى؟

لقد جاء التّعبير عن هذا الجزاء العظيم بأسلوبٍ قصريّ، قصر فيه جزاء البارِّ بحجّه على الجنّة، قصراً حقيقيّاً لعموم النّفي فيه، ولكن هل هو من التّحقيقيّ أم هو للمبالغة؟ هنا يحار الْفَهْم كثيراً، ولكنّ الظّاهر أنّه

---

[^1]: (١) أوّلها: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾.
[^2]: (٢) رواه البخاري ١٠٩/١٠، ومسلم ١١٨/٩.

للمبالغة، في عظم هذا الجزاء، وأنّ أيّ جزاء آخر لا يعدّ معه شيئاً.

قال النّووي: ((ومعنى ليس له جزاء إلاّ الجنّة، أنّه لا يقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه، بل لا بدّ أن يدخله الله الجنّة))(١).

وإذا ما تأمّلنا في هذه العبارة القصريّة نرى كأنّها قد جُعلتْ سمةً للحجّ الْمَبرور، أو عُنواناً لصحيفة هذا الحجّ، أي: أنّه لا جزاء يكفي لهذا الحاجّ إلا الجنة، فيذهب إليها من غير نظرٍ في كميّة حسناته، وهل هي كافية لإدخاله الجنّة أم لا؟

ولعلّ الحكمة من التّعبير عن ثواب الحجّ بهذه الكيفية، هي: أنّ الحجّ عبادةٌ ماليّةٌ وبدنيّةٌ ونفسيّةٌ، فهو جامع لكلّ ألوان العبادة. أمّا بقيّة العبادات فكلّ واحدةٍ منها لها مجال محدود، فالزّكاة مثلاً، عبادة ماليّة، والصّلاة والصّوم من قبيل العبادات البدنيّة... وهكذا. والله أعلم.

هذا، وإنّه مما يزيد هذا الأسلوب عجباً، أنّه وإن كانت الجنّة هي منتهى الأجر والثّواب وغاية كلّ مسلمٍ إلاّ أنّ التّعبير الذي وُصِفَت فيه هنا، يُوحِي بأنّها شيءٌ قليلٌ؛ إنّ العادة في المستثنى أن يكون النّصف أو أقلّ من النّصف من المستثنى منه، ولهذا فَمَن يسمع قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ ((ليس له جزاء)) يظنّ أنّه لا جزاء له فإذا ما سمع: ((إلاّ)) ظنّه جزاء قليلاً، فإذا سمع: ((الجنّة)) دُهِشَ...، وذلك هو الأسلوب المثير والذي هو ـــ في رأيي ـــ نوع من تأكيد الْمَدْح بما يُشْبِه الذّمّ، والذي نسمّيه هنا

---

(١) انظر: شرح النّووي ١٦٩/٩.

تأكيد الزّيادة بما يشبه النّقص. والله أعلم.

قصر جزاء مَن احتسب مَن مات من أصفيائه على الجنّة:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما لِعَبْدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّة من أهل الدّنيا ثم احتسبه إلاّ الجنّة...»(١).

نرى في هذا الحديث عظم جزاء مَن يصبر ويحتسب، إذا فقد مَن يحبّه في الدّنيا، وأنّ هذا الأسلوب كفيل بأن يدخل الجنّة. وقد عبّر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، عن هذا المعنى بنفس الطّريقة في الحديث السّابق، حيث إنّ القصر فيه لمجرّد لفت انتباه السّامعين إلى أهمّيّة هذا الأمر الذي جعل كلّ جزاء فيه سوى الجنّة كأن لم يكن.

وهذا القصر وسابقه كلاهما من الاستثناء التّام المنفي حيث ذكر المستثنى منه وهو (جزء)، وبهذا يكون الإيجاز فيهما أقل من غيرهما. والله أعلم.

قصر دخول الجنّة على المؤمنين (وصورة أخرى):

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا، أو أدلّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السّلام بينكم»(٢).

إنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لَيَعْلم كيف يوصل المعنى إلى أذهان الصّحابة الكرام، وكيف يلْفِتُ انتباههم إليه قبل البدء في الحديث، حتّى إذا التفتوا إليه. أخذ ينقلهم من فكرةٍ إلى فكرةٍ، ومن معنىً إلى معنىً،

---

(١) رواه البخاري ٢٤٢/١١.

(٢) رواه مسلم ٣٧/٢.

حتّى يصل بهم إلى جوهر الموضوع الذي يُريد، وهو في هذا الحديث أراد أن يُوَضِّح للصّحابة أهمّيّة السّلام وفضله، وأراد أن يحثّهم عليه، ويشجّعهم على إفشائه، فلم يقل لهم مباشرة: اهتمّوا بإفشاء السّلام، فإنّ فيه أجراً كبيراً، ومحبّةً بينكم... الخ. وإنّما جاء بهذه السّلسلة القصريّة، فبدأ لهم من الجنّة (التي هي منتهى أمل كلّ مسلم) وجعل الدّخول فيها مقصوراً على شرطٍ واحدٍ، وهو الإيمان على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقي[١]، ثم أخذ الإيمان وربطه (بواسطة القصر) بالمحبّة وهو قصر للمبالغة في أهميّة المحبّة. في الله[٢].

ثم توقّف عند المحبّة، ليلقي سؤالاً عن الأمر الذي يُوْجِدُ هذه المحبّة، ثم يجيب على سؤاله عندما تَذْهَب الأذهان فيه كلّ مذهب! ليكون هذا الجواب لهذه الأذهان كصيدٍ سمينٍ، وكنْزٍ ثمينٍ، وهذه هي بلاغته ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ التي لا تُضَاهى من قبل البشر.

قصر صلاة العصر على الوصول إلى بني قريظة:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لأصحابه لما رجع من غزوة الأحزاب: «لا يصلّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلاّ في بني قريظة، فأدركهم العصر في الطّريق فقال بعضهم: لا نصلّي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلّي، ولم يرد منا ذلك، فَذُكِر للنَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فلم يُعَنِّف واحداً منهم»[٣].

---

(١) هكذا يرى النّووي: أنّ هذه الجملة على ظاهرها، وأنّه لا يدخل الجنّة إلاّ مَن مات مؤمناً، وإن لم يكن كاملَ الإيمان. انظر: شرح النّووي ٣٦/٢.

(٢) المقصود من الإيمان هنا كمال الإيمان. انظر: شرح النّووي ٣٦/٢.

(٣) رواه البخاري ٤٣٦/٢، ومسلم ٩٧/١٢.

لقد قال النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لأصحابه تلك العبارة القصريّة: ((لا يصلّيَنّ أحدٌ العصرَ إلاّ في بني قريظة))، فانطلقوا إلى بني قريظة فلَمّا أدركهم العصر اختلفوا في شأن الصّلاة، وكان سبب اختلافهم أنّ بعضهم فهم هذه العبارة القصريّة على أنّ القصر فيها تحقيقيّ، فسار ولم يصلّ حتّى بلغ بني قريظة(١).

وأمّا بعضهم الآخر فقد فهم أنّ القصر للمبالغة، في شدّة السّير، وليس المراد منها تأخير الصّلاة عن وقتها المحدَّد(٢). فصلّى وسار بسرعةٍ.

ولما ذَكَر كلّ منهم دعواه للنَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ (وهو يظنّ أنّه مصيب) لم يكن منه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، وهو الْمُرَبِّي الحكيم إلاّ أن أقرّهم جميعاً ولم يُعَنِّف واحداً منهم، والسّبب في ذلك أنّ تلك العبارة القصريّة لم يكن فيها ما يُحدِّد المقصود تماماً، اللهم إلاّ إن كان العرف هو الذي يحدّد المراد. لذلك ساغ لهم أن يجتهدوا، ولا حرج عليهم حتّى لو أخطأوا.

وقد اختلف الفقهاء (كما اختلف أصحاب هذه القصّة) في أيّهما أصوب. لكن الرّاجح الذي عليه أكثر الفقهاء، أنّ الفئة التي صلّت هي الْمُصِيبة؛ لأنّها كسبت الحسنَيَيْن: الصّلاة والوصول المبكّر(٣).

---

(١) انظر: الفتح ٧/٤١٠، بتصرّفٍ.

(٢) المصدر السّابق ٧/٤١٠.

(٣) انظر: زاد المعاد لابن قيم الجوزية ٣/١٣٢.

هذا وإنّني أرى رأي جمهور الفقهاء ليس للتّعليل الذي ذكروا، ولكن لأنّ الدّلالة فيها على الإسراع يدلّ العرف على ذلك ولا يصحّ تأخير الصَّلاة؛ لأنّ الصّلاة حُدِّد لها وقتها، إلى قيام السّاعة، وأنّ الفئة التّي لم تُصلِّ ما أصابت، لكنَّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لم يُعَنِّفها؛ لأنّ خطأها نتج عن اجتهادها، ولا يلام الإنسان على اجتهاده، وقد وعد الله المجتهد الْمُخْطِئ أجراً واحداً.

قصر الرّبا على النّسيئة:

وقال رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم-:«لا ربا إلاّ ربا النّسئية»[١].

وفي رواية مسلم قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّما الرّبا في النَّسيئة»[٢].

ظاهر هذا الحديث أنّه من القصر الحقيقيّ التَّحقيقيّ، لكنّه قد وردت أحاديث أخرى تدلّ على وجود الرّبا في غير النّسيئة[٣]، لهذا اختلف الفقهاء في الجمع بين تلك الأحاديث وبين هذا الحديث، فقال جماعة: إنّ هذا الحديث منسوخ؛ لأنّ المسلمين قد أجمعوا على عدم العمل بظاهره. وقال بعضهم: هذا الحديث مجمل والأحاديث الأخرى مفصَّلة فَتُقَدَّم عليه، وقالوا غير ذلك[٤].

---

(١) رواه البخاري ٣٨١/٤.

(٢) رواه مسلم ٢٥/١١.

(٣) من هذه الأحاديث: ما روي عن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ أنّه قال: «الدّينار بالدّينار والدّرهم بالدّرهم ــ أي: ربا ــ». رواه البخاري ٣٨١/٤، وغيره.

(٤) انظر: فتح الباري ٣٨٢/٤، وشرح النّووي ٢٥/١١، وعمدة القارئ للعيني ٢٩٦/١١، =

والذي يهمّني هنا هو ما قاله العلماء فيما يتعلّق بالأمور البلاغية. قال بعض العلماء: ((وإنّ معنى قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا ربا))، أي: لا ربا أغلظ حرمةً، وأشدّ توعّداً بالعقاب، وذلك كما تقول العرب: لا عالم في البلد إلاّ زيد، مع أنّ فيها علماء غيره، وإنّما القصد نفي الأكمل لا نفي الأصل[1].

فهؤلاء العلماء يصرّحون أنّ هذا القصر للمبالغة فحسب وليس تحقيقيّاً، وهذا ما أراه صحيحاً.

هذا، وقد جاء هذا الحديث بطريقي القصر: (إنّما) و(النّفي والاستثناء)، ولا أستطيع أن أفسّر سبب ذلك. فقواعد البلاغة الذّوقية ليست ثابتة تماماً، كقواعد النّحو العقلية، وحتّى قواعد النّحو قد شذّ عنها شواهد كثيرة؛ لذلك لا أرى سبباً لمجيء العبارة القصريّة هنا بطريقين من طرق القصر إلاّ أن يكون ذلك من باب التّنويع في الأساليب القصريّة فقط. والله أعلم.

قصر الحسد على اثنتين: الْعِلْم والْمَال، المستعملين في طاعة الله:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا حسد إلاّ في اثنتين: رجلٌ أتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ، ورجلٌ أتاه الله الحكمة

= وفي هذه الكتب سوف تجد الأحاديث التي دلّت على وجود الرّبا في غير النّسيئة، والمناقشات العلمية الطّويلة حولها.

(١) انظر: عمدة القارئ ١١/٢٩٦.

فهو يقضي بها ويعلّمها»[١].

للعلماء تفسيرات مختلفة لهذا الحديث[٢]. أقربها إلى الصّواب هو: «أنّ الحسد قسمان: حقيقيّ ومجازيّ، فالحقيقيّ تَمَنّي زوال النّعم عن صاحبها وهذا حرامٌ بإجماع الأمّة، مع النّصوص الصّحيحة.

وأمّا المجازي فهو الغبطة، وهو تَمَنِّي مثل النّعمة التي على غيره، من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدّنيا فهي مباحة، وإن كانت طاعةً فهي مستحبة، والمراد بالحديث هنا: لا غبطة محبوبة إلاّ في هاتين الخصلتين»[٣].

ونرى في قول العلماء (هذا) دقّة معرفتهم بمخارج الكلام، بالإضافة إلى معرفتهم بالعلوم الشّرعية ويظهر ذلك من حسن تخريجهم لهذا الحديث حيث جعلوا أنّ معنى الحسد هنا هو الغبطة، ثم علّلوا معنى القصر هنا بأنّه للمبالغة.

قال ابن حجر: «إنّ وجه الحصر أنّ الطّاعات إمّا بدنيّة أو ماليّة، أو كائنة عنهما»[٤].

وهذا رأي وجيه جدًّا، وإنّ هناك من العلماء مَن يرى أنّ هذا القصر

---

(١) رواه البخاري ١/١٦٥، ومسلم ٦/٩٧.

(٢) انظر: فتح الباري ٩/٧٣، وغيره.

(٣) نظر: شرح النّووي ٦/٩٧، وانظر: بهجة النّفوس، لأبي جمرة الأندلسي ٢/١٢٦-١٢٧، وغيرهما.

(٤) انظر: فتح الباري ١/١٦٧.

حقيقيّ تحقيقيّ، للصّفة على الموصوف، وأنّ المعنى:لا يَحِلّ الحسد إلاّ في اثنتين، على أنّ ذلك ترخيص في الحسد كما رُخص الكذب في بعض الحالات[١].

ولكن هذا الرّأي ــ في نظري ــ ضعيفٌ جدًّا؛ لأنّ الكذب المباح هو عند الضّرورة القصوى، أو عندما يترتّب عليه منفعة للمسلمين، أو نحو ذلك. أمّا تَمَنِّي زوال النّعمة عن الغير فأي ضرورة، أو فائدة تدعو له؟!

هذا، وإنّ في هذا الحديث تفصيلاً بعد إجمال، فبعد أن ذكر عدم جواز الحسد إلاّ في اثنتين، بيَّنهما بعد ذلك، وفي ذلك تشويق للسّامع لمعرفتهما، وجمع شتات الذّهن لإدراكهما[٢].

قصر الْمَجيء بأفضل عملٍ على مَن قال هذا الذِّكر أكثر من مئة مرّة

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «مَن قال: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الْمُلْك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، في يومٍ مئة مرّة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيّئة، وكانت له حرزاً من الشّيطان، يومه ذلك حتّى يُمْسِي و لم يأتِ أحدٌ بأفضل مِمّا جاء به إلاّ رجلٌ عمل أكثر من ذلك...»[٣].

نرى في هذا الحديث فضل هذا الذّكر، وأنّ من فضائله قصر الإتيان

(١) انظر: عمدة القارئ للعيني ٢/٥٨.

(٢) انظر: قطوف من رياض السّنة، د. صالح أحمد رضا، ص: ١٨٩.

(٣) رواه البخاري ٦/٣٣٩، وقد حللت القصر في قول: (لا إله إلاّ الله) سابقاً.

بأفضل عمل على مَن قاله أكثر من ذلك.

والقصر هنا حقيقيّ لعموم النّفي فيه، ولكن هل هو تحقيقيّ أم للبالغة في فضل هذا الذّكر؟ لم أجد جواباً هذا السّؤال في أقوال العلماء. لذلك اجتهدت، ورأيت أنّه للمبالغة؛ لأنّه قد يعمل إنسانٌ أعمالاً عظيمة الثّواب كالجهاد في سبيل الله، أو التّصدّق بالمال الكثير، أو نحو ذلك، ويحصل على الأجر الكثير، فلا أظنّ مَن يعمل الكثير من خصال البرّ في يومٍ يكون أقل ثواباً مِمَن قال هذا الذّكر مئة مرّة، ونام بقية اليوم، ولكن المقصود حثّ المسلمين على المداومة على هذا الذّكر؛ لأنّ جزاءه (لا شكّ) عظيم فقلّما يحرز أحدٌ مثله في يومٍ. والله أعلم.

وهذا التّفسير على اعتبار كون الاستثناء متّصلاً، أمّا إذا كان الاستثناء منقطعاً وهذا احتمال وراد أيضاً، فالتّقدير: لكن رجلٌ قال أكثر من ذلك[1]، فلا قصر. والله أعلم.

قصر دخول الْجَنَّة على ضعفاء النّاس:

قال النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قالت الجنّة: «ما لها لا يدخلها إلاّ ضعفاء النّاس وسقطتهم...؟» الحديث[2].

---

(١) انظر: فتح الباري ٢٠٢/١١.

(٢) رواه البخاري ٤٣٤/١٣، ومسلم ١٨١/١٧.

وفي رواية مسلم: «ما لي لا يدخلني إلاّ ضعفاء النّاس وسقطتهم؟». والمقصود بسقطتهم، هم: نازلوا القدر الذين لا يؤبه بهم. الفتح ٤٣٦/١٣.

في هذا الحديث قصرٌ للصّفة وهي الدُّخول في الجنّة على الموصوف، وهم: ضعفاء النّاس وسقطتهم، وذلك على سبيل القصر الحقيقيّ لعموم النّفي، وهو للمبالغة، وإلاّ فالجنّة كما هو معروف يدخلها مَن صلح عمله وشاء الله له أن يدخلها من الضعفاء وغيرهم. وقد جاء هذا القصر للدِّلالة على أنّ أكثر أهل الجنة هم من الضّعفاء والمساكين؛ لأنّ الأقوياء والأغنياء ونحوهم هم أقدر على ارتكاب المعاصي والفسوق في الدّنيا، ويلقون العذاب في الآخرة.

وفي هذا الرّواية التفات ضمير المتكلّم إلى الغيبة؛ لأنّ الجنّة تقصد نفسها ونسق الكلام أن تقول: ما لي[1]، كما في الرّواية الأخرى. وهذا يظهر لنا حزنها وكأنّها تندب حظّها؛ لأنّها لا تعقل ولا تقدر قيمة مَن يدخلها.

قصر إصبع النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على كونها إصبعاً دميت:

دميت إصبع النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مرّة، فقال: «هل أنت إلاّ إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت؟»[2].

نرى إصبع النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وقد دميت وهو يخاطبها محتسباً ذلك في سبيل الله تعالى، معزيّاً لها، ومهوِّناً من شأن إصابتها، فجاء هذا الخطاب بأسلوب القصر الذي هو الأسلوب الأمثل

(١) انظر: الفتح ١٣/٤٣٦.

(٢) رواه البخاري ٦/١٩، ومسلم ١٢/١٥٥.

للتّعبير عن التّواضع والتّهوين من أمر الشّيء وخصوصاً ما كان بقصر الموصوف على الصّفة. فقصر النّبيّ ــ عليه الصّلاة السّلام ــ إصبعه (وعبّر عنها بضمير المخاطبة أنت) على الصّفة (كونها إصبعاً دميت) على سبل القصر الحقيقيّ لعموم النّفي فيه، وهو للمبالغة في التّهوين من شأن إصبعه الكريمة، فكأنّه نفي عنها جميع صفاتها غير أنّها إصبع (نكرة) دميت، ونزل صفاتها الأخرى منْزلة العدم، ككونها إصبع نبيّ، وأنّها مكوّنة من لحم ودم، وتحسّ وتتألم... الخ. وكأنّه بذلك يعَرِّض لإصبعه بأنّه وإن كانت هذه الإصابة مؤلمة، لكن يجب أن تنسي؛ لأنّها بسيطة جدّاً إذا ما قورنت بما أمامه من مشاق وأتعاب لتحمله المسؤولية الجسيمة والمهام العظيمة في سبيل الله رفع راية هذا الدّين.

ثم جاء النَّفي هذا ضمن استفهام خرج إلى دلالة النّفي[1]، وذلك للمبالغة في التّقليل من شأن الإصبع، كما لو قال شخص لآخر: أنت لست بشيءٍ، فإنّه قلّل من شأنه، ولكن لو قال له: هل أنت شيء؟ فإنّ ذلك أبلغ في التّهوين من شأنه، وكأنّه قال له: أنت لست بشيء، وإذا كنت شيئاً فأخبرني، هذا وإنّ في هذه العبارة ما يُسَمَّى بالتّجريد حيث جرّد النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من إصبعه شخصاً وخاطبه بهذا القول، كما أنّه يجدر بنا هنا أن نشير إلى أنّ القصر الحقيقي يمكن أن يخاطب به غير العاقل، كما خاطب به النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ

(١) قال العيني: «معناه: ما أنت إلاّ إصبع دميت». عمدة القارئ ١٤/٩٩.

إصبعه، أمّا القصر الإضافي فلا يخاطب به إلاّ العاقل؛ لأنّه يقتضي أن يكون هناك مخاطب، ولديه تصوّر معيّن في الأمر، إمّا بالتّردّد أو بالمشاركة أو بالقلب.

وهناك ملاحظة أخيرة وهي أنّ العلماء اختلفوا حول هذا القول هل قاله النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ متمثّلاً أو من قبل نفسه(١)؟ فخرج موزوناً، ولكنّي أرجّح الثّاني، ولكن مهما يكن من شيءٍ فإنّ بيتاً واحداً سواء قاله النَّبِيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ من قبل نفسه، أو تمثّل به، لا يقربّ النَّبِيّ ــ عليه السّلام ــ من منْزلة الشّعر والشّعراء، فالبلغاء الفصحاء ولو من غير الشّعراء كثيراً ما يأتي على ألسنتهم كلام موزون من غير قصدٍ. والله أعلم.

---

(١) انظر: فتح الباري ١٠/٥٤١، ومتمثّلاً أي: أنّه قد قيل قبله وتمثّل به عندما وقعت له الإصابة.

المبحث الثّاني: أسرار القصر الإضافي

قصر قطع الصّلاة بسبب الرّيح على الشّمّ أو السّماع له:

شكا بعض الصّحابة إلى رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أنّه يخيّل للرّجل أنّه يجد الشّيء في الصّلاة ــ فقال ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يَنفتل ــ أو لا ينصرف ــ حتّى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً»[(١)].

ظاهر هذا الحديث أنّه قصر لقطع الصّلاة على مَا بعد سماع الصّوت أو شمّ الرّيح على سبيل القصر الإضافي؛ لأنّ المنفي هو أن لا يقطع الصَّلاة بمجرّد التّوهّم أو التّخيّل لوقوع الحدث، وذلك على سبيل الحقيقة. ولكنّ العلماء قالوا: إنّه لا يشترط لذلك الشّم أو السّماع، وقالوا: إنّ المقصود من قوله: يسمع صوتاً أن يجد ريحاً، أي: يعلم بوجود أحدهما[(٢)].

ثم قالوا أيضاً: إنّ الحدث ليس مقصوراً على ما يسمع أو يشمّ، بل يدخل في معناه كلّ ما يخرج من السّبيلين، وإنّما جاء القصر في هذا الحديث لذلك السّائل[(٣)].

وفي الحقيقة إنّني احترت كثيراً في فهم هذا الحديث، وذلك لأنّ القصر هنا تحقيقيّ قطعاً، لأنّ هذا الحكم شرعيّ لا سبيل للمبالغة فيه، ثم

---

(١) رواه البخاري ١/٢٣٧، ومسلم ٤/٥١.

(٢) انظر: شرح النّووي ٤/٤٩، وعمة القارئ ٢/٢٥٣، وقالوا: بأنّ الأصمّ، ومَن فقد حاسة الشّمّ، ينصرف إذا علم بشيء من ذلك.

(٣) انظر: عمدة القارئ ٢/٢٥٣.

إنّه ليس المراد منه كما قال العلماء: «أن يعلم بوجود الحدث»، وذلك لأنّ لفظ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هذا صريحٌ، لا كناية فيه أبداً، ولكن يكون تخريجه ــ في نظري ــ على وجهين:

أوّلهما: إنّه كما قال العلماء: إنّ هذا الجواب خاصّ بالسّائل، ثم إنّه خاصّ به من جهتين: من جهة سؤاله، فسؤاله عن حكم خروج الرّيح من الإنسان، ثم من جهة أنّ هذا السّائل مِمَن يسمع ويشمّ، وإلاّ لما قال له النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ذلك.

والوجه الثّاني: أنّ هذا الحكم في الرّيح أصلاً، ولكنه ليس خاصاً بهذا الرّجل بل لكلّ مَن يسمع ويشمّ، وهو أغلب النّاس، أمّا مَن عداهم فلهم حكم آخر، وهذا هو الظّاهر. والله أعلم.

قصر مانع الْمُتكَبِّر عن الأكل باليمين على الْكبر:

أكل رجل عند النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بشماله، فقال له النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «كُلْ بِيَمِيْنِكَ، قال: لا أستطيع، قال: لا استطعتَ، ما منعه إلاّ الكبر، فما رفعها إلى فيه»[(١)].

إنّ هذا الرّجل الذي تَشَبَّه بالشّيطان في الأكل لهو سيّئ الأدب، وزاد هذا السّوء شناعةً أنّه لم يتمثّل أمر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، ثم إنّه زاد هذه الشّناعة قبحاً، اعتذاره بالكذب مستهتراً أو متكبِّراً، حيث قال: لا أستطيع، وهو يستطيع. عند ذلك استوجب من النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ الدّعاء عليه (وقلّما يدعو النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ

---

(١) رواه مسلم ١٩٢/١٣.

على أحدٍ إلاّ إذا أفرط في الإساءة»، فدعا عليه بعدم الاستطاعة، واستجيبت دعوته في الحال، ليكون هذا العاصي عبرةً لِمَن يعتبر.

ثم جاء النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بجملةٍ قصريّة تظهر حقيقة أمر ذلك الرّجل، وكان القصر فيها إضافيّاً؛ لأنّه نفى أن يكون المانع عدم الاستطاعة التي ادّعاها الرّجل، وهذا القصر لِلْقلب؛ لكنّه قلب لادّعاء المخاطب لا لتصوّره واعتقاده، وهذا يسدّ ثغرةً في القواعد البلاغية؛ لأنّهم لم يأخذوا في حسبانهم مثل هذه الحالة.

قصر قيام الصّحابة للصّلاة إذا أقيمت على رؤيته- صلّى الله عليه وسلّم-:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إذا أقيمت الصّلاة، فلا تقوموا حتّى ترونِي»(١).

يرشد النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الصّحابة الكرام إلى عدم قيامهم بمجرّد إقامة الصّلاة، وذلك أنّه قد يتأخّر بعض الوقت فيبقون قياماً، وأرشدهم إلى أن لا يقوموا إلى الصّلاة حتّى يأتي، وذلك تخفيفاً عنهم.

والقصر هنا للصّفة (وهي قيامهم للصّلاة) على الموصوف (وهو ما بعد رؤيتهم له ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ)، على سبيل القصر الإضافي؛ إذ التّقدير: لا تقوموا عند إقامة الصّلاة.

وهذا القصر من التّحقيقيّ لتحقّقه فعلاً؛ إذ المراد منهم: تطبيق هذا

(١) رواه البخاري ١١٩/٢، ومسلم ١٠١/٥.

الكلام، وهو من قصر القلب؛ لأنّ الصّحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ كانوا يعتقدون أنّه يجب القيام بمجرّد إقامة الصّلاة ـــ كما هو ـــ ظاهر الحديث.

وهنا جانبٌ من الجوانب التي يكشفها هذا البحث، وهو النّفي جاء على شكل نهي، والتّحقّق في الواقع لم يحصل بعد، وإنّما يراد منه أن يحصل؛ فالتّقعيد البلاغي يكتمل بمثل هذه الشّواهد.

هذا ويرى جمهور الفقهاء أنّ ذلك ليس خاصّاً به ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، بل إنّ الإمام إذا كان خارج المسجد فإنّ على الْمُصَلّين إذا أُقِيمتِ الصّلاة أن لا يقوموا حتّى روه[1]. والله أعلم.

قصر الصّدقة في الْحبّ والتّمر على بلوغه خمسة أوسق:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ليس في حبّ ولا تمرٍ صدقة حتّى يبلغ خمسة أوسق»[2].

والقصر هنا للصّفة (وهي الصّدقة في الحبّ أو التّمر)؛ إذ التّقدير: لا صدقة في حَبّ ولا تمر على الموصوف(وهو ما بعد بلوغها خمسة أوسق) على سبيل القصر الإضافي التّحقيقيّ؛إذ التّقدير:لا صدقة في الحبّ والتّمر قبل بلوغها خمسة أوسف، وهذه هي الحقيقة، وهذا القصر من التّعيين؛لأنّه

(١) انظر: فتح الباري ٢/١٢٠، بزيادة تصرّفٍ.

(٢) رواه مسلم ٧/٥٢، وقوله: أوسق، جمع وسق، ـــ بفتح الواو ـــ (وهو الأَشْهَر) وكسرها، وهو ما يعادل ستّين صاعاً. انظر: شرح النّووي ٧/٤٩.

لا يظهر أنّ لدى المخاطبين علماً مسبقاً عن هذا الأمر. والله أعلم.

قصر أخذ الْمُضَحِّي من شعره أو ظفره على ما بعد تضحيته:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «مَن كان له ذبح يَذْبَحه فإذا أهلَّ هلال ذي الحجّة، فلا يأخذن من شعره، ولا من أظفاره شيئاً حتّى يُضَحِّي»[(١)].

في هذا الحديث قصر للصّفة (وهي الأخذ من الشّعر والأظفار لِمَنْ أراد أن يُضَحِّي) على الموصوف (وهو ما بعد التّضحية) على سبيل القصر الإضافي؛ إذ التّقدير: لا يأخذ من شعره، ولا من أظفاره في العشر على سبيل قصر التّعيين التّحقيقيّ. والله أعلم.

قصر الخوف بعد انتشار الإسلام على كونه من الله تعالى ثم من الذّئب على الغنم:

عند ما سُئِل النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ أن يدعو لِمَن لاقوا عنتاً من المشركين قال: «والله لَيُتِمّن الله هذا الأمر، حتّى يسير الرّكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله، والذّئب على غنمه، ولكنّكم تستعجلون»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم ١٣/١٣٩.

(٢) رواه البخاري ٦/٦١٩.

والمراد بصنعاء: قيل هي: صنعاء اليمن وبينها وبين حضرموت مسافة خمسة أيام، ويحتمل: أنّ المراد بها صنعاء الشّام والمسافة بينهما بعيدة جدّاً، ولكن ابن حجر =

يخبر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بما سيؤول إليه أمر هذا الدّين، وأنّه سينتشر الأمن، على أرض الجزيرة وما حولها، وقد عبّر عن ذلك بأسلوبٍ قصريٍّ، حيث قصر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ خوف الإنسان بعد ما ينتشر الإسلام على الموصوف وهو الله سبحانه وتعالى، والذّئب على الغنم على سبيل القصر الإضافي؛ إذ المقصود: إنّه لا يخاف النّاس، وهو من قصر التّعيين، لخلوّ أذهان الصّحابة من هذا الأمر.

وهو من التّحقيقيّ لتحقّق ذلك في عهد ازدهار الدّولة الإسلامية. والله أعلم.

قصر صوم يوم الجمعة على اقترانه بما قبله أو بما بعده:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يصوم أحدكم يوم الجمعة إلاّ يوماً قبله أو يوماً بعده»[1].

= رجّح الأوّل. انظر: فتح الباري ٦/٦٢٠.

أمّا قوله: الذّئب ـــ فيرى بعض العلماء أنّه معطوف على المستثنى منه، أي: كأنّ المعنى: لا يخاف أحداً، حتّى الذّئب على غنمه، ولكن قيل: إنّ هذا لا يحدث إلاّ في آخر الزّمان، عند نزول عيسى ـــ عليه السّلام ـــ.

ويرى بعض العلماء: أنّه معطوف على المستثنى، وأنّ الخوف مقصور على الله والذّئب. والتّقدير: ولا يخاف إلاّ الذّئب على غنمه.

انظر: فتح الباري ٧/١٦٧، وأنا أرجّح القول الثّاني. والله أعلم.

(١) رواه البخاري ٤/٢٣٢، وفي هذه الرّواية بلفظ النّفي، والمراد به: النّهي. انظر: فتح الباري ٤/٢٣٢.

وفي مسلم: ((لا يصوم أحدكم يوم الجمعة إلاّ أن يصوم قبله، أو يصوم بعده))[(١)].

والرّواية الأولى فيها حذف الفعل؛ إذ لا يصلح استثناء (يوماً) من يوم الجمعة[(٢)]. والتّقدير هو ما جاء في رواية مسلم؛ إلاّ أن يصوم قبله أو يصوم بعده.

وفي هذا الحديث قصر للصّفة (وهي صيام يوم الجمعة) على الموصوف (وهو كونه مع صوم يوم قبله، أو بعده) على سبيل القصر الإضافي؛ لأنّ المنفي هو: لا يصوم أحدكم يوم الجمعة مُنْفَرِداً، وهذا القصر (كما يظهر لي) من التّحقيقيّ؛ لأنّ هذا الأمر يراد تحقّقه دائماً، وهذا لا يتعارض مع كون النّهي هنا للكراهة كما يرى الجمهور[(٣)].

والحكمة من هذا القصر كما يراها النّووي هي أن يوم الجمعة يوم دعاء، وذكر، وعبادةٍ، من الغسل، والتّبكير إلى الصّلاة، وانتظارها، واستماع الخطبة، وإكثار الذّكر بعدها، لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠]، إلى غير ذلك من العبادات في هذا اليوم لذلك استحبّ الفطر فيه، حتّى يكون أعون له على هذه الفضائل.

---

(١) رواه مسلم ٨/١٨.

(٢) انظر: عمدة القارئ ١١/١٠٦.

(٣) انظر: فتح الباري ٤/٢٣٤.

فإن قيل: لو كان كذلك، لم يزل النّهي والكراهة، بصوم يوم قبله أو بعده، لبقاء المعنى.

فالجواب أن يحصل بفضل الصّوم معه ما يجبر ما قد يحصل من قصورٍ أو فُتورٍ(١).

ثم يقول النّووي: «وقيل: سببه خوف المبالغة في تعظيمه بحيث يُفتتن به كما افتتن قومٌ بالسّبت، وهذا ضعيف منتقض بصلاة الجمعة وغيرها مما هو مشهرو من وظائف يوم الجمعة وتعظيمه»(٢).

لكنّه في رأيي أنّ الحكمة التي رآها النّووي ـــ رحمه الله ـــ قبل هذا القول لا تصلح هنا، وإنّما تصلح لو كان هذا النّهي عن صوم الجمعة مطلقاً بغير استثناء. صحيح أنّ الفطر في يوم الجمعة أفضل من الصّيام، وذلك حتى يتزوَّد الإنسان من فضائل هذا اليوم لكن هل الحكمة من صوم يوم قبله أو بعده هي لجبر ما قد يحصل في هذا اليوم من تقصير؟ هذا ما لا أراه؛ لأنّ كونها تجبر ما قد يحدث من تقصيرٍ، فالتّقصير لا يجبر إلاّ إذا حصل، وإذا حصل فيما هو واجبٌ، أمّا إذا حصل فيما هو مندوب أو مستحبّ فلا يُجبر. والتّقصير هنا لم يحصل فكيف تُوضَع الجبارة على عظمٍ لم يكسر!

ثم كيف يكون الصّوم لجبر ما قد يحدث من تكاسل عن الذّكر

---

(١) انظر: شرح النّووي ١٩/٨.

(٢) انظر: شرح النّووي ١٩/٨.

والدّعاء إذا كانت مشقة الصّوم ــ ليس ليومٍ واحدٍ بل ليومين ــ هي التي أوقعت الإنسان في التّكاسل عن التّكبير إلى الصّلاة وعن الإكثار من الذّكر... الخ!

لذلك فالقول الذي نفاه النّووي هو أقرب إلى الحكمة ــ في نظري ــ أو أنّ الحكمة من هذا الحصر هي أنّه قد جاء ليمنع النّاس من صيام يوم الجمعة أصلاً، لكن هذا المنع جاء بطريق غير مباشرة. وذلك أنّ مَن أراد صيام يوم الجمعة إذا لم يجد إلاّ هذا الخيار فإنّه سيترك صيامه، وهذا ما يُريده الشّرع وبهذا يمكننا القول: إنّ المراد بهذا القصر التّضييق على مَن يريد صيام يوم الجمعة، إذ لم يُترك له إلاّ حلٌّ واحد، وهو أن يصوم يوم قبله أو يوماً بعده، ومن هنا تظهر حكمة الشّارع سبحانه، فلو سمح بإفراد يوم الجمعة بالصّوم مع ما له من فضائل أخرى كثيرة؛ لأكثر النّاس من صومه وربّما غالوا في صيامه، والتّبتّل فيه، وأهملوا غيره، بل لربّما اعتقد النّاس وجوب صومه إذا تقادم بهم الزّمان، لذلك ما أراد النّبي ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، أن تصل المفاضلة بين يوم الجمعة، وغيره إلى هذا الحدّ.

ثم إنّنا إذا تأمّلنا أيّام الأسبوع نجد أنّ الشّارع سبحانه قد فضّل الاثنين والخميس بصوم التّطوّع، وجعل يوم الجمعة يوم ذكرٍ وصلاةٍ ودعاء، بل إنّه أخفى فيه ساعة يُستجاب فيها الدُّعاء، وذلك لكي يستمرّ الإنسان في ذكره ودعائه طوال يوم الجمعة، وهذا في الحقيقة توازن عجيب بين الأيّام لا يحسن الإخلال به، كذلك إذا نظرنا في يوم الجمعة وجدناه أشبه بِعِيدٍ صغيرٍ في نهاية الأسبوع وأيّام الأعياد (كما هو

معروف) لا يجوز تخصيصها بصومٍ، ويوم الجمعة يشبه إلى حدّ كبيرٍ أيّام الأعياد، ففيه يجتمع المسلمون ليتفقّد بعضهم بعضاً، ويؤدّون الصّلاة جميعاً، وفيه خطبة تحثّهم على الخير وتنهاهم عن الشرّ، فلا يحسن إذن صيام هذا اليوم ليتأتى للإنسان فعل كلّ ما هو مطلوب منه في هذا اليوم. والله أعلم.

المبحث الثّالث: قصر بعض الجمل على بعض

(نوع خاصّ من القصر بالنّفي والاستثناء)

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل: الشّواهد الخاصّة بأعمال الْخير

المطلب الثّاني: الشّواهد الخاصّة بأعمال الشّرّ

المطلب الثّالث: معانٍ متفرّقة ورد فيها قصر الجمل

إنّه بعد أن جمعت شواهد القصر من الصّحيحين، وجئت لتصنيف كلٍّ منها في بابه، عَرَضَتْ لي شواهد بها أدوات النّفي والاستثناء وفيها معنى القصر، لكنْ ثَمّة اختلافاً بينها وبين أنواع النَّفي والاستثناء التي ذكرها في الجانب النّظري. إذ أنّك لا تجد في هذه الشّواهد مستثنى منه، ولا صفة، ولا موصوفاً، وعند ما تأمّلت السَّبب في ذلك وجدت أنّ شواهد القصر العاديّة بالنّفي والاستثناء يكون فيها القصر جارياً بين أجزاء الجملة الواحدة، كقصر المبتدأ على الخبر مثل: ما زيد إلاّ قائم، فهذا من قصر الموصوف (زيد) على الصّفة (قائم)؛ لأنّه يصحّ أن تقول: زيد قائم، لأنّ الْخَبر وصفٌ للمبتدأ في الأصل.

وكذلك الحال بالنّسبة للْجُمْلَة الفعليّة وما فيها من مُتَعَلِّقات، نحو: ما جاء إلاّ زيد، ونحو ذلك، هذا هو النّوع المعروف من القصر والذي تحدث عنه البلاغيّون كثيراً، وأمثلتهم كلّها ــ التي في كُتُبِهم ــ عن هذا النّوع من القصر.

أمّا القصر الذي نحن بصدده فإنّه ليس بين أجزاء الجملة الواحدة، بل يكون بين جملَتَين أو كلامَيْن، وبهذا فلا موصوف ولا صفة فيه؛ إذ لم نعرف أنّ هناك جملةً يمكن أن تكون وصفاً لجملةٍ أخرى، وإنّما الجملة إذا بُنِيَتْ كانت لمعنًى مستقلٍ عن معنى الجملة الأولى، نعم، قد ترتبطان بروابط كأدوات الشّرط أو أدوات العطف ونحوها. لكن تبقى كلّ جملة مستقلّة.

ولتوضيح ما قلته أذكر شاهداً من الحديث يقول النَّبِيّ ــ صلّى الله

عليه وسلّم ــ: «لا يسمع بِيَ أحدٌ من هذه الأمّة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت و لم يؤمن بالذي أُرسلت به إلاّ كان من أصحاب النّار»[١].

ففي هذا الحديث نفي واستثناء، أمّا الأمر الْمَنْفِي فهو جملة، أو جمل مستقلّة، وهي: «يسمع بِيَ أحدٌ من هذه الأمّة يهوديّ، ولا نصرانيّ، ثم يموت و لم يؤمن بالذي أُرسلت به»، وأمّا المستثنى فهو جملة: «كان من أصحاب النّار».

فهل يُمْكن أن تكون أيّ من هذه الجمل وصفاً للأخرى؟! أو تكون إحداهما مستخرجة من الأخرى؟

إنّ النّفي عندما جاء لم ينف الفاعل، أو الفعل، أو الجار والمجرور وغيرها، وإنّما نفى كلّ ذلك، أي: نفى صحّة الكلام كلّه، ثم استثنى بعد ذلك كلاماً آخر.

وإذا تأمّلنا الكلام قبل أداة الاستثناء وجدناه صالحاً لأن يكون جملة شرطٍ، وما بعد الاستثناء جملة جواب لهذا الشّرط، بحيث إنّنا لو حذفنا النّفي والاستثناء وأتينا بحرف شرطٍ لاستقام المعنى، فلو قُلْنا ــ غير الحديث ــ: مَن يسمع بِيَ من هذه الأمّة و لم يؤمن بالذي أُرسلت به يكون من أصحاب النّار، لكان المعنى سَلِيماً. لكن ينقص معنى القصر، هذا ولو حاولنا تأويل مثل هذا الشّاهد على أساس صفةٍ وموصوفٍ لما تُؤوِّل ولشقّ علينا ذلك بل لربّما ضاع المعنى أصلاً لهذا كلّه فسأجعل هذا

---

(١) رواه مسلم ١٨٦/٢.

النّوع من الشّواهد في قسمٍ خاصٍّ خالصٍ من التّأويلات الكثيرات، إدراكاً منّي لحقيقة هامّة وهي أنّ أساليب اللّغة مختلفة وليست كلّها تصلح لأن تصبّ في قالبٍ واحدٍ، كما أنّ الإنسان صاحب هذه اللّغة لا يمكن أن يحبس في مكانٍ واحدٍ طول دهره! هذا ما أراه ولعلّي أكون قد أصبت في اجتهادي والموضوع قابل لزيادةٍ من الاجتهادات، لتوضيح أبعاده، أو حتّى لتصحيح مسار نظرتي هذه. والله أعلم.

وبعد هذه المقدّمة يأتي العرض لتلك الشّواهد:

قصر جملة فيها شرط لعملٍ ما على جملةٍ فيها جزاء ذلك العمل:

بعد ما جمعت شواهد هذا النّوع من القصر بمفردها، رأيت أنّ هناك عدداً منها يصلح أن نجعله تحت عنوانٍ واحدٍ، وذلك لأنّ القصر فيها تَكَوَّن من جملتين: جملة تفيد معنى الشّرط والأخرى تفيد معنى الجزاء، بدليلٍ أنّك تستطيع أن تحذف النّفي والاستثناء وتأتي بحرف الشّرط (مَن) فتربط به الجملتين ويكون المعنى صحيحاً، وموافقاً للمعنى الذي جاء من أجله الحديث.

المطلب الأوّل: الشّواهد الخاصّة بأعمال الْخير:

قصر جملةٍ: يكلم أحدٌ في سبيل الله...الخ، على جملةٍ: جاء يوم القيامة اللّون لون الدّم والرّيح ريح المسك:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «والذي نفسي بيده، لا يكلم أحدٌ في سبيل الله ـــ والله أعلم بِمَن يكلم في سبيله ـــ إلاّ جاء يوم القيامة، واللّون لون الدّم والرّيح ريح المسك»(١).

إنّ مَن يكلم في سبيل الله سيأتي يوم القيامة وجرحه ينْزف دماً، لكنَّ رائحة ذلك الدّم تتحوّل إلى مسكٍ، يعطر مشهد القيامة وما ذلك إلاّ شاهد له على فضل بذل نفسه في طاعة الله تعالى(٢).

وإذا ما نظرنا في أسلوب الحديث، وجدناه قد بُنِيَ على القسم الذي هو أعلى درجات التّأكيد، حتى لا يكون هناك أدنى شكّ لأحد في هذا الكلام.

ثم جاء بعده أسلوب القصر، وهذا القصر من قصر جملة الشّرط على جملة الجزاء؛ إذ لو حذفنا النّفي والاستثناء وجعلنا بدلاً منه اسم الشّرط (مَنْ) لاستقام المعنى، نحو: مَن يكلم في سبيل الله يجيء يوم القيامة اللّون لون الدّم، والرّيح ريح المسك، ولكنّا لم نرَ في الحديث أسلوب الشّرط وإنّما رأينا أسلوب القصر، وكأنّ الشّرط معروفٌ لدى الْجَمِيعُ أنّ مَن يكلم في سبيل الله يكون جزاؤه يوم القيامة هذا الذي ذكر في الحديث، ولكن هناك أمراً بلاغيّاً

---

(١) رواه البخاري ٦/٢٠، ومسلم ١٣/٢١.

(٢) انظر: شرح النّووي ١٣/٢١.

جاء القَصر من أجله وهو: زيادة توكيد للمعنى السّابق بمعنىً أنّ مَن جُرِح أو قتل في الدّنيا، ولم يأت يوم القيامة على الهيئة المذكورة في الحديث، فَسَيَعْلم النّاس حينها أنّ هذا المقاتل لم يقاتل ابتغاء وجه الله، وإنّما قاتل لغرض آخر.

لعلك تلحظ أن هذا القصر لا يصلح أن يكون إضافيّا كما لا يصلح أن نقول إنه من قصر صفة على موصوف أو موصوف على صفة لأنه قصر فعل على فعل.

هذا وفي قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ اللّون لون الدّم، والرّيح ريح المسك تشبيهان بليغان، ووجه الشّبه في الأوّل الإحمرار، ووجه الشّبه في الثّاني طيب الرّائحة(١).

قصر جملة: تواضع أحدٍ لله، على جملة: رفعه الله:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما نقصت صدقة من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزا، وما تواضع أحدٌ لله إلاّ رفعه...»(٢).

لقد أوجز هذا الحديث في كلماتٍ معدودات، أمّا معانية فلا تكاد تحصر، ولكنّي لن أتحدّث هنا إلاّ عما يَخُصّ القصر منها، ولقد اجتمع في هذا الحديث القصر في داخل الجملة الواحدة، والقصر للجملة على الجملة فعسى باجتماعهما، يظهر الفرق بينهما! ففي الجملة القصريّة الأولى رَبَط النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بين العفو وبين العِزّ برباط قصريّ،

---

(١) انظر: من كنوز السّنة للصّابوني، ص: ١٧٢.

(٢) رواه مسلم ١٤١/١٦.

قصرت فيه الصّفة وهي زيادة ثواب المتسامح العافي، على العزّة دون غيرها، ومن الملاحظ أنّ المقصور هو الزّيادة على ثواب الذي يعفو وليس الثّواب نفسه، وكأنّ الثّواب حاصل ومعلوم ولكن الزّيادة على الثّواب وهي العزّة فغير معلومة.

أمّا الجملة الثّانية: فتختلف عن هذه العبارة في التّركيب وإن كانت توافقها في المعنى الْعَام، ففيها ربط بين التّواضع، ورفعه الشّأن والقصر هنا لجملة تواضع أحد لله، على جملة (رفعه الله) وكلّ جملةٍ مستقلّة عن الأخرى لا يصحّ أن تكون واحدة موصوفاً والأخرى صفةً لها.

وللقصر هُنَا زيادة معنى إذ يَدُلّ على اطراد التّلازم بين هاتين الجملتين، في كلّ حينٍ وفي كلّ حالٍ. والله أعلم.

قصر جملة: يتوضّأ رجل... الخ على جملةٍ: غفر له... الخ:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يتوضّأ رجلٌ يحسن وضوؤه، ويصلّي الصّلاة إلاّ غفر له ما بينه وبين الصّلاة حتّى يصلّيها»(١).

في هذا الحديث نرى قصر جملة «يتوضّأ رجلٍ يحسن وضوؤه ويصلّي الصّلاة» على جملة: «غفر له ما بينه وبين الصّلاة حتّى يصلّيها»، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، فالْمُثبت هُنا هو الرّبط بين هذا العمل وهذا الجزاء والمنفي هو افتراق هذا العمل عن جزائه.

هذا وقد أشكلت هذه العبارة على الإمام العيني حيث أراد تخريجها بتكلّف فجاء بكلامٍ لا يكاد يفهم حيث قال: «فالمستثنى محذوف؛ لأنّ

(١) رواه البخاري ١/٢٦١، ومسلم ٣/١١١.

الفعل لا يقع مستثنى، والتّقدير: لا يتوضّأ رجل في حالٍ إلاّ في حال المغفرة، فيكون الاستثناء من أعمّ عامّ»[(١)].

ولكنّي أرى أنّ ما لا يحتاج إلى تقديرٍ أسلم، وكثرة التّأويل إذا كانت قبيحة في كلام البشر العاديّين، فإنّها في كلام النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أقبح؛ لأنّها قد تخرج الحديث عن معناه في بعض الأحيان، فيقع الإنسان في الإثم ــ والعياذ بالله ــ.

قصر جملة: تحضر مسلماً صلاة مكتوبة... الخ على جملة: كانت كفارة لما قبلها... الخ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما من مسلمٍ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها، وخشوعها، وركوعها إلاّ كانت كفّارةً لما قبلها من الذّنوب وذلك الدّهر كله»[(٢)].

فالقصر أفاد التّرابط بين هذا العمل وبين الجزاء بلا انقطاع، وقد أكّده النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بقوله: «وذلك الدّهر كلّه»، فهل يبقى بعد كلّ هذا التّأكيد مَن يشكّ في هذا أو مَن يتهاون في أداء هذه الصّلوات إلاّ مَن شكّ في هذا الجزاء العظيم؟!

قصر جملة: يَغْتَسِل رجل يوم الجمعة... الخ على جملة: غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يغتسل رجلٌ يوم

---

(١) انظر: عمدة القارئ ٣/١٣.

(٢) رواه مسلم ٣/١١٢.

الجمعة فيتطهّر ما استطاع من طهورٍ ويدّهن من دُهْنٍ، فيمسّ من طيب بيته، ثم يخرج فَلا يفرّق بين اثنين، ثم يصلّي ما كُتِب له ثم يُنْصتُ إذا تكلّم الإمام إلاّ غُفِر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»[١].

فالمقصور هنا عدّة جمل: يغتسل، ويتطهّر، ويدهن، ويمسّ، ويخرج، ويصلّي وينصت، والجزاء هو جملة غُفِرَ له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، فهل هنا يصلح أن نقدّر صفة وموصوفاً، وكيف نختصر كلّ هذه الجمل؟!

قصر جملة: يسمع صوت المؤمن... الخ على جملة: شهد له يوم القيامة:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلاّ شهد له يوم القيامة»[٢].

في هذا القصر زيادة توكيدٌ على فضل الأذان، فكلّ سامعٍ له من الْخلق سَيُدلي بشهادته أمام الله يوم القيامة لا ريب في ذلك، وفي هذا حثّ شديد على التّأذين ورفع صوت الحقّ عالياً، في أيّ مكانٍ سواء به إنس أو ليس به أحدٌ. والله أعلم.

---

(١) روه البخاري ٢/٣٧٠.

(٢) رواه البخاري ٢/٨٨.

ومعنى مدى صوته، أي: غايته فإذا شهد له مَنْ بَعُدَ عنه شهد له القريب.

انظر: الفتح ٢/٨٨.

قصر جملة: يتوضّأ من مسلم...الخ على جملة: وجبت له الجنة:

وقال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ما من مسلمٍ يتوضّأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلّي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه، ووجه إلاّ وجبت له الجنة...»(١).

وهذا يدلّ على فضل الصّلاة، وأنّ مَن يؤدّيها على وجهِهَا تَحِقُّ له الجنّة، وهنا نلاحظ أنّه قد جعل ثواب الصّلاة، دخول الجنّة، كما جاءت الجنّة كذلك جزاء للصّائمين، وجزاء لأهل الحجّ المبرور كما تقدّم ذلك. وذلك يدلّ على فضل هذه العبادات، فهي لا شكّ من أركان الإسلام العظيمة.

قصر جملة: يتوضّأ منكم من أحدٍ...الخ على جملة: فتحت له أبواب الجنة الثّمانية

وقال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ما منكم من أحدٍ يتوضّأ فيبلغ، أو يسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، إلاّ فتحت له أبواب الجنة الثّمانية يدخل من أيّها شاء...»(٢).

وهُنا فتحت أبواب الجنة الثّمانية وذلك بمُجرّد أن المصلّي يستعدّ للصّلاة ويتطهّر، ويذكر الله بهذا الذّكر، فإنّ كَلّ مَن فعل ذلك سوف تفتح له أبواب الجنة، وذلك فضل من الله كبير، يدلّ على عظم فضل الصّلاة، وفضل الطّهارة. والله أعلم.

قصر جملة: يصلّي لله من مسلم... الخ، على جملة: بنى الله له بها بيتاً في الجنة:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ما من مسلمٍ يصلّي

---

(١) رواه مسلم ٣/١١٨.
(٢) رواه مسلم ٣/١١٩.

لله كلّ يومٍ ثنتي عشرة ركعة تطوّعاً غير فريضة إلاّ بنى الله له بها بيتاً في الجنة»[١].

وفي هذا الحديث تأكيد على فضل التّنفّل فكلّما صلّى الإنسان هذا النّفل، كلّما بُنِي له بيت في الجنة، وكلّما زاد كلما زيد له في البناء، فهذه معادلة لا تَتَغَيّر وقانون لا يتبدّل رسخه القصر.

قصر جملة: يوافقها عبد مسلم... الخ على جملة: أعطاه الله إيّاه:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن يوم الجمعة: «فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ، وهو قائم يصلّي، يسأل الله تعالى شيئاً إلاّ أعطاه إيّاه»[٢].

وهذا يدلّ على ثبوت ساعةٍ يوم الجمعة، ثبوتاً قطعيّا، وإلاّ لما جعلت لها هذه المعادلة التي تَدُل استِمرارِيّتها وتكرُّرها في كلّ جمعة أبد الدّهر. ومن هنا نعرف أنّ قصر الجمل دائماً يدلّ على استمرار أي أمرٍ يأتي فيه. والله أعلم.

قصر جملة: رجل مسلم... الخ على جملة: أعطاه إيّاه:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّ في اللّيل ساعةً لا يوافقها رجلٌ مسلمٌ، يسأل الله خيراً من أمر الدّنيا والآخرة، إلاّ أعطاه إيّاه، وذلك في كلّ ليلةٍ»[٣].

---

(١) رواه مسلم ٦/٧.

(٢) رواه البخاري ٢/٤١٥، ومسلم ٦/١٣٩.

(٣) رواه مسلم ٦/٣٦.

وهذه السّاعة مثل السّاعة قبلها، وقد أكّد النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ المعنى أكثر عند ما قال: ((وذلك في كلّ ليلةٍ))، ليدلّ على دوام فضل الله تعالى. والله أعلم.

قصر جملة: تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله، على جملة: أجرت عليها:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لسعد بن أبي وقاص: ((إنّك لَنْ تُنْفق نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلاّ أجرت عليها...))(١).

أراد النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أن يُطَمْئِنَ سعداً بأنّ هناك قاعدةً ثابتةً للإنفاق في سبيل الله، وأنّه مَهْمَا أنفق الإنسان فإنّ الله سيأجره على ما أنفق، ولن يضيع من هذه النّفقة شيئاً مَهْما قلّ، وما على الإنسان إلاّ أن يزيد في الإنفاق ليزداد له الأجر الموعود. والله أعلم.

قصر جملة: ينفق الْمُنْفق على جملة: سبغت جبته... (وصورة أخرى):

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((مثل الْبَخيل والْمُنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديدٍ من ثُديهما إلى تراقيهما، فأما الْمُنْفِق فلا ينفق إلا سبغت أو وَفَرَت على جلْده، حتى تخفى بنانه، وتُغَطّي أثره، وأمّا الْبَخيل فَلا يريد أن ينفق شيئاً إلاّ لَزِقَتْ كلّ حلقة مَكَانَها فهُو يوسِعها فلا تتّسع))(٢).

---

(١) رواه البخاري ١/١٣٦، ومسلم ١١/٧٧.

(٢) رواه البخاري ٣/٣٠٥.

والمعنى: أنّ الصّدقة تَستُر على المرء عيوبه كما تُغَطّي فضلةَ الثّوب أثر صاحبها =

المراد من الحديث أنّ الجواد إذا همَّ بالصَّدَقَة انْفَسَخ لها صدره وطابت نفسه فَتَوَسَّعت في الإنفاق، والْبَخيل إذا حَدَّثَ نَفْسَه بالصَّدَقة شَحَّتْ نَفْسُه، وضاق صدره وانقبضت يداه(١).

قصر جملة: يَلْقَى الله بهما عبدٌ... الخ على جملة: دخل الجنّة:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّي رسول الله لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلاّ دخل الجنّة))(٢).

هذا هو فضل الرّكن الأوّل من أركان الإسلام، وهو التّصديق بالشّهادتين، حيث جعل الله لذلك ناموساً، في أحد طرفيه الشّهادتان، وفي الآخر الجنّة، كما جاء مثل ذلك في فصل الصّلاة، والصّيام، والحجّ. وهذا يدلّ على عظم أركان الإسلام، حتّى وكأنّ العمل بواحدٍ منها فقط، يؤهل صاحبه للجنّة فهذه خاصية عجيبة ندركها من خلال هذه الجمل القصريّة.

قصر جملة:أحد يشهد بالشّهادتين...الخ على جملة:حرّمه الله على النّار:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً رسول الله صدقاً من قلبه إلاّ حرّمه الله على

= على الأرض. انظر: فتح الباري ٣/٣٠٦.

(١) انظر: فتح الباري ٣/٣٠٦.

(٢) رواه مسلم ١/٢٢٤.

النّار))[(١)].

وهذا تأكيد أكثر على دخول الجنّة، حيث إنّ هذا الشّاهد القصريّ، يقوِّي الذي قبله ويؤكّده، تأكيداً قاطعاً، وهو يدلّ على عِظَم فضل الشّهادتين فما رأينا شيئاً أُكِّدَ فضله بمثل ما أكّد فضل الشّهادتين اللّتين هما الرّكن الأوّل من أركان الإسلام.

قصر جملة: يبسط أحد ثوبه... الخ على جملة: وعى ما أقول:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ (في حديث حَدَّثه): ((إنّه لن يبسط أحدٌ ثوبه، حتّى أقضي مقالتي هذه، ثم يجمع ثوبه إلاّ وعى ما أقول))[(٢)].

وعد صادق من النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لأصحابه بأنّ مَن يبسط ثوبه حتّى ينهى المقالة كان حافظاً لَهَا، وهذه معجزةٌ من معجزاته ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ودليلٌ قوّيٌّ على فضله وبركته. والله أعلم.

قصر جملة: يعمل عامل بخصلةٍ منها... الخل على جملة: أدخله الله الجنّة:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((أربعون خصلة أعلاهُنّ منيحة العَنْز، ما من عاملٍ يعمل بخصلةٍ منها، رجاء ثوابها وتصديق موعدها إلاّ أدخله الله الجنّة))[(٣)].

---

(١) رواه البخاري ١/٢٢٦.

(٢) رواه البخاري ٤/٢٨٨.

(٣) رواه البخاري ٥/٢٤٣.

وهكذا نرى أنّ الْجَنّة قد جُعلت في معادلاتٍ كثيرةٍ نرى في طرفها الأوّل عملاً من أعمال الْخير، وفي الطّرف الثّاني الْجنّة بذاها، وما أظنّ هناك من عملٍ تجعل الجنة ثواباً له إلاّ وهو من أفضل الأعمال، وقد أراد النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أن يَلْفِت نظر المؤمنين إلى أنّ هناك أعمالاً قد يحقرها النّاس هي عند الله عظيمةٌ كمنيحة العَنْز فما دون. لذلك جُعِل لها هذا القانون.

قصر جملة: تخلفُ فتعمل صالحاً، على جملة: ازددت به درجة:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لسعد بن أبي وقاص: ((إنّك لن تُخلّف فتعمل صالحاً إلاّ ازددت به درجة ورفعةً...))(١).

إنّ المراد بقوله: ((تُخَلّف)) أي: تبقى في الحياة بعد موت جماعةٍ من أصحابك، وفي هذا الحديث دليلٌ على فضيلة طول العمر، للازدياد من العمل الصّالح، وفيه الحثّ على الإخلاص في العمل(٢).

قصر جملة: يدعو مسلم لأخيه بظهر الغيب على جملة: قال الْمَلك: ولك بِمثل:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ما من مسلمٍ يدعو لأخيه بظهر الغيب إلاّ قال الْمَلك: ولك بِمثل))(٣).

في هذا فضل دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب، ولو دعا لجماعةٍ من

---

(١) رواه البخاري ٣/١٦٤، ومسلم ١١/٧٨.

(٢) انظر: شرح النّووي ١١/٧٨.

(٣) رواه مسلم ١٧/٤٩.

المسلمين حصلت هذه الفضيلة، وكان بَعض السّلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدّعوة، لأنّها تستجاب ويحصل له مثلها[١].

هذا ولعلّ الحكمة من ذلك هي تطهير القلوب من الحسد الذي هو تَمَنِّي زوال النّعمة عن الْغَير، فهذا الفعل بعكس ذلك الفعل، ففيه تَمَنِّي الْخير للغير. والله أعلم.

قصر جملة: تصيب المسلم مصيبة...الخ، على جملة: أخلفه الله خيراً منها:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ما من مسلمٍ تصيبه مصيبةٌ، فيقول ما أمره الله: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهم أجرِني في مصيبتِي، واخلف لي خيراً منها). إلاّ أخلف الله له خيراً منها))[٢].

في هذا الحديث فضيلة هذا القول عند المصائب[٣]، وهذا الفضل وعد من الله على لسان نَبِيِّه-صلّى الله عليه وسلّم-ولن يخلف الله الميعاد.

قصر جملة: يَصبِر أحدٌ على لأوائها... الخ على جملة: كنتُ له شفيعاً يوم القيامة:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن فضل المدينة: ((لا يَصْبِرُ أحدٌ على لأوائها، فيموت إلاّ كنتُ له شفيعاً، أو شهيداً يوم

---

(١) انظر: شرح النّووي ١٧/٤٩.

(٢) رواه مسلم ٦/٢٢٠.

(٣) انظر: شرح النّووي ٦/٢٢٠.

القيامة، إذا كان مسلماً...))[١].

قيل المراد: شفيعاً للعاصين وشهيداً للمطيعين، وقيل: شهيداً لبعض وشفيعاً لبعض[٢]. والأوّل أولى، وهو بشرى تدلّ على فضيلة الصَّبر على لأواء المدينة.

قصر جملة: يُتَوَفَّى لمسلم ثلاثةٌ من الولد... الخ، على جملة: أدخله الله الْجَنَّة:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ما من النّاس مسلمٌ يتوفّى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث، إلاّ أدخله الله الْجَنّة))[٣].

هذا تأكيدٌ على عِظَم ثواب مَن فَقَد ثلاثةً من ولده قبل أن يبلغوا الْحِنْث حيث جعلت الجنة بعظمها في مقابل ذلك الأمر، وفي هذا الحديث أيضاً عزاء عظيم لِمَن فقد بعض ولده.

قصر جملة: تُقدِّم امرأة منكن ثلاثةً من ولدها، على جملة: كان لها حجاباً من النّار:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ للنّساء: ((ما منكن امرأةٌ تُقَدِّمُ ثلاثةً من ولدها إلاّ كان لها حجاباً من النّار))[٤].

---

(١) رواه مسلم ٩/١٤٩.
والّلأواء: الشّدّة أو القحط. انظر: لسان اللسان ١٥/٢٣٨، مادة لأى.

(٢) انظر: شرح النّووي ٩/١٣٧.

(٣) رواه البخاري ٣/١١٨.
والمراد بالْحِنْث: الذّنب وعبّر به عن الْبُلوغ؛ لأنّ الإنسان يؤاخذ بما ارتكبه فيه بخلاف ما قبله. انظر: التح ٣/١٢٠.

(٤) رواه البخاري ١/١٩٥.

هذا الحديث تأكيد للحديث السّابق ـــ ولكن في الحديث السّابق جُعل الثّواب الْجَنَّة، أمّا في هذا الحديث فجعل الثّواب الْحجب من النّار، ولعلّ الحكمة من هذا الاختلاف، أن الخطاب الأوّل كان مُوَجَّهاً إلى الرّجال، وهم أكثر أهل الْجَنّة، وهنا كان الحديث مُوَجَّهاً للنّساء وهم أكثر أهل النّار،فناسب ذكر الجنّة هناك،وذكر الحجاب من النّار هنا.والله أعلم.

قصر جملة: يُشاك مسلم شوكةً، على جملة: كتب له بها درجة... الخ:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ما من مسلمٍ يشاك شوكةً إلاّ كُتِبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة))(١).

في هذا الحديث وما بعده بشارةٌ عظيمةٌ للمسلمين، ففيه تكفير للذّنوب بالأمراض والأسقام، وكلّ ما يصيب المؤمن من أذىً، وفيها رفع الدّرجات بهذه الأمور، وهذا هو القول الصّحيح الذي عليه جماهير العلماء(٢).

قصر جملة: يصاب المسلمُ بمصيبةٍ، على جملة: كُفِّر بها عنه:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ما من مُصيبةٍ يصابُ بها المسلمُ، إلاّ كُفِّر بها عنه))(٣).

وهذا بمثل معنى الحديث السّابق. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم ١٦/١٢٨.

(٢) انظر: شرح النّووي ١٦/١٢٨.

(٣) رواه مسلم ١٦/١٣٠.

قصر جملة: يقع الطّاعون في بلد مسلم... على جملة: كان له مثل أجر الشّهيد:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((... فليس من عبدٍ يقع الطّاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم أنّه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له، إلاّ كان له مثل أجر الشّهيد))(١).

في هذا الحديث عبارتات قصريّتان؛ إحداهما في داخل الأخرى:

أمّا الكبرى فهي من قصر الْجُمَل حيث قصرت جملة: يكون من عبدٍ... الخ على جملة: كان له مثل أجر الشّهيد، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، لكن هذا الثّواب مشروط بشرطٍ آخر في الجملة القصريّة الأخرى. وهو أن يقصر ذلك العبد إيمانه بما يصيبه على ما كتبه الله عليه، ولذلك يرى ابن احجر: ((أنّه لو مكثَ قَلِقاً مَتَندِّماً، على عدم الْخُروج، ظانّاً أنّه لو خرج لما وقع به الطّاعون، لم يكن له أجر الشّهيد حتّى لو مات بالطّاعون))(٢). والله أعلم.

قصر جملة: يصيب المسلمَ هَمٌّ أو نصبٌ،على جملة:كفر الله عنه خطاياه:

وقال رسول ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ما يصيب المسلمَ من نصبٍ ولا وصبٍ ولا هَمٍّ ولا حزنٍ ولا أذىً، ولا غمٌّ حتّى الشّوكة

---

(١) رواه البخاري ١٩٢/١٠.

(٢) انظر: فتح الباري ١٩٣/١٠.

يشاكّها إلاّ كفّر الله بها خطاياه))(١).

سبق الحديث عن مثل هذا الحديث.

قصر جملة: يصيب المسلمَ من أذى، على جملة؛: حات الله عنه خطاياه:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ما من مسلمٍ يصيبه أذىً إلاّ حاتَّ الله عنه خطاياه كما تحاتّ ورق الشّجر))(٢).

وهذا الشّاهد القصريّ كالشّاهد السّابق، وهو تأكيد له إلاّ أنّ فيه بياناً لكيفية تكفير الذّنوب، وقد شبَّه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ زوال هذه الذّنوب عن العبد بزوال الورق عن الشّجرة في فترة الشّتاء حتّى تَبْقَى الشّجرة عاريةً من الأوراق تماماً، وهكذا المسلم فهذه الأحاديث كلّها تدعو إلى الصَّبر على المصائب؛ لأنّ جزاء هذا الصّبر عظيمٌ، وكأنّ الحكمة من هذه المصائب هو تكفير الذّنوب عن العباد فحسب. والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري ١٠/١٠٣.

الْهَمُّ والنَّصب: أمراض الباطن، وأمّا النّصب والوصب فأمراض الظّاهر. ومعنى النّصب: التّعب. ومعنى الوصب: المرض. انظر: الفتح ١٠/١٠٦.

(٢) رواه البخاري ١٠/١١٠، ومسلم ٤١٦/١٢٧.

وفي مسلم: ((ما من مسلمٍ يصيبه أذىً من مرضٍ فما سواه إلاّ حطَّ الله به سيّئاته كما تحطّ الشّجرة أوراقها)).

قصر جملة: يموت من ميِّتٍ فيُصَلّى عليه، على جملة: شُفِّعُوا فيه:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ما من ميِّتٍ تُصَلِّي عليه أمّةٌ من المسلمين يبلغون مئة، كلّهم يشفّعون له إلاّ شُفِّعُوا فيه...))(١).

في هذا الحديث وعدٌ صادقٌ بشفاعة الْمُصلِّين للميِّت.

قصر جملة: يموت رجلٌ مسلمٌ، على جملة: أدخل الله مكانه يهودياً:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لا يموت رجلٌ مسلمٌ إلاّ أدخل الله مكانه النّار يهوديّاً أو نصرانيّاً))(٢).

في هذا الحديث دليلٌ على فضل هذه الأمّة. والله أعلم.

قصر جملة: يغرس مسلم غرساً... الخ على جملة: كان له به صدقة:

قال رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم-: ((ما من مسلمٍ يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلاّ كان له به صدقةٌ))(٣).

في هذا الحديث فضل الغرس والزّرع والحثّ على عمارة الأرض، وفيه فساد قول مَن أنكر ذلك من الْمُتَزَهِّدة(٤)، والقصر هنا زاد كلّ هذه المعاني تأكيداً وبياناً.

---

(١) رواه مسلم ١٧/٧.

(٢) رواه مسلم ٨٦/١٧.

(٣) رواه البخاري ٣/٥، ومسلم ٢١٣/١٠.

(٤) انظر: فتح الباري ٤/٥.

قصر جملة: تصدّق أحد بصدقةٍ... الخ، على جملة: أخذها الله بيمينه... الخ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما تصدّق أحدٌ بصدقةٍ من طَيِّبٍ ــ ولا يقبل الله إلاّ الطّيّب ــ إلاّ أخذها الله بيمينه، وإن كانت تمرةً فتربو في كفِّ الرّحمن، حتّى تكون أعظم من الجبل»[1].

وهنا يَحُثُّ النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على الصّدقة، فجاء بهذه المعادلة وجعل ثواب ذلك الْمُتَصَدِّق أن يقبل الله منه الصّدقة بيمينه، ويُرَبِّيها له حتّى تكون مثل الجبل فتثقل موازينه يوم القيامة، إذا وضعت فيها الجبال من الحسنات.

قصر جملة: يصوم عبد يوماً... الخ، على جملة: باعد الله بذلك وجهه عن النّار... الخ:

ما من عبدٍ يَصُومُ يوماً في سبيل الله إلاّ باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النّار سبعين خريفاً...»[2].

في هذا الحديث فضل صيام التّطوّع، حيث تبعد به المسافة عن النّار.

قصر جملة: اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله... الخ، على جملة: نَزَلَت عليهم السّكينة... الخ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما اجتمع قومٌ في

---

(١) رواه مسلم ٧/٩٨.

(٢) رواه مسلم ٨/٣٣.

ومعنى خريفاً، أي: سنة، والمراد: سبعين سنة. انظر: شرح النّووي ٨/٣٣.

بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السّكينة وغشيتهم الرّحمة، وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمَن عنده»[١].

في هذا دليلٌ على فضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد[٢]، حيث وَعد هؤلاء القوم بهذا الشّرف العظيم.

قصر جملة: يستر عبدٌ عبداً في الدّنيا، على جملة: ستره الله يوم القيامة:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يستر عبدٌ عبداً في الدّنيا إلاّ ستره الله يوم القيامة»[٣].

هذا وعدٌ من الله لِمَن ستر مسلماً، أن يجعل جزاءه من جنس عمله فيستره يوم القيامة، يوم يتمنّى كلّ إنسانٍ أن تستر عيوبه، وذنوبه، فيصدق كلّ مسلم وعد الله، ولا يتحدّث عن عيوب أحدٍ إلاّ بالقدر الذي أباحته الشّريعة، أي: عند ما تقتضي المصلحة العامّة ذلك، أمّا عدا ذلك فهو أحقّ بالسّتر.

---

(١) رواه مسلم ٢١/١٧.

(٢) انظر: شرح النّووي ٢١/١٧.

(٣) رواه مسلم ١٤٣/١٦.

المطلب الثّاني: الشّواهد الخاصّة بأعمال الشَّرِّ:

وهذه عقوبة فاعل الْمُحَرَّمات، فما إن يعملها حتّى تحلّ به العقوبة المذكورة في الحديث.

قصر جملة: يلي والٍ رعيةً... على جملة: حرّم الله عليه الجنة:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما من والٍ يَلِيَ رَعِيَّةً من المسلمين فيموت وهو غاشٍ لهم إلاّ حرّم الله عليه الجنة»[(١)].

ففي هذا تحريم غشّ الرّعية، وأنّ أيّ والٍ يفعل ذلك فسيُحرم من الجنة، وقد جُعِلَ النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هذا الفعلَ القبيحَ وعقوبتهُ في معادلةً قصريّةٍ ، تبقى مدى الدّهر، ولا تبديل لحكم الله.

قصر جملة:يكيد أهل المدينة أحد على جملة:انماع كما ينماع الملح في الماء:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يكيد أهل المدينة أحدٌ، إلاّ انماع كما ينماع الملح في الماء»[(٢)].

وهذا دليلٌ على فضل المدينة، وحراسة الله لها إلى الأبد، وأنّها ستبقى في أمان بإذن الله إلى يوم القيامة. والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري ١٣/١٢٧، ومسلم ٢/١٦٥.

(٢) رواه البخاري ٤/٩٤، ومسلم ٩/١٣٨، ومعنى: يكيد المدينة أي: يريد ها بسوء، أو يأتيها غفلة من أهلها.

قصر جملة:يدع المدينة أحدٌ رغبةً عنها،على جملة:أبدل الله فيها خيراً منه:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن المدينـــة ـــ: ((لا يدعها أحدٌ رغبةً عنها، إلاّ أبدل الله فيها مَن هو خير منه))(١).

وهذا من فضائل المدينة كذلك، ومعادلة أخرى في حقّ مَن يزهد فيها.

قصر جملة: يدعو رجلٍ امرأته لفراشها... الخ، على جملة: كان الذي في السَّماء ساخطاً عليها:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((والذي نفسي بيده، ما من رجلٍ يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه، إلاّ كان الذي في السَّماء ساخطاً عليها، حتّى يرضى عنها))(٢).

معنى الحديث: أنّ اللّعنة تستمرّ معها حتّى تزول عنها المعصـــية، بطلوع الفجر أو الاستغناء عنها أو بتوبتها(٣). والله أعلم.

قصر جملة: يعاديهم أحد... الخ على جملة: أكبّه الله في النّار:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّ هذا الأمر في قريشٍ لا يعاديهم أحدٌ إلاّ أكبّه الله على وجهه، ما أقاموا الدِّين))(٤).

---

(١) رواه مسلم ١٣٦/٩.

(٢) رواه مسلم ٨/١٠.

(٣) انظر: شرح النّووي ٨/١٠.

(٤) رواه البخاري ٥٣٣/٦، والمقصود بالأمر: خلافة المسلمين.

يرى بعض العلماء: أنّ شرط بقاء القاعدة السّابقة، هو إقامتهم للدّين؛ فإذا اختلّ كسرت هذه القاعدة، وتولى الأمر غيرهم، وقيل: المراد: إنّهم يبقون في الخلافة ولكن لا يُسْمع لهم. ولكن القول الأوّل أرجح في نظري. والله أعلم(١).

قصر جملة: ادّعى رجلٌ إلى غير أبيه... الخ على جملة: كَفَر بالله:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ليس من رجل ادّعى لغير أبيه، وهو يعلمه، إلاّ كَفَر بالله»(٢).

قيل: إنّ المراد بالكفر هنا كفر النّعمة أو أنّه فعل فعلاً يشبه فعل من كفر الله(٣).

وأيّاً ما كان المراد بالكفر هنا، فإنّ هذا الحديث يَدُلّ على تحريم الانتفاءمن النّسب المعروف والادّعاء إلى غيره(٤).وأنّ مَن سلك هذا الطّريق فإنّ النّهاية الوحيدة الحتميّة،هي الوقوع في الكفر والعياذ بالله.والله أعلم.

قصر جملة:يرمي رجلٌ رجلاً بالفسق...الخ على جملة:ارتدّت ليه...الخ:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يَرْمِي رجلٌ رجلاً

---

(١) انظر: فتح الباري ١٣/١١٦، بتصرّفٍ كبيرٍ، وزيادة للتّوضيح.

(٢) رواه البخاري ٦/٥٣٩، ومسلم ٢/٩٤.

(٣) انظر: فتح الباري ٦/٥٤٠.

(٤) انظر: عمدة القارئ ١٦/٨٠.

بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلاّ ارتدّت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك))[١].

هذا يقتضي أنّ مَن قال للآخر: أنت فاسق، أو كافر فإن كان ليس كما قال، كان هو المستحقّ للوصف المذكور، وإن كان كما قال: لم يرجع عليه شيء لكونه صادقاً. وفي هذا زجر شديد للمسلم عن أن يقول لأخيه المسلم ذلك[٢].

قصر جملة:يأخذ أحد شيئاً ظلماً على جملة:جاء يوم القيامة يحمله...الخ:

وقال ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في شأن عمال الزّكاة، الذين يأخذون ما يهدي لهم، فوالذي نفسي بيده لا يأخذُ أحدٌ منكم شيئاً، إلاّ جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له، رغاء، أو بقرةً لها خوار، أو شاة تيعر))[٣].

وفي هذا الحديث بيان أنّ هدايا العمال حرام وغلول؛ لأنّ فيها خيانة لولايته[٤].

---

(١) رواه البخاري ١٠/٤٦٤.

(٢) انظر: فتح الباري ١٠/٤٦٦-٤٦٧.

(٣) رواه البخاري ٥/٢٢٠، ومسلم ١٢/٢١٩.

(٤) انظر: شرح النّووي ٢/٢١٩.

قصر جملة: يأخذ أحدٌ شبراً من الأرض... الخ، على جملة: طوقه من سبع أرضين:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يأخذ أحدٌ شبراً من الأرض بغير حقّه إلاّ طُوّقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة»(١).

في هذا الحديث تحريم الظُّلم، وتحريم الغصب، وتغليظ عقوبته(٢). والله أعلم.

قصر جملة: يخلف رجل من القاعدين رجلاً من المهاجرين... الخل على جملة: وُقِف يوم القيامة... الخ:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ما مِنْ رجلٍ من القاعدين يَخْلُف رجلاً من المجاهدين في أهله، فَيَخُونُه فيهم، إلاّ وُقِف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء»(٣). الحديث.

إنّه جزاءٌ عادل فيمَن خان من نذر نفسه لله، وما أسوأها من خيانة، ولذلك سوف تكونُ حسنات هذا الخائن يوم القيامة، تحت تَصَرُّف ذلك المجاهد فلو أخذها جميعاً لما كان عليه من بأسٍ. والله أعلم.

قصر جملة: يحلف على يمينٍ صبر... الخ على جملة: لقي الله وهو عليه غضبان:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يحلف على يمين

---

(١) رواه مسلم ١١/٥٠.

(٢) انظر: شرح النّووي ١١/٤٩.

(٣) رواه مسلم ١٣/٤٢.

صَبْر يقتطع بها مالاً، وهو فاجر إلاّ لَقِي الله وهو عليه غضبان))(١).

إنّ مما يدلّ على أنّ معنى الجملتين في مثل هذا الأسلوب القصريّ هو معنى الشّرط والجزاء، وُرود الحديث في رواية أخرى مع أداة الشّرط: يقول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((مَن حلف على يمين صبر، وهو فاجر، يقتطع بها ما امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان(٢). فهذا شرطٌ وجزاؤه العقوبة المذكورة في الحديث. والله أعلم.

قصر جملة: تُقْتل نفسٌ ظلماً على جملة: كان على ابن آدم الأوّل كفلٌ منها:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لَيْسَ من نَفْسٍ تُقتل ظُلماً إلاّ كان على ابن آدم الأوّل كفل منها))(٣).

يقول النّووي ــ رحمه الله تعالى ــ: ((الحديث من قواعد الإسلام، وهو أنّ مَن ابتدع شيئاً من الشّرّ كان عليه مثل وزر كلّ مَن اقتدى به))(٤).

---

(١) رواه البخاري ١٣/١٧٨.

ومعنى صَبْر ــ بفتح الصّاد وسكون الباء ــ اليمين التي تلزم، ويُجبر عليها حالفها، يقال: أصبره اليمين أحلفه بها في مقاطع الحقّ. انظر: الفتح ١١/٥٥٩.

(٢) رواه البخاري ١٣/٣٠٢.

(٣) رواه البخاري ١٣/٣٠٢، ومسلم ١١/١٦٦.

(٤) شرح النّووي على صحيح مسلم ١١/١٦٦.

فهذا الحديث وكلّ الأحاديث التي هي على هذا النّمط قواعـــد، وقوانين ثابتة يتلازم فيهما الشّرط والجزاء. والله أعلم.

قصر جملة: يلبس الحرير في الدّنيا على جملة: يلبس منه شيء في لآخرة:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يُلْبَس الحريرُ في الدّنيا إلاّ لم يُلْبَس منه شيءٌ في الآخرة...»(١).

وهذه العقوبة اللازمة لِمَن لَبِس الحرير في الدّنيا مُخَالفاً بذلك هدى المصطفى ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، ولعلّ هذه العقوبة لِمَن لبس الحرير تَزَيُّناً، أمّا مَن لبسه لمرضٍ أو نحوه فلا شيء عليه. والله أعلم.

هذه هي أفعال الخير وأفعال الشّرّ، وقد قصر تحقّق أيّ فعل منها، على تحقّق جزائه، ولقد تأمّلت في المعاني التي جاءت من أجلها هذه الشّواهد فوجدها تتلخّص في أمرين:

أوّلاً: أنّ النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أراد أن يُثْبت بالتّأكيد للْمؤمنين بعملهم الخير، وللكافرين أو الفاسقين بعملهم الشّرّ، أنّه جُعِل لهذه الأعمال جزاؤها وأنّه لن يتخلف ما وعد الله على لسان رسوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، ولن يفلت أحد من الحساب ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[الزّلزلة:

---

(١) رواه البخاري ٢٨٤/١٠، ومسلم ٤٧/١٤.

٧-٨]. لكيلا يشكّ إنسان أو يتوهّم أنّ الجزاء سواء كان من الخير أو الشرّ، سوف يتخلف عنه إذا أقدم على فعلٍ ما ذكر في الحديث.

ثانياً: إنّ في هذا القصر حَثٌّ عظيم للمؤمنين على فعل الْخَيْرات إذا عملوا ما تَكَفَّل الله لهم به من الجزاء. وفيه أيضاً ردع وزجر للكافرين والمجرمين عن الإجرام إذا علم المجرم، أنّه لن يفلت من قبضة الله، قبل أن يوفيه حسابه.

لذلك لم يشأ النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، أن يُعَبر عن مثل هذه الأحاديث بأسلوب خالٍ من القصر، حتّى ولو ظهر فيه المعنى واضحاً، بل لجأ إلى القصر لَيَحْسِمِ به الأمر ويؤكّده تأكيداً غير قابل للجَدل والنّقاش، وكأنّه يقول للفريقين: إنّ أعمال الخير والشرّ ما هي إلاّ طرقات مُخْتلفة وكلّ منها لا بدّ أن يَصل إلى غاية معيّنة لا غيرها، وهذه الغاية إمّا أن تكون باباً من أبواب الْجَنّة، وإمّا أن تكون فوهة من فوهات جهنم. والله أعلم.

المطلب الثّالث: معانٍ متفرّقةٌ ورد فيها قصرُ الجمل

قصر جملة: يشاد هذا الدِّين أحدٌ على جملة: غلبه:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّ الدِّين يُسْرٌ، ولن يشادّ هذا الدِّين أحدٌ إلاّ غلبه، فَسَدِّدوا وقاربوا، وأبشروا...» الحديث(١).

إنّ هذا الدِّين يُسْرٌ وما شهدت البرية دِيناً أيسر منه، إنّه يراعي مقدرة كلّ شخصٍ فيجعل أنماطاً مختلفة للعبادة الواحدة يؤدّي الإنسان منها ما يستطيعه من غير حرج، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحجّ من الآية: ٧٨].

فالصّلاة تجب بالقيام، فإن لم يستطع فبالقعود، فــإن لم يســتطع فعلى جَنْب وهكذا؛ فضلاً عن أنّ كلّ العبادات التي افترضها الله علينا في هذا الدِّين يستطيعها من لديه أدنى القدرات من النّاس وليس فيها مشــقّة على أحدٌ.

ومعنى الحديث: أنّه لا يتعمّق أحدٌ في الأعمال الدِّينيّة ويترك الرّفق إلاّ عجز وانقطع فيغلب(٢). لذا؛ فإنّ مَن يَفْرض على نفســه شــيئاً، لم يفرضه الدّين فهو مخطئ؛ لأنّ ذلك سَيَدْفَعُه إلى الْمَلَل ثم يعود إلى النَّــدم

---

(١) رواه البخاري ٩٣/١.

ومعنى؛ سدّدوا: أي: الزموا السَّداد. وهو التَّوَسُّط في العمل. ومعنى؛ قاربوا: أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا ما يقرب منه. انظر: فتح الباري ٩٥/١.

(٢) انظر: فتح الباري ٩٥/١.

على هذه الزّيادة.

وقد جاء في هذا الحديث عبارة قصريّة أضحت مثلاً من الأمثال لإيجازها وشدّة تماسكها وكثافة ما تحويه من معانٍ وهي: ((لن يشادَّ الدّين أحدٌ إلاّ غلبه)).

قال بعض العلماء: ((هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام النُّبوّة فقد رأيناه ورأى النّاس قَبْلنا أنّ كلّ مَتَنَطِّع في الدِّين يَنْقَطع، وليس المراد، منع طلب الأكمل في العبادة فإنّه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدِّي إلى الملال))[١].

وهذا يدلّ على أنّ هذا القصر حقيقيّ تحقيقيّ لعموم النّفي فيه، والتّحقُّق في كلّ زمانٍ ومكانٍ. وفي هذه العبارة القصريّة، قصر الجملة: ((يشاد الدِّين أحدٌ)) على جملة: ((غلبه))، أي: غلب الدِّينُ الشّادَّ.

وفي الحقيقة إنّ ربطاً بغير القصرين هاتين الجملتين ربط ضعيفٌ؛ لأنّه لا يتوقّع أحدٌ تحقّق معنى الجملة الأولى دون تحقُّ الجملة الثّانية معه.

والقصر أقوى رباطٍ بين الجمل، أو بين أجزاء الجملة الواحدة؛ لأنّه يكاد يُدْخِل المقصور والمقصور عليه في بَعْضِها، لشدّة ربطه، فهو أقوى من الرّبط بأدوات الشّرط ونحوها. والله أعلم.

قصر جملة: بَعَث الله نبيّاً، على جملة: رَعَى الغنم:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ما بعث الله نبيّاً إلاّ

(١) انظر: فتح الباري ٩٥/١.

رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم. كنت أرعاها على قراريط لأهل مكّة»[١].

وقال في روايةٍ أخرى: «وهل من نبيٍّ إلاّ قد رعاها»[٢].

في هذا الحديث نرى قصة جامعة لكلّ الأنبياء ـــ وأكرم بها من صفةٍ ـــ إنّها رعى الغنم! إنّ الأنبياء لم يكونوا ملوكاً على الأسِرّة و لم يكونوا مَتْرَفين، بل كانت حايتهم مُنْد بدايتها حياةَ عملٍ وكفاحٍ، ورَعْيٍ وحكمةٍ. ولكن لنا أن نتساءل: لماذا كانت هذه صفة جامعة بين الأنبياء ـــ عليهم السّلام؟ ولماذا كانت الغنم بذاتها؟

قال العلماء: «الحكمة من إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النُّبوّة أن يحصل لهم التَّمَرُّن برعيها على ما يُكَلَّفُونه من القيام بأمر أمّتهم، ولأنّ في مخالطتها ما يُحَصِّل لهم الْحِلم والشّفقة، لأنّهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرّقها في الرّعي، ونقلها من مسرحٍ إلى مسرحٍ، ودفع عدوّها من سبعٍ وغيره، كالسّارق وعَلِمُوا اختلاف طباعها، وشدّة تفرُّقها مع ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة أَلِفوا من ذلك الصَّبر على الأمّة»[٣].

وفي ذلك حكمة أخرى وهي: أن يأخذ الأنبياء أنفسهم بالتّواضع، تصفى قلوبهم بالخلوة[٤]، وخُصَّت الغنم بذلك لكونها أضعفَ من غيرها؛ ولأنّ تفرّقها أكثر من تفرّق الإبل والبقر[٥].

لذا، قَصَر النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ جملة: «بَعَثَ الله نَبِيّاً»

---

(١) رواه البخاري ٤/٤٤١.

(٢) رواه مسلم ١٤/٦.

(٣) انظر: فتح الباري ٤/٤٤١.

(٤) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٤/٦.

(٥) انظر: فتح الباري ٤/٤٤١.

على جملة: ((رعى الغنم))، وذلك يعني: أنّ تحقّق الجملة الأولى، هو تحقّق للجملة الثّانية من غير شكّ لا جَدَلٍ، وذلك على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ.

أمّا الرّواية الأخرى: ((وهل نَبِيٌّ إلاّ رعاها))، فينطبق عليها ما قلته عن الرّواية السّابقة إلاّ أنّه قد حذف فعل الجملة الأولى، والأصل: وهل ((بعث نبيّ)) كما أنّ النّفي فيها قد جاء على شكل استفهام، وفي ذلك تعريضٌ بجهل المخاطبين بهذا الأمر، وأنّه أمرٌ معلومٌ لا يكاد ينكره أحدٌ. والله أعلم.

قصر جملة: يولد من مولودٍ، على جملة: يولد على الفطرة:

وقال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: ((ما من مولودٍ إلاّ يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه، أو يُمَجِّسانه...)) الحديث(١).

وفي روايةٍ: ((ما من مولودٍ يولد إلاّ على الملّة))(٢).

---

(١) رواه البخاري ٣/٢١٩، ومسلم ١٦/٢٠٧.
وأمّا الفطرة فقيل: هي الإسلام والدِّين، وهو المشهور عن السَّلف.
وقيل: أي: يولد سويّاً سالماً لا يعرف كُفْراً ولا إيماناً. وقيل: غير ذلك.
انظر: فتح الباري ٣/٢٤٩، وعمدة القارئ ٨/١٧٧.
والرّاجح هو القول الأوّل.

(٢) رواه مسلم ١٦/٢١٠.

وفي روايةٍ: ((ليس من مولودٍ يولد إلاّ على هذه الفطرة))(١).

في هذا الحديث قصر لجملة: ((يولد من مولودٍ)) على جملة: ((يولد على الفطرة))، على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، وذلك أنّ ارتباط هاتين الجملتين دائماً وأبداً لا ينفكُّ في أي زمانٍ ومكانٍ، وهو نَامُوسٌ وقانونٌ من قوانين الفطرة لا تبديل له. والله أعلم.

قصر جملة: يصبح العباد... الخ، على جملة: ملكان ينْزلان... الخ:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ما من يومٍ يصبح العبادُ فيه إلاّ مَلَكان ينْزلان فيقول أحدهما: اللهمّ أعطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمّ أعط مُمْسِكاً تَلَفاً))(٢).

أراد النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أن يوضِّح فَضْلَ الكرم والبذل، ومذمّة البخل والشّحّ. فذكر لنا ما يقوم به هذان الملكان، حيث يدعو أحدهما للْمُنْفِق، والآخر يدعو على الْمُمْسِك، وذلك كلّ صباحٍ،

---

(١) رواه مسلم ١٦/٢١٠.

(٢) رواه البخاري ٣/٣٠٤، ومسلم ٧/٩٥.

هذا، وللعيني تفسير غير دقيق، حول مسألة القصر هنا حيث يقول: ((قوله: ((إلاّ ملكان))، مستثنى من مُتَعَلّقٍ محذوفٍ وهو خبر (ما) لمعنى: ليس يوم موصوف بهذا الوصف ينْزل فيه أحدٌ إلاّ ملكان يقولان: كيت وكيت)). عمدة القارئ ٨/٣٠٧.

وأعتقد أنّ مثل هذه التّفسيرات الْمُعَقّدة لا داعي لها إذا ما فسّرنا الأمر على قصر الجمل. والله أعلم.

ولَمّا كان عملهما هذا مستمرّاً في كلّ يومٍ عبّر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن ذلك بأسلوب القصر هذا، حيث قصرت جملة: ((كلّ يومٍ يصبح العبادُ فيه)) على جملة: ((نَزَل في ملكان...)) على سبيل الْقَصْر الحقيقيّ التّحقيقيّ. والله أعلم.

هذا وفي قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((الله أعط مُنْفِقاً خَلَفاً، وأعط مُمْسِكاً تَلَفاً)) سجعٌ مرصع حيث إنّ الفاصلتين متّفقتان في الــوزن والقافية(١).

قصر جملة: منكم أحدٌ، على جملة: سَيُكَلِّمه الله... الخ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ما منكم من أحدٍ، إلاّ وَسَيُكَلِّمه الله يوم القيامة ليس يبن الله وبينه ترجمان...))(٢).

إنّه لَمّا كان هذا التّكليم بين الله وبين كلّ من البشر على انفرادٍ لكلّ فردٍ قَصَر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قوله: ((منكم أحدٍ)) على قوله: ((سَيُكَلِّمه الله يوم القيامة...)) الخ، وذلك على سبيل القَصْر الحقيقيّ التَّحقيقيّ؛ لأنّ المنفي هو انفكاك هذين الْمَعْنَيَين عن بعضهما. والله أعلم.

قصر جملة: كان من نفس... الخ، على جملة: هي كائنة:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ما مِنْ نفسٍ كائنة إلى يوم القيامة، إلاّ هي كائنة))(٣).

---

(١) انظر: أنوار الرّبيع، لابن معصوم المدني ٦/٢٥.

(٢) رواه البخاري ١١/٤٠٠، ومسلم ٧/١٠١.

(٣) رواه البخاري ٩/٣٠٥، ومسلم ١٠/١٠.

=

في هذا الحديث نُلاَحِظ الارتباطَ الوثيق بَيْن ما يكـــون في هـــذه الحياة، وما قد كُتِب مِن قبل، فإنّ كلّ مَن قُدِّر له أن يكون فســـيكون، مهما حاوَل الزّوجان أو غيرهما، تفادى ذلك، وما لم يُقدَّر لم يكن ولـــو حاول كلّ مَن في الأرض إيجاده.

ولذلك جاء النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بأسلوب القصـــر لِيُشير إلى أنّ تحقّق الكلام قبل أداة الاستثناء هو تحقّق للكلام الذي بَعْدها، والعكس بالعكس، وذلك على سبيل الحقيقة. والله أعلم.

قصر جملة: يحقّ لمسلمٍ... الخ، على جملة: وصيته مكتوبة عنده:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ما حقّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يوصي فيه، يبيت ليلتين إلاّ ووصيّته مكتوبة عنده...))(١).

يحذّر النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ من التّهاون في الوصية التي في تعطيلها تعطيلٌ لحقوق النّاس، وينصح بهذه الوصية القصريّة التي تَدعو إلى الحزم في هذا الأمر، فكلّ مَن كانت له وصيةٌ فَعَلَيْه ألا يبيت ليلتين إلاّ وقد كتب وصيته. والله أعلم.

= وفي مسلم: ((ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلاّ ستكون)).
وفي مسلم روايةٌ أخرى هي: ((ليست نفس مخلوقة إلاّ الله خالقها)). ١١/١٠.
والمعنى في كلّ هذه الشّواهد واحدٌ، وإن اختلفت أَلْفَاظُها.

(١) رواه البخاري ٣٥٥/٥، ومسلم ٧٤/١١.

قصر جملة: يكون من نفسٍ، على جملة: كتب الله مكانها من الجنّة:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ما من نفسٍ منفوسةٍ إلاّ كتب الله مَكَانَها من الجنّة،والنّار وإلاّ قد كُتِبَت شقيةً أوسعيدةً...))[١].

هذا يدلّ على أنّ كلّ نفسٍ قد كُتِب لها مصيرها في الآخرة إمّا إلى الجنّة، أو إلى النّار، وليس هناك نفسٌ تخرج عن هذه القانون الذي ذكر في الحديث. والله أعلم.

قصر جملة: يوجد منكم أحد، على جملة: وُكِّل به قرينة من الجنّ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((ما منكم من أحدٍ إلاّ وقد وُكّل به قرينه من الجنّ. قالوا: وإيّاك يا رسول الله؟ قال: وإيّايّ إلاّ أنّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاّ بخيرٍ))[٢].

في هذا الحديث إشارة إلى التّحذير من فتنة القرين، ووسوسته وإغرائه؛ لأنّه مَعَنا في كلّ حينٍ[٣].

أمّا قرين النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فقد وصلت دعوة النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إليه فاهتدى، وبعد أن كان لا يعرف إلاّ الشّرّ أصبح لا يعرف إلاّ الخير، وبهذا ينغلق باب الشّرّ عن النّبِيّ ــ صلّى الله

(١) رواه البخاري ٣/٢٢٥، ومسلم ١٦/١٩٦.

(٢) رواه مسلم ١٧/١٥٧.

(٣) انظر: شرح النّووي ١٧/١٥٨.

عليه وسلّم ـــ إلى الأبد ما دام الشّيطان الْمُوكل به قد تحوّل إلى مَلاك. وهذا أمر عجب إذا تصوّره الإنسان. والله أعلم.

قصر جملة: يولد من بني آدم مولود، على جملة: يمسّه الشّيطان:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ما من بني آدم يولد إلاّ يَمَسُّه الشّيطان حين يولد، فَيَسْتَهِلّ صارخاً، من مسّ الشّيطان غـــير مريم وابنها...»(١).

يظهر من هذا الحديث ما تَمَيَّزَت به مريم وابنها ـــ عليهما السّلام ـــ، وهو أنّه أُبعد الشّيطان عنها طول حياتهما، ابتداء من الولادة، أمّا بقية النّاس فَيَمَسُّهم الشّيطان عندما يولدون. ولهذا فقد كُسِرَت هذه القاعدة وهي: «مسّ الشّيطان لكلّ مولودٍ»، من أجل مريم وابنها ـــ عليهما السّلام ـــ. فلَمّا قصر النَّبِي ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: جملة يولد من بني آدم، على جملة يمسُّه الشّيطان، فيستهلّ صارخاً (وذلك على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ) استثنى من هذا القصر مريم وابنها ـــ عليهما السّلام ـــ. والله أعلم.

قصر جملة: لَقِيكَ الشّيطان... الخ، على جملة: سلَكَ فَجّاً غير فجّك:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لعمر بن الخطّاب مرّة: «والذي نفسي بيده ما لَقِيك الشّيطان قط سالكاً فجّاً إلاّ سلك فجّاً غير فجّك»(٢).

---

(١) رواه البخاري ٦/٤٦٩، ومسلم ١٥/١٢٠.

(٢) رواه البخاري ٦/٣٣٩، ومسلم ١٥/١٦٥، والْفَجّ: الطّريق الواسعة.

هذه فضائل عمر بن الخطّاب ــ رضي الله عنه ــ فقد بلغ به التُّقى والشّدّة في إظهار الحقّ وإبطال الباطل، ما جعل الشّيطان نَفْسَه يتّخذ قاعدةً لنفسه حيال عمر، وهي: أنّ عليه أن يَبعد عن كلّ طريقٍ يسلكه عمر. ويرى النّووي أنّ الحديث على ظاهره، وأنّ الشّيطان متى رأى عمر ــ رضي الله عنه ــ سالكاً فجّاً، هرب من هيبة عمر وبأسه وخوفاً من أن يفعل به عمر شيئاً(١).

هذا هو الرّأيّ الصَّحيح الذي أراه وَبَعْضهم يرى أنّه عبارة عن مثل ضرب لابتعاد الشّيطان عن عمر، وأنّ عمر في جميع أموره سالك طريق السّداد، والرّشد، خلاف ما يأمر به الشّيطان(٢).

وبقدر هذا العداء بين عمر وبين الشّيطان كان التّواصل بين عمر وبين ربّه، حتّى إنّ القرآن كان ينْزل موافقاً لآراء عمر ــ رضي الله تعالى عنه ــ.

قصر جملة: يوجد من بلدٍ، على جملة: سيطؤه الدّجال:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ليس من بلدٍ إلاّ سيطؤه الدَّجّال إلاّ مكّة والمدينة، ليس له من نِقابها نقب إلاّ عليه الملائكة صافّين يحرسونها»(٣).

---

(١) انظر: شرح النّووي ١٥/١٦٧.

(٢) انظر: شرح النّووي ١٥/١٦٧.

(٣) رواه البخاري ٤/٩٥، ومسلم ١٨/٨٥، و٨/١٤٨. =

في هذا الحديث فضل مَكَّة والمدينة في طَهَارَتِهما من دخول الدَّجّال، وهذا هو مذهب الجمهور ــ وهو الصّحيح في نظري ــ، وقد شذّ ابن حزم[(١)]، واستبعد دخول الدَّجّال كلّ بلدٍ لقِصَر مُدَّته، وعلى هذا فهو يرى أنّ هذا القصر للمبالغة والتّغليب، وليس حقيقة، ولكن الدّجّال لديه من خوارق العادات من لديه فلا يؤخذ بالرّأي في الغيبيّات.

قصر جملة: يُبْعَث من نَبِيٍّ على جملة: أنذره قومه:

وذكره النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((الدَّجّال مرَّة ثم قال: إنّي أنْذَرْتُكُموه، وما من نَبِيٍّ إلاّ قد أنذره قومه...))[(٢)].

وفي روايةٍ: ((ما بعث الله من نَبِيّ إلاّ أنذر قومه الأعور الدَّجَّال))[(٣)].

في هذا الحديث دليلٌ على خطورة أمر الدَّجّال على العقائد، وأنّه فتنة وامتحان عظيم، لذلك لم يزل كلُّ نَبِيٍّ ينذره قومه: كلّهم يخاف أن يأتي في زمانه. ولذلك عبّر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بهذا الأسلوب

= والنّقاب: جمع نقبٍ، وهو الطّريق بين الجملتين. انظر: اللّسان، مادة: نقب، ١/٧٦٧.

(١) هو: عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الظّاهري، ولد سنة: ٣٨٤هـ بالأندلس، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، كان من أفاضل الباحثين فقيهاً حافظاً، توفّي سنة: ٤٥٦هـ بالأندلس. انظر: الأعلام للزّركلي ٥/٥٩.

(٢) رواه البخاري ٦/١٧٢، ومسلم ١٨/٥٥.

(٣) رواه البخاري ١٣/٣٨٩.

القصريّ، حتّى يثير في نفوسنا الشّعور بخطورته، وأنّه يجب على كلّ مسلمٍ أن يحتاط لدينه وأن يتمسّك بالعروة الوثقى حتّى لا يَصرفه هول ما يرى من خوارق الدَّجّال عن دينه. والله أعلم.

قصر جملة: يوجد من مؤمن، على جملة: أنا أولى به... الخ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما من مؤمنٍ إلاّ وأنا أولى به في الدّنيا والآخرة...»[١].

معنى هذا الحديث: أنا أحقّ بالمؤمنين في كلّ شيءٍ من أمور الدُّنيا والآخرة من أنفسهم على سبيل الإطلاق؛ ولذلك يجب عليهم اتّباع أوامره واجتناب نواهيه[٢].

قصر جملة:أحلف على يمينٍ...الخ، على جملة:أتَيْت الذي هو خير...الخ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إن شاء الله لا أحلف على يمينٍ فأرى غيرها خيراً منها إلاّ أتيت الذي هو خير وَتَحَلَّلْتها...» الحديث[٣].

في هذا الحديث دلالة على أنّ مَن حلف على شيء، وكان الحنث خيراً له من التّمادى في اليمين استُحِبّ له الحنث وعليه الكفّارة[٤].

---

(١) رواه البخاري ٥/٦١.

(٢) انظر: عمدة القارئ ١٢/٢٣٥.

(٣) رواه مسلم ١١/١١٢.

(٤) انظر: شرح النّووي ١١/١٠٨.

ولَمّا كان هذا الأمر منه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عادّةً وطبيعةً ويريده أن يكون لأمّته عادّة، جاء بهذا القصر الذي يفيد معنى الاستمرارية على ذلك، ولو جاءت الجملة من غير قصرٍ لما دلّت إلاّ على حالةٍ واحدةٍ فقط؛ لأنّ بعض النّاس إذا حلف تصلب عند يمينه فلا يلين حتّى لو رأى الخير في غيرها.

قصر جملة: يَكن نَبِيّ قبلي، على جملة: كان حقّاً عليه أن يدلّ أُمَّتَه على خيرٍ ما يعلمه:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّه لم يكن نَبِـــيٌّ قبلي إلاّ كان حقّاً عليه أن يَدُلَّ أُمَّتَه على خيرٍ ما يعلمه، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم))[١].

وهذا قانون مسْنون للأنبياء جميعاً، وهو قانون مَنْبثق من مهمّتهم الأساسية وهي هداية النّاس، فقد أوجب على كلّ نَبِيٍّ يَدُلّ أمّته على خيرٍ ما يعلم، وينذرهم من شرّ ما يعلم، أي: أنّ كلّ نَبِيٍّ أمر بإخلاء قلبه من الحسد، بالإضافة إلى الإخلاص في الدّعوة. والله أعلم.

قصر جملة: يستر الله على عبدٍ في الدّنيا، على جملة: ستره الله في الآخرة:

وقال رسول الله: ((لا يستر الله على عبدٍ في الدّنيا إلاّ ستره يوم

(١) رواه مسلم ٢٣٣/١٢.

القيامة))[١].

إنّ في هذا أمراً عظيماً، وقد يتساءل عنه البعض ويقول: كيف يكون هذا الجزاء الطَّيِّب في الآخرة لِمَن فعل المعصية في الدّنيا، ثم ستره الله؟! وهل عَمَلُه المعصية مع ستر الله يُعَدّ من أفعال الْخَير حتّى يكافأ فاعله بهذه المكافأة؟!

وفي الحقيقة إنِّني أرى أنّ جواب هذا التّساؤل يحتمل أحد أمرين أو كليهما:

أمّا الأوّل: فهو أنّ الله سبحانه وتعالى، الكريم الجواد، يُحبّ أن يتمّ فضله على المؤمنين كما ورد ذلك في آيات كثيرة منها: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠][٢].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١][٣]. وغير ذلك.

ومن هذا الجانب فإنّ هذه المكافأة هي فضل محض من الله تعالى ناشئ من اتّصافه سبحانه بصفات الكمال، فكلّ ما فعل فعلاً فإنّه يتمّه ويكمّله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

---

(١) رواه مسلم ١٦/١٤٣.

(٢) أوّلها: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية.

(٣) أوّلها: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ الآية.

أمّا الأمر الثّاني: فيمكن أن يقال: إنّ في هذا الحديث حثّاً على الاستتار بالذّنوب وعدم المجاهرة بها، كما قال ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمَن أَلَمَّ، فليستتر بستر الله، ولَيَتُب إلى الله»[١].

وقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «كلّ أمّتي مُعَافى إلاّ المجاهرون»[٢]. وغير هذه الأحاديث.

وعلى هذا فإنّ هذا الْمُسْتَتِر بالمعصية سيكون أدعى لستر الله له على معصيته في الدّنيا ثم في الآخرة؛ ذلك لأنّ استتاره هو نوع من الشّعور بسوء المعصية، وأدعى لتركه المعاصي، فحصل له من فضل الله الشيء الكثير. والله أعلم.

قصر جملة: سرتم سيراً... الخ، على جملة: كانوا معكم:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّ بالمدينة لرجالاً ما سرتم سيراً ولا قطعتم وادياً إلاّ كانوا معكم حَبَسهم المرض»[٣].

هذا الحديث يُصَوِّر شدّة تعلّق أولئك القوم الذين حبسهم المرض

---

(١) رواه الحاكم في المستدر على الصّحيحين، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ، ٢٤٤/٤، والبيهقي في السّنن الكبرى، دار الفكر، ٣٣٠/٨، وقال على شرط الشّيخين، والحديث صحيح. انظر: سلسلة الأحاديث الصّحيحة للألباني، المكتب الإسلامي سنة: ١٣٩٢هـ، ٢٧٢/٢.

(٢) رواه البخاري ٤٨٦/١٠.

(٣) رواه مسلم ٥٧/٢٣.

بالجهاد في سبيل الله، وكيف أنّهم لم يكونوا يتركون أيّ غزوة في سبيل الله، غير أنّ المرض هو الذي خَذَلَهم ولكنّهم لم يحرموا ثوابَ نِيَّتِهم، فكأنّهم قد جاهدوا[١]. والله أعلم.

قصر جملة: أنزل الله داءً، على جملة: أنزل له شفاء:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما أنزل الله داءً إلاّ وأنزل له شفاء»[٢].

في هذا الحديث الحثّ على التّداوي وأنّه لا يُنَافي التّوكّل لِمَن اعتقد أنّ الشّفاء بإذن الله[٣].

ويرى بعض العلماء: أنّه يحتمل أن يكون في الخبر محذوف، تقديره: لم ينْزل داءٌ يقبل الدّواء إلاّ أنزل له شفاء، قال ابن حجر: «ولَكِنْ بلا تقديرٍ أولى»[٤]. وهذا في رأيي هو الصّحيح. والله أعلم.

قصر جملة: يكون من داء، على جملة: شفاؤه في الحبّة السّوداء:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما من داء إلاّ في الحبّة السّوداء منه شفاء إلاّ السّام...»[٥].

هذا دليلٌ على قدرة الحبّة السوداء على شفاء كلّ الأمراض (بإذن

---

(١) انظر: شرح النّووي ٥٧/١٢.

(٢) رواه البخاري ١٣٤/١٠.

(٣) انظر: فتح الباري ١٣٥/١٠.

(٤) انظر: فتح الباري ١٣٥/١٠.

(٥) رواه مسلم ٢٠٢/١٤، والسّام: هو الموت.

الله) ولا يستثنى من ذلك أيّ مرضٍ ولكن استثنى الحديث من ذلك السّام ــ وإن كان في نظري ليس من أنواع الأمراض ــ ولكن ذلك على سبيل الْمُبالغة في عظم نفع الحبّة السَّوداء؛ فهو من تأكيد الشّيء بما يشبه ضدّه؛ لأنّه لما قال: (إلاّ)، ظننا أنّه سيستثني بعض الأمراض، فلما قال: (السّام) انقلب التّصوّر.

ولكون هذا من قصر الجمل تجد الاستثناء الأول جاء بأداة الاستثناء مرة أخرى.

قصر جملة: يَمُرّ الوباء بإناء... الخ، على جملة: نَزَل فيه... الخ:

وقال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «غَطّوا الإناء وأَوْكُوا السّقاء؛ فإنّ في السّنة ليلةً يَنْزل فيها وباء لا يَمُرّ بإناءٍ ليس فيه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلاّ نزل فيه من ذلك الوباء»[1].

هذا من حكمة الله تعالى، حيث سينْزل هذا الوباء في كلّ وعاء غير محفوظٍ وقد جاء النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بهذا المعنى في أسلوبٍ قصريٍّ ليؤكّد شدّة التّحذير من التّهاون في ترك الآنية غير محفوظة. والله أعلم.

قصر جملة: يكون الرّفق في شيءٍ، على جملة: زانه (وعكس ذلك):

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّ الرِّفْق لا يكون

(١) رواه مسلم ١٣/١٨٦.

في شيءٍ إلاّ زانه، ولا يَنْزع من شيءٍ إلاّ شانه»[١].

في هذا الحديث قصران؛ كلّ منهما يؤكّد الآخر ويقوّيه ـــ وكلاهما يَحثّ عن الرِّفق، فأحدهما يتحدّث عن وجوده والآخرة يتحدّث عن عدمه، وصار الرِّفق محور ارتكاز هذا القصر.

فالعبارة الأولى تُبيِّن الزّينة والجمال بِوُجُود الرِّفْق، والأخرى تُمَثِّل القبح والشَّين بِفُقْدانه، وقد يقال: إنّ العبارة القصريّة الأولى كافيةٌ في الدَّلالة على معنى الثّانية وهذا صحيح، إلاّ أنّ النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لِمَا يرى من أهمّية الرِّفق أراد أن يؤكّد الْمَعْنى أكثر فيُنَبّه بذلك على فضل الرِّفق كلّ التّنبيه.

هذا وفي هذا الحديث مقابلة اثنين باثنين، يَكُون بـ: (يُنْزِع) وزانه بـ: (شانه)[٢]، أو ثلاثة بثلاثة؛ إذا اعتبرنا (أنّ) و(من) ضدّان.

قصر جملة: أنعمت على عبادي من نعمةٍ، على جملة: أصبح فريق منهم... الخ:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ألم تروا إلى ما قال ربّكم؟ قال: ما أنعمتُ على عبادي من نعمةٍ إلاّ أصبَحَ فريقٌ منهم بها كافرين، يقولون: الكواكب وبالكواكب»[٣].

---

(١) رواه مسلم ١٦/١٤٦.

(٢) انظر: أنوار الرّبيع، لابن معصوم المدني ١/٣٠١. بتصرّفٍ.

(٣) رواه مسلم ٢/٦٠.

=

فهذا وصفٌ لشِدّة جُحُود بعض الْخَلْق لفضل الله تعالى، حيث إنّ كلّ نعمةٍ تنْزل من الله فسوف تَجِد مَن يكفر بها، وبالله أيضاً الذي أنعم بها، وهذا لا شكّ من أسوأ الكفر. والعياذ بالله.

قصر جملة: تَدَع أحداً في قلبه مثقال ذرّةٍ من إيمانٍ، على جملة: قَبَضَته:

وعن قرب يوم القيامة يقول ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّ الله يَبْعَث ريحاً من اليمن أَلْيَن مِنَ الحرير، فلا تدعْ أحداً في قلبه مثقال ذَرّةٍ من إيمانٍ إلاّ قضبته...)) الحديث(١).

في هذا الحديث تأكيدٌ على استقصاء هذه الرّيح لكلّ المـــؤمنين، وأنّه لن يبقى مؤمن مهما قل إيمانه دون أن تَقْبِضه الرّيح.

قصر جملة: يبقى أحد كَانَ يعبد غير الله على جملة: يتساقطون في النّار:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إذا كـــان يـــوم القيامة، أذَّن مؤذنٌ لتتبع كلّ أمّة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد

= واختلف العلماء في المراد بالكفر في الحديث. فقيل: هو الكفر المخرج من الملّة؛ لأنّهم اعتقدوا أنّ الكواكب هي التي تفعل ذلك.

وقيل: المراد: كفر النّعمة. انظر: شرح النّووي ٢/٦٠-٦١.

والأوّل أقرب إلى الصّحّة.

(١) رواه مسلم ١٣٢/٢.

غيرَ الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلاّ يتساقطون في النّار...»[١].

وهذا دليلٌ على نفاذِ أمر الله، نفاذاً تامّاً على كلّ المشركين والكافرين، وأنّ مصيرهم النّار لا يتخلف منهم أحدٌ.

قصر جملة: تَركْت من سبيل... الخ على جملة: أنفقت فيها لك:

وعن الثّلاثة الذين هم أوّل مَن يقضى عليهم يوم القيامة: يقول رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «...ورجلٌ وَسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كلّه، فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركت من سبيلٍ تحبّ أن ينفق فيها، إلاّ أنفقت فيها لك. قال (أي: الله تعالى): كذبت، ولكنك فعلتَ لِيُقال: هو جواد، فَقَد قيل، ثم أُمِرَ فَسُحِب على وجهه، ثم ألقي في النّار»[٢].

في هذا الحديث نَرَى كيف تجَرّأ هذا المرائي على الله بهذه الأكذوبة المؤكّدة كلّ التّأكيد، وكأنّه يَظُنّ أنّ الله لا يعلم نِيّته، وهذا دليلٌ على أنّ النّيّة قد تحبط العمل إذا كانت غير خالصةٍ لله، والعياذ بالله من ذلك، وهذا القصر للمبالغة؛ لأنّ ذلك الرّجل يدَّعي ذلك، وليس الأمر فيه إلى حدّ ما قال.

قصر جملة: يُعطي شيئاً، على جملة: مَنَّه:

وقال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة: المنّان الذي لا يُعْطِي شيئاً إلاّ مَنَّه، والْمُنْفِق سِلْعَته بالحلف

(١) رواه مسلم ٢٦/٣.

(٢) رواه مسلم ٥١/١٣.

الكاذب، والْمُسْبِل إزاره»[١].

في هذا الحديث قوم اقْتَرَفُوا جرائر فادحة، استوجبت صَرْف نظر الله سبحانه وتعالى عنهم، فمنهم الْمَنَّان الذي يَمُنّ على الآخرين فضله، وقد استمرّ في هذه الخصلة الذّميمة حتّى إنّها صارت صفةً مستمرّةً له إلى أن أبطلَ كلّ عطائه بالمنّ والأذى، ولملازمته المستمرّة لهذه الخصلة، قصر النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ جملة: يُعْطِي شيئاً على جملة: مَنَّه. ولكن هذا القصر ـ كما يظهر لي ـ للمبالغة؛ لأنّ هذا الْمُعْطِي قد يترك الْمَنَّ في إعطاء أو عطاء من نسياناً أو نحو ذلك. فلا يخرج هذا من دائرة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولكن المبالغة هنا في أقلّ درجاتها وهي قريبة من الحقيقة إلى حدٍّ كبيرٍ. والله أعلم.

قصر جملة: يبقين في المسجد باب، على جملة: سُدّ:

وقال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: «لا يبقين في المسجد بابٌ إلاّ سُدَّ إلاّ باب أبي بكرٍ»[٢].

في هذا الحديث دليلٌ على أفضليّة أبي بكرٍ على سائر الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ حيث أمر النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بسَدِّ أبواب

---

(١) رواه مسلم ٢/١١٤ـ، والْمُسْبِل إزاره: هو الذي يجرّ طرف ثوبه خيلاء.

(٢) رواه البخاري ١/٥٥٨، ومسلم ١٥/١٥١.

وفي مسلم: «لا يبقين في المسجد خوخة إلاّ خوخة أبي بكر...».

والخوخة: بمعنى: الباب. والقصر هنا للصّفة على الموصوف.

الصّحابة الذين كانت لهم أبواب في المسجد إلاّ باب أبي بكر ـــ رضـــي الله عنه ـــ، وكأنّ ذلك قانون فرض، لَكِنَّ أبا بكرٍ كان أكبر من أن يطبّق عليه هذا القانون. وهذا القصر من الحقيقيّ التّحقيقيّ، فـــيمَن عـــدا أبي بكـــر، واستثناء باب أبي بكرٍ هو استثناء من الموجب فكأنّه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ قال: «سُدُّوا كلّ الأبواب إلاّ باب أبي بكرٍ». ولكن مجيء هـــذا الأمـــر بطريق النّهي في تأكيد أشدّ، وكأنّ هناك عقوبة ستلحق بِمَن لم يغلق بابه.

قصر جملة: يُبْعَث مِن نبِيٍّ، على جملة: أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ما مِن نَبِيٍّ إلاّ أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر...» الحديث(١).

هذه سنة سارية على كلّ الأنبياء لذلك جاءت عبارتها على هـــذا النّمط من القصر. يقول ابن حجر: «هذا دالٌّ على أنّ النَّبِيّ لا بدّ له من معجزةٍ تقتضي إيمان مَن شاهدها بصدقه»(٢). والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري ٩/٣، ومسلم ٢/١٨٦.

(٢) الفتح ٩/٦.

الفصل الرّابع: أسرار القصر بتقديم ما حقّه التّأخير في أحاديث الصّحيحين

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأوّل: تقديم المعمولات على الفعل.

المبحث الثّاني: تقديم الخبر على المبتدأ.

المبحث الثّالث: شواهد تقديم المسند إليه على خبره الفعليّ والياً حرف نفي.

المبحث الرّابع: شواهد تقديم النّكرة على الفعل.

المبحث الأوّل: تقديم المعمولات على الفعل

وفيه مطلبان:

المطلب الأوّل: أسرار القصر الحقيقي.

المطلب الثّاني: أسرار القصر الإضافي.

لقد ذكرتُ سلفاً أنّ تقديم ما حَقُّه التّأخير لم يكن لغرض القصر دائماً وإنّما قد يكون لأغراضٍ أخرى. فكما نَقْطع بأنّ التّقديم في بعض الشّواهد للقصر، فإنّنا نقطع بأنّ التّقديم في بعض الشّواهد الأخرى ليس للقصر. وهذه بعض الأمثلة التي جاء فيها التّقديم لغير القصر قطعاً ليتبيّن الأمر في ذلك:

١- سأل النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أبا موسى الأشعري[١] ـ رضي الله عنه ـ في الحجّ فقال له: ((بم أهللت؟ قال أبو موسى: قلت: لَبَّيْكَ بإهلال كإهلال النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، قال النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: فقد أحسنتَ))[٢].

ففي قوله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: ((بم أهللتَ؟))، قُدِّم الجار والمجرور، وذلك من أجل الاستفهام وليس للقصر قطعاً؛ لأنّ الجار والمجرور مستفهمٌ عنه، والمستفهم عنه من حقّه التّقديم.

٢- قد يكون التّقديم للاهتمام والعناية بالمقدَّم وليس للقصر قطعاً، وذلك كما في قصّة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما سَمِعَ هشام بن حكيم[٣] ـ رضي الله عنه ـ يقرأ علَى حَرف لم يسمعه عمرُ

---

(١) هو: عبد الله بن قيس بن سليم من بني الأشعر من قحطان، صحابي من الشّجعان الولاة، وأحد الحكمين الذين ـ رضي بهما على ومعاوية ـ رضي الله عن الجميع ـ، ولد سنة: ٢١هـ، قبل الهجرة، وتوفّي سنة: ٤٤هـ. انظر: الأعلام ١/٢٥٤.

(٢) رواه مسلم ٨/١٩٨.

(٣) هو: هشام بن حكيم بن حزام القرشي، صحابي وابن صحابي، أسلم يوم فتح =

بن الخطاب، فأخذ هشاماً إلى النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ وأخـــبره بالقصّة، فقال النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لهشام: اقرأ فقرأ، فلمـــا انتهى، قال له ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «هكذا أُنْزلـــت. ثم قـــال ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لعمر: اقرأ، فقرأ فلما فرغ قال له ـــ صـــلّى الله عليه وسلّم ـــ: هكذا أُنْزلت...»[١].

ففي هذا الحديث يقول النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لهشام: «هكذا أُنْزلت»، بتقديم المعمول على العامل، كما يقول لعمر: العبارة نفسها، مما يؤكّد بل ويقطع بأنّ هذا التّقديم ليس للقصر، وإنّما المقصود من العبارة: «أُنْزلت هكذا»، وما هذا التّقديم إلاّ للاهتمام والتّأكيد لكلّ مِنْهما بأنّ تلك القراءة بذاها قد نزلت بها، دون أن يكون في هذا التّقديم نفي لنُزُول الآية بغيرها.

وبعد أن رأينا في هذين الشّاهدين، مصداق ما قلتُ أشرع الآن في تحليل الشّواهد التي جاء التّقديم فيها للقصر.

= مكّة، كان من فضلاء الصّحابة. توفّي سنة: ١٥هـــ. انظر: الأعلام ٨٣/٩.

(١) رواه مسلم ٩٩/٦.

المطلب الأوّل: أسرار القصر الحقيقي:

قصر استسلامه-صلّى الله عليه وسلّم-على كونه لله تعالى (وصور أخرى):

كان النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إذا قام من اللّيل يتهجّد، يدعو بدعاءٍ طويلٍ منه قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «اللهم بك أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليك توكّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ...» الحديث(١).

في هذا الابتهال النّبويّ الكريم، نرى تقديم معمولات الأفعال السّتة الأولى عليها، وما ذلك التّقديم إلاّ لغرضٍ مهمٍّ وهو القصر(٢). ثم إنّ توالي هذا العدد من الأفعال بهذه الكيفية لَيَدُلّ على أهمّية الأمر الذي سيقت من أجله، وهو التّوحيد، حيث وَحَّد النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ربّه بأفعاله كلّها القلبية والجسدية، فأكّد فيها توحيد الألوهية أعظم توكيدٍ وأكمله، وهذا نرى أنّ أمور التّوحيد والإخلاص لا تخلو من أساليب القصر، فيأتي النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لكلّ مقامٍ بالطّريق القصريّ المناسب له، ففي هذا الحديث مثلاً، كان المقام مقام إيجاز والتّقديم من أقوى طرق القصر إيجازاً؛ لأنّ القصر جاء من تغيير في مواقع الكلمات ولم يأت من حرفٍ أو أداةٍ تفيد القصر كما في بقية الطّرق التي

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٣/٣، ومسلم ٥٥/٦.

(٢) انظر: عمدة القارئ للعيني ١٦٦/٧.

يضاف فيا أدوات للدّلالة على القصر، هذا بالإضافة إلى أنّ الأدعية عموماً تحتاجُ إلى شيءٍ من السَّجع ليعطيها تماسكاً يسهّل حفظها، ويجعلها أشدّ إيقاعاً في القلب، وأكثر حلاوةً في اللّسان. فكان التّقديم هو الوسيلة الخاصّة المؤدّية إلى كلّ ذلك.

ففي العبارة الأولى قصر النّبِيّ ـــ صـــلّى الله عليـــه وســـلّم ـــ استسلامه وخضوعه وانقياده على كونه لله ربّ العالمين.

وفي العبارة الثّانية قصر إيمانه على كونه بالله تعالى.

وفي الثّالثة قصر توكّله على الله تعالى.

وفي العبارة الرّابعة قصر إنابته ورجوعه في تدبير أموره على كونه لله تعالى.

وفي الخامسة قصر مخاصمته واحتجاجه على كونها بالله تعالى.

وفي السّادسة قصر محاكمةَ كلّ مَن جحد الحقَّ على كونها إلى الله تعالى(١).

وكأنّه بـــذلك مستحضـــرٌ الآيـــة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعـــام: ١٦٢-١٦٣].

وهذه الجمل القصريّة كلّها من قصر الصّفة على الموصوف قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، لعموم نفي المقصور عن غير الله تعالى، ولتحقّق ذلـــك في قلبٍ صادقٍ مؤمنٍ لا ينبغي له أن يشرك بعبادة ربّه أحداً.

---

(١) انظر: تفسير تلك المعاني في: الفتح ١٣/٤-٥، وشرح النّووي ١٧/٣٩.

هكذا يكون الإخلاص حيث يشمل السرّ والعلن وبه يتحقّق كمال العبوديّة للخالق جلّ وعلا.

هذا، وقيل: إنّه قد عبَّر بالفعل الماضي (مع أنّ المعنى يشمل الحاضر والمستقبل) لثقته القويّة في الثّبات على هذه العقيدة ثباتاً يساوي ما قد كان منه(١).

قصر موت النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وحياته على كونها باسم الله تعالى:

وهذا أيضاً دعاؤه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ إذا أَوَى إلى فراشه حيث يقول: ((باسمك اللهم أموت وأحيا))(٢).

وفي روايةٍ لمسلمٍ يقول فيها ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: ((اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت))(٣).

وهناك روايةٌ أخرى يقول فيها ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: ((باسمك ربّي وضعتُ جنبي وبك أرفعه...)) الحديث(٤).

في هذه الأدعية النّبويّة الشّريفة نرى التّوحيد والإخلاص العظيم من خلال تقديم هذه المعمولات على أفعالها لحصر تلك الأفعال في

(١) انظر: الحديث النّبويّ من الوجهة البلاغية، لعزّ الدّين السّيّد ص: ١٣٥.

(٢) رواه البخاري. انظر: فتح الباري ١١/١١٣.

(٣) رواه مسلم ١٧/٣٥.

(٤) رواه البخاري. انظر: فتح الباري ١٣/٣٧٨.

معمولاتها.

ففي الرّواية الأولى: يكون: المعنى: لا أموت ولا أحيى إلاّ باسمك.

وفي الرّواية الثّانية: لا أحيا إلاّ باسمك ولا أموت إلاّ باسمك.

والفرق بين الرّوايتين: أنّ الإيجاز في الأولى أقوى، لعدم تكرار معمول الفعل الثّاني.

وفي الرّواية الثّانية يكون المعنى: لا أضع جنْبِي إلاّ باسمك ولا أرفعه إلاّ باسمك.

وكلّ هذه العبارات القصريّة هي من قصر الصّفة على الموصوف قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، لعموم النّفي فيها والتّحقّق في الواقع.

هذا ويظهر لي أنّ هناك نكتتين بلاغيتين لاختيار القصر بالتّقديم هنا وهما:

أوّلاً: أنّ في التّقديم زيادة إيجاز عن بقية الطّرق الأخرى كما ذكرت سابقاً.

ثانياً: أنّ اسم الله تعالى أحقّ بالتّقديم في كلّ شيء؛ لأنّ في تقديمه خصوصاً في الدّعاء امتناع به من كلّ مكروه أو كلّ ما ينافي الإخلاص، فاسمه سبحانه وتعالى أو الضّمير النّائب عنه، يُقدِّم ليُستدفع به كلّ أذى، ويحتمي به من كلّ سوءٍ تقدّست أسماؤه.

لذلك فطريق التّقديم هو المناسب هُنا دون غيره من طرق القصر التي يكون فيها المقصور عليه متأخّراً. والله أعلم.

قصر تفجر أنهار الجنّة على كونها من الفردوس:

قال ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّ في الجنّة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدّرجتين كما بين السّماء والأرض، فإذا سألتم الله فسألوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنّة، وأعلى الجنّة، وفوقه عرش الرّحمن، ومنه تفجر أنهار الجنّة))(١).

في هذا الحديث يصف لنا النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ الفردوس، وأنّه أفضل درجة في الجنة ويحثنا على طلبها، ومن أوصاف هذه الدّرجة أنّ منها أنهار الجنّة تنفجر بالعسل والماء واللّبن، فكأنّها مَجْمَع كلّ الخيرات وبها كلّ الطّيّبات وفيها اللّذّة الكاملة.

وقد قصر النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ صفة تفجر أنهار الجنّة على الفردوس قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، لعموم النّفي عن ما عداها من درجات الجنّة.

هذا، وقد أعطانا التّقديم هنا مع إفادته للقصر صورة تَخَيُّلِيّة فجعلنا نتخيّل بقوله: ((منه)) الفردوس العظيم الذي هو الأصل، ثم نتخيّل من قوله: ((تفجر أنهار الجنّة)) تلك الأنهار المنبعثة من هذا الأصل والتي هي فرع عنه، والأصل يقدم على الفرع. والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٦/١١.

قصر الأمر بِفَتْح الجنّة على سيّدنا محمّد ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ:

يقول النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «آتي بابَ الجنّة يوم القيامة، فأستفتح فيقول الخازن: مَن أنت؟ فأقول محمّد، فيقول: بك أمرت، لا أفتح لأحدٍ قبلك»[1].

في هذا الحديث نرى فضله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في الآخرة، وأنّه هو الْمُقَدَّم يوم القيامة على غيره من الأنبياء جميعاً لدخول باب الجنّة، وحيث يخبرنا النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أنّه يأتي إلى باب الجنّة فيطلب أن يفتح له فيسأله خازن الجنّة مَن أنتَ؟ فيخبره النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ باسمه، عند ذلك يعرف أنّ هذا الاسم هو المطابق لما أمره الله بالفتح له. فيقول له: تلك العبارة القصريّة: «بك أُمرت» حيث يعطيه هذه البشرى، يؤكّد له هذا القصر بقوله: «لا أفتح لأحدٍ قبلك». وفي عبارة الْمَلَك هذه قصر للصّفة وهي أمر الله تعالى له بالفتح، على الموصوف وهو النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على سبيل القصرالحقيقيّ.

وقد اختير طريق التّقديم هنا دون غيره من طرق القصر ــ كما يظهر لي ــ؛ لأنّ فيه مع الدّلالة على القصر، تبشيراً له ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بهذه الأفضلية، وهذه من الأغراض البلاغية للتّقديم، فَيَحْسُن عندما يراد تبشير أحدٍ أن تقدّم له الكلمة التي تفتح السُّرور عليه دفعةً واحدةً[2].

---

(١) رواه مسلم ٣/٧٣.

(٢) قد ذكر البلاغيّون أنّ من أغراض تقديم المسند إليه تعجيل المسرّة. انظر: الإيضاح =

ثم إنّ في الجملة الأخيرة: ((لا أفتح لأحدٍ قبلك)) تأكيداً لهذه البشرى، وقد رُكّز فيها على الجانب المنفي من الجملة القصريّة المفهوم من عبارة القصر، وفي هذا التّأكيد بالتّكرار، زيادةُ إفراح ومسرّة له ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بالفضل الذي خُصَّ به ولم يخصّ به أحد قبله، وليؤكّد أيضاً على أنّ التّقديم هنا هو للقصر حقّاً بلا جدال. والله أعلم.

قصر الأمر بالصّلاة على ما بيَّنَه جبريل للنَّبِيّ- صلّى الله عليه وسلّم-:

صلّى جبريل بالنَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في أوقات الصّلوات الخمس، ثم لما انتهى من الصّلوات الخمس أخبَرَ النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أنّ جبريل قال له: ((بهذا أُمرتُ))(١).

في هذا الحديث نرى أنّه لما نزل جبريل بتحديد أوقات الصّلوات وقام بذلك عمليّاً أي: أنّه كلّما فعل جبريل جزءاً من الصّلاة فعله النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بعده حتّى تكاملت صلاته(٢). ولما انتهى من الصّلوات الخمس قال جبريل: ((بهذا أمرت))، رويت بضمّ التّاء وفتحها، فبالضّمّ يخبرُ جبريل عن نفسه، وأنّه أمر به هكذا، وبالفتح خطاب من جبريل للنَّبِيّ ـ

= بشرح عبد المُتعال الصّعيد ١/١١٥؟

وهذا التّقديم الذي في الحديث وإن كان لغير المسند إليه إلاّ أنّ فيه تعجيل المسرّة. والله أعلم.

(١) رواه البخاري ٢/٣، ومسلم ٥/١٠٨.

(٢) انظر: شرح النّووي ٥/١٠٨.

صلّى الله عليه وسلّم ـــ[(١)].

وفي هذه العبارة قصر للصّفة وهي أمر الله تعالى له بالصّلاة، على الموصوف وهو الوقت المحدَّد الذي أشار إليه بقوله: «بهذا»، وهذا القصر من الحقيقيّ التّحقيقيّ. والله أعلم.

قصر تركيب خلق الإنسان على عجب الذّنب:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «يبلى كلّ شيءٍ من الإنسان إلاّ عَجْبَ ذنبه فيه يركب الْخَلْق»[(٢)].

يخبر النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: أنّ الأرض ستأكل كلّ جسد ابن آدم إلاّ عجب الذّنب، والمقصود بِمَن تأكل الأرض جسده هو ما عدا الأنبياء؛ لأنّه قد ثبت أنّ أجسادهم صلوات الله وسلامه عليهم قد حُرّمت على الأرض»[(٣)]. ولله سبحانه وتعالى سِرٌّ في بقاء عجب الذّنب لا يعلمه إلاّ هو، إلاّ أنّه يحتمل أن يكون علامةً للملائكة لإحياء كلّ إنسانٍ

---

(١) انظر: الفتح ٢/٣.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ٨/٥٥١، ومسلم ١٨/٩٢.

وفي مسلم قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «ليس من الإنسان شيءٌ إلاّ يبلى إلاّ عظماً واحداً، وهو عجب الذّنب، ومنه يركب الْخَلق يوم القيامة».

وفي رواية مسلم هذه طريقان للقصر:

أوّلهما: بالنّفي والاستثناء.

والثّاني: بتقديم ما حَقُّه التّأخير، وكلاهما قصر حقيقيّ تحقيقيّ.

أمّا عجب الذّنب: فهو رأس العصعص. اللّسان مادة: عجب، ١/٥٨٢.

(٣) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٨/٩٢.

بجوهره، ولا يحصل العلم للملائكة بذلك إلاّ بإبقاء عظم كلّ شخصٍ(١).

وقد جاء هنا القصر للصّفة وهي تركيب الخلق، على الموصوف وهو عجب الذّنب على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ، لعموم النّفي فيه عن جميع ما عداه من أجزاء الجسم ولتحقّق ذلك فعلاً.

وقد جاء القصر هنا بطريق التّقديم ـــ كما يظهر ـــ؛ لأنّه لما ذكر آنفاً أنّ السّلامة من أكل الأرض مقصورةٌ على عجب الذّنب دون غيره من أعضاء الجسم، كان لا بدّ أن يكون ذلك لميزةٍ خاصّةٍ لا توجد إلاّ فيه، فقدّم ضميره حينئذٍ تناسباً لسياق الكلام، فكان القصر بطريق التّقديم مؤدّياً إلى تناسق الكلام أكثر من غيره من طرق القصر. والله أعلم.

قصر خلق آدم وإدخاله الجنّة وإخراجه منها على يوم الجمعة:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((خَيْر يوم طلعت عليه الشّمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنّة، وفيه أُخرج منها))(٢).

خُصَّ يوم الجمعة بصفة الْخَيريّة على كلّ الأيّام، وقد عَبّر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن ذلك بطريق القصر اللّغوي، وليس بطريق من طرق القصر الاصطلاحيّة، ثم ذكر بعد ذلك قوله: ((فيه خلق آدم...)) الخ. وهذا الكلام يحتمل أن يكون لتوضيح سبب أفضلية يوم الجمعة على بقية

---

(١) انظر: فتح الباري على صحيح البخاري لابن حجر ٥٥٣/٨.

(٢) رواه مسلم ١٤١/٦.

الأيّام، ويحتمل أنّه كلام جديد يوضّح بعضاً من خصائص ومزايا يوم الجمعة، والعلماء على خلاف في هذا الأمر[١]. ولكن الذي يظهر أنّ هذا الكلام هو من فضائل يوم الجمعة، والمهمّ هنا أنّ تلك الصّفات قد قصرت على الموصوف، وهو يوم الجمعة، فمعنى هذه العبارات: ما خلق إلاّ في يوم الجمعة، وما أدخل الجنّة إلاّ فيه، وما أخرج منها إلاّ فيه.

وهذه العبارات القصريّة كلّها من القصر الحقيقيّ التّحيقيّ. والله أعلم.

قصر قَتْل القاتل، وقَطْع قاطع الرّحم، وقطع يدِ السّارق على المال:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «تقيء الأرض أفلاذ كَبِدها أمثال الأسطوان من الذّهب والفضّة فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع، فيقول: في هذا قَطَعت رحمي، ويجيء السّارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يَدَعُونَه فلا يأخذون منه شيئاً»[٢].

إنّ من علامات يوم القيامة أن تَقْذف الأرض ما خزن فيها من الأموال الطّائلة، وعند ما يراها من دفنوها يعترف كلّ إنسانٍ بما اقترفه من ذنبٍ في سبيل تلك الأموال، ويعبّر كلٌّ منهم عن اعترافه هذا بجملةٍ قصريّةٍ يذكر فيها نوع جريمته وسبب تلك الجريمة. ولَمّا كان المال هو

(١) انظر: شرح النّووي ١٤٢/٦.

(٢) رواه مسلم ٩٨/٧.

والأفلاذ: جمع فلذة، وهي القطعة من الكبد، أو اللّحم. انظر: اللّسان مادة: فلذ، ٥٠٢/٣.

السّبب الوحيد لا غيره في مثل تلك الجرائم ناسب أن يكون القصر هنا بالتّقديم ليؤدّي كلّ هذا المعاني. فقدّم في رأس كلّ جملة اسم الإشارة الدّالّ على المال (ذلك السّبب)، ثم اتّبع بالجرية التي كانت بسببه فكان في ذلك تناسق وإبراز لِخطورة المال.

وهذه الجمل كلّها من قصر الصّفة على الموصوف قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً وتقدير القصر في الجملة الأولى: ما قتلت إلاّ في هذا، وفي الثّانية: ما قطعتُ رحمي إلاّ في هذا،وفي الثّالثة:ما قطعت يدي إلاّ في هذا.والله أعلم.

قصر ولادة النَّبِيّ-صلّى الله عليه وسلّم-وإتيانه الوحي على يوم الاثنين:

سُئِلَ النّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ عن صوم الاثنين فقال: ((فيه وُلِدْتُ وفيه أُنْزِلَ عليّ))(١).

في هذا الحديث يُجيب النّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ (عندما سُئِل عن صيام يوم الاثنين) بجواب يتصوّر منه الإيجاب، ولكنّه لم يصرّح بالإيجاب وإنّما جاء بجملتين قصريّتين فيهما أمران خصّ بهما يوم الاثنين، وفضلان تفرّد بهما هذا اليوم، ففيه وُلِدَ الْمُصْطَفَى ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، وفيه بزغت شمس الرّسالة الخاتمة، فيحسن إذن بِمَن يستطيع من هذه الأمّة صيامَ هذا اليوم المبارك أن يصومه.

---

(١) رواه مسلم ٨/٥٢.

وقد كان لتقديم الجار والمجرور في قوله: «فيه ولدت، وفيه أنزل عليّ»، دلالةٌ على قصر تلك الفضيلتين على يوم الاثنين قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً. والله أعلم.

قصر مناضلة الإنسان على أعضائه:

ضَحِكَ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مَرَّة ثم قال: «هل تدرون مِمَّ أضحك؟ فقال الصّحابة ــ رضي الله عنهم ــ: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربّه يقول: يا ربّ ألم تجرني من الظّلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإنّي لا أجيز عَلَيَّ شاهداً إلاّ منّي. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فَيُختتم على فِيه، فيُقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخَلّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعْداً لكن وسحقاً، فَعَنْكنَّ كنت أناضل»[(١)].

إنّ أمر هذا الرّجل لهو مضحك فعلاً؛ لأنّه قد جمع بين الغباء والحمق، حيث ظنّ أنّه بحيلته هذه سينجو من إدانة الله له على ذنوبه. فنراه قد قصر (إجازة شاهدٍ على نفسه)، قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، فيمنع الله لسانه حينئذٍ من الكلام، ويأذن لأعضائه الأخرى بالكلام، والشّهادة عليه، فتشهد عليه، وعند ذلك يغضب هذا الرّجل من فَشَل محاولته،

---

(١) رواه مسلم ١٨/١٠٥.

ومعنى بعداً، أي: أبعدكن الله. اللّسان مادة: بعد، ٣/٩٠.

ومعنى سحقاً، أي: بعداً كذلك. اللّسان، مادة: سحق، ١/١٥٣.

ويُنْحِي بالسّبّ على أعضائه، وذلك من شدّة حمقه، وما هو ذنب الأعضاء إذا كان هو الذي يحرّكها إلى ما يريد؟! ثم كيف يمكن للأعضاء أن تمتنع من تنفيذ أمر الله الذي إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له: كن فيكون؟!

وبعد أن دعا هذا الرّجل على أعضائه بالهلاك والْبُعد، ذكّرَهُنّ بأنّه ما عمل هذه الحيلة إلاّ ليدفع عنهُنّ الهلاك، وهنّ لم يَكُن أهلاً لذلك الدّفاع.

وقد قصر ــ في كلامه ــ دفاعه ونضاله على كونه من أجل الأعضاء على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ.

وقد جاء بالقصر بطريق التّقديم لما حقّه التّأخير، دون غيره من طرق القصر ــ كما يظهر لي ــ لكي يكون في التّعبير مع الدّلالة على القصر، الدّلالة على الامتنان على أعضائه بهذا العمل. وكذلك الدّلالة على توبيخِهِنّ والاستهزاء بهن، عند ما خَذَلْنَه وهو يريد نُصْرَهن. والله أعلم.

قصر ما لقيته إصبع النَّبِيّ-صلّى الله عليه وسلّم-على كونه في سبيل الله:

دميت إصبع النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مرّة فقال: ((هل أنتِ إلاّ إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت؟))(١).

في هذا الحديث قصران:

---

(١) رواه البخاري ١٩/٦، ومسلم ١٥٥/١٢.

الأوّل: في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «هل أنت إلاّ إصبع دميت»، وقد سبق الحديث عنه في فصل النّفي والاستثناء.

والثّاني: هو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «وفي سبيل الله ما لقيت»، حيث قصر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ما لقيته إصبعه على كونه في سبيل الله وحده، دون أيّ سبيل أخرى على وجه العموم، وعلى هذا فهو قصر حقيقيّ ثم تحقيقيّ لتحقّق ذلك فعلاً.

وهكذا نلاحظ كلمات الإخلاص منه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في كلّ حالٍ من أحواله في حال الرّضا، والغضب وفي حال الرّاحة والتّعب.

قصر ما يريده النَّبِيّ-صلّى الله عليه وسلّم-من مناداة اليهود على تبليغهم:

انطلق النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وأصحابه إلى اليهود، فلَمّا وصل إليهم نادى عليهم فقال: «يا معشر يهود! أسلموا تَسلموا»، فقالوا: قد بَلَّغت يا أبا القاسم، فقال: «ذلك أريد...» الحديث[١].

في هذا الحديث قصرٌ بطريق التّقديم؛ حيث قُدِّمَ المفعول على الفعل في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ذلك أريد»؛ إذ المقصود «كما هو واضح من سياق الحديث: «ما أريد إلاّ ذلك»، على سبيل القصر الحقيقيّ للصّفة التي هي: إرادته ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على الموصوف وهــو إقرارهم واعترافهم بتبليغه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ذلك لهم.

---

(١) رواه البخاري. انظر: فتح الباري ٣١٧/١٢، ومسلم ٩٠/١٢.

وهو من القصر الحقيقيّ؛ لأنّه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لا يريد منهم إلاّ ذلك الأمر دون غيره. والله أعلم.

قصر تحريم الفواحش على غَيْرةِ الله (وصور أخرى):

قال سعد بن عبادة[١]: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربْتُه بالسّيف غير مُصْفِح، فبلغ ذلك رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فقال: «أتعجبون من غَيْرةِ سعد، والله لأنّا أغير منه، والله أغير منِّي، من أجل غيرة الله حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث المبشِّرين والمنذرين ولا أحد أحبّ إليه المدحة من الله، من أجل ذلك وعد الله الجنّة»[٢].

نلاحظ في هذا الحديث ثلاث عبارات قصريّة، القصر فيها بطريق التّقديم:

أوّلها: قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «من أجل ذلك حرّم الله الفواحش...».

والثّانية: قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «من أجل ذلك بعث الْمُبشِّرين والْمُنذرين».

---

(١) هو: سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي الأنصاري، أحد الأمراء الأشراف في الجاهلية، شهد العقبة مع السّبعين، وأحد النّقباء الاثني عشر. توفّي سنة: ١٤هـ بالشّام. انظر: الأعلام ٣/١٣٥.

(٢) رواه البخاري ١٣/٣٩٩.

والثّالثة: قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((من أجل ذلك وعد الله الجنّة)).

وقد قدّم الجار والمجرور على فعله في كلّ واحدٍ منها، ولهذا يكون المعنى في تلك الجمل: ما حرّم الله الفواحش إلاّ من أجل ذلك (أي: من أجل غيرته سبحانه وتعالى)، وما بعث الله الْمُبشّرين والْمُنذرين إلاّ من أجل ذلك (أي: من أجل حبّه تعالى العذر)، وما وعد الله الجنّة إلاّ من أجل ذلك، (أي: من أجل حبّه تعالى المدحة).

هذا، ويرى بعضُ العلماء أنّ ذكر المدح مقروناً بالغيرة والعذر تنبيهاً لسعد على أن لا يعمل بمقتضى غيرته، بل يتأنّى حتّى يحصل على وجه الصّواب، فينال المدح والثّواب[1].

ولعلّ هذا أفضل تعليل لتسلسل هذه المعاني في الحديث. والله أعلم.

---

(١) انظر: فتح الباري ١٣/٤٠٠.

المطلب الثّاني: أسرار القصر الإضافي:

قصر الجهادِ على الوالدين:

جاء رجلٌ إلى النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ يستأذنه في الجهاد، فقال له النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «أَحَيٌّ والداك؟»، قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»(١).

ندرك من هذا الحديث فضل رعاية الوالدين، وأنّ في ذلك من الثّواب والفضل ما يضاهي أجر الجهاد في سبيل الله، فعندما سأل هذا الرّجل النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أن يأذن له في الجهاد، أدرك النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ (إمّا عن طريق الوحي وإمّا أنّ أحداً أخبره) أنّ لدى هذا الرّجل أبوين يحتاجان إلى الرّعاية وبعد أن سأله عنهما أمره أن يقوم على شؤونهما، ويدع الجهاد في سبيل الله، فالجهاد لمثل هذا الرّجل في الوالدين أولى من الجهاد في سبيل الله، وقد كان أمر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ له بجملةٍ قصريّةٍ؛ حيث قدم الجار والمجرور «ففيهما» وكان المجرور هو الضّمير العائد على الوالدين، ومعنى العبارة: لا تجاهد إلاّ فيهما.

والقصر هنا إضافي ـــ كما هو الظّاهر من الحديث ـــ؛ إذ المعنى: لا تجاهد بالقتال في سبيل الله، وإنّما جاهد في أبويك.

---

(١) رواه البخاري. انظر: فتح الباري ١٤٠/٦، ومسلم ١٠٤/١٦.

وهو من قصر القلب؛ لأنّ الرّجل كان يعتقد أنّ الجهاد هو في سبيل الله فقط، فأعلمه النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أنّ القيام بشؤون الأبوين جهادٌ عظيمٌ، وهو من التّحقيقيّ؛ لأنّ الأمر فيه على سبيل الحقيقية لا على سبيل المبالغة في فضل رعاية الوالدين.

وقد استخدم طريق التّقديم ــ كما يظهر لي ــ للدّلالة على القصر والدّلالة على الاهتمام بشأن الوالدين أيضاً.

هذا، وفي الحديث من الفوائد:

أنّ برّ الوالدين قد يكون أفضل من الجهاد. قال العلماء: يحرم الجهاد إذا منع الأبوان، وهذا إذا كان الجهاد فرض كفاية، إمّا إذا كان فرضَ عينٍ فلا[١].

وهناك ملاحظة أخرى؛ وهي: أنّه يجوز التّعبير عن الشّيء بضدّه إذا فُهم المعنى؛ لأنّ صيغة اللّفظ وهي قوله ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ: «ففيهما فجاهد»، يقتضي (على ظاهره) إيصال الضّرر لهما، وليس المراد، بل المقصود: ففي بِرّهما نفسكَ فجاهد[٢]. أو ففي سبيل راحتهما فجاهد. والله أعلم.

قصر طلوع قرن الشّيطان على نجد:

قال النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مرّة: «اللهم بارك لنا في

---

(١) انظر: فتح الباري ٦/١٤٠.

(٢) انظر: بهجة النّفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها؛ لأبي جمرة الأندلسي٣/١٤٥.

شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا: يا رسول الله: وفي نجدنا، فقال: اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا: يا رسول الله: وفي نجدنا، فقال: هناك الزّلازل والفتن وبها يطلع قرن الشّيطان»(١).

يدعو النَّبيّ ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ لأهل الشّام وأهل اليمن، والشّام واليمن هما: جهتا الشّمال والجنوب بالنّسبة للمدينة المنورّة، وقد سأل الصّحابة النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أن يدعو لأهل نجد، (ونجد هو الشّرق بالنّسبة للمدينة)(٢)، ولكنّه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أعاد عليهم دعاءه لأهل الشّام واليمن مرّة أخرى.

ثم لَمّا أعادوا عليه سؤالهم أَخبَرهم أنّ السّبب الذي من أجله ترك الدّعاء لأهل المشرق هو كثرة الزّلازل والفتن وطلوع قرن الشّيطان بها. هذا، وقيل: إنّ سبب تركه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ الدّعاء لهم ليضعفوا عن الشّرّ الذي هو موضوع في جهتهم»(٣).

---

(١) رواه البخاري ١٣/٤٥.

قرن الشّيطان، قيل: إنّه قُوَّته. وقيل: إنّ الشّيطان يقرن رأسه بالشّمس عند طلوعها، ليقع سجود عبدتها له، وقيل غير ذلك. انظر: الفتح ١٣/٤٦.

(٢) والدّليل على أنّ المراد بذلك جهة الشّرق: أنّ البخاري صنَّف هذا الحديث تحت باب بعنوانٍ: «باب قول النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: الفتنة من جهة المشرق».

وكذلك قول الخطّابي: «نجد: من جهة المشرق، ومَن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق». انظر: فتح الباري ١٣/٤٧.

(٣) انظر: فتح الباري ١٣/٤٦.

هذا، ويظهر لي ـــ أنّ ـــ ترك النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الدُّعَاءَ لهم بالبركة هو أنّ معنى البركة الزّيادة في الشّيء، ولا تحسن الزّيادة إلاّ في الْخَير، أمّا في الشرّ فلا يصلح الدُّعاء له بالنّماء والزّيادة. لذلك ترك الدُّعاءَ لهم بالبركة، وليس معنى ذلك أنّه ترك الدُّعاءَ لهم مطلقاً، ولكن الدّعاء الذي يصلح لهم غير هذا كالدّعاء لهم بأن يكفيهم الله شرَّ تلك الفتن، ونحو ذلك.

هذا وقد قصر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الصّفة وهي طلوع قرن الشّيطان على الموصوف وهو كونه من الْمَشرق على سبيل القصر الإضافي، كما هو واضح؛ إذ إنّ نفي المقصور هنا عن الشّام واليمن فقط (كما هو ظاهر الحديث).

وهذا القصر هو من التّعيين؛ لأنّ المخاطبين كانت أذهانهم خالية من هذا الأمر، فلا يعرفون عن طلوع قرن الشّيطان شيئاً.

وهنا نتساءل لِمَ لَمْ يذكر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ والصّحابة جهة الغرب؟ ألأنّها معدومة من الْخَير والشَّرّ مثلاً، أم هي داخلة ضمن الشّام واليمن، أو لغير ذلك؟ لم أعرف، ولم أجد تعليلاً لذلك التّساؤل. والله أعلم.

المبحث الثّاني: تقديم الْخَبَر على الْمُبْتَدأ

قصر الغلول على فئةٍ معيَّنةٍ أو رجلٍ معيَّنٍ:

ذكر النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أنّ نبيّاً من الأنبياء غزا ففتح الله عليه، وذكر قصّته، يقول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «فجمع الغنائم فجاءت ــ يعني النّار ــ لتأكلها، فلم تطْعَمْها، فقال: إنّ فيكم غلولاً، فليبايعنِي من كلّ قبيلةٍ رجلٌ، فلزقت يد رجلٍ بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتُبايعنِي قبيلتُك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس بقرة من الذّهب فوضعوها فجاءت النّار فأكلتها، ثم أحلّ الله لَنَا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا فأحَلَّها لنا»(١).

لقد كانت الشّرائع قبلنا لا تبيح أخذ الغنائم للمجاهدين في سبيل الله، وكانوا إذا غنموا غنيمةً بعث الله عليها النّار لتَأكلها(٢).

وفي الحديث أنّه لما جاءت النّار ولم تأكل الغنائم كان هذا إيحاء من الله بأنّ تلك الغنائم قد نَقَصت وغُلَّ منها شيء، وتلك من المعجزات لذلك النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ، ثم أوحى الله إليه الطريقةَ التي يعرف بها مَن الذي اختلس من الغنائم، حيث صافح من كلّ قبيلةٍ واحداً، فلما لزقت يد أحدهم في يده قال له عبارةً قصريّةً: «فيكم الغلول»، ثم قال: فلتبايعنّي قبيلتك، فلما بايعته لزقت يد الغالّين في يده، عند ذلك قال لهم:

(١) رواه البخاري ٦/٢٢٠، ومسلم ١٢/٥٢.

(٢) انظر: الفتح ٦/٢٢٣، وشرح مسلم ١٢/٥٢.

((فيكم الغلول))، والعبارة هذه قدّم فيها الجار والمجرور على المبتدأ، وكان القصد من هذا التّقديم القصر؛ لأنّ المقام مقام تحديد، وحصر لتهمة الاختلاس والغلّ فيمَن هي فيه؛ لأنّ التّهمة تكون في البداية عامّة، ثم تحصر وتحصر، حتّى يُلَبّس بها المجرم دون غيره.

ومعنى الجملة: ((ما الغلولُ إلاّ فيكم))، وهذا هو المقصود قطعاً من تلك العبارة.

وهذا القصر هو من قصر الصّفة وهي الغلول على الموصوف وهو صاحب الغلّ، على سبيل القصر الحقيقيّ لعموم النّفي فيه عن بقية القبائل في العبارة الأولى، وعن بقية أفراد القبيلة المتّهمة في العبارة الثّانية. وهو من التّحقيقيّ؛ لأنّ الأمر فيه على سبيل الحقيقة والوحي لا على سبيل المبالغة.

وأمّا التّقديم في قوله: ((فيكم غلولاً)) فليس للقصر وإنّما لتسويغ الابتداء بالنّكرة.

قصر السّلام على كونه من الله تعالى:

كان رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: ((اللهم أنت السّلام، ومنك السّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام))(١).

---

(١) رواه مسلم ٥/٨٩.

أمّا قوله: ((أنت السّلام)) فسوف يأتي تحليله في موضعه. انظر ص: ٥٩٢ من هذا البحث.

نلحظ في هذا الحديث تقديماً للخبر على المبتدأ في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ومنك السّلام» وهذا التّقديم مفيد ومشعر بالقصر حيث قصرت صفة السَّلام على كونها من الله تعالى على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ.

هذا وقد يقال: إنّ في هذه الجملة طريقين للقصر:

الأوّل: هو بتقديم ما حقّه التّأخير.

والثّاني: بتعريف المبتدأ بلام الجنس.

والمقصور عليه هو المقدَّم في كلا الطّريقين، وهذا يدل على زيادة تأكيد هذا الأمر، وأنّ السّلام منه سبحانه وحده لا شريك له.

والقصر هنا مؤكّد لمجيئه بطريقين في عبارةٍ واحدةٍ؛ وكأنّ هذه العبارة كرّرت مرّتين على سبيل التّوكيد اللّفظي؛ وذلك لأهمّية هذا الأمر. والله أعلم.

قصر إثم مَن يرأسهم هرقل عليه:

كتب النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إلى هرقل الرّوم بعد الاستفتاح بالحمد والثّناء على الله أما بعد؛ فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّ عليك إثم الإريسين...» الحديث[1].

---

(١) رواه البخاري ٣٢/١، ومسلم ١٠٩/١٢.

والإريسون: هم الضّعفاء والأتباع والرّعايا لهذا الرّئيس.

في هذا الحديث نرى أنّ النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يُنْذِر هرقل الرّوم من مغبّة إعراضه عن الإذعان لأمر الله تعالى، وأنّه إن أعرض وتولّى عن هذه الدَّعوة فسيَتَحَمّل إثمه وإثم مَن تبعه(١).

وقد عبّر النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هنا بعبارةٍ قصريّةٍ وهي: «إنّ عليك إثم الإريسين»، ومعناها: ما إثم الإريسين إلاّ عليك لا على أنفسهم. هذا هو ظاهر الحديث، وبهذا يكون القصر هنا قصراً إضافياً للتّعيين.

ولعلّ الحكمة من احتماله إثم الإريسين هي: أنّه السّبب في صدّ الهدى والْخَير عنهم، فهو يتحمّل إثمهم، وهم يعفون مَن تبعه ذلك؛ لأنّه لم تقم عليهم الحجّة كما أنّه لا يستطيع أن يسلم منهم أحدٌ ما دام الْمُتحكّمُ في رقابهم كافراً، فالنّاس على دين ملوكهم، والتّعبير هذا يختلف ــ في نظري ــ عنه لو قال: فإنّ عليك مثل إثم الإريسين، إذ إنّهم (عند ذلك) يأثمون بِتَرْكِهم الهدى بعد العلم. والله أعلم.

هذا، وقد جاءت هذه الجملة مؤكّدة بأكثر من مؤكّدٍ، فقد أكّدت بالقصر وباسمية الجملة، وبإنّ، وذلك كلّه لكي تقرع هذه المؤكّدات ذلك الكافر قرعاً فيعلم بخطر العناد، والإعراض عن الحقّ، ثم إنّ في هذه العبارة إيجازاً شديداً، وذلك ليتناسَبَ مع مقام الرّسالة، حيث كانت العرب توجز في رسائلها، وتجعلها في كلمات معدودة. والله أعلم.

---

(١) انظر: الفتح ٣٩/١.

قصر الحمد على الله تعالى:

كان رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يقول: ((سمع الله لِمَن حمده، حين يرفع صلبه من الرّكعة، ثم يقول وهو قائم: ربّنا ولك الحمد))(١).

ففي قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: لك الحمد قصران:

أحدهما: بتقديم الْخبر، وهو الجار والمجرور.

والثّاني: بتعريف الْخَبر باللاّم، وهو من قصر الصّفة، وهي الحمد، على الموصوف وهو كونها لله على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ. هذا (وفي الغالب) إذا جاء القصر بطريق التّقديم في الجملة الاسمية يكون الْمُبتدأ فيه مقترناً باللام ولعلّ ذلك يُعَزّز معنى القصر في هذه الجملة أكثر. والله أعلم.

(١) رواه البخاري ٢٧٢/٢، ومسلم ١٢١/٤.

المبحث الثّالث: تقديم المسند إليه على خبره الفعليّ والياً حرف نفي

أوّلاً: ما كان الْخَبَر فيه اسماً مُشْتَقّاً:

أمّا ما تقدّم فيه المسند إليه والياً حرف نفي، وكان خبره اسماً مشتقاً، فقد أتى عليه عدد قليل من الشّواهد، وكلّها غير مفيدة للقصر بل إنّنا في بعضها نقطع قطعاً أنّها لا تفيد القصر. وسأذكر هنا عدداً من تلك الشّواهد.

كان النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قبل البعثة يتعبّد في غار حراء ثم جاءه الْمَلَك بالوحي فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ... فعل به ذلك ثلاثاً[١].

ففي قول النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: «ما أنا بقارئ» تقديم المسند إليه (أنا) على خبره والياً حرف نفي، والخبر اسمٌ مشتقٌّ وهو (قارئ). ذكر ابن حجر: «أنّ معناه ما أحسن القراءة، وقال: قيل: إنّ هذا التّركيب يفيد الاختصاص، وردّ الطِّيبي[٢] بأنّه إنّما يفيد التّقوية والتّأكيد

(١) رواه البخاري ١/٢٢، ومسلم ٢/١٩٩.

(٢) هو: الحسين بن عبد الله شرف الدّين الطِّيبي من علماء الحديث والتّفسير والبيان. آية في استخراج الدّقائق من الكتاب والسّنة من كتبه: البيان في المعاني والبيان، والخلاصة في معرفة الحديث، وغيرهما. توفّي سنة: ٧٤٣هـ. انظر: الأعلام ٢/٢٨٠.

والتّقدير: ليست بقارئ البتة»[١].

وقال العيني عند تفسيره لهذه العبارة: «قيل: إنّ مثل هـذا يفيد الاختصاص. قال الطِّيبي: مثل هذا التّركيب لا يفيد الاختصاص بل قد يفيد التّقوية والتّوكيد، أي: لست بقارئ البتة لا محالة، وهو الظّاهر هنا والمناسب للمقام»[٢].

نرى الطيبي ينصّ على أنّ مثل هذا التّركيب لا يفيد القصر.

هذا، وقد وردت بعض الشّواهد الشّبيهة بهذا الشّاهد ولكنها لا تفيد القصر قطعاً منها: أنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ اعتزل نساءه مرّة تسعاً وعشرين ليلةً من أجل الحديث الذي أفشته حفصة إلى عائشة ــ رضي الله عنهما ــ وقال ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ: «ما أنا بداخلٍ عليهن شهراً...» الحديث[٣].

فقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ما أنا بداخلٍ عليهن شهراً»، هو من التّقديم الذي قد يَتوهّم بعض الدّارسين أنّه يفيد القصر، ولكن كما هو واضح فهو لا يفيد القصر ولا يعني (كما يقول البلاغيّون) أنّ

---

(١) انظر: الفتح ١/٢٤.

(٢) عمدة القارئ للعينِي ١/٥٨.

(٣) رواه البخاري ٩/٢٧٩.

والسّبب في اعتزال نسائه هو: إفشاء حفصة الحديث الذي أسَرَّه لها النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، إلى عائشة ــ رضي الله عنها ــ في قِصَّة العسل المعروفة. انظر: فتح الباري ٩/٢٨٩.

الْمُتَكَلِّم ينفي به عن نفسه شيئاً ثبت أنّه مفعول. فليس قصد النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ شَرَّفه الله وشرّف نساءه ــ أنّ غيره داخلٌ عليهن، وإنّما قصده مجرّد النَّفْي مع التّأكيد فقط. وكأنّه قال: لا أدخل عليهن شهراً. والله أعلم.

ثانياً: ما كان الْخَبر فيه فِعْلاً:

أمّا بالنّسبة لتقديم المسند إليه على خبره الفعلي والياً حرف نفي، فلم أجد له إلاّ شاهداً واحداً، وهو شاهدٌ تكرَّر كثيراً في كُتُب البلاغة، وقد جاء هذا الشّاهد في قصّة الأشعريّين عندما جاؤوا إلى النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ليحملهم فقال لهم النَّبِيّ: ((والله لا أحملكم، وما عندي ما أحملكم عليه، فلبث مدّة ثم أُتِي بإبلٍ فأمر لهم بثلاث منها، فلمّا أخذوها قال بعضهم لبعض: لا يبارك الله لنا، أتينا النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ نَسْتَحْمِله، فحلف أن لا يحملنا ثم حَمَلَنا، فارجعوا بنا إلى النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فنذكره فأتوه فقال لهم: ما أنا حملتكم، بل الله حملكم...)) الحديث[1].

---

(١) رواه البخاري ٥١٧/١١، ومسلم ١٠٩/١١.

وهنا رواية أخرى في البخاري يقول فيها النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((لستُ أنا حملتكم ولكنّ الله حملكم)). ٢٢٦/٦.

وهناك رواية أخرى في البخاري، يقول فيها النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((انطلقوا فإنّما حملكم الله)) ٦٠٨/١١..وهذه الرّواية جاء القصر فيها بإنّما.

نرى في هذا الحديث أنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لَمّا لم يجد إبلاً يحمل القوم أثقالهم عليها اعتذر إليهم، ثم لَمّا رَزَقَه الله الإبلَ أعطاهم منها، وعندما عادوا إليه للاعتذار عن إلحاحهم في المسألة قال: لهم: «ما أنا حملتكم بل الله حملكم»، وهو يريد بذلك إضافة هذا الفضل إلى الله تعالى، وأنّه سبحانه هو الذي يسَّر ذلك.

إلاّ أنّه على رأي جمهور البلاغيّين أنّ المقصور هنا هو الحمل المنفي على نفسه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، وقد خالفهم في ذلك العلاّمة السّلسكوتي فجعل أنّ المقصور هو الحمل المثبت على الله تعالى.

أما رأيي في هذه المسألة فهو أنّ القصر الحاصل ليس من جملة: «ما أنا حملتكم»، وإنّما فُهم من السّياق كلّه فهو قصر لغويّ[1]. وقصر فيه الحمل المثبت على الله تعالى.

---

(١) هذا وإنّ القصر لم يأت من بل، أو لكن، فهما ليستا العاطفتين، والدّليل على أنّ القصر ليس منهما، أننا لو حَذَفناهما وقلنا: ــ في غير الحديث ــ: ما أنا حملتكم، الله حملكم، لاستقام المعنى. والله أعلم.

المبحث الرّابع: شواهد تقديم النّكرة على الفعل:

أمّا تقديم النَّكرة على فعلها فلم أجد في أحاديث الصّحيحين أيَّ شاهدٍ يفيد أنّ مثل هذا التّقديم يفيد القصر ــ كما أوجَبَ ذلك بعض علماء البلاغة ــ، بل الذي وجدته لا يفيد القصر قطعاً، وذلك مثل قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((بينما رجُل يَتَبَخْتَر يمشي في برديه، قد أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة))(١).

ففي هذا الحديث ليس المراد بالتّقديم في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((رجلٌ يمشي)) القصر قطعاً، ولا يُمْكِنَنا أن نَتَأَوَّلَ قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((بينما رجلٌ يمشي))، بتأويل: لا رجلان، أو لا امرأة ــ كما يقول البلاغيّون ــ ولو أوّلناه لما كان هناك من فائدة. ولكنّ المراد من هذا التّعبير مجرّد الإخبار عن رجلٍ كان يمشي متكبِّراً، فَحَلَّ به ذلك العقاب المذكور في الحديث. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم ١٤/٦٤.

الفصل الخامس: أسرار القصر بالعطف بـ: (لا، وبل، ولكن) في أحاديث الصّحيحين

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: شواهد القصر بـــ: (بل).

المبحث الثّاني: شواهد القصر بـــ: (لا).

المبحث الثّالث: شواهد القصر بـــ: (لكن).

لقد بَيّنْتُ في الفصل الأوّل شروط البلاغيّين والنّحاة التي قيّدوا بها دلالة العطف على القصر، وأمّا الآن فسأحاول جاهداً أن أبيّن مدى التّطابق بين ما قاله البلاغيّون، وبين ما في الصّحيحين، وإنّني (وبعد قراءتي في الصّحيحين) لم أجد من شواهد القصر بالعطف إلاّ مجموعة تُعَدّ على الأصابع، وقد حاولتُ في نهاية هذا البحث، تعليل نُدْرة مثل هذه الشّواهد.

أمّا الآن فسوف أحلّل ما عثرت عليه من الشّواهد:

المبحث الأوّل: شواهد القصر بـ: (بل):

لم أجد من شواهد القصر بهذا الحرف إلاّ بضعة شواهد، رأيت أنّها تحقّق معنى القصر بطريقٍ مخصوصٍ، أعني أنّها تفيد القصر من خلال جملةٍ واحدةٍ لا من خلال جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية.

وأمّا الشّواهد الأخرى التي وردت فيها هذه الحروف فلم تكن مفيدةً للقصر وإنّما لمجرّد التّأكيد، أو نحو ذلك، وقد استفيد القصر من سياق الكلام، حيث ذكرت فيه الجملة المثبتة والمنفية معاً، ولبيان ذلك أعرض لهذا الشّاهد من أقواله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ:

(قصر أُبوّة اليهود على شخصٍ محدّد):

وذلك أنّه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ قال لليهود مرّة: إنّي سائلكم عن شيءٍ فهل أنتم صادقيّ عنه؟ فقالوا: نعم. فقال لهم النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((مَن أبوكم؟))، قالوا: فلان. فقال: ((كذبتم. بل أبوكم فلان))(١).

في هذا الحدث نرى أنّ النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عندما سأل اليهود عن أبيهم ـــ لا أبا لهم ـــ فأجابوه عن ذلك بجوابٍ كذبٍ، فقال لهم النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((كذبتم))، ثم أخبرهم، وقال: بل أبوكم فلان. والمعنى: ما أبوكم إلاّ فلان، لا ما ذكرتم.

---

(١) رواه البخاري ٢٧٢/٦، وفلان هذا المجهول لم أجد مَن هو؟

وهنا وإن كان في كلامه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ معنى القصر، فإنّ هذا المعنى لم يأتِ به الحرف (بَل) بل أتى من جملتين:

الأولى: منفيّة (وهي ما أبوكم فلان والتي نابت عنها كلمة «كذبتم»)، أي: أنّها نفت كلامهم.

والثّانية: مثبتة (وهي: أبوكم فلان).

وهما جملتان تامّتان، وَبَل هنا كأنّها لمجرّد توكيد القصر فحسب؛ إذ لو قلت: (ما أبوكم فلان، أبوكم فلان) لاستقام المعنى، وحصل القصر، فهذا نموذج على تلك الشّواهد التي تؤكد فيها "بل" القصر. ولن أطيل في هذا الموضوع ما دام لا يفيد القصر بطريق العطف.

وبعد هذا العرض لما وردت فيه بل غير مفيدة للقصر، نعود إلى ما نحن بصدده وهو التّحليل للشّاهد القصريّة بـــ: (بل).

قصر التّحلّل من الحجّ إلىالعمرة على كونه للنّاس عامّة:

إنّه عندما دخل النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ وأصحابه مكّة المكرّمة للحجّ في الرّابع من ذي الحجّة في السّنة العاشرة للهجرة أمر النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ مَن لم يسق الهدي أن يجعلها عمرةً ثم يتحلّل بعد ذلك ويُحرم للحجّ، فَشَقّ ذلك على بعضِ الصّحابة، فقال: يروح أحدنا إلى منى، وذكره يقطر منيًّا؟! فبلغ ذلك النّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فقام خطيباً وقال: «بلغني أنّ أقواماً يقولون: كذا وكذا، والله لأنا أَبَرُّ وأتقى لله منهم، ولو أنّي استقبلت من أمري ما استدبرت ما

أهديتُ، ولولا أنّ معي الهدي، لأحللت فقام سراقة بن مالك ــ رضي الله عنه ــ فقال: يا رسول الله! أهي لنا أو للأبد؟ قال: لا. بل للأبد»[١].

سأل سراقة بن مالك ــ رضي الله عنه ــ عن جواز العمرة في أشهر الحجّ هل هو خاصّ بتلك الحجّة أم أنّه عام لكلّ حج؟

وليس السّؤال عن جواز فسخ الحجّ إلى العمرة؛ لأنّ ذلك (كما يرى جماهير أهل العلم) خاصّ بحجّتهم تلك، لورود نصوصٍ تؤكّد ذلك، وإنّما أمروا بذلك الفسخ في تلك السّنة ليُخالفوا ما كانت عليه الجاهلية من تحريم العمرة في أشهر الحجّ[٢].

وعندما سأل سراقة عن ذلك الأمر، أجابه النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بعبارةٍ قصريّة تَنْفي الشّكّ وتوضّح المعنى وتجليه غاية الجلاء.

وفي تلك العبارة القصريّة (لا بل للأبد) إيجاز بالحذف، حيث حُذِفَ صدر جملة القصر، وأُنِيب عنه بكلمة: (لا) وتقدير المحذوف: ليست لكم خاصّة بل للأبد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلّ شاهدٍ من شواهد العطف بـ: (بل) هو من هذا النّوع الذي يحذف فيه صدر جملة القصر، وفي نهاية المبحث سأعطي بعض تعليل لذلك.

---

(١) رواه البخاري ١٣٨/٥، ومسلم ١٧٩/٨.

وفي رواية مسلم يقول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «بل لأبد أبد».

(٢) انظر: شرح العيني على صحيح البخاري ١٢٢/١٠، وانظر: أدلّة ذلك في هذا الجزء والصّفحة المذكورين.

والقصر في هذه العبارة: (لا بل للأبد) للموصوف وهو جواز العمرة في أشهر الحجّ على الصّفة وهي كونه للأبد على سبيل القصر الإضافي كما هو واضح؛ إذ المقصود نفي أن يكون هذا الأمر خاصّاً بهم، وهو من التّحقيقيّ لتحقّق ذلك فعلاً كما ذكر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ.

وهو من قصر التّعيين؛ لأنّ سراقة ــ رضي الله عنه ــ كان مُتَرَدِّداً في الأمر كما هو واضح من سؤاله، فعيَّن له النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ الأمر وأكّده.

ويحتمل أن يكون سراقة ــ رضي الله عنه ــ ظنّ العكس فقلب له النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ المعنى فيكون من القلب. والله أعلم.

قصر طلب النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ جمل جابر ــ رضي الله عنه على البيع:

عن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ يحكي قصّته حيث كان مع النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في سفرٍ وكان جابر على جملٍ هزيلٍ لا يسير إلاّ في آخر القوم، يقول جابر: فَمَرَّ بِيَ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فقال: مَن هذا؟ قلت: جابر بن عبد الله، قال: ما لك؟ قلت: إنِّي على جملٍ ثُقَالٍ[1]. فقال: أمعك قضيبٌ؟ قلت: نعم. قال: أعطينه، فأعطيته، فضربه وزجره، فكان من ذلك المكان من أوّل القوم. قال:

---

(١) ثقال: أي: بطيء السّير.

بِعْنِيه. قلت: هو لك يا رسول الله! فقال: بل بِعْنِيه، قد أخذته بأربعة دنانير ولك ظَهْرُه إلى المدينة»[1].

عندما رأى جابر رغبة النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في بعيره أراد أن يهديه إليه، ولكنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أجابه بعبارةٍ قصريّةٍ موجزةٍ يلحّ فيها على طلبه. وقال له: «بل بعنيه»، وهذه العبارة على اختلاف رواياتها هي كسابقها، حُذِفَ منها صَدْرُ جملة القصر وهذا المحذوف ــ كما يظهر لِي ــ هو: «لا تهدنيه إيّاه بل بعنيه».

وهُنا يكون القصر للصّفة (رغبة النَّبِي ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ) على الموصوف (البيع) على سبيل القصر الإضافي كما هو واضح.

وهذا القصر من قصر القلب؛ لأنّه قلب المقصود الذي كان جابر يأملُه، وهو من التّحقيقيّ؛ لأنّ ذلك حقيقة ما قال النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وما أراده أيضاً. والله أعلم.

قصر عمل الإنسان على ما جَفَّت به الأقلام:

جاء سراقة بن مالك بن جعشم إلى النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فقال: يا رسول الله! بيِّن لنا ديننا، كأنّنا خُلِقنا الآن، فيم العمل، أفيما جَفَّت الأقلام، وجَرَت به المقادير أم فيما نستقبل؟ قال: بَل فيما جَفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير... الحديث[2].

---

(١) رواه البخاري. انظر: فتح الباري ٤/٤٨٥، ومسلم ١١/١٣.

(٢) رواه مسلم ١٦/١٩٧، وقوله مَيَسَّر أي: مَيَسَّر لما خلق له.

ويقابلنا سُراقة بن مالك ــ رضي الله عنه ــ مرّة أخرى ليسأل رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن أمرٍ مهمٍّ وهو ما عُرف فيما بعد بمسألة الْجَبْر والاختيار، أي: هل يعمل الإنسان ما يشاء مختاراً، أم أنّه مُسَيَّر بما قد كتب له من قبل؟

وقد أجاب النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ عن سؤال سراقة الأوّل بجملةٍ قصريّةٍ مؤكَّدةٍ لا يتطرق إليها شكّ أو لبس، وكانت العبارة مقصورةً بحرف العطف (بل) هذا الحرف الذي كثيراً ما يستخدم إذا أراد المتحدِّث أن يثبت أمراً تردّد فيه المخاطَب، فَيَنْفي الشّكّ ويثبت اليقين، وكأنّ حدَّة هذا الحرف في الفصل بين المعاني أكثر من أخويه الآخرين (لا، ولكن) العاطفتين.

وهذه الجملة القصريّة: «بل فيما جَفَّت به الأقلام»، حُذِفَ منها صدرها الأوّل لدلالة الكلام عليه ولم يَنُب عنه شيء كما نابت (لا) عنه في الشّاهدين السّابقين.

لا أدري لعلّ السّبب أنّ الجواب كان من العَجَلة بمكانٍ بحيث لم يَعُد هناك مكان لما ينوبُ عن المحذوف في هذا المقام؛ لأنّ الأمر هذا خطير

= وفي روايةٍ أخرى: «أنّ رجلين من مزينة سألا النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فقالا: أرأيت ما يعمل النّاس اليوم، ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم، ومضى فيهم من قدرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به، مما أتاهم به نبيّهم وثبتت الحجّة عليهم فقال: لا بل شيءٍ قضى عليهم ومضى عليهم». رواه مسلم ١٦/١٩٩.

وهو من قصر الموصوف (ما يكدح فيه النّاس) على الصّفة وهي شيء يقضي عليهم.

جدّاً، وخصوصاً على مَن يفهمه بطريقةٍ خاطئةٍ، كما فعلت الفِرَقُ التي خاضت في هذه القضية حتّى انحدر بها هذا الخوض في شعب الضّلال والانحراف.

والنَّبيّ ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ كان سريع الرّدّ على سراقة حتّى لا يدع لهذه الْحَيْرة لحظةً واحدةً في نفس سراقة؛ لأنّ هذا الأمر لا طاقة لأحدٍ بمعرفته بعقله إلاّ ببيانٍ من عند الله تعالى. لهذا كلّه بادر النَّبِيّ ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ بالجواب، وكانت هذه العبارة القصريّة، هي جوهر التّحقيق في هذه المسألة وقد جاءت موجزة حيث اقتصر على ذكر أهمّ ركنين من أركان القصر، وهما: المقصور عليه، وأداة القصر، أمّا الأمر المعلوم فقد تجاوز ذكره.

وجاء القصر في هذه الجملة للموصوف (وهو العملُ) على الصّفة وهي (ما جَفَّت به الأقلام)، وجرت به المقادير وهو من القصر الإضافي كما هو واضح؛ إذ ليس العمل فيما يستقبل من الأمور.

وهذا القصر هو من قصر التّعيين؛ إذ المخاطَب هنا متردِّد ومُتَحَيِّرٌ لا يدري أيّ الأمرين صوابٌ وأيّهما خطأ؟ وهو من التّحقيقيّ لتحقّق ذلك فعلاً كما قاله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ. والله أعلم.

قصر تكفير الصّلاة لصغائر الذّنوب على كون ذلك للنّاس كافّة:

جاء رجل إلى النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فقال: يا رسول الله إنِّي عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإنّي أصبت منها ما دون أن

أمسّها، فأنا هذا، فاقض فِيَّ ما شئت، فلم يَردّ عليه النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فقام الرّجل فانطلق، فأتبعه النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[هود: ١١٤]، فقال رجلٌ من القوم: يا نَبيَّ الله! هذا لنا خاصّة؟ قال: بل للنّاس كافّة»(١).

سأل هذا الرّجل النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: هل هذا الفضل خاصّ بنا أم هو للبشر جميعاً؟ فأجابه النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بأسلوب القصر، بطريق العطف وهو الطّريق الأمثل للرّد على مثل هذه التّساؤلات، فَقَصر له الموصوف (وهو تكفير الحسنات للسّيّئات) على الصّفة (وهي كونه للأبد) ونفاها عن كونها خاصّة بهم.

وقد جاء القصر هنا لِيُعَيِّنَ للمخاطَب ما كان غير مُتَعَيِّن لديه وما كان متردّداً في فهمه، وهو من التّحقيقيّ ولا شكّ؛ لأنّه مُتَحَقّق في الواقع إلى أن تقوم السّاعة، فلله على ذلك الحمد والثّناء.

---

(١) رواه مسلم ١٧/٨٠.

والمراد بقوله: أمسّها، أي: أجامعها. انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٧/٨٠.

المبحث الثّاني: شواهد القصر بـ: (لا):

لم أجد من الشّواهد على القصر بحرف العطف (لا) في الصّحيحين إلاّ شاهداً واحداً، وذلك مما جاء موافقاً لشروط البلاغيّين والنّحويّين المذكورة في الفصل الأوّل من الرّسالة.

قصر التّعويض عن حلب الْمُصَرَّاة على صاع من تمرٍ:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «مَن اشترى شاةً مُصَرَّاةً فهو بخير النّظرين: إن شاء أمسكها وإن شاء ردَّها، وصاعاً من تمرٍ لا سمراء»[1].

في هذا الحديث بيان الحكم فِيمَن ابتاع ناقةً أو شاةً أو نحو ذلك، ووجد أنّ البائع قد صرّها ليكثر اللّبن في ضرعها فإنّ للمشتري إذا حلبها ثم وجد أنّ ضرعها قد جفّ خيارين:

---

(١) رواه مسلم ١٠/١٦٦.

والتّصرية هي: أن يربط أخلاف النّاقة أو الشّاة فلا تُحْلب يومين أو ثلاثة، حتّى يجتمع لبنها، ويمتلئ ضرعها فيزيد مشتريها في ثمنها بسبب ذلك ظنّاً منه أنّ ذلك عادة لها.

شرح النّووي ١٠/١٦١.

وفي مسلم روايةٌ أخرى وهي: «مَن اشترى لقحة مصراة أو شاة مصراة...» ١٠/١٦٦.

والسّمراء المذكورة في الحديث هي: الحنطة.

أحدهما: أن يمسكها، ويصبر على ذلك.

والثّاني: أن يعيدها ولكن عليه أن يعوّض البائعَ عن لبنها الـــذي احتلبه بصاعٍ من طعامٍ.

ولقد جاء الأسلوب هنا بطريق القصر الإضافي حيث قصـــر مـــا يُصطحب عند ردّ الشّاة أو النّاقة الْمُصَرّاة على صاع تمرٍ.

أمّا الأمر المنفي فهو ألا يكون ذلك العوض من السَّمراء.

والقصر هنا للتّعيين (كما يظهر)؛ إذ إنّ المخـــاطَبين لم يكونـــوا معتقدين للعكس ولا معتقدين للاشتراك أيضاً.

أمّا الحكمة ـــ كما يراها العلماء ـــ فهي أنّ التّمر كان غالـــبَ قوهم في ذلك الوقت فاستمرّ حكم الشّرع على ذلك، وإنّما لم يجب مثله ولا قيمته بل وجب صاع في القليل والكثير ليكون ذلك حَدّاً يُرجع إليه ويزول به التّخاصم(١). والله أعلم.

ورود (لا) لمجرّد العطف دون القصر:

وبعد هذا الشّاهد سأعرض مثالاً آخر جاءت فيه (لا) ولكن ليس للقصر وإنّما لعرض النّفي فقط، وذلك في قوله ـــ صلّى الله عليه وسـلّم ـــ: «تَنام عينِي ولا ينام قلبي» عند سألته عائشة ـــ رضي الله عنـــها ـــ قائلةً: يا رسول الله! تنامُ قبل أن توتر؟(٢).

---

(١) شرح النّووي ١٠/١٦٦.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ٦/٥٧٩، ومسلم ٦/١٧.

=

ففي هذا الحديث نرى جملتين؛ إحداهما منفية، والأخرى مثبتة، و(لا) هنا ليست للعطف وإنّما أفادت النّفي فقط، فالقصر هنا فُهِمَ من جملتين، وليس من جملةٍ واحدةٍ، والدّليل على أنّ (لا) ليست للقصر: أنّك لو قلت: (لا ينام قلبي تنام عيني) لكان كلاماً مستقيماً، ولَفُهِمَ منه معنى القصر أيضاً.

لذلك فمثل هذه الشّواهد لا تدخلُ مَعِي في مجال البحث. وسأترك الحديث عنها.

= وفي مسلم: «إنّ عيناي تنامان ولا ينام قلبي».

المبحث الثّالث: شواهد القصر بـ: (لكن)

لم أجد في الصّحيحين أيَّ شاهدٍ للقصر بحرف العطف (لكن) موافقاً للشّروط التي ذكرها العلماء، ولكنّي وجدت شاهدين تحقّقت فيهما كلّ الشّروط ما عدا اقتران (لكن) بحرف بعطفٍ آخر، وهو (الواو) لذلك سأتغاضى عن هذا الشّرط وسأحلّل هذين الشّاهدين.

قصر الْبُزَاق في الصّلاة على اليسار وتحت القدم:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّ الْمُؤمن إذا كان في الصّلاة فإنّما يناجي ربّه، فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه ولكن عن يساره أو تحت قدمه»[1].

في هذا الحديث يُعَلِّمُنا النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أدباً من آداب الصّلاة، وقد ذَكَر في هذا الحديث شاهدين للقصر:

أحدهما: سبق الحديث عنه في فصل (إنّما).

والآخر: ما نحنُ بصدد الحديث عنه وهو عن القصر بـ: (لكن).

فعندما أخبر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أنّ الْمُصَلِّي ما يناجي إلاّ ربّه والمناجاة تعني القرب، وهذا القرب يقتضي أدباً خاصّاً، وذلك أنّه عندما يعرض للإنسان البصاق فإنّ عليه ألا يَبْصقَ أمامه؛ إذ كيف يبصق تجاه ربّه، وقبالة بيته الْمُشَرَّف؛ إنّه ليس من الأدب قطعا، أ، يبزق الْمُصَلِّي

---

(١) رواه البخاري ١/٥١١.

أمامه، وكذلك ليس من الأدب أن يبزق عن يمينه تكريماً وتشريفاً لليمين، واليمين ـــ كما هو معروف من تعاليم الإسلام ـــ تُشَرَّف وتُنَزَّه عن كلّ شيءٍ قذر أو نجس، وتقدّم لكلّ شيءٍ طيِّبٍ وطاهرٍ.

هذا ويرى النّووي ـــ رحمه الله ـــ «أنّ النَّهي عـــن البـــزاق (إلى الأمام أو إلى اليمين) ليس خاصّاً بالصّلاة، بل نهى عن ذلك في الصّـــلاة وخارجها، وفي المسجد وخارجه»[(١)].

ومهما يكن من أمرٍ فقد نهى النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن الْبُصَاق إلى الأمام واليمين وقصر البصاق على اليسار أو تحت القدم وجاء هذا القصر بطريق العطف بـــ: (لكن)؛ إذ المعنى: فلا يَبْزقَنَّ إلاّ عن يساره أو تحت قدمه، لا أمامه ولا عن يمينه.

والدّليل على أنّ (لكن) هي التي أفادت القصر هنا أنّها لو حُذِفَت لما كان للجملة معنى، فلو قلت ـــ في غير الحديث الشّـــريف ـــ: «فـــلا يبزُقَنَّ بين يديه ولا عن يمينه ويساره أو تحت قدمه» لأصبَح النَّهْي شاملاً لكلِّ ما ذكر في الجملة ولكن عندما جاءت (لكن) أفادت نوعـــاً مـــن الاستثناء وأَعْطَتنا الدّلالة على القصر.

وهذا القصر هو من قصر الصّفة وهي (البزاق) على الموصـــوف وهو جهة اليسار أو تحت القدم على سبيل القصر الإضافي كما هو ظاهر من الحديث، وهو من قصر التّعيين كما يظهر؛ لأنّ الْمُخاطبين لم يكونوا

---

(١) انظر: شرح النّووي ٥/٣٩.

معتقدين العكس أو المشاركة.

قصر ثابتِ بن قيس ــ رضي الله عنه ــ على الْجَنّة دون النّار:

افْتقد النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ثابتَ بن قيس[١]، فقال: رجلٌ: يا رسول الله! أنا أعلم لك عِلْمَه، فأتاه فوجده جالساً في بيته، مُنَكِّساً رأسه فقال ما شأنك؟ فقال: شرّ. كان يرفع صوته فوق صوت النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، فقط حبط علمه وهو من أهل النّار، فأتى الرّجل فأخبر النَّبيّ-صلّى الله عليه وسلّم-أنّه قال كذا وكذا، فقال: اذهب إليه فقل له: ((إنّك لست من أهل النّار ولكن من أهل الْجَنّة))[٢].

في هذا الحديث قصّة ثابت بن قيس ــ رضي الله عنه ــ حيث كان يرفع صوته عند النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وهو لا يعلم حُرمة ذلك، وعندما سمع بالتّحريم وما تَوَعد به مَن يفعل ذلك اتّهم نفسه أوّل مَن اتّهم، ولزم بيته حزيناً مُنَكِّس الرّأس.

ألا ترى معَي هذه الفطرة النّقيّة، وهذا الجوهر الخالص! فلله ما أرقّ تلك المشاعر!

ولزم ثابت بن قيس ــ رضي الله عنه ــ بيته على تلك الحال حتّى افتقده رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وأرسل إليه، فلَمّا جاءة

---

(١) هو: ثابت بن قيس بن شمّاس الأنصاري الْخَزرجي خطيب الأنصار شهد أحداً وما بعدها. استشهد يوم اليمامة. انظر: الإصابة في تمييز أسماء الصّحابة، لابن حجر العسقلاني ١٤/٢.

(٢) رواه البخاري ٦٢٠/٦.

رسولُ رسولِ الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وجده مُنَكّساً رأسَه حزيناً، وعند ما سُئِل عن ذلك قال: ((كان يرفع صوته...)) ذكر ذلك بلفظ الْغَيْبة وهو من الالتفات[١]. ولم يقل: كُنْتُ أرفع صوتي....

وكأنّه لا يطيق أن يَتَذَكَّر أنّ هذا الفعل القبيح قد صدر منه فأسنده إلى ضمير الغائب كما يقال: ((الْبَعِيدُ فعل كذا وكذا))، وكأنّ هذا الأسلوب كان مُتّبعاً عند العرب، فإذا أراد متحدّثهم ذكر سوء لحق به أو بقرابته يضيف ذلك إلى ضمير الغيبة ولعله من باب التّفاؤل بابتعاد الشّرّ عنهم.

وعندما عَلِمَ النَّبِيُّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ خبر ثابت، أرسل إليه هذه البشرى الكريمة تزفّها إليه عبارةٌ قصريّةٌ تدفع عنه لفحة النّار، وتدني منه رَوحَ الجنّة: ((لست من أهل النّار ولكن من أهل الْجنَّة)).

قصر الموصوف وهو (ثابت بن قيس) على الصِّفة وهي كونه من أهل الْجنَّة ونفى أن يكون من أهل النّار، فذلك هو القصر الإضافي وهو من قصر الْقَلب كما هو ظاهر؛ إذ إنّ المخاطَب كان يعتقد أنّه من أصحاب الجحيم، فقلب له النَّبِيُّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ المعنى وجعله من أصحاب دار النّعيم، وهو من التّحقيقيّ لتحقّق ذلك، كما ذكره الذي لا ينطق عن الهوى ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ. والله أعلم.

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٦/٦٢١.

ورود (لكن) لمجرّد العطف دون القصر:

وهنا سأعرض مثالاً واحداً لما وردت فيه لكن لمجرّد العطف أو التّوكيد وليس للقصر، وذلك لنَتَبَيَّن الفرق بين (لكن) المفيدة للقصر وغيرها، يقول النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا يقل أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقِسَت نفسي))[١].

يُعَلِّم النَّبِيُّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أصحابه الأدَبَ حتّى في اختيار الألفاظ وإن كانت كلّها تؤدّي إلى معنىً واحدٍ ولكن بعضها أكثر أدباً من بعضٍ.

فمثلاً إذا أحسّ الإنسان بضيق، ورأى أنّ نفسه غير منشرحة، فلا يقل: خبثت نفسي وليقل: لقست، وذلك لأنّ الخبث شيء مكروه، فليبتعد الإنسان عنه حتّى ولو لفظاً وذلك من الفأل الحسن.

وفي هذا الحديث نجد المعنى العام للقصر حيث قصر قول الإنسان إذا ضاقت نفسه على قوله: (لقِسَتْ) دون (خَبُثَت) ولكن هذا المعنى فهم من جملتين تامّتين فلو حُذِفَت (لكن) من هذا الحديث، لما أخذت معها الدّلالة القصريّة، وذلك كما جاء في روايةٍ أخرى للحديث، يقول فيها النَّبِيُّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا يقل أحدكم خَبُثَت نفسي وليقل: لقِسَت نفسي))[٢].

---

(١) رواه البخاري ٥٦٣/١٠، ولقست وخبثت بمعنىً واحدٍ.

(٢) رواه مسلم بالنّصّ السّابق ٨/١٥.

وبهذا نعرف أنّ لكن هنا لمجرّد التّأكيد، وليست الدّالّة على القصر بل إنّ القصر قد جاء من جملتين: إحداهما مثبتة، والأخرى منفية. ولهذا السّبب لن أطيل في مثل هذه الشّواهد فليست من واقع دراستي في هـــذا البحث. والله أعلم.

الفصل السّادس: أسرار القصر بتعريف الطّرفين وبضمير الفصل في أحاديث الصحيحين

وفيه مبحثان:

المبحث الأوّل: أسرار القصر بتعريف الطّرفين.

المبحث الثّاني: أسرار القصر بضمير الفصل في أحاديث الصّحيحين.

المبحث الأوّل: أسرار القصر بتعريف الطّرفين

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأوّل: ما عُرِّفَ فيه الْخَبَر بلام الجنس.

المطلب الثّاني: ما عُرِّف فيه المبتدأ باللام.

المطلب الثّالث: ما جاء فيه المبتدأ والْخَبَر معرَّفين بلام الجنس.

المطلب الرّابع: ما أضيف فيه المبتدأ والْخَبَر إلى معرَّفين بلام الجنس.

المطلب الأوّل: ما عُرِّفَ فيه الْخَبَر بلام الجنس

إنّه إذا كان في تَلَمُّس القصر في شواهد تقديم ما حقُّه التّأخير، شيء من الصّعوبة؛ لأنّ دلالات التّقديم على القصر بالفحوى؛ فإنّ الصُّعُوبة في التماس القصر في شواهد التّعريف بلام الجنس أشدّ من ذلك؛ بسبب ضعف دلالته على القصر التي لا تظهر لِمَن ينعم النّظر في الأساليب، وقد عثرت على شيءٍ من شواهده في الصّحيحين.

قصر الدّهر على الله سبحانه:

يقول النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «قال الله يسبّ بنو آدم الدَّهْرَ وأنا الدَّهرُ بيدي اللّيل والنّهار»[١].

إنّ في قوله ـــ جلّ شأنه ـــ في الحديث القدسي: «أنا الدَّهْرُ» إيحاء بالدّلالة على القصر، حيث قُصِرَ الدَّهر على الذّات العلية؛ وذلك بسبب تعريف الْخَبَر (الدّهر) بلام الجنس، ولقد جاء الحديث بسبب أنّ العرب كان شأنها أن تسبَّ الدَّهر عند النّوازل والحوادث والمصائب النّازلة بها؛ من موتٍ أو هرمٍ أو تلف مالٍ، أو غير ذلك، فيقولون: يا خيبة الدّهر ونحو هذا من ألفاظ[٢]. فمَنَعَهم النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن

---

(١) رواه البخاري ١٠/٥٦٤، ومسلم ١٥/٢.

وفي روايةٍ أخرى في مسلم قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّ الله هو الدَّهر»، صحيح مسلم ١٥/٣.

(٢) انظر: المجازات النّبويّة للشّريف الرّضى، تحقيق: محمود مصطفى، مطبعة مصطفى =

ذلك؛ لأنّهم إذا سبّوا فاعلَ النّوازل وقع السّبّ على الله، تعالى الله عن ذلك، أمّا الدَّهْرُ الذي هو الزّمان فلا فعل له بل هو مخلوق ومجرّد ظرف للأحداث(١).

ثم إنّ القصر (كما يظهر لي) قصر إضافي للقلب؛ إذ المعنى ـــ والله أعلم ـــ: إنّما الدَّهر أنا لا الزّمان، فنفى أن يكون الدّهر هو الزّمان.

هذا، وإنّه مما يؤيِّد كون الألف واللام في قوله: «الدَّهْر» للقصر، روايةٌ أخرى للحديث وهي قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا تقولوا يا خيبة الدَّهر فإنّ الله هو الدَّهر»(٢).

وفي هذه الرّواية قُصِر الدَّهر على الله تعالى ونُفِيَ ضمناً عن الزّمان. ومعنى هاتين الرّوايتين واحدٌ، إلاّ أنّه في الرّواية الأخيرة طريقان من طرق القصر هما: ضمير الفصل، وتعريف الْخَبر باللام. ولكن لا تعارض بَيْن طريقي القصر هذين فالمقصور عليه هو الله سبحانه وتعالى في

= البابي الحلبي ص: ١٧٧.

(١) انظر: شرح النّووي ١٥/٣.

هذا، ويرى ابن معصوم المدني: «أنّ الْمَنْهي عنه إنّما هو سبّ الدَّهْرِ باعتقاد أنّه هو الذي سبّب تلك الحوادث المؤلمة، أمّا إذا سُبّ الدَّهْرُ على أنّه مجرّد ظرف للأحداث كَذَمِّ السّنة الْمُجْدبة واليوم شديد الحرّ ونحو ذلك، فليس مَنْهيّاً عنه، وقد ورد في الأحاديث سبّ الدّنيا، وورد في كلام علماء المسلمين شعراً ونثراً». انظر: أنوار الربيع، لابن معصوم المدني ٣٤٣/٢.

(٢) رواه البخاري ٥٦٤/١٠، ومسلم ١٥/٣.

كلا الطّريقَيْن. وعلى هذا يكون التّأكيد في هذه العبارة أقوى؛ إذ كأنّ بِهَا تَوْكيداً لَفْظيّاً للقصر، لمجيئه بهذين الطّريقَين. والله أعلم.

قصر تقديم الأمور وتأخيرها على الله تعالى:

كان النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ يقول: «...اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ، وما أخَّرْتُ، وما أسررتُ، وما أعلتُ، أنتَ الْمُقَدّم، وأنت الْمُؤخِّر، وأنتَ على كلّ شيءٍ قديرٌ»(١).

نلحظ في قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «أنْتَ المقدم، وأنت المؤخّر»، دلالة على القصر حيث قصر التّقديم والتّأخير على الله سبحانه، ونبعت الدّلالة على القصر هنا من اتّصال الخبر في كلتا الجملتين بلام الجنس الذي أوحى بهذه الدّلالة.

والقصر هنا هو من قصر الصّفة على الموصوف قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً لعموم النّفي في كلّ منها؛ إذ المعنى: ما الْمُقدّم إلاّ أنتَ، وما المؤخّر إلاّ أنتَ، وهو على سبيل الحقيقة لا المبالغة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هو المقدّم لكلّ شيء والمؤخّر لكلّ شيء في حقيقة الأمر، ومعنى المقدّم والمؤخّر (كما يرى العلماء) أي: المقدّم مَن شئتَ بطاعتك وغيرها، والمؤخّر مَن شئت عن ذلك كما تقتضيه حكمتك»(٢).

وفي اعتقادي أنّه لا بأس من بسط هذا المعنى أكثر ليشمل كلّ

---

(١) رواه البخاري ١١/١٩٦، ومسلم ٦/٦٠.

(٢) انظر: شرح النّووي ٦/٦٠.

شيء في الكون تَقَدَّمَ أو تأَخَّر فهو سبحانه المقدّم والمؤخّر الحقيقي لكلّ شيءٍ، وإن قدّم النّاس شيئاً أو أخّروه فَهُم مجرّدُ أسباب فقط. واللّه العليم.

قصر القصاص على كتاب الله:

يقول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «كتاب الله القصاص»[(١)].

بيّنَ ابن حجر ــ رحمه الله تعالى ــ: «أنّ في هذا الحديث ثلاث روايات:

الأولى: بِرَفْع الجزءين على أنّهما مبتدأ وخبر.

والثّانية: بفتح الجزءين على أنّ الأوّل إغراء والثّاني بدل.

والثّالثة: بفتح الأوّل على أنّه مفعول لفعلٍ محذوفٍ، ورفع الثّاني على أنّه مبتدأ محذوف الخبر، أي: اتبّعوا كتاب الله ففيه القصاص»[(٢)].

وبهذا فلا يصلح للاستشهاد على القصر إلاّ الرّواية الأولى، حيث يصبح الخبر وهو (القصاص) مقصوراً على المبتدأ وهو (كتاب الله) وهذا القصر ــ كما يظهر لي ــ للمبالغة في تعظيم وتفخيم أمر القصاص، وأنّه لا يجوز إلغاؤه، أو التّهاون في تنفيذه؛ لأنّه كتاب الله ولا شيء غير ذلك.

قصر الْملك على الله تعالى:

ويقول النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في بعض دعائه: «اللهم أنْتَ الْمَلِكُ لا إله إلاّ أنْتَ، أنْتَ رَبِّي، وأنا عبدك ظلمتُ نفسي، واعترفتُ بذنْبِي، فاغفر لي ذنوبِي جميعاً...»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري ١٧٧/٨.

(٢) انظر: الفتح ١٧٧/٨.

(٣) رواه مسلم ٥٨/٦.

ففي قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((أنْتَ الْمَلك)) قصر كما يظهر من الحديث) حيث إنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ (كعادته في دعائه) يبدأه بالحمد، والثّناء على الله وتوحيده بأسمائه وصفاته العلى.

فهنا يُوَحِّد النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ربَّه سبحانه وتعالى بصفةٍ عظيمةٍ ــ وكلّ صفاته تعالى عظيمةٌ ــ وهذه الصّفة هي الْمُلْك لكلّ شيءٍ ملْكاً حقيقيّاً، فلا شيء في هذه الحياة ولا مخلوق إلاّ وهو عبدٌ لله، والله سبحانه هو الْمَلك المالك لجميع الكائنات. فالقصر هنا حقيقيّ لعموم النّفي فيه والتّحقّق الأكيد. والله أعلم.

قصر التّأخّر والسّبق على أمّة محمّد ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ:

يقول النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((نحن الآخرون السّابقون يوم القيامة...)) الحديث(١).

وفي روايةٍ: ((نحن الآخرون ونحن السّابقون))(٢).

قال العلماء: ((معنى الحديث: الآخرون في الزّمان والوجود، السّابقون بالفضل ودخول الجنّة، فتدخل هذه الأمّة الجنّة قبل سائر الأمم))(٣).

---

(١) رواه البخاري ٢/٣٥٤، ومسلم ٦/١٤٣، غير أنّه في مسلم: ((نحن الآخرون الأوّلون)).

(٢) رواه مسلم ٦/١٤٢.

(٣) انظر: شرح مسلم ٦/١٤٢.

ثم إنّها أوّل مَن يحشر،وأوّل مَن يحاسب،وأوّل مَن يقضى بينهم(١).

وفي الرّواية الأولى تعدّد الخبر ــ كما يظهر لي ــ حيث إنّ قوله: ((الآخرون السّابقون))، خبران لمبتدأ واحدٍ وهو: ((نحن))، وقد اقترن هذان الخبران بلام الجنس، فأدّى ذلك إلى قصرهما على المبتدأ ــ كما يوحي بذلك السّياق ــ والتّقدير: ما الآخرون السّابقون إلاّ نحن.

أمّا في الرّواية الثّانية فقد فصلت العبارة إلى جملتين، وجُعِل لكلّ خبر مبتدؤُه، وهذا مما يُؤَكِّد أنّهما خبران لمبتدأ واحدٍ.

والقصر هنا من الحقيقيّ التّحقيقيّ (كما يبدو) حيث إنّ هذه الأمّة هي آخر الأمم حقيقة وهي الأولى في يوم القيامة على الأمم في كلّ شيءٍ.

وإذا ما تأمّلنا في هاتين الرّوايتين نجد أنّ الإيجاز في الرّواية الأولى أشدّ، حيث إنّها نابت عن الجملتَيْن المثبتتَيْن والمنفيَتَيْن.

قصر الصّحبة في السّفر على الله تعالى:

يقول النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في دعاء السّفر: ((اللّهم أنْتَ الصَّاحِبُ في السّفر، والْخَلِيفةُ في الأهل...)) الحديث(٢).

نلحظ في دعاء النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هذا اعتماد النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ اعتماداً تامّاً على الله تعالى وحده، فقد قصر

(١) انظر: فتح الباري ٢/٢٥٤.

(٢) رواه مسلم ٩/١١١.

الصّحبة في السّفر على الله تعالى، وقصر الخلافة في الأهل عليه سبحانه، وذلك أنّه سبحانه كما أخبرنا أنّه معنا أينما كُنّا فهو إذن خيرُ الأصحاب في السّفر، وخير مَن يستَخْلَف على الأهل.

وهذا القصر (كما يظهر لي) للمُبالغة؛ لأنّ الإنسان يتّخذ معه أصحاباً في السّفر، ويستخلفُ على أهله مَن يقوم بشؤونهم، لكنَّ معنى هذا ـ والله أعلم ـ: أنّ الله سبحانه هو الصّاحب المعوَّل عليه بحقٍّ في السّفر، والْمُسْتخلف بحقّ في الأهل، وإن كثر الأصحابُ والمستخلفون، فهو سبحانه يصحب الإنسان في سفره فيسهّل عليه المشاقّ ويطوي عنه بعد الطّريق، وهذا ما لا يَسْتَطِيعُه أيّ صاحب من البشر، ويستخلف على الأهل فلا تضيع ودائعه، فهو سبحانه أفضل مَن يستخلف على أهل وأفضل مَن يصحب في سفرٍ.

هذا، وقد يكون القصر هنا تحقيقيّاً إذا اعتبرنا أنّ صفة الصّحبة في السّفر وصفة الخلافة في الأهل متلازمتان كصفةٍ واحدةٍ، بمعنى: أنّ الله وهو الواحد الأحد، صاحبٌ للمسافر في سفره، وخليفة له في أهله في نفس الْوَقت، وهذا المعنى لا يتحقّق لأحدٍ من البشر، وليس إلاّ له في حقيقة الأمر، وعلى هذا يكون في هذه مدحاً وثناء على الله تعالى بأنّه القادر على ما لا يقدر عليه أحدٌ، لوجوده مع كلّ أحدٍ، وعنايته وحفظه لكلّ أحدٍ في وقتٍ واحدٍ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، وذلك وصف خاصّ بالله تعالى، فهو واحد ولكنه مع الجميع لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض، جلّ جلاله. والله أعلم.

قصر الأسبقية في وُرُود الحوض يوم القيامة على النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ:

يقول النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: «أنا الفرط على الحوض»(١).

يوحي هذا الحديث بقصر صفة التّقدّم إلى الحوض يوم القيامة على نفسه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، وهو فعلاً المتقدّم الوحيد ليسقي النّاس، وذلك لفضله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ على البشرية جمعاء. وبهذا يكون هذا القصر حقيقيّاً تحقيقيّاً. والله أعلم.

قصر محو الكفر على النَّبِيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ (وصور أخرى):

وعن أوصافة أيضاً يقول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: «أنا محمّد، وأنا أحمد، وأنا الْمَاحي الذي يمحى به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر النّاس على عقبِي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نَبِيٌّ»(٢).

كأنّ سياق الحديث في قوله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: «أنا الماحي، أنا الحاشر، أنا العاقب»، يوحي بدلالة هذه الجمل على القصر، ولكن في قوله: «أنا الماحي» قصراً للمبالغة؛ حيث إنّ الله سبحانه وتعالى

---

(١) رواه مسلم ١٢/٢٠٤.

ومعنى الفرط: هو الذي يتقدّم القوم إلى الماء، ليهيّئ لهم ما يحتاجون إليه.

(٢) رواه مسلم ١٥/١٠٤.

بعث أنبياء كثيرين لِيَمْحُوا الكفر، ولكن النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ قصر المحو للكفر على نفسه، مبالغةً في ذلك؛ لأنّه أشدّ الأنبياء محواً للكفر وأكثرهم تابعاً.

أمّا قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «أنا الحاشر، وأنا العاقب»، فإنّها من قصر الصّفة على الموصوف قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً؛ لأنّ تلك الصّفات أمور خاصّة به ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ وحده.

قصر السّلام على الله تعالى:

كان النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: «اللهم أنْتَ السّلام، ومنك السّلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»(١).

في هذا الحديث شاهدان للقصر هما: أنْتَ السّلام، ومنك السّلام، حلّلْتُ الشّاهد الثّاني في موضعه(٢)، والآن أوان تحليل الشّاهد الأوّل، وهو قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «أنْتَ السّلام» حيث قصر السَّلام على الله تعالى على سبيل القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ.

والقصر هنا يُسْتَوحي استيحاء من هذا الشّاهد ولسنا نقطع بوجوده. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم ٥/٨٩.

(٢) انظر ص: ٥٤٨ من هذا البحث.

المطلب الثّاني: ما عُرِّفَ فيه المبتدأ باللام:

إنّه إذا كانت دلالة تعريف الْخَبر بلام الجنس على القصر ضعيفةً، فإنّ دلالة تعريف المبتدأ بلام الجنس(١) أضعف، لذلك منع بعض شُرَّاح الحديث دلالته على القصر عند بعض الشّواهد، ولكنّي سأذْكُر هذه الشّواهد على أنّها شواهد قصرٍ بِغَضِّ النّظر عن كونها ضعيفةَ الدّلالة على القصر.

قصر التّحيّات والصّلوات والطّيّبات على الله:

ومن هذه الشّواهد قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في التّشهّد: «التّحيّات لله والصّلوات والطّيّبات...» الحديث(٢).

إنّ قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «التّحيّات لله» إيحاء بالقصر، لعلّ ذلك بسبب اقتران المبتدأ بلام الجنس، وكأنّ المعنى: ما تكون التّحيّات إلاّ لله، ومما يسند هذا الرّأي قول القرطبي(٣)، إذ يقول: «قوله:

---

(١) قال بدلالة تعريف المبتدأ بلام الجنس على القصر سعد الدّين التّفتازاني. انظر: المطول ص: ١٧٩.

(٢) رواه البخاري ٢/٣١١، ومسلم ٤/١١٦.

والتّحيّات: جمع تحيّةٍ، ومعناها: السّلام. وقيل: معناها: البقاء والعَظَمَة.

والصّلوات، قيل: الصّلوات الخمس، أو كلّ الصّلوات النّوافل مع الفرائض.

والطّيّبات: أي: ما طاب من الكلام وحسن، أن يثني به على الله تعالى، وقيل: هي الأعمال الصّالحة. انظر: فتح الباري ٢/٣١٣.

(٣) سبقت ترجمته.

((لله)) فيه تنبيه على الإخلاص في العبادة، أي: أنّ ذلك لا يُفعل إلاّ لله))(١).

وكأنّه يرى أنّ القصر قد جاء من قوله: ((لله)) ولكن إن كان في الجملة قصر فليس من قوله: ((لله)) فلا أعرف أنّ في الجار والمجرور دلالة على القصر، ولكن الدّلالة على القصر من (ال) الجنسية في ((التّحيّات)).

وكذلك في قوله: ((الصّلوات والطّيّبات)) إن كانت معطوفة على التّحيّات ــ وهو الأولى ــ فإنّ ذلك يعزّز من دلالة (ال) الجنسية في كلّ الكلمات الثّلاث على القصر؛ إذ لا يعقل أن يصرف شيءٌ من الصّلوات لغير الله تعالى.

قصر المسلم على مَن سلم المسلمون من لسانه ويده (وصورة أخرى):

يقول النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر مَن هجر ما نهى الله عنه))(٢).

هذا الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ(٣)، وفيه عبارتان يستوحى منهما معنى القصر(٤):

---

(١) انظر: فتح الباري ٣١٣/٢.

(٢) رواه البخاري ٣١٦/١١، ومسلم ١٢/٢.

لكن قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((والمهاجر مَن هجر ما نهى الله عنه)) لم يرد في مسلمٍ.

(٣) انظر: الفتح ٣١٩/١١.

(٤) يقول محمّد بيللو عند شرحه هذا الحديث: ((فيه قصر عن طريق تعريف الطّرفين؛ لأنّ المسلم معرَّفٌ بالألف واللام. ومَن سلم موصول مُعَرَّفٌ)). انظر: من بلاغة =

فالأولى: يستوحى منها قصر الإسلام على مَن سلم المسلمون من لسانه ويده.

والثّانية: يستوحى منها قصر صفة الهجرة على مَن هجر ما نهى الله عنه، وكلا القصرين للمبالغة، فالأوّل: للمبالغة في الكفّ عن إيذاء المسلمين باللّسان واليد، والثّاني للمبالغة في ترك ما نهى الله عنه.

وقد عبّر النّووي ــ رحمه الله ــ عن هذا المعنى: ولكنّا (نظراً لأنّ قواعد البلاغة لم تنضج في عهده تماماً) نرى تعبيره غير دقيق عن هذا المعنى؛ إذ يقول: «وليس المراد نفي أصل الإسلام عن مَن لم يكن بهذه الصّفة، بل هذا كما يقال: العلم ما نفع، أو العالم زيد أي: الكامل، وكما يقال: النّاس العرب، والمال الإبل، فكلّه على التّفضيل لا الحصر... إلى أن يقول: ثم إنّ كمال الإسلام، والمسلم متعلّق بخصال كثيرةٍ وإنّما خُصَّ ما ذكرناه من الحاجة الخاصّة»(١).

هذا، وإنّ في هاتين العبارتين تعريضاً؛

فالأولى: فيها تعريض بانتفاء الإسلام عن المؤذي مُطلقاً، وقد أُخذ هذا المعنى من حصر الإسلام فيمَن سَلِم المسلمون من لسانه(٢).

والثّانية: فيها تعريض بالمهاجرين أن لا يَتَّكِلُوا على الهجرة،

= السّنة ص: ٣٦.

(١) انظر: شرح النّووي ٢/١٠.

(٢) انظر: معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانه ص: ٤١٢.

فيقصِّروا في العمل[١].

كما أنّ فيها مواساةً وتطييباً لقلوب مَن لم يهاجر من المسلمين لفوات ذلك بفتح مكّة[٢].

وعلى هذا فلا يكون التَّعريض خاصّاً بإنّما، وإنّما قد يكون بأغلب طرق القصر. والله أعلم.

قصر الْمَحيا على مَحيا الأنصار، وقصر الممات على مماتهم:

عند ما عفَا النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ عن قريشٍ يوم فتح مكّة قال بعض الأنصار: قد أصابت الرّجل رأفة بعشيرته، فلَمّا سمعهم النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ قال لهم: «كلا إنّي عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والممات مماتكم...» الحديث[٣].

إنّه برغم أنّ هذا الحديث والذي قبله متشابهان حيثُ عُرِّف المبتدأ في كليهما بلام الجنس، إلاّ أنّ النّووي ـــ رحمه الله ـــ قد أشار هنا إلى دلالة هذا الحديث على القصر فقال: «معناه: إنِّي هاجرت إلى الله وإلى دياركم لاستيطانها فلا أتركها ولا أرجع عن هجرتي، بل أنا ملازم لكم (المحيا محياكم، والممات مماتكم) أي: لا أحيا إلا عندكم، ولا أموت إلاّ عندكم...»[٤].

---

(١) انظر: الفتح ٣١٩/١١، بتصرّفٍ يسيرٍ.

(٢) المصدر السّابق ٣١٩/١١.

(٣) رواه مسلم ١٢٨/١٢.

(٤) شرح النّووي على صحيح مسلم ١٢٩/١٢.

فنرى أنّ النّووي ــ رحمه الله ــ فَسَّر قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((المحيا محياكم، والممات مماتكم)) بجملتين قصريّتين هُما: ما أحيا إلاّ عندكم، ولا أموت إلاّ عندكم، وفي شرح النّووي هذا دليل على وجود القصر في هاتين العبارتين، ولكن لا أدري لِمَ منع النّووي ــ رحمه الله ــ وجود القصر في الحديث السّابق، وأشار إلى وجوده في هذا الحديث برغم أنّهما متشابهان.

هذا، وإنّ القصر في هاتين الجملتين ((المحيا محياكم، والممات مماتكم))، قصر حقيقيّ تحقيقيّ، أو قد يفسّر على أنّه قصر إضافي إذا اعتبرنا أنّ المراد: لا أحيا ولا أموت إلاّ عندكم لا بمكّة. والله أعلم.

المطلب الثّالث: ما جاء فيه الْمُبتدأ والْخَبر معرّفين بلام الجنس:

لقد صادفني أثناء قراءتي الحديث شاهدان عُرِّفَ المبتدأ والخبر فيهما بلام الجنس، ولما تأمّلتهما وجدت فيهما إيحاءً بالدّلالة على القصر خصوصاً وإنّني وجدت بعض إشارات لشرّاح الحديث توحي بدلالة مثل هذا التّعبير على القصر، ولَمّا بحثت عن المقصور عليه وجدته الخبر والمبتدأ مقصور في كلا الشّاهدين.

قصر الدّين على النّصيحة:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «الدِّيْنُ النَّصيحة، قالوا لِمَن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم»(١).

ذكر النّووي ـــ رحمه الله تعالى ـــ: «أنّ هذا الحديث حديث عظيم، عليه مدار الإسلام وبيّن أنّ معناه: أنّ النَّصيحة هي عماد الدِّين وقوامه، وأنّ النَّصيحة لله هي: باتّباع أوامره واجتناب نواهيه بإخلاص العبودية له سبحانه، وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصحه نفسه، فالله سبحانه غَنِيٌّ عن نصح النّاصح.

أمّا النَّصيحة لكتابه، فهي تتمثّل في الإيمان به وتلاوته وتطبيق

---

(١) رواه مسلم ٢/٣٧.

ومعنى النّصيحة: قيل: إنّها مأخوذة من نصحت العسل، إذا صفّيته من الشّمع، فشبّهوا تخليص القول من الغشّ بتخليص العسل من الخلط، وقيل: هي كلمة مفردة يستوفى بها معنى العبارة. انظر: شرح النّووي ٢/٣٧.

أحكامه، والذّبّ عنه ضدّ كلّ طاعنٍ فيه.

وأمّا النّصيحة لرسوله، فتصديقه، واتّباع سنته أحسن الاتّباع وأكمله.

وأمّا النّصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحقّ، وطاعتهم فيه وتذكيرهم به.

وأمّا النّصيحة لعامّة المسلمين فإرشادهم لمصالحهم في دنياهم وآخرتهم وتعليمهم الدِّينَ وإخلاص الشّفقة عليهم»[١].

هذا هو معنى هذا الحديث باختصارٍ، والشّاهد فيه هو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «الدِّين النَّصِيحة»، حيث اقترنت (ال) الجنسية (كما هو الظّاهر) بالمبتدأ والخبر، فأوحى السّياق بقصر الدّين على النَّصيحة[٢]، على سبيل المبالغة في أمر النّصيحة.

وهذا هو التّفسير الموافق لسياق المعنى في الحدث ــ كما يظهر لي ــ والله أعلم.

وفي الحديث ملحظٌ بلاغي آخر وهو الْبَسْط بَعْد الإيجاز، حيث إنّ في قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «الدِّين النَّصيحة» إيجاز وفي آخر الحديث بسط[٣].

---

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٢/٣٧-٣٩، بتصرّفٍ واختصارٍ.

(٢) قد أشار أحمد بيللو إلى وجود القصر في هذا الحديث، وأنّه بسبب تعريف الطّرفين. انظر: كتابه من بلاغة السّنة ص: ٦٥.

(٣) انظر: شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، تأليف: صفي الدّين =

قصر الحمو على الموت:

سُئِلَ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن الحمو فقال: ((الحمو الموت))(١).

المراد من هذا الحديث النَّهي عن دخول الأحماء على الزّوجة والخلوة بها، وقد وصف الحمو بالموت؛ لأنّ الخوف منه أكثر من غيره، والشّرّ يتوقع منه والفتنة أكثر لتمكّنه من الوصول إلى المرأة والخلوة بها من غير أن ينكر عليه بخلاف الأجنبي(٢).

وفي هذا الحديث المؤجز إيجازٌ رائعٌ نرى اقتران المبتدأ والخبر بلام الجنس ــ كما هو الظّاهر ــ مما أوحى بقصر الحمو على الموت قصراً للمبالغة في خطورة الحمو على الزّوجة.

هذا، وهناك مَن يرى أنّ في الحديث تشبيهاً بليغاً، شبّه فيه دخول الحمو على المرأة بالموت، بجامع الهلاك في كلٍّ منهما(٣). وهذا القول صحيح إلى حدٍّ كبيرٍ. والله أعلم.

= الحلبي، مطبوعات مجمع اللّغة العربية بدمشق سنة : ١٤٠٢هـ، ص: ٢٣٧.

(١) رواه مسلم ١٤/١٥٣.

والحمو، معناه في الحديث أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه. فأمّا الآباء والأبناء فمحارم لزوجته،وهؤلاء الأقارب مثل:الأخ ونحوه.انظر:شرح النّووي١٤/١٥٤.

(٢) انظر: شرح النّووي ١٤/١٥٤.

(٣) من بلاغة الحديث، د. عبد الفتاح لاشين ص: ١٠٧.

المطلب الرّابع: ما أضيف فيه المبتدأ والخبر إلى مُعَرَّفين بلام الجنس:

لقد لاحظت شاهداً آخر استوحيت منه معنى القصر ثم وجدت أنّ العلماء قد أشاروا في شرحه إلى دلالته على القصر، وعندما بَحَثْت عن منشأ دلالة هذا الشّاهد على القصر وجدت أنّها من إضافة المبتدأ والخبر إلى ما هو مُعَرَّف بلام الجنس؛ لذلك أثبتُّ هذا الشّاهد ليمثّل نمطاً من أنماط القصر بتعريف الطّرفين.

قصر الإيمان على حبّ الأنصار والنّفاق على بغضهم:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النّفاق بغض الأنصار))(١).

أشار الْعَيني إلى وجود القصر في هذا الحديث فقال: ((فيه كما قال أصحاب المعاني أنّ المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين تفيد الحصر، ولكن ليس هذا بحصرٍ حقيقيّ بل هو حصر دعائي تعظيماً لحبّ الأنصار، كأنّ الدّعوة: أنّه لا علامة للإيمان إلاّ حبّهم، وليس حبّهم إلاّ علامة للإيمان.

---

(١) رواه البخاري ١/٦٢.

وفي مسلم قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((آية المنافق بغض الأنصار، وآية المؤمن حبّ الأنصار)). ٢/٦٣.

وهناك روايةٌ أخرى في صحيح مسلم يقول فيها ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((حبّ الأنصار آية الإيمان، وبغضهم آية النّفاق)). ٢/٦٣.

ويؤيّده ما قد جاء في صحيح مسلمٍ: «آية المؤمن حبّ الأنصار»، بتقديم الآية، «وحبّ الأنصار، آية الإيمان»، بتقديم الحبّ[1].

ويقول العيني أيضاً في موضعٍ آخر: «هذا الحصر يفيد حصرَ المبتدأ على الخبر، ويفيدُ حصرَ الخبر على المبتدأ، وهو نظير قولِكَ الضّاحكُ الكاتبُ، فإنّ معناه حصر الضّاحك على الكاتب وحصر الكاتب على الضّاحك»[2].

لقد اعتبر العيني ـــ رحمه الله تعالى ـــ أنّ في هذا الحديث قصراً، وعزاه إلى تعريف الطّرفين (المبتدأ والخبر) وأنّ المبتدأ هنا مقصور على الخبر، والخبر مقصور على المبتدأ ـــ ويظهر لي ـــ أنّ هذا القول صائب بنسبةٍ كبيرةٍ إلاّ أنّني أرى أنّ سبب القصر هو إضافة كلٍّ من المبتدأ والخبر إلى اسمين مُعَرَّفين بلام الجنس فصارا كالمعرَّفين بلام الجنس، ولذلك جعلهما العيني مثل قولك: الضاحك الكاتب.

وأمّا إشارة العيني إلى أنّه من قصر المبتدأ على الخبر، وقصر الخبر على المبتدأ واستدلاله برواية مسلم: حبّ الأنصار آية الإيمان، وبغضهم آية النّفاق حيث جُعل فيها الخبر مبتدأ، فإنّني لا أرى رأي العيني في هذا بل أرى أنّ في كلتا الرّوايتين قصر المبتدأ على الخبر، وأنّ كلّ روايةٍ لها معنى يختلف عن معنى الرّواية الأخرى، وقد قيلت في مناسبةٍ غير مناسبة

---

(١) عمدة القارئ ١/١٥١.

(٢) عمدة القارئ ١/١٥٢.

الرّواية الأولى، وعلى هذا فيمكن إلحاق (ما أضيف فيه المبتدأ، والخبر إلى مُعَرَّفين بلا الجنس) بباب القصر بتعريف الطّرفين. والله أعلم.

المبحث الثّاني: أسرار القصر بضمير الفصل في أحاديث الصّحيحين:

إنّ شواهد القصر بطريق ضمير الفصل في الصّحيحين قليلة جدًّا، وهذه الشّواهد التي أحصيتها يستوحى القصر منها استيحاء وليس القول فيها بالأمر القطعي فنحن لا نستطيع أن نقول: إنّ كلّ ضمير للفصل مفيد للقصر، ولكن السّياق قد يدلّ على ذلك وقد لا يدلّ.

قصر قلّة الثّواب على الأكثرين أموالاً:

قال ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مرّة ــ وقد أبصر أحداً ــ: «ما أحبّ أنّه تحول لي ذهباً يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلاّ دينار أرصدته لدين، قال: إنّ الأكثرين هم الأقلّون إلاّ مَن قال بالمال هكذا، وهكذا ــ وأشار بيده عن يمينه وشماله ــ وقليل ما هم...» الحديث[١].

في هذا الحديث نرى تخَوُّف النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مَن اجتماع المال وكثرته التي قد تكون للفتنة والطّغيان، فلو أنّ أحداً تحوّل ذهباً وصار ملكاً للنَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، فإنّه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ سيُنْفقه في سبيل الله، ولا يدّخر منه إلاّ ما يسد به دَيْنه. وقد أخبرنا النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بعبارة قصريّة (جاء القصر فيها بضمير الفصل، وتعريف المبتدأ والخبر باللام) أنّ الأقلّين ثواباً، يوم القيامة هم الأكثرون أموالاً عدا قلّة من النّاس هم الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى.

(١) رواه البخاري ٥/٥٥، ومسلم ٧/٧٥.

وهذا القصر هو من قصر الصّفة (وهي قلة الثّواب) على الموصوف (وهم الأكثرون أموالاً) على سبيل القصر الحقيقيّ كما هو ظاهر الحديث، وهو للمبالغة في توعد الأكثرين أموالاً الذين لا ينفقونها في سبيل الله، وقد جَعَلْتُهُ للمبالغة؛ لأنّ قلّة الثّواب ليست مقصورة في الحقيقة على الأكثرين أموالاً، بل قد تكون في غيرهم، لكن خُصّوا بذلك مبالغةً في التّحذير من جمع وكنْز الأموال دون إنفاقٍ في وجوه الْخير. والله أعلم.

قصر الاستعلاء على كلمة الله:

جاء رجل إلى النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ فقال: يا رسول الله! ما القتال في سبيل الله؟ فإنّ أحدنا يقاتل غَضَباً ويقاتل حميَّةً، فقال له النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «مَن قاتَل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عزّ وجلّ»[(١)].

نلاحظ في هذا الحديث أنّ الأعمال إنّما تُحْسب بالنّيّات الصّالحة، وأنّ الفضل الذي ورد للمجاهدين، يختصّ بِمَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا[(٢)].

وفي قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «كلمة الله هي العليا» إيحاء بقصر العليا على كلمة الله، أي: لا يكون عليا إلاّ كلمة الله. قال العيني:

---

(١) رواه البخاري ٢٨/٦، ومسلم ٤٩/١٣.

والمراد بكلمة الله هي كلمة التّوحيد.

(٢) شرح النّووي على صحيح مسلم ٤٩/١٣.

«هي فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله تعالى في العلوّ، وأنّها مختصةٌ به دون سائر الكلام»[1].

فيفهم من كلام العيني هذا وجود الاختصاص بسبب ضمير الفصل (هي) وهذا القصر من قصر الصّفة على الموصوف قصراً حقيقياً تحقيقيّاً.

وورد القصر في هذا الموضوع لأنّه من الأهمية بمكانٍ؛ فالجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام لا بدّ فيه من الإخلاص، وما الإخلاص إلاّ قصر النّيّة على ابتغاء وجه الله أو هو إعلاء كلمة الله، وقد جاء القصر هنا لِيُؤكّد هذا المعنى.

هذا وقد استدلّ به العلماء على وجوب النّيّة، حيث إنّه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أَضْرَب عن الصّفة التي يقاتل لها، وأجاب عن النّيّة[2].

قصر السَّلام على الله تعالى:

كانَ الصّحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ يقولون في تشهّدهم: «السّلام على جبريل، وميكائيل السّلام على فلانٍ وفلانٍ» فالتفت إليهم النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ، وقال: «إنّ الله هو السّلام، فإذا صَلَّى أحدكم فليقل: التّحيّات لله، والصّلوات والطّيّبات...» الحديث[3].

---

(١) عمدة القارئ للعيني ٢/١٩٧.

(٢) انظر: بهجة النّفوس لأبي جمرة الأندلس ١/١٥٠.

(٣) رواه البخاري ٢/٣١١، ومسلم ٤/١١٦.

إنّه ليستوحى من قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّ الله هـــو السّلام)) القصر بضمير الفصل (هو) أي: أنّ السّلام مقصـــور علـــى الله تعالى، بمعنى: ليس السَّلام إلاّ الله تعالى، وهو اسم من أسماء الله تعالى[1].

وهذا القصر هو من القصر الإضافي (كما هو الظّاهر)؛ إذ التّقدير: ليس السّلام تحيّةً لله، بل هو اسم لله، وهو من قصر القلب، لأنّه قَلبَ ما كان الصّحابة يظنّونه، من أنّ السّلام يصلح تحيّة لله تعالى. والله أعلم.

(١) انظر: شرح النّووي على الصّحيح ٤/١١٦.

الفصل السّابع: شواهد القصر الْمُقْتَرِنة بالتّشبيه أو الكناية في الصّحيحين

وفيه مبحثان:

المبحث الأوّل: ما اقترن فيه القصر بالتّشبيه.

المبحث الثّاني: ما اقترن فيه القصر بالكناية.

المبحث الأوّل: ما اقترن فيه القصر بالتّشبيه

وفيه مطلبان:

المطلب الأوّل: التّشبيه مع إنما.

المطلب الثّاني: التّشبيه مع النّفي والاستثناء.

إنّه لدى استعراضي لشواهد القصر ـــ بعد جمعها ـــ رأيــتُ أنّ هناك ظاهرةً تستحقّ أن يعقد لها فصلٌ خاصٌّ، وهذه الظّاهر هي اقتـــران بعض شواهد القصر بشيءٍ من أساليب علم البيان، وأنّ من أكثر علـــوم البيان اقتراناً بالقصر التّشبيه، ثم الكناية، لذلك خصّصتُ لهما هذا الفصل.

أمّا ما اقترن بالقصر من غير التّشبيه والكناية كالاستعارة والمجـــاز ونحو ذلك، فهو نادر. وقد أشرت إلى ذلك عند تحليلي لأي شاهدٍ يمرّ فيه شيء من ذلك.

المطلب الأوّل: التّشبيه مع إنما:

قصر مثلية صاحب القرآن على صاحب الإبل المُعقَّلة:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إنّ عاهدها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت...))(١).

في هذا الحديث نكتتان بلاغيتان إحداهما من علم المعاني، وهي القصر، والأخرى من علم البيان، وهي التّشبيه، إلاّ أنّ التّشبيه أسبق إلى العبارة من القصر؛ لأنّ أصل العبارة مبنية على التّشبيه، ثم جاء القصر بعد ذلك ليؤكّد العبارة ويحصر المشبّه في المشبّه به. وقد شبّه النّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ صاحب القرآن الذي أَلِفَه وحفظه بصاحب الإبل المعقَّلة (أي: المشدودة بالعقال) ووجه الشّبه في هذا التّشبيه مذكور بعد طرفي التّشبيه (المشبّه والمشبّه به) وهو البقاء والثّبوت مع التّعهد، والذّهاب والزّوال مع عدم التّعهّد.

وقد شبّه صاحب القرآن بصاحب الإبل؛ لأنّ الإبل أشدّ الحيوان المستأنس نفوراً وفي تحصيلها إذا نفرت صعوبة.

وهذا مثل ضربه رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ليبيّن هذا المعنى للأذهان كلّ التّبيّن ويجلّيه في كلّ التّجلِيّة وليحثّ أهل القرآن على تعهّده وتلاوته والحذر من تعريضه للنسيان(٢).

---

(١) رواه البخاري ٩/٧٩، ومسلم ٦/٧٥.

(٢) شرح النّووي ٦/٧٧.

وإذا ما نظرنا إلى هذا التّشبيه بتأمّل فإنّنا نجد في جانب المشبّه (القرآن الكريم بآياته وكلماته وحروفه)، وفي جانب المشبّه به (الإبل الكثيرة المعقّلة)، ونرى في جانب المشبّه الأداة التي يحفظ بها القرآن، وهي التكرار ومداومة المراجعة، ونرى في جانب المشبّه به الأداة التي تُحفظ بها الإبل وهو العقل والمعاهدة.

وقد جاء أسلوب القصر، ليضيف إلى معنى التّشبيه معنى المبالغة والتّأكيد فبين أنّه لا شبيه لصاحب القرآن، إلاّ صاحب الإبل المعقّلة وليس له شبيه آخر.

وهذا القصر للصّفة وهي (مثلية صاحب القرآن) على الموصوف (صاحب ابل المعقّلة) على سبيل القصر الحقيقيّ، وهو للمبالغة في التّفلّت[١]، إذ إنّه قد يوجد شبيه آخر لصاحب القرآن لكن تشبيهه بصاحب الإبل المعقّلة أدقّ تشبيه، فكأن لا شبيه له سواه. وكما يرى ابن حجر: أنّ الحصر هنا مخصوص بالنّسبة للحفظ والنّسيان، بالتّلاوة والتّرك[٢]. فقط والله أعلم.

قصر القطعة السّيّئة من الأرض على القيعان:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «مثل ما بعثني الله به

---

(١) انظر: فيض القدير بشرح الجامع الصّغير، للعلامة عبد الرّؤوف المناوي، مكتبة محمّد علي صبيح بالقاهرة، الطّبعة الأولى سنة: ١٣٥٦هـ، ٤/٣.

(٢) ابن حجر ٧٩/٩.

من الهدي والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيَّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء، فنفع الله بها النَّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى: إنّما هي قيعان، لا تُمسك ماء ولا تنبتُ كلأً. فذلك مثل مَن فَقُه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدي الله الذي أُرسلت به»(١).

هذا الحديث من الأمثال العجيبة الدَّقيقة جدًّا، في بيان صورةٍ وحقيقة دعوة الإسلام، وتأثيرها في النّفوس واختلاف تَقبُّلها من شخصٍ لآخر.

فالحديث قائمٌ على صورةٍ تشبيهيةٍ واحدةٍ، من أوّله إلى آخره حيثُ شبَّه النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ما بعثه الله به من الهُدى والعلم بالغيث الذي أصاب أرضاً وكانت على ثلاثة أقسام: نقية، وأجادب، وقيعان.

فالهدى والعلم لَمّا جاء إلى النّاس انقسموا حياله إلى ثلاثة أقسم: فريق طيب النفس صافي الفطرة، لم يُفسد فطرته بالآثام، قَبِل: هذا العلم وتَفَهَّمه، وتدبّره وحفظه وعمل به، هذا الفريق يشبه طائفة الأرض الطّيّبة الخصبة، التي ليست صخرية، ولا سبخة، والتي حالماً أحسّت بالمطر اهتزت، وربت، وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيجٍ، وعاد نفعها على جميع النّاس والحيوان.

---

(١) رواه البخاري. الفتح ١/١٧٥، ومسلم ١٥/٤٦.

وفريق خبيث النّفس فسدت فطرته، ومات استعداده، فهو الذي يسمع كلام الله ثم يعرض عنه، ولا يبالي به إمّا استكباراً وإما تهاوناً به، وزهداً فيه، وهذا الفريق يشبه الأرض السّبخة ذات الحَبَيْبَات الرّملية الكبيرة التي تَسْمَح للماء بالتَّسَرُّب من خلالها فلا تمسك الماء ولا تنبت شيئاً، فلا خير فيها إذن.

وفريقٌ ثالثٌ لم يذكره النّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ صراحةً وإنّما ذكر مَثَلُه، ومَن عرف الفريقين السَّابقين عرف هذا الفريق من خِلاَل مَثَلِه، فهو فريق يستمع لهذا القرآن وهذا العلم ويحفظه ويفقهه ويُعَلِّمه للنّاس، لكن لا يعمل به في نفسه، فهو كَمَن يأمر بالبرّ وينسى نفسه. وهذا الفريق يشبه الأرض الصّخرية التي تُمْسك بالماء فيَأتي النّاس ويشربون ويسقون أرضهم ودوابهم منها(١).

ووجه الشّبه في هذا التّشبيه الطّويل الممتدّ الذي يتكوّن من تشبيهات متعدّدة في داخله، هو نُزُول شيءٍ طيّبٍ ومفيدٍ إلى شيءٍ آخر ثم انقسام الأخير إلى ثلاثة أقسام: قسم استفاد من هذا الشّيء الطّيّب وأفاد وهو أفضل قسم، وقسم قَبِله وحفظه، ولم يستفد منه في نفسه واستفاد منه غيره، وقسم لم يقبله، ولم يستفد منه ولم يكن سبباً في أن يستفيد من غيره(٢)، فهو أسوأ هذه الأقسام الثّلاثة. هذا وجه الشّبه لهذا التّشبيه

(١) انظر: الأدب النّبويّ، لمحمّد الخولي ص: ١٩-٢١، بتصرّفٍ وزيادةٍ.

(٢) هناك مَن يرى: أنّ وجه الشّبه هو عموم الفائدة النّازلة من السّماء، وتفاوت =

الرّائع، الذي ركّبه النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، وفيه دقّة في اختيار الْمُشبّه به، حتى كاد يطابق مع الْمشبّه من كلّ النّواحي.

وحيث إنّ طبيعةَ النَّاس واختلاف أجناسهم وطبائعهم كطبيعة الأرض، واختلاف تُربتها وبِقَاعها فلا اعتقد أنّ هناك مثلاً يضرب (لطبيعة النّاس واختلافهم) أحسن وأدقّ من هذا المثل.

وصدق رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ حين شبّه طوائف النّاس بطوائف الأرض، فإنّهم منها خلقوا، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طـه: ٥٥]))(١).

وإذا ما تأمّلنا أسلوب الحديث جيدّاً وجدنا:أنّ النَّبيّ-عليه السّلام-قَدْ أجرى التّشبيه فيه على نسقٍ واحدٍ، إلاّ عند تشبيه الطّائفة الثّالثة، بقيعان الأرض، فإنّه قد استخدم فيها مع أسلوب التّشبيه أسلوب القصر،حيث قصر تلك الأرض التي لا تمسك الماء ولا تنبت على كونها قيعان.

فصار المعنى: ما هذه الطّائفة بشيء إلاّ كونها قيعان، والقيعان هي الأرض التي لا قيمة لها، فإذن: الطّائفة المشبّهة بها من النّاس لا قيمة لها أيضاً لأنّها لم ترفع بذلك الهدى رأساً، و لم تقبله.

= الْمُتَلقى في قدر الاستفادة منها. انظر: أمثال الحديث، د. عبد المجيد محمود ص: ١٢٩، ولكن هذا تعبيرٌ عام وغير دقيق.

(١) انظر: أمثال الحديث، د. عبد المجيد محمود، ص: ١٣٢.

ولقد علّل الدّكتور محمّد أبو موسى وجود أسلوب القصر مع هذه الطّائفة دون الطّائفتين الأخريين. وذكر أنّه استخدم هنا القصر بإنّما دون النّفي والاستثناء؛ لأنّ الأرض (كما هو معروف) ثلاثة أنواع فقط، فلما ذكر الأرض الطّيّبة التي تنبت، والصّلبة التي تحفظ الماء فقط فيستفيد منه في غيرها، جاء عند الأخيرة فَذَكَرَها مع القصر، أي: كأنّه يقول: لم يبق من المألوف من الأرض إلاّ القيعان(١). وهذا تعليل دقيق وصحيح (في نظري) لهذا الأمر. والله أعلم.

قصر مثليّة المدينة على الكير:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما المدينة كالكير، تنفي خبثها»(٢).

في هذا الحديث نَرى قصر المدينة على مثلية الكير، وهذا القصر هو من القصر الحقيقيّ للمبالغة، في كون المدينة لا تَقْبل بالخبيث، الذي لم يخلص إيمانه(٣).

وضمن هذا الأسلوب القصريّ نرى أسلوب تشبيهٍ حيث شُبّهت المدينة بالكير على سبيل التّشبيه الحسيّ وعلى أساس وجه الشّبه الذي هو نفي ما خبث وما لا قيمة فيه واستبقاء ما فيه الْخيرُ والفائدة، مع التّمحيص الشّديد لكلّ ما يستبقى.

---

(١) انظر: دلالات التّراكيب، د. محمّد أبو موسى ص: ١٥٦.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ١٣/٢٠١، ومسلم ٩/١٥٥.

(٣) شرح مسلم ٩/١٥٦.

وجاء القصر مع التّشبيه هُنا ليؤكّد شدّة المشابهة بين المشبّه والمشبّه به، وكأن ليس هناك وصفٌ يليق بالمدينة في هذا المَجَال، إلاّ الكير عند ما ينفي خبث المعدن الذي يصهر فيه، وجاء هذا القصر مع التّشبه أيضاً، ليؤكّد على أنّ هذه الصّفة هي ميزة خاصّة بالمدينة المنورّة، وليست لِسواها حتّى اشتهرت بها على غيرها من المدن.

قصر النّاس على الإبل المئة التي لا راحلة فيها:

قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: ((إنّما النّاس كإبل مئة، لا تكاد، تجد فيها راحلة))[1].

جاء القصر بأنّما مع التّشبيه حيث قصر الْمُشبّه (النّاس) على الْمُشبّه به (مثلية الإبل المئة التي لا يكاد يوجد بها راحلة) على سبيل القصر الحقيقيّ الذي قصد منه المبالغة في شدّة اتّصاف الْمُشَبّه بالْمُشَبّه به حتّى لكأنّ ليس له شبيه سواه.

ووجه الشّبه هنا هو كثرة أفراد الشّيء مع ندرة وجود فردٍ واحدٍ للاستفادة منه، وهذا الحديث استشهد به البلاغيّون وعلى رأسهم عبد القاهر على مسألة وهي: أنّه ليس كلّ تشبيهٍ يمكن تحويله إلى استعارة، إذ لا يصحّ أن يقال في هذا الحديث: النّاس لا تكاد تجد فيهم راحلة، وأنّه لا بدّ من ذكر الْمُشبّه به[2] في مثل هذا التّشبيه.

---

(١) رواه البخاري. انظر: ١١/٣٣٣.

(٢) انظر: أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: هـ. ريتر، مكتبة الْمُتَنبي، =

ومعنى الحديث أنّك لا تجد في مائة من النّاس مَن يصلح للصّحبة، بأن يعاون الرّفيق ويلين جانبه له.

هذا، وإنّ الأسلوب في الحديث أسلوب تشبيهٍ، وليس باستعارةٍ تمثيليةٍ، كما يرى الدّكتور عبد الفتاح لاشين[(١)]؛ «إذ أنّ مَن يقول مثل هذا الكلام لا يعرف الفرق بَيْن التّشبيه والاستعارة؛ لأنّه متى وجد طرفا التّشبيه في السّياق لا يُمكن أن يقال عن هذا الأسلوب: إنّه استعارة.

أمّا تحديد العدد بمئةٍ فليس مقصوداً في حدّ ذاته، يقول الجاحظ: مثل ذلك يراد به أنّ الفضل قليلٌ والنّقصَ كثيرٌ، لا على النِّسب المعلومة من هذه الأعداد؛ لأنّا قد نجعل الرّجل يوزن بالأُمّة، ونجد الأمّة لا تساوي قلامة ظفر رجلٍ»[(٢)]. وهذا قولٌ صحيحٌ مفيدٌ.

ثمّ إنّ الجاحظ يرى أنّ مناسبة هذا الحديث، أنّ المراد: لا تجد لحفظ سرك من مئة شخصٍ شخصاً واحداً، وقد جاء على ذلك بشواهد عديدة من كلام العرب[(٣)]، له في ذلك وجهةٌ صحيحةٌ، ولكن الحديث أشمل من

= القاهرة، طبعة ١٣٩٢هـ، ص: ١٠٠.

وانظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام فخر الدّين الرّازي، تحقيق: د. بكري شيخ أمين،دار العلم للملاّيين،بيروت،الطّبعة الأولى١٩٨٥هـ،ص:٢٤٧.

وقد وصف الإمام فخر الدّين الرّازي من يفعل ذلك بأنّه ملغز، وتارك لكلام النّاس.

(١) انظر: من بلاغة الحديث، للدّكتور عبد الفتاح لاشين ص: ٨٧.

(٢) رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١/١٥١.

(٣) رسائل الجاحظ ١/١٥١.

ذلك في دلالته؛ إذ يدلّ على قلّة مَن يعتمد عليهم في أيّ أمرٍ مهمٍّ.

هذا، ومنهم مَن فَهم من هذه الجملة القصريّة التّشبيهية معنىً آخر، وهو أنّ النَّبيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ أشار بها إلى الإقلال من صحبة النّاس،والتّحذير منهم(١).ولعلّ في هذا المفهوم شيئاً من الصّحّة.والله أعلم.

قصر وصف الرّسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ على وصفِ رجلٍ استوقد ناراً:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّما مَثَلِي ومَثَل النّاس، كمثل رجلٍ استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدّواب التي تقع في النّار يَقَعْنَ فيها، فجعل الرّجلُ يزعهن، ويَغْلبنه، فيقْتَحِمْن فيها، فأنا آخذٌ بِحُجُزِكم عن النّار، وأنتم تَقْتَحِمُون فيها))(٢).

نَرَى في هذا الحديث أسلوبَ القصر، حيث قصر الْمُشبّه، وهو حال النَّبِيّ ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ مع أُمّته على الْمُشبّه به، وهو مثلية الرّجل الذي استوقد ناراً فلَمّا أضاءت له جاء الفراش ونحوه فتساقط فيها، فحاول الرَّجل مَنْعه عنها لكنه لم يتمكن من ذلك، وهذا القصر من الحقيقيّ الذي قُصِد به المبالغة في تطابق طرفي التّشبيه على وجه الشّبه تمام الانطباق، ووجه الشّبه مركبٌ حسيٌّ، وهو: وجود شخصٍ يريد منعَ

(١) انظر: كتاب العزلة، لأبي سليمان الخطابي، تحقيق: يس محمّد السّواس، دار ابن كثير، دمشق، طبعة سنة: ١٤٠٧هـ، ص: ١٢٨.

(٢) رواه البخاري.انظر:الفتح١١/٣١٦، ومسلم. انظر:شرح النّووي ١٥/٤٩.

الضّرر عن شيء، لكن ذلك الشّيء يسرع إلى الضّرر بنفسه، أو هو الحرص على نَجَاةِ مَن هو حريصٌ على هلاك نفسه[١]، أو هو اتّباع الهوى وضعفُ التّمييز، وحرص كلّ من الطّائفتين على إهلاك نفسه[٢].

وقد نقول: إنّه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قد شبّه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إيّاهم. يتساقط الفراش في نار الدُّنيا لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص على هلال نفسه، ساعٍ في ذلك لجهلة[٣].

هذا هو حال البشر إن تهافتوا على المعاصي والشّهوات؛ إذ يصبحون كفراش حُمقٍ لا قيمة له، ولا وزن، يَغْتَرّ من النّار بِنُورها، فينجذب إليها فَتَلحَسُه النّار وتحوِّله إلى رماد، وتضيع منه حياته ضياعاً أبديّاً والعياذ بالله من ذلك. هذا وقد قيل: إنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ قد عبّر عن كلّ هذه المعاني بهذا التّمثيل الذي هو من أوجز الكلام وأبلغه وأشدّه اختصاراً[٤].

---

(١) انظر: أمثال الحديث ص: ١٢١.

(٢) انظر: من بلاغة السّنة، . لاشين ص: ٨٦.

(٣) شرح مسلم ١٥/٤٩.

(٤) انظر: أمثال الحديث، للرّامَهُرمزي، تحقيق: أمّة الكريم القرشيّة، مطبعة الحيدري بباكستان، سنة: ١٣٨٨هـ، ص: ٢٣.

قصر العائد في صدقته على مشابهة الكَلْب الذي يأكل قيأه:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما مثل الذي يتصدّق بصدقته ثم يعود في صدقته كَمَثَل الكلب يقيء ثُمَّ يأكل قيأه»[1].

إنّ للصّدقة آداباً تجعلها أهلاً لثواب الله سبحانه وتعالى. وقد حَثَّ الإسلام على السِّرّيّة في الصّدقة، حتّى لا تختلط بالرّياء، ودعا فيها إلى عدم الْمَنِّ حتّى لا تكون موضع إذلال للآخرين، ونَهَى الإسلام عن استردادها، والعود فيها ـــ كما نَرَى في هذا الحديث ـــ حتّى لا يكون في ذلك كسرٌ لخاطر آخذها، أو يكون فيه مَنٌّ أو أذى. لذلك مَنَع الشّرع مثل هذا الفعل وشبّه الرّسول الكريم ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ هذا الذي يعود في صدقته بالكلب الذي يقيء ثم يأكل قيأه، إنّها صورة معبّرة حقاً، ومثلٌ بليغٌ غايةَ البلاغة لزَجْر مَن يريد العودةَ في صَدَقَته زجراً قاسياً عن ذلك.

وفي هذه العبارة النّبويّة الكريمة، لم يأتِ التّشبيه فيها مجرّداً بل جاء مقترناً بالقصر، حيث قصر الْمُشبّه (وهو العائد في صدقته) على الْمُشبّه به (وهو مثلية الكلب الآكل لقيئه). وهذا من القصر الحقيقيّ وللمبالغة في شِدّة اتّصاف الصّورتين بِبَعْضِهما البعض، حتّى يَكَادان أن يتطابقان تماماً.

فهُنا رجلٌ دنيء يتصدّق فيطرح عنه شيئاً من أوساخه، ثم يعود فيضع أوساخه عليه مرّةً أخرى، وفي المقابل كلبٌ نجسٌ يتقيأ بالقذارة ثم

---

(١) رواه مسلم ١١/٦٤.

يأكلها. هذا تشبيه حسيّ. ووجه الشّبه فيه: طرح شيءٍ حقيرٍ قذرٍ ثم العودة له للانتفاع به.

إنّه مثل ضربه النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ للعائد في صدقته؛ إذ لم يجعله إلاّ كلباً عائداً في قيئه ليس غير ذلك. فإن رضي أحدٌ أن يكون كذلك فَلْيَفْعَل!

قصر حال النَّبيّ مع أمّته على مشابهة رجُلٍ رأى عدوّاً فَعَجَّل في إنذار أهله:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «يا بني عبد مناف إنِّي نذيرٌ، إنّما مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ رأى العدوّ فانطلق يَرْبأ أهله، فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف: واصحباه!»[(١)].

يضرب النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ أمثالاً شتّى للحال الواحدة، حتّى يُنَبّه النّاس ويُشْعِرهم بخطر وأهمّية الأمر الذي يريد، وهذا حال النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ مع أمّته، وقد أتى له بالمثل مع القصر ليؤكّد المعنى، ويزيد من يقظة السّامع لهذا الأمر.

والحال الواحدة لها عدّة جوانب يوضّح النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ بكلّ تشبيهٍ جانباً من هذه الجوانب، ويظهره بأجلى صورةٍ

---

(١) رواه مسلم ٨١/٣.

ومعنى: يربأ، أي: يرتفع على الجبل يتطلّع العدوّ ليَحْفظ أهله منه. انظر: شرح النّووي ٨٢/٣.

وأبينها، حتّى يحسن النّاس فهمها ووعيها، وقد أكثر النَّبيّ ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ من تمثيل حاله مع أمّته حتّى يُبيّن لهم مقدار ما لاقاه في سبيل دعوتهم وتزكيتهم!

ففي هذا الحديث قصر للْمُشبّه (وهو حال الرّسول ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ مع أمّته التي يوشك أن يمسّها عذاب الله وعقابه)، على الْمُشبّه به وهو رجل رأى عدوّاً فأنذر أهله منه. ووجه الشّبه هُنا: إنسان رأى خطراً يُحدق بأهله فاجتهد في إنذارهم حرصاً منه عليهم.

ونفهم معنىً آخر من الْمُشبّه به يدلّ على شِدّة حرصه ـــ عليه السّلام ـــ على هذه الأمّة وذلك أنّ الرّجل الذي رأى العدوّ ولم يؤخّر تحذير أهله إلى حين وصوله إليهم بل أخذ يصيح ويحذّرهم من الْبُعْد، خشيةً أن يسبقه العدوّ إليهم، وهذه هي حال النَّبيّ الأكرم ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ في تحذير أمّته من الْمَهَالك. والله أعلم.

قصر الصَّدَقة على أوساخ النّاس:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّ الصّدقة لا تَنْبَغي لآل محمّد؛ إنّما هي أوساخ النّاس»(١).

وفي هذا الحديث نرى قصراً (للصّدقة) على كونها وسخاً وقذارة، وهذا من قصر الْمُشبّه على الْمُشبّه به، وبالرّغم من أنّ هذا من التّشبيه البليغ، الذي حذفت منه الأداة مع وجه الشّبه إلاّ أنّ المبالغة فيه أشدّ منها

(١) رواه مسلم ١٧٩/٧.

من التَّشبيه البليغ؛ وذلك لأنّ هذا التّشبيه قُرِنَ بأسلوب قصرٍ جاء فيه القصر حقيقيّاً وللمبالغة. وكأنّ المعنى: ليس للصّدقة صفةٌ إلاّ أنّها أوساخ النّاس. ولهذا حُرِّمت على بني هاشم، وبنى عبد المطلب تكريماً لهم، وتنْزيهاً عن الأوساخ.

ومعنى أوساخ النّاس: أنّها تُطَهِّر أموالهم ونفوسهم كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة من الآية: ١٠٣][(١)].

لذا فعلى كلّ إنسانٍ أن يُطَهِّر نفسه، وماله بإخراج الزّكاة والصّدقات؛ فإنّه لو تركها فكأنّه ترك وسخه على بدنه ولم يتطهّر منه، وبالتّالي سوف يؤذيه هذا الوسخ، وربّما أضرّ به ضرراً بليغاً، ثم إنّه يحسن بالإنسان أن يبتعد عن سؤال النّاس صدقاتهم، ما دام يجد عن ذلك عوضاً؛ لأنّه إذا أكل منها فكأنّه أكل أوساخ النّاس، فهل يرضى كريمٌ بمثل هذا إلاّ في حال الضّرورة؟!

قصر الأمر في عهد النّبوّة على مشابَهَةِ الرّعاة:

في حديثٍ طويلٍ قال فيه النَّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((هل أنتم تاركو لي أمرائي؟ إنّما مثلكم ومثلهم كمثل رجلٍ استرعى إبلاً وغنماً فرعاها ثم تحَيَّن سقيها فأوردها حوضاً، فشرعت فيه فشربت صَفْوه، وتركت كدره، فصفّوه لَكُم وكدره عليهم))[(٢)].

---

(١) انظر: شرح النّووي ١٧٩/٧.

(٢) رواه مسلم ٦٤/١٢.

في هذا الحديث نَرَى النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ قد قَصَر الْمُشبّه (الذي هو حال أمراء النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ مع رعاياهم) على الْمُشبّه به (وهو: حال الرّجل الذي استرعى إبلاً فرعاها وأوردها حوضاً شَرِبَت صَفْوه وتركت كدره.

فنرى هنا هذا التّشبيه التّمثيلي الذي بناه النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ على وجه شبهٍ مركّبٍ وهو: تحقّق المنفعة للرّعية، وتحمّل الرّاعي للمسؤولية، وهكذا نجد هذا الشَّبه منْتَزعاً من بيئةٍ عربيةٍ بحكم عيشة النَّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ فيها، وبحكم مَن يخاطبهم النَّبيّ ــ عليه السّلام ــ فهم أهل تلك البيئة وهذا أبلغ في إفهامهم وأقرب لتصوّراتهم.

ومعنى الحديث: أنّ الرّعية يأخذون صفو الأمور فتصلهم أعطياتهم بغير نكدٍ وتبتلي الولاة بمقاساة الأمور وجمع الأموال على وجوهها، وحفظ الرّعية، والشّفقة عليهم، والذّبّ عنهم وإنصاف بعضهم من بعضٍ ثم متى وقع ما يسوء في بعض ذلك توجّه إلى الأمراء دون الرّعية(١). والله أعلم.

قصر أجل هذه الأمّة على مثلية ما بين العصر والمغرب (وصورة أخرى):

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما أجلكم ــ في أجل مَن خلا من الأمم ــ ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشّمس، وإنّما

(١) انظر: شرح مسلم ١٢/٦٥.

مثلكم ومثل اليهود والنّصارى كرجلٍ استعمل عمالاً فقال: مَن يعمل إلى نصف النّهار على قيراطٍ قيراطٍ؟ فعملت اليهود إلى نصف النّهار على قيراطٍ قيراطٍ ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النّهار إلى صلاة العَصر على قيراطٍ قيراطٍ؟ فعملت النّصارى من نصف النّهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراطٍ، ثم قال مَنْ يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشّمس على قيراطين قيرطين؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشّمس على قيراطين، ألا لكم الأجر مرّتين، فغَضِبت اليهود والنّصارى، فقالوا: نحن أكثرُ عملاً وأقلّ عطاءً، قال الله: هل ظلمتكم من حقّكم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنّه فضلي أعطيه مَن شئتُ»(١).

نرى في هذا الحديث تشبيهين لطيفين:

أحدهما: شُبِّه فيه أجل هذه الأمّة بالنّسبة لأجل مَن قبلها من الأمم بما بين صلاة العصر إلى صلاة المغرب، بالنّسبة لبقية اليوم، وفي هذا التّشبيه دلالاتٌ كثيرةٌ حيث جعل النَّبِيّ ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ عمر البشرية الزّمني من أوّلها إلى آخرها كاليوم الواحد، وجعل مدّة حياة هذه الأمة هي بمثابة ما بين العصر والمغرب، فهي إذن في الْخُمس أو الرّبع الأخير من يوم البَشَرِيّة الطّويل. ووجه الشّبه في هذا التّشبيه هو: قصر الأجل وتأخّره بالنّسبة لآجال تَقَدَّمَتْه.

وقد جاء هذا التَّشْبيه في عبارةٍ قصريّةٍ صُدِّرت بإنّما؛ حيث قصر

---

(١) رواه البخاري ٦/٤٩٥.

الْمُشبّه على الْمُشبّه به وكأن ليس هناك مشبّهٌ به يشارك الْمُشبّه في وجه الشّبه هذا إلاّ ما ذكر في الحديث، وذلك على سبيل المبالغة، وهذا بالنّسبة للتّشبيه الأوّل.

أمّا بالنّسبة للتّشبيه الثّاني؛ فهو مقارنة بين حال هذه الأمّة وحال اليهود والنّصارى بالنّسبة للعمل والأجر، فقد شبّه النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ اليهود بعمّالٍ عملوا عند رجلٍ من أوّل النّهار حتّى الظّهر، وكان أجرهم يساوي قيراطاً للعامل الواحد، وشبّه النّصارى بعمّالٍ عملوا عند ذلك الرّجل من الظّهر حتّى العصر بنفس أجر الذين سَبَقُوهم، وشبّه هذه الأمّة بعمّالٍ عَمِلوا عند ذلك الرّجل من صلاة العصر إلى صلاة المغرب، وكان أجرهم يساوي قيراطَيْن للرّجل الواحد.

ووجه الشّبه في هذا التّشبيه هو: طول مدّة عمل قومٍ مع قلّة أجرهم، ومدّة مُتوَسِّطة وأجر قليل للقوم الذين بعدهم، ومدّة قصيرة وأجرٌ عظيمٌ للقوم الذين أتوا من بعدهم.

وقد جاء هذا التَّشبيه كسابقه بأسلوب قصرٍ، قُصِر فيه الْمُشَبّه على الْمُشَبّه به قصراً حقيقيّاً وللمبالغة، وفائدة اقتران القصر بكلّ من التّشبيهين هي:

أوّلاً: التّأكيد على أنّ هذه التّشبيهات، هي لبيان أوضح صورةٍ لأمر هذه الأمّة، وأمر غيرها من الأمم، إذ لو بحث عن حال تُشْبِه هذه الحال لما وجد غير هذه الحال.

ثانياً: أن يعلم المسلمون ذلك علم اليقين، وأن يَتَيَقّنوا أنّ هذه هي الفرصة الأخيرة للبشريّة، وقد وهبها الله من فضله وكرمه لهم، فعليهم إذن أن يأخذوا من كلّ يومٍ عبرةً؛ إذ كلّ يومٍ تشرق شَمْسُه هو مشبّه به لهذا الأمر. والله أعلم.

قصر مثلية الجليس الصّالح والجليس السّيّئ على حامل المسك ونافخ الكير:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «إنّما مثل الجليس الصّالح والجليس السّوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحاملُ المسك إمّا أن يحذِيَك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا تَجدَ منه ريحاً طيّبةً، ونافِخُ الكِيرِ إمّا أن يُحْرِقَ ثِيَابَك وإمّا أن تَجِدَ منه ريحاً خبيثةً»[1].

في هذا الحديث النّبويّ الشّريف، جاء تشبيه النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ للجليسين: الصّالح والسّوء بحامل المسك ونافخ الكير، وهذا تشبيهٌ تمثيليٌّ مكوَّنٌ من شقّين:

أمّا الشّقّ الأوّل: فشبه فيه الجليس الصّالح بحامل المسك. وقد ذكر النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بعد ذلك أموراً تتعلّق بالْمُشبّه به، وهي قوله: «إمّا أن يحذِيَك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجِدَ منه ريحاً طيِّبةً»، فنَجدُ أنّ وجه الشّبه هو عموم الفائدة الحاصلة من الرّجلين (حامل المسك والجليس الصّالح) في كلّ حالٍ، وأنّه لا يخلو لقاء الإنسان بأي منهما من

(١) رواه مسلم ١٦/١٧٨.

فائدةٍ بغضِّ النّظر من حجم تلك الفائدة.

وفي المقابل نجد الشّق الثّاني من التّشبيه حيث شَبّه الجليس السّوء بنافخ الكير، ثم ذكر بعد ذلك أموراً تتعلّق بالْمُشبّه به، وهي: ((إمّا أن يحرِّق ثيابك، إمّا أن تجد منه ريحا خبيثةً))، فيكون وجه الشّبه بين الجليس السّوء ونافخ الكير هو: تحقّق حصول الضّرر منهما لجلسائهما في كلّ حالٍ بغضِّ النّظر عن كثرة الضّرر أو قلّته.

والتّشبيه في هذا الحديث هو من النّوع الملفوف؛ حيث جُمِع الْمُشَبّهان في طرفٍ، وجُمع الْمُشَبِّهان بهما في طرفٍ آخر، أو هو من اللّفّ والنَّشر[1]، المرتّب؛ لأنّه قد لَفَّ معنيَين أوّلاً ثم عاد إليهما بالنّشر الْمُرَتَّب[2].

وكذلك في هذا الأسلوب طباق بين الصّالح والسّوء وبين الرّيح الطّيّبة والرّيح الْخَبِيثة[3].

هذا وقد جاء أسلوب القصر هنا ليقصر شَبَه كلّ من الْمُشَبّه في التّشبيهين على الْمُشَبّه به فيهما، وكأنّه لا أفضل من تشبيه الجليس الصّالح

---

(١) اللّف والنّشر هو: أن يذكر متعدد على جهة الإجمال ثم يذكر لكلّ واحدٍ ما يتعلّق به من كلام من غير تعيين ثقةً بأنّ السّامع يردّه إليه. انظر: الإيضاح، للخطيب القزويني، شرح د. عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكلّيّات الأزهرية بالقاهرة، الطّبعة الثّانية، ٦/٤٢.

(٢) انظر: عشرون حديثاً من صحيح مسلم، للشّيخ عبد المحسن العباد ص: ١٨٦.

(٣) انظر: من بلاغة السّنة ص: ١١٢.

بحامل المسك وتشبيه الجليس السّوء بنافخ الكير لشدّة التّطابق بين الْمُشبّه والْمُشبّه به.

وهو من القصر الحقيقي لعموم النّفي فيه، وليس من الإضافي كما يَرى الصّابوني[(١)]؛ إذ الأصل في القصر أن يكون حقيقيّاً إلاّ إذا دلّ دليل على أنّه إضافي ولم يوجد هنا ما يدلّ على ذلك.

هذا، ويفهم من الحديث أنّ مَن جالسَ جَانس؛ لأنّ النّفس تقتبس الْخير والشّرّ من الْجُلَسَاء[(٢)].

قصر فاطمة الزّهراء ــ رضي الله عنها ــ على كونها قطعةً من النّبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مرّة وهو على المنبر: ((إنّ بني هشام ابن المغيرة[(٣)]، استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب،فلا آذن ثم لا آذن،ثم لا آذن إلاّ أن يريدابن أبي طالب أن يُطلّق ابْنَتِي وينكح ابنتهم إنّما هي بضعةٌ مِنّي يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها))[(٤)].

(١) انظر: من كنوز السّنة للصّابوني، ص: ٣٤.

(٢) المصدر السّابق ص: ٣٥.

(٣) هو: هشام بن المغيرة جدّ البنت المخطوبة، وبنو هشام هم أعمام بنت أبي جهل. انظر: الفتح ٣٢٨/٩.

(٤) رواه البخاري ٣٢٧/٩، ومسلم ٣/١٦.

=

عندما أراد بنو هشام بن المغيرة أن يزوجوا ابنتهم لعليّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ استأذنوا في ذلك النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ولكنّ النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ رَدَّ عليهم بالْمَنع لذلك الأمر وإن كان جائزاً شرعيّاً[١]، والسّبب في ذلك أنّ هناك أموراً (وإن كانت مباحة في نظر الشّرع) إلاّ أنّ النَّفْس الأبِيّة الحرّة لا تقبل بها لذلك منع النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ هذا الزّواج؛ لأنّ فيه نوعاً من الإهانة لابنته الزّهراء ــ رضي الله عنها ــ ثم للرّسول ذاته ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، فكيف تجتمع بنت حبيب الله وبنت عدوّ الله؟ أم كيف يحقّ لِمَن فازَ بِبِنْت رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم-أن يذهب إلى بنتِ عدوّ الله فيتزوّجها؟! لذلك لا نشُكّ أنّ فطرة عليٍّ ــ رضي الله عنه ــ رافضةٌ هذه الفكرة.

ومهما يكن من أمر، فقد قصر النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ إذنه بذلك الأمر على أن يفارق عليٌّ ابنته فتعود إليه، وليذهب بعد ذلك ابن أبي طالبٍ إلى الزّواج من غيرها، ولننظر إلى قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «ابن أبي طالبٍ»، ولم يقل: علي أو يقل: ابن عمي؛ وذلك لأنّ الخطاب كان مَشُوباً بالغَضب، وفيه نوعٌ من الحِدّة حتّى عند ذكر

= وفي حديثٍ لمسلم آخر زيادة: «وهي وإنّما أكره أن يفتنوها». ٤/١٦. وهذا بيّن السّبب الذي من أجله منع النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من الزّواج بها؛ وهو: من القصر الإضافي، أي: أنّه ليس حراماً وإنّما خوفاً من الأذى.

(١) هذا رأي الجمهور. انظر في ذلك شرح النّووي ٣/١٦.

صاحب الشّأن في هذه القضيّة. ولننظر أيضاً إلى تشديد النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في تأكيد النّفي حيث أعاد الْجُمْلة ثلاثاً، لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، وذلك قد زاد القصر على ما فيه من تأكيد معنوي بتأكيد لفظيٍّ ثلاث مرّات. وهذا التّكرار أشدّ موقعاً من الإيجاز. وذلك تأكيد لمنع زواج عليٍّ من تلك المرأة(١).

وفيه إشارة أيضاً إلى تأبيد حِدّة الْمَنْع حتّى لا يظنّ أحدٌ أنّ هـــذا الْمَنْع لمدّةٍ محدودةٍ ثم تنتهي(٢).

وهذا القصر من الحقيقيّ التّحقيقيّ لعموم النّفي فيه، وصدق عَزْم النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ على ذلك، ثم بعد ذلك يأتي عبارة قصريّة أخرى قصر فيها النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ الموصوف (هي)(٣) ـــ أي: فاطمة ـــ على الصّفة (وهي بضعة منى)، وهنا يحسنُ أن

---

(١) انظر: المثل السّائر، لابن الأثير ٣/١٠.

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني ٩/٣٢٩.

(٣) وهنا يحسن بي أنّ أشير إلى قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في حديثٍ سابقٍ: «إنّما هي صفية بنت حيّي».

والفرق بين (هي) في كلا القصرين وهو أنّ (هي) هنا، في قوله: إنّما هي بضعة منّي، مرادفة لكلمة: (فاطمة)؛ إذ إنّه في رواية أخرى لهذا الحديث، يقول النَّبِيّ ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ إنّما فاطمة بضعة منّي (صحيح مسلم ١٦/٣).

أمّا هي في قوله: إنّما هي صفية فهي شيء عام يشمل صفية وغيرها ولكنّه قُصِر على صفية.

نُفَسِّر هذا القصر، على أنّه قصر للْمُشبّه على الْمُشبّه به وقد شبّهت فاطمة بقطعةٍ من جسد النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بجامعٍ أنّ تَألُّمها وحزنها يؤلمه ويحزنه كما يؤلمه ويحزنه الأذى إذا أصاب موضعاً من جسده.

وهذا التّشبيه تشبيهٌ بليغٌ حيث حُذِفت مِنْه الأداة ووجه الشّبه، وزيد على الْمُبالغة فيه بمبالغة القصر، حيث جُعلت فاطمة، وكأن ليس ليها صفةٌ غير أنّها بضعةٌ من النّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وما ذلك كلّه إلاّ ليبقى المعنى مؤثراً في السّامعين، ولا يرضى أحدٌ أن يمسّ جسد رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بأيّ أذى.

هذا ويجوز أن تكون فاطمة الزّهراء ــ رضي الله عنها ــ جزءاً حقيقيّاً من أبيها ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، باعتبار أصل المادة الشّريفة التي خُلقت منها، وعندئذٍ لا يكون هناك تشبيه، ولكني أرجّح القول الأوّل. والله أعلم.

المطلب الثّاني: التّشبيه مع النّفي والاستثناء:

قصر نسبة ما عَلِمَه الخضرُ وموسى ـ عليهما السّلام ـ من علم الله على نسبة ما أخذه العصفور من ماء البحر:

وفي حديثٍ طويلٍ عن قصّة موسى والخضر ـ عليهما السّلام ـ يقول عنها النَّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة فَمَرّت بهما سفينةٌ فكلّموهم أن يحملوهما فعرف الخضر فحملوهما بغير نَول فجاء عصفورٌ فوقع على طرف السّفينة فنقر نقرةً أو نقرتين في البحر. قال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاّ كنقرة هذا العصفور في البحر...» الحديث[1].

عندما جاء الخضرُ إلى موسى ـ عليهما السّلام ـ ليعلّمه دروساً لم يكن موسى يعلمّها وذلك من خلال الرِّحلة التّعليمية التي قاما بها، وكان أوّل درسٍ فيها عندما جاء العصفور ونَقَر في البحر، فجاء الخضر لموسى بهذه العبارة القصريّة التّشبيهية: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاّ كنقرة العصفور في البحر»، ولفظ النّقص هنا ليس على ظاهره؛ لأنّ علم الله لا يدخله النَّقص، ولهذا قيل: إنّ معناه ما علمي وعلمك

(١) رواه البخاري ٣١٨/١، ومسلم ١٤١/١٥.

ومعنى نول: أي: أجر.

وهناك روايةٌ أخرى وهي: «والله ما علمي، وما علمك في جنْب علم الله إلاّ كما أخذ هذا الطّائر بمنقاره من البحر». انظر: الفتح ٤١١/٨.

بالنّسبة لعلم الله إلاّ كنسبة ما نقره هذا العصفور إلى ما البحر على سبيل التّقريب للإفهام وإلاّ فنسبة علمهما أقلّ من ذلك(١).

وفي الحقيقة إنّني أرى أنّ العلم يختلف عن الماء في أنّ الأخذ من العلم لا ينقصه. أمّا الأخذ من الماء فينقصه، فلو كان هناك عالمٌ يأخذ النّاس من علمه في كلّ يومٍ لم ينقص علم ذلك العالم بالأخذ منه، ولله المثل الأعلى، فعلمه سبحانه لا يقبل النّقص ولا الزّيادة لكماله، أمّا الماء فإنّ الأخذ منه ينقصه ولو كان شيئاً يسيراً. لهذا فإنّ تفسير هذا الحديث بالتّفسير الأوّل هو الأقرب إلى الصِّحّة، وأنّه شُبِّهت نسبةُ ما أخذ العصفور إلى ماء البحر بنسبة علمهما إلى علم الله تعالى، ووجه الشّبه هو وجود شيءٍ صغيرٍ متناه في الصّغير بجانب شيءٍ عظيمٍ لا حدود لعظمته.

وقد جاء القصر هنا ليضيف إلى هذا التّشبيه معنىً آخر، وهو أنّه لو حاول الإنسان وضع مُشبّهٍ به آخر، غير الذي ذكر في هذا الحديث لهذه المسألة فلن يستطيع أن يأتي بأحسن من هذا الْمُشبّه به أو حتّى بمثله. وهذا القصر للمبالغة؛ حيث إنّه قد يوجد شبيه آخر لكن نزل منْزلة العدم. أمّا بالنّسبة للتّشبيه فالغرض منه التّقريب، وإلاّ فليس هناك نسبة بين علم الله وعلم البشر.

---

(١) انظر: شرح النّووي ١٥/٤٤. هذا وقيل: إنّ (إلاّ) هنا بمعنى: ولا، أي: ما نقص علمي وعلمك من علم الله، ولا مثل ما أخذ هذا العصفور من البحر. انظر: شرح النّووي ١٥/١٤٢، ولكنّي أرى هذا التّفسير بعيداً ولا دليل على ذلك. والله أعلم.

قصر ما ينقص من خزائن الله على ما ينقصه المخيط من ماء البحر إذا أُدخل فيه:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ (فيما يرويه عن ربّه): ((إنّ الله سبحانه وتعالى قال: يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك مِمّا عندي إلاّ كما ينقصُ الْمُخيطُ إذا أُدخل البحر))(١).

في هذا الحديث نرى صورة تقريبيّة لعظمِ ملك الله تعالى، حيث أراد سبحانه وتعالى أن يُقرّب إلى أذهاننا صورة هذه العظمة.

قال العلماء: ((إنّه تقريب إلى الأفهام، ومعناه: لا ينقص شيئاً؛ لأنّ ما عند الله لا يدخله نقص، وإنّما يدخل النّقص الشّيء المحدود الفاني، فضرب المثل بالمخيط في البحر؛ لأنّه غايةُ ما يضرب به المثل في القلّة، والمقصود: التّقريب إلى الأفهام بما هو مشاهد فإنّ البحر من أعظم المرئيات عياناً وأكبرها، والإبرة من أصغر الموجودات مع أنّها صقيلة لا يتعلّق بها ماء))(٢).

والْمُشبّه هنا هو مقدار ما يأخذه الإنس والجنّ أجمعون إذا تَمنّوا غاية مناهم مِمّا عند الله، والْمُشبّه به مِقْدار ما يُبلّل الْمخيط من الماء، إذا أدخل البحر.

---

(١) رواه مسلم ١٦/١٣٣.

(٢) شرح النّووي ١٦/١٣٣.

ووجه الشّبه هنا: شيءٌ قليلٌ لا يذكر، يُؤخذ من شيءٍ عظيمٍ لا حدود له.

هذا، وأنّ التّشبيه للتّقريب فقط، كما قال العلماء، وإلاّ فليس هناك نقص في ملك الله حتى يوضع له شبه، والأصل أنّ معنى الكلام: «لا ينقص ما طلبتموه من ملكي شيئاً». والتّشبيه مع القصر هنا لتأكيد هذا المعنى أكمل تأكيدٍ وتوضحيه أتم توضيحٍ. والله أعلم.

قصر مثلية هذه الأمّة على الشّعرة السّوداء في جلد ثور أبيض:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ لأصحابه: «والذي نفسي بيده إنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنّة (فَكَبّروا)، فقال: أرجو أن تكونوا ثلثَ أهل الجنّة (فكبّروا) فقال: أرجو أن تكونوا نِصْفَ أهل الجنّة (فكَبّروا) فقال: ما أنتم في النّاس إلاّ كالشّعرة السّوداء في جلد ثور أبيض»[(١)].

في هذا الحديث شبّه النّبيّ ـــ عليه الصّلاة والسّلام ـــ عدد أمّته بالنّسبة لبقية البشر بالشّعرة السّوداء في جلد ثورٍ أبيض، ووجه الشّبه هو قلّة شيء وندرته بالنّسبة لشيءٍ كثيرٍ جدّاً لا يكاد يحصى عدده، وقد جاء القصر هنا ليوضّح مطابقة الْمُشبّه للمُشبّه به وهذا يدلّنا على دقّة اختياره ـــ صلىّ الله عليه وسلّم ـــ للتّشبيهات ثم إنّنا من هذه العبارة القصريّة

---

(١) رواه البخاري ٣٨٢/٦، ومسلم ٩٦/٣.

وفي روايةٍ أخرى للبخاري: «ما أنتم في أهل الشّرك إلاّ كالشّعرة البيضاء في جلد الثّور الأسود». رواه البخاري ٣٧٨/١١.

التّشبيهيّة ندرك أموراً منها:

أوّلاً: أنّ عدد هذه الأمّة قليل جدّاً إذا ما قورنت ببقية البشر.

ثانياً: أنّه قد مضى من عمر البشرية أعظمه وجلّه ولم يبق منه إلاّ القليل.

ثالثاً: فضل هذه الأمّة وأنّها رغم أنّها كشعرةٍ في جلد ثورٍ إلاّ أنّها قد تكون نصف أهل الجنّة أو ثلثهم، أو ربعهم.

رابعاً: فيها دليلٌ على كثرة كفر السّابقين؛ إذ أنّه لن يحصل مؤمنوهم إلاّ على نصف الجنّة أو ثلثها، أو ثلاثة أرباعها. والله أعلم.

قصر ما يلاقيه مَن ينظر إلى الله تعالى يوم القيامة على ما يلاقيه مَن ينظر إلى الشّمس أو القمر:

قال رسول الله ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ: «ما تضارّون في رؤية الله ــ عزّ وجلّ ــ يوم القيامة إلاّ كما تضارّون في رؤية أحدهما الشّمس والقمر»[(١)].

في هذا الحديث شبّه النَّبِيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ الْمَشَقّة التي يلاقيها مَن ينظر إلى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بالْمَشَقّة التي يلاقيها مَن ينظر إلى القمر أو الشّمس، ووجه الشّبه هنا هو الوضوح والبيان وزوال الشّكّ والْمشَقّة وحصول الرّؤية للجميع بمنْزلةٍ واحدةٍ، ولكن هذا التّشبيه نجده عبارةً عن كنايةٍ؛ إذ ليس هناك شيء يضارّ مَن يرى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، حتّى يُشَبَّه بشيء ما، ثم إنّه لا يضارّ أحدٌ في

---

(١) رواه البخاري ٢٤٩/٨، ومسلم ٢٦/٣.

رؤية القمرين، ولهذا فإنّ هذا الأسلوب كناية عن تجلّي الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين يوم القيامة من غير أن يحول بينه وبينهم أيّ حائلٍ فيرونه رؤيةً حقيقيةً من غير أدنى عناء. وكأنّ المعنى: لا تضارّون في رؤية الله أصلاً، وإنّما جاء التّشبيه ليزيد تأكيد هذه الجملة فحسب، ثم جاء القصر ليزيد تأكيدها أكثر وأكثر، فلا يدع أحداً يشكّ أو يتردّد في وضوح الرّؤية وحصولها للمؤمنين يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

قصر الدّنيا في الآخرة على مثلية مَن يضع إصبعه في اليم:

وقال رسول الله ـــ صلىّ الله عليه وسلّم ـــ: ((والله ما الـــدّنيا في الآخرة إلاّ مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليوم فلينتظر بِمَ يرجع))[1].

في هذا الحديث نرى مقارنةً بين الدّنيا (تلك الفترة الزّمنية الصّغيرة) التي أُعِدّت لاختبار البشر، وبين الآخرة (تلك الحياة السّرمدية الباقية)، ولكي نتصوّر هذا الشّبه بينهما نقف أمام هذا التّشبيه النّبويّ البليغ حيث نرى في طرفه الأوّل حال الدّنيا بالنّسبة للآخرة، وذلك بالنّظر لقصر مدّة الدّنيا، وفناء لذّتها ودوام الآخرة ودوام لذّاتها[2]، ونرى في طرفه الثّاني حال ما يأخذه إصبع الإنسان من ماء البحر، بالنّسبة لبقية ماء البحر، ووجه الشّبه هو شيءٌ قليلٌ جدّاً بالنّسبة لشيءٍ كبيرٍ جدّاً لا حدود له، أو أنّه انعدام النّسبة بين شيءٍ كثيرٍ منتاه في الكثرة وشيء قليل متناه في القلّة.

---

(١) رواه مسلم ١٩٢/١٧.

(٢) شرح النّووي ١٩٢/١٧.

وهذا التّشبيه يدفع المسلم العاقل إلى أن يَطْرح الدّنيا ولـــذّتها، ولا يأخذ منها إلاّ قدر ما يسدّ حاجته، وليكن همّه ونظره كلّه لحياةٍ أخرويةٍ نعيمها لا يبيد ولذّاتها أبداً في مزيد.

هذا، وفي نظري أنّنا لو وسعنا دائرة التّشبيه أكثر مما ذكر لما كان هناك من ضَيرٍ، فلو جعلناها تشمل النّعيم والعذاب، والسّعادة والشّقاء، أيّ الشّقاء الذي يلاقيه الإنسان العاصي والكافر في الدّنيا، ليس بشيءٍ إذا ما قورن بعذابه في الآخرة ولن تكون هذه النّسبة من العذاب إلاّ كما يضع الإنسان إصبعه في البحر أيضاً فيكون وجه الشّبه هنا هو نسبة القليل المحدود إلى ما لا حدود له، سواء في الزّمان أو المكان، أو فيما يشتمل عليه كلّ منهما[1].

وهذا التّشبيه قد جاء معه أسلوب القصر وقد زاد المعنى بياناً وقوّةً في جميع جوانبه وكأنّ هذا الحديث يقول للنّاس: لا تَظُنّوا أن تتوهّموا (أيّها النّاس) إنّ ما تلاقونه في الدّنيا شيءٌ كثيرٌ بالنّسبة لما في الآخرة؛ لأنّه لا يخرج عن هذا المثال، فهل هذا التّشبيه كافٍ لكم لكي تقدّروا الدّنيا بقدرها والآخرة بقدرها؟ لذلك جاء هذا القصر الحقيقيّ للمبالغة.

(١) أمثال الحديث، د. عبد المجيد محمود ص: ٢٩٦.

المبحث الثّاني: ما اقترن فيه القصر بالكناية

قصر المسافة بين الجنّة أو النّار على ذارع:

من حديثٍ طويلٍ للنَّبيّ ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ يقول في آخره: «...إنّ أحدكم ــ أو الرّجل ــ يعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يبقى بينه وبينها غير باعٍ، أو ذارعٍ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها، وإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه وبينها غير ذراعٍ أو ذارعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النّار فيدخلها»(١).

للإمام النّووي كلامٌ لطيفٌ ومفيدٌ جدًّا حول هذا الموضوع يقول: «والمراد بالذّراع التّمثيل للقرب من موته، وأنّ تلك الدّار ما بقي بينه وبين أن يصلها إلاّ كَمَن بقي بينه وبين موضعٍ من الأرض ذراع، والمراد بهذا الحديث: أنّ هذا قد يقع في نادرٍ من النّاس لا أنّه غالب فيهم، ثم إنّه من لطف الله تعالى وسعة رحمته انقلاب النّاس من الشّرّ إلى الْخَير في كثرة، وأمّا انقلابهم من الْخَير إلى الشّرّ ففي غاية النّدور ونهاية القلّة»(٢).

فهذه الظّاهرة إذن ليست في نظر النّووي نقمة بقدر ما هي نعمة توجب علينا الحمد لله سبحانه وتعالى، فله الحمد والشّكر على ذلك.

---

(١) رواه البخاري ٤٧٧/١١، ومسلم ١٩٢/١٦.

وفي رواية مسلم الاستثناء بـــ: (إلا).

(٢) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ١٩٢/١٦.

وفي هذا الحديث جاءت الكناية ملتئمةً مع القصر في جملةٍ واحدةٍ بل إنّ القصر ساعد على بيانها والمبالغة فيها، وهذه العبارة هي قوله ـــ صلىّ الله عليه وسلّم ـــ: «ما يبقى بينه وبينها إلاّ ذراع» (بالنّسبة للجنّة والنّار)، فهي عبارةٌ قصريّةٌ كنائيةٌ، ونلاحظ أنّ النّووي ـــ رحمه الله تعالى ـــ رأى أنّ الأمر فيها على سبيل التّمثيل ـــ ولكنّه في نظري ـــ إلى الكناية أقرب، فهي كناية عن اقتراب فاعل الخير من الجنّة، وفاعل الشّرّ من النّار؛ لأنّ تحديد المسافة بالذّراع يستلزم قِصَر المسافة وقِصَر الأمد.

والْقَصْر هنا جاء ليؤكّد المعنى ويحدّه بذارعٍ لا أكثر، لكي يجعل الأمر فيه على سبيل التّهويل والتّخويف لِمَن يعمل عمل أهل النّار، وكأنّه بذلك قد اقترب قيد ذراع من شفير بئر هاوية، لو انزلق فيها لفارق السّلامة والعياذ بالله.

وأيضاً على سبيل التّنبيه لِمَن يعمل بعمل أهل الجنّة بأنّه حتّى وإن اقترب من الجنّة كلّ ذلك القرب فليس له أن يغترّ أو يُفَرِّط أو يأمن مكر الله، وعليه أن يلزم جانب التّقوى، والخوف من الله حتّى يوافيه الموت وهو كذلك. نسأل الله حسن الختام. والله أعلم.

قصر عودة امرأة رفاعة إليه على ما بعد تذوّق عسيلة زوجها الثّاني:

جاءت امرأة رفاعة القرظي(١)، إلى النّبيّ ـــ صلىّ الله عليه وسلّم ـــ

---

(١) هو: رفاعة بن سموأل القرظي وامرأته التي طلّقها قيل: اسمها تميمة بنت وهب، وقيل: غير ذلك. انظر: الإصابة في تمييز أسماء الصّحابة ٢٨٣/٣.

فقالت: كنتُ عند رفاعة فطلّقني فأبّتَّ طلاقِي، فتزوّجت عبد الرّحمن ابن الزّبير[١]، وإنّما معه مثل هدبة الثّوب، فقال: ((أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا. حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك))[٢].

في هذا الحديث نلاحظ قصّة هذه المرأة بعد أن طلّقها رفاعة وتزوّجها عبد الرّحمن بن الزّبير، ولكنّه لم يعاشرها معاشرة الأزواج إمّا لمرضٍ أو صدودٍ أو نحو ذلك، وضاق بها المقام معه، فأرادت أن ترجع إلى زوجها الأوّل؛ لذلك لم تجد بُدّاً من المثول أمام النَّبِيّ ـ صلىّ الله عليه وسلّم ـ ومخاطبته في هذا الشّأن غير أنّها كانت فَطِنَةً وحيّيّةً حين كَنَّت عن مرادها بقولها: ((إنّما معه من هدبة الثّوب))، وفهم النَّبِيّ ـ صلىّ الله عليه وسلّم ـ بِفَطَنَته الوقّادة مرادها، وإن كانت لم تصرّح بالعودة إلى زوجها الأوّل[٣].

---

(١) هو: عبد الرّحمن بن الزّبير القرظي من بني قريظة. انظر: الإصابة في تمييز أسماء الصّحابة ٦/٢٨٠.

(٢) رواه البخاري. انظر: الفتح ٥/٢٤٩، ومسلم ١٠/٢.

وفي روايةٍ أخرى: ((ما معه إلاّ مثل هدبة الثّوب)). ١٠/٣.

والهدبة: طرف الثّوب الذي لم ينسج.

(٣) لعلّه فهم ذلك من ذكرها لزوجها الأوّل؛ لأنّها لو أرادت أن تشتكي من عدم قدرة عبد الرّحمن على معاشرتها لاقتصرت على ذكره، ولكنّها لما ذكرت رفاعة ثم ذكرت ضيقها من عبد الرّحمن كان في ذلك إشارة إلى رغبتها في رفاعة، لذلك قال لها ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: ((أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟)).

فردّ عليها بجملةٍ قصريّةٍ وفيها كناية أيضاً، فقال لها: ((لا))، أي: لا أخلعك من عبد الرّحمن، ولكنّه لم يذكر الجملة الْمَنْفيّة وإنّما اكتفى بذكر أداة النّفي (لا)؛ لأنّ الأمر مفهوم، ولكي تكون هذه الكلمة أوكد وأوقع في سمعها بالنّفي القاطع، ثم استثنى بعد ذلك وقال: ((حتى تذوقي عسيلته))، وهي كناية عن الجماع.

قال أبو جمرة: (وهذا من أبدع ما يكون من الإبداع في الفصاحة والاختصار، مع إيصال الفائدة، وحسن الكناية)[(١)].

والقصر هنا حقيقيّ تحقيقيّ، أي: أنّه لا يجوز شرعاً أن تعود المرأة إلى زوجها الأوّل حتّى يطأها الزّوج الثّاني[(٢)].

هذا، ولا نَقْبَل قول الجاحظ في أنّه لا مانع من التّصريح بأسماء العورات، ونحو ذلك حيث إنّه استشهد بهذا الحديث على جواز ذلك، وعدّه تصريحاً بألفاظٍ قد يَسْتَحي البعض منها[(٣)].

ولم يكن في هذا الحديث أيُّ تصريحٍ بذكر شيءٍ يُسْتَحْيَا منه وإنّما هي كنايات متأدبة، وعلى قدر ما دعت إليه الحاجة.

ويمكن أن يقال: إنّ في عبارته ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ استعارة مع كناية حيث شبّه حلاوة الجماع بحلاوة العَسَل، فحذف الجماع وأبقى العسل[(٤)]. وهذا هو الصّحيح في نظري، وعند ذلك يكون في هذه العبارة

---

(١) انظر: بهجة النّفوس وتحليها، بمعرفة ما لها وما عليها، لأبي جمرة الأندلسي ٣٢/٣.

(٢) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٣/١٠.

(٣) انظر: رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السّلام هارون، ٩٤/٢.

(٤) انظر: المعجزات النّبويّة، للشّريف الرّضى، تحقيق: محمود مصطفى، مطبعة البابي =

استعارة، وكناية، وقصر.

ثم إنّه في تصغير العسيلة معنى لطيفٌ، وهو أنّه أراد الجماع ولو مرّة واحدة لتحلّ به المرأة للزّوج الأوّل، كما أنّ الْمُتَذَوِّق للعسل لا يأخذ منه إلاّ قدراً بسيطاً (هو العسيلة) ثم لا يعود لتناوله(١).

قصر الشّيء الذي يملأ جوف ابن آدم على التّراب:

قال رسول الله ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ: ((لو كان لابــن آدم واديان من مالٍ لا يبتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التّراب، ويتوب الله على مَن تاب))(٢).

وورد: ((ولن يملأ عين ابن آدم إلاّ التّراب))(٣).

وورد: ((ولا يملأ نفس ابن آدم إلاّ التّراب))(٤).

يخبر النَّبِيّ ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ عن فطرةٍ سلوكيّةٍ في ابــن آدم، وهي أنّه ما إن يولد الإنسان حتّى يُولد معه الحِرْص والطّمع، ويكبر معه ذلك الحرص حتّى إذا عاد الإنسان إلى أرذل العمر لم ينقص الحرص وإنّما يتضاعف والعياذ بالله. كما في جاء في قوله ــ صلىّ الله عليه وسلّم

= الحلبي بالقاهرة، ١٣٥٦هـــ، ص: ٢٨٢.

(١) المصدر السّابق ص: ٢٨٢.

(٢) رواه البخاري ٢٥٣/١١، ومسلم ١٣٩/٧.

(٣) رواه البخاري ٢٥٣/١١.

(٤) رواه مسلم ١٣٩/٧.

ــ: «يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان: حبّ المال وطول العمر»(١).

إذن فهذا الحرص المتنامي داءٌ قتّال ــ ومصارع الرّجال تحت بروق الطّمع ــ فترى الإنسان يُشرف على النّهاية وعينه مصغاة صوب الدّنيا وحطامها ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

وقد أراد النّبيّ ــ عليه الصّلاة والسّلام ــ تحذير النّاس من التّهافت على زخرف الحياة الدّنيا، كما أراد تذكير اللاهثين وراء المال بالقبر وامتلاء جوف الإنسان، وعينه ونفسه بالتّراب.

ويرى العلماء: أنّه ليس المراد بالبطن والعين عضواً معيّناً.

يقول الكرماني ــ رحمه الله تعالى ــ: «وليس المراد به الحقيقة في عضوٍ معيَّنٍ، بقرينة عدم الانحصار في التّراب؛ إذ غيره يملؤه أيضاً، بل هو كناية عن الموت؛ لأنّه مستلزم للامتلاء، فكأنّه لا يشبع من الدّنيا حتّى يموتَ»(٢).

وكأنّ النّبيّ ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ قال: لا يَشْبَع من خلق من التّراب إلاّ بالتّراب(٣).

إذن هذه كنايةٌ، ولعلّ الامتلاء المشار إليه هو الامتلاء الذي لا يَنْقُص ولا يغيض؛ لأنّ امتلاء الجوف في الدّنيا يتعرّض للنّقص ثم يملأ مرّة أخرى، أمّا امتلاؤه بالتّراب فلا ينقص ولا يغيض.

---

(١) رواه البخاري ١١/٢٣٩.

(٢) نقلاً عن ابن حجر في الفتح ١١/٢٥٥.

(٣) انظر: فتح الباري ١١/٢٥٥.

وقد صاحب القصر الكناية في الرّوايات الثّلاث، وذلك للْمُبالغة في تحذير النّاس من شدّة الطَّمع وأنّهم إن تمادوا فيه ظانِّين أنّ له نهاية ينتهون عندها، فسوف يموتون قبل تِلْك النَّهاية كما أنّ القصر أضْفَى على العبارة تهويلاً وتخويفاً أكثر مِمّا لو جاءت مغفلةً منه. فكأنّ القصر حدّد طريقاً واحداً موحشاً لا غيره، يصل بالماشي فيه إلى نهايةٍ مؤلمةٍ لا غيرها، فكأنّه قال: لا طريق للاكتفاء من المال في الدّنيا إلاّ أن يمتلئ جوف ابن آدم أو نفسه أو عينه بالتّراب في غيابة الرّمس.

يقول النّووي ـــ رحمه الله ـــ: «وفيه ذَمٌّ للحرص على الدّنيا وحبّ المكاثرة بها والرّغبة فيها، ومعنى: لا يملأ جوفه إلاّ بالتّراب؛ أنّه لا يزال حريصاً على الدّنيا حتّى يموتَ، ويمتلئ جوفه من تراب قبره، وهذا الحديث خرج على حكم غالب بَنِي آدم في الْحِرص على الدّنيا»(١).

ففي قول النّووي: «خرج على حكم غالب بَنِي آدم»، إشارة إلى أنّ القصر هنا للمبالغة وليس على سبيل الحقيقة. والله أعلم.

قصر مَن يدخل المدينة في آخر الزّمان على السِّباع والطّير:

أخبر النَّبيّ ـــ صلىّ الله عليه وسلّم ـــ عن ترك النّاسِ المدينةَ في آخر الزَّمان فقال: «يتركون المدينةَ لا يغشاها إلاّ العوافي»، يريد عوافي السّباع والطّير... الحديث(٢).

---

(١) انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٧/١٣٩.

(٢) رواه مسلم ٩/١٦٠.

ومعنى عوافي: من عفوته إذا أتيته تطلب معروفه. انظر: شرح النّووي على صحيح مسلم ٩/١٦٠.

يخبِرُنا النَّبِيّ ـــ صلىّ الله عليه وسلّم ـــ عن شِدّة هجْـــر النّـــاس للمدينة المنوّرة في آخر الزّمان، وتَكْفِينا هذه العبارة القصريّة «لا يغشاها إلاّ العوافي من السّباع والطير». لنتصوّر خلوّ المدينة من النّاس.

وفي الحقيقة إنِّني أرى أنّ في هذه العبارة كنايةً أُشْرِبَت بالقصـــر، وأنّه ليس المراد خلوّ المدينة من الْبَشَر تماماً وإنّما هو كناية عـــن كثـــرة الخروج من المدينة. وقد جاء القصر مع الكناية هنا ليزيدها مبالغةً، وكأنّ المدينة صارت قفراً موحشةً بل تحوّلت إلى مغـــارات للسّـــباع ووكـــور للطّيور، وكأن لم يكن بها أنيس.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفا   أنيس ولم سمر بمكّـــة ســـامر

قصر مجازاة الولد أباه على فكاك أسره:

قال رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: «لا يجري ولدٌ والداً إلاّ أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه»(١).

في هذا الحديث يَتَبَيَّن عظم فضل الوالد؛ وذلك أنّه ـــ صـــلّى الله عليه وسلّم ـــ كَنَّى عن أنّ الولد لا يمكن أن يجرى الوالد أبـــداً، فقـــرن جراء الوالد بأمرٍ هو في غاية النُّدرة والصّعوبة، فكأنّه ـــ صلّى الله عليـــه وسلّم ـــ ببَلاغَته الْخَلاّبة أراد أن يُكَنّي عن أنّ الولد ليس يستطيع الوفاء لوالده بكامل حقوقه مهما فعل، فَقَصَر هذا الجزاء على هذه الحالة فقط، ليبالغ في استحالة مثل هذا الأمر. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم ١٥٢/١٠.

كما نتبيّن عظم أجر مَن أعتق مملوكاً في سبيل الله وذلك من ردّه: بحقّ الوالد، بل وتظهر العظمة أكثر عند ما جعل إعتاق الوالد مقصوراً عليه، وكأنّه ضاهى مقام الأبوّة أو الأمومة. والله أعلم.

قصر حَلّ عقد رَحلِ ناقته ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ على ما بعد قدوم المدينة:

قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ مرّةً وهو خارج المدينة: «والذي نفسي بيده، لقد هَمَمْت ــ أو إن شئتم ــ لآمرن بناقتي تُرْحل، ثم لا أحلّ لها عقدة حتّى أقدم المدينة...» الحديث[١].

في هذا الحديث اجتمع القصر مع الكناية حيث كنّى النَّبِيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن مواصلة السَّير بسرعةٍ، وأخذ الطّريق مرحلةً واحدةً، بعدم حلّ عقد رحل ناقته؛ حيث إنّ عدم حلّ عقد رحل النّاقة يستلزم عدم النُّزول، وعد النُّزول يستلزم مواصلة السّير. وهذه كناية عن الصّفة وهي مواصلة السّير دون توقّفٍ.

وقد دخل القصر هذه العبارة لِيَبْنِي منها هذه الكناية، ولا نَتَصوّر أن يكون هناك كنايةٌ لو حذفنا أداة النّفي والاستثناء. فالقصر هنا هو الذي أسهم في تشكيل هذه الكناية، ومزجها بشيءٍ من المبالغة مِما زادها حسناً، ومطابقةً لمقتضى الحال. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم ٩/١٤٧.

الفصل الثّامن: الخصائص البلاغية لأساليب القصر في أحاديث الصّحيحين

وفيه مبحثان:

المبحث الأوّل: خصائص القصر من حيث تقسيماته الْمُخْتَلِفَة.

المبحث الثّاني: الخصائص البلاغية لطرق القصر الواردة في الصّحيحين.

بعد أن أنفقتُ كثيراً من الوقت في جمع هذه الشَّواهد القصريّة من الصّحيحين، وبعد تَأمُّلاتي الطّويلة فيها، حَاوَلْتُ أن أوجد لها الْخَصَائصَ التي تُمَيِّزُها عن غيرها من شواهد القصر كما حاولتُ أن أذكر الظّواهر التي وجدتها ورأيت أنّها تشّكل أفكاراً معيّنة.

فلهذا السّبب عقدت هذا الفصل، وقد أوردت فيه كثيراً من الأرقام والنّسب وأنا قَبْل ذكر هذه الأرقام أقول: إنّه ليس بالشّرط أن تكون هذه الأرقام وهذه النّسب دقيقةً تماماً، برغم محاولاتي في إبرازها بأدقّ الحسابات، لكنه قد يسقط بعضُ الشَّواهد لنسيانٍ أو سهوٍ أو نحوهما. بالإضافة إلى أنّ هناك أموراً كثيرةً يدخل فيها الاجتهاد فكثير من النّسب مَبْنِيّ على اجتهادات لي، كالاجتهاد في تحديد الصّفة والموصوف، وكالاجتهاد في تعيين القصر الحقيقيّ والإضافيّ، أو القصر التّحقيقيّ وعكسه وغير ذلك.

جدول بأعداد ونسب أساليب القصر في الصّحيحين

في بداية هذا الفصل أعرض جدولاً يحتوي على تلخيص كلّ ما

أ ريد قوله في هذا الفصل:

عدد شواهد هذا الطّريق كاملةً	نسبة شواهد هذا الطّريق إلى مجموع شواهد القصر جميعاً	شواهد قصر الموصوف على الصّفة	شواهد قصر الصّفة على الموصوف	شواهد القصر الإضافيّ للمبالغة	شواهد القصر الحقيقيّ للمبالغة	شواهد القصر الإضافيّ التحقيقيّ	شواهد القصر الحقيقيّ التحقيقيّ	شواهد قصر التعيين	شواهد قصر القلب	شواهد قصر الإفراد	شواهد قصر الإضافي	شواهد قصر الحقيقي	
طريق النّفي والاستثناء	٢٤٤	٦٠,٢ %٥	١	١٦٧	-	١٧	٧	٢٢٠	٤	٢	١	٧	٢٣٦
طريق إنّما	٩٩	٢٤,٤ %٤	٣٠	٦٩	٩	٢٩	٤٣	١٨	١٥	٢٧	١١	٥٣	٤٧
طريق العطف	٧	١,٧٣ %	٣	٤	-	-	٧	-	٦	١	-	٧	-
طريق تقديم ما حقّه التأخير	٣١	٧,٦٥ %	-	٣١	-	-	٣	٢٨	٢	١	-	٣	٢٨
طريف تعريف الطّرفين	٢١	٥,١٩	-	٢١	-	٩	١	١١	-	١	-	١	٢٠

طريق ضمير الفصل	٣	٠.٧٤ %	-	٣	-	١	١	١	-	١	-	١	٢
المجموع	٤٠٥		٣٤	٢٩٥	٩ ٦٥	٥٦	٦٢ ٣٤٠	٢٧٨	٢٧	٣٣	١٢	٧٢	٣٣٣
النسبة	١٠٠ %		١٠,٣ %٣	٨٩,٦٧ %					٣٧,٥ %	٤٥,٨٣ %	١٦,٦ %٧	١٧,٨٧ %	٨٢,٢٢ %
		بالنسبة لجميع شواهد القصر عدا قصر الجمل	بالنسبة لجميع شواهد القصر عدا قصر الجمل	بالنسبة لشواهد القصر جميعاً		بالنسبة لشواهد القصر جميعاً		بالنسبة لمجموع شواهد القصر الإضافي	بالنسبة لمجموع شواهد القصر الإضافي	بالنسبة لمجموع شواهد القصر الإضافي	بالنسبة لشواهد القصر جميعاً	بالنسبة لشواهد القصر جميعاً	

المبحث الأوّل: **خصائص القصر من حيث تقسيماته الْمُختلفة**:

سأجعل هذا المبحث على شكل نقاط أوضح فيها خصائص القصر في الصّحيحين عموماً من حيث تقسيماته الْمُختلفة ونحو ذلك، وموجز هذه الخصائص هو:

أوّلاً: لقد وجدتُ أنّ شواهد القصر الحقيقيّ قد بلغت (٣٣٣) شاهداً، ونسبتها إلى شواهد القصر جميعاً هي: (٨٢,٢٢٪) أمّا شواهد القصر الإضافي فقد بلغ عددها (٧٢) شاهداً، وقد بلغت نسبتها إلى شواهد القصر جميعاً (١٧,٧٨٪) فضخامة نسبة شواهد القصر الحقيقيّ تدلّ على أنّ القصر الحقيقيّ هو أغلب القصر وأكثره في الأساليب العربية، بعكس الإضافي، وكأنّ الأصل في القصر الإطلاق.

ثانياً: شواهد قصر الصّفة على الموصوف بلغت (٢٩٥) شاهداً، ونسبتها (٨٩,٦٧٪)، أمّا شواهد قصر الموصوف على الصّفة فقد بلغت (٣٤) شاهداً ونسبتها (١٠,٣٣٪)، ولعلّ السّبب في كثرة شواهد قصر الصّفة على الموصوف هو أنّها أقرب إلى المعقول بعكس شواهد قصر الموصوف على الصّفة، كما أنّ قسماً من شواهد قصر الموصوف على الصّفة غير موجود أصلاً في الكلام العربي، وهو قصر الموصوف على الصّفة قصراً حقيقيّاً تحقيقيّاً، هذا ولعلّ أكثر ما قُصر الموصوف على الصّفة في القصر الإضافيّ، والقصر الإضافي (كما ذكرت) قليل بنفسه فَقَلّتْ لذلك شواهد قصر الموصوف على الصّفة.

ثالثاً: قد بلغت شواهد قصر الإفراد (١٢) شاهداً، ونسبتها إلى مجموع شواهد القصر الإضافي هي (١٦,٦٧٪)، أمّا شواهد قصر القلب فقد بلغ عددُها (٣٣) شاهداً، ونسبتها إلى مجموع شواهد القصر الإضافي هي (٤٥,٨٣٪)، وأمّا شواهد قصر التّعيين فقد بلغت (٢٧) شاهداً، ونسبتها إلى شواهد القصر الإضافي هي (٣٧,٥٪)، وهكذا نرى أنّ قصر الإفراد أقلّ القصر الإضافي شواهدَ، ولا أدري عن السّبب في ذلك، ما دام الأمر يعتمد في تحديد تلك الشّواهد على اعتقاد السّامع، فلا يستطيع أحدٌ أن يُوجدَ قانوناً لاعتقاد السّامعين، أو للظّروف التي يعايشونها؛ لذلك فحسب الظّروف وحسب اعتقاد السّامعين وردت نسب شواهد الإفراد والقلب والتّعيين. والله أعلم.

رابعاً: بلغت شواهد القصر التّحقيقيّ (٣٤٠) شاهداً، ونسبتها إلى شواهد القصر جميعاً (٨٣,٩٠٪) أمّا شواهد القصر للمبالغة فقد بلغت (٦٥) شاهداً، ونسبتها إلى شواهد القصر جميعاً هي: (١٦,٥٪).

نلحظ هنا نسبة مرتفعة من كلامه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ للقصر التّحقيقيّ المطابق للواقع وندرة للكلام الذي يَشْتَمل على المبالغة وحتّى ما اشتمل على المبالغة لم تكن المبالغة فيه من جنس الإفراط أو المغالاة أو نحو ذلك، وإنّما هي مقتربةٌ إلى حدٍّ بعيدٍ في كثيرٍ منها إلى الحقيقة.

كلّ هذا يؤكّد أنّه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ليس بشاعر، ولا يَنْزِل إلى درجة الشّعراء بحالٍ من الأحوال، وذلك لأنّ الشّعر هو في عمومه مبنِيّ على المبالغة والقليل منه على الحقيقة كما أنّ المبالغة الكثيرة في الشّعر هي من المغالاة والإفراط، أمّا كلامه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فهو (كما أَثْبَتُّ هنا عمليّاً وكما هو معروف من قبل) بعكس ذلك تماماً.

وهذا دليلٌ يضاف إلى الأدلّة التي تنفي عنه الشّعر، وأنّ كلامه وحي من الله كلّه مطابق للحقيقة وما خرج منه للمبالغة فهو من أمورٍ يسيرةٍ، والمبالغة فيه في أدنى درجاتها. والله أعلم.

خامساً: نلحظ من خلال الجدول الذي سبق في أوّل هذا الفصل أنّ هناك خاناتٍ فارغة إذ لم يتوفّر لها من الشّواهد أيُّ شيءٍ، وإذا ما تأمّلنا في الجدول جيّداً لم نجد طريقاً من طرق القصر إلاّ وفيه خانة أو أكثر فارغة، عدا طريق (إنّما) فقد وجدت منه شواهدَ لكلّ تقسيمةٍ من تقسيمات القصر، ولعلّ هذا يُعَزِّز ويؤكّد من دلالة إنما على القصر، ويردّ بشكلٍ قاطعٍ على مَن منع دلالتها عليه. وذلك لأنّها استطاعت أن تستجيب لكلّ تَقَلُّبات القصر أكثر من غيرها وأن تفي لكلّ أقسام القصر بشواهدها. والله أعلم.

المبحث الثّاني: الخصائص البلاغيّة لطرق القصر الواردة في الصّحيحين

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأوّل: خصائص طريق النّفي والاستثناء.

المطلب الثّاني: خصائص طريق القصر بإنّما.

المطلب الثّالث: خصائص طريق تقديم ما حقُّه التّأخير.

المطلب الرّابع: خصائص طريق العطف بـــ: (لا، وبل، ولكن).

المطلب الخامس: خصائص طريق تعريف الطّرفين.

المطلب السّادس: خصائص طريق القصر بضمير الفصل.

المطلب الأوّل: خصائص طريق النّفي والاستثناء

لقد أَثْبَتَت دراستي للقصر أنّ طريق النّفي والاستثناء هو الطّريق الأمّ، وهو أكثر طرق القصر جميعاً وروداً في اللّسان العربي؛ إذ بلغت شواهده في الصّحيحين (٢٤٤) ونسبة شواهده إلى شواهد القصر جميعاً (٦٠,٢٥٪)، وهذا يعني أنّه طريق محبَّب للبلغاء، كما يعنِي أنّه أقوى في الدّلالة على القصر من كلّ طرق القصر، ويمكن الآن أن أذكر بعضاً من خصائص هذا الطّريق في الصّحيحين:

أوّلا: ورد القصر به كثيراً في المواضع التي يحتاج فيها إلى الإخلاص كالعبادات بأنواعها، والجهاد، وغير ذلك، وذلك كقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن المجاهد: ((لا يخرجه إلاّ جهاد في سبيلي))(١).

وقوله عن الْمُصَلِّي: ((لا ينهزه إلاّ الصّلاة))(٢)، وغير ذلك من أنواع العبادة.

وكذلك عند التّضرّع إلى الله، كقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في الرُّقية: ((لا شفاء إلاّ شفاؤك))(٣)، فالإخلاص هو توحيد الله بأنواع العبادة وأفضل طريق للتّعبير المؤكّد عنه أسلوب القصر وخاصّة طريق النّفي

(١) رواه البخاري ٩٤/١، ومسلم ٢٠/١٣.

(٢) رواه البخاري ٣٣٨/٤، ومسلم ١١٦/٢.

(٣) رواه مسلم ١٨٠/١٢.

والاستثناء.

ثانياً: ورد مع القصر بالنّفي والاستثناء ما يُسَمَّى بصِحَّة التّقسيم، وذلك في نحو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا يحلّ دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث...»[١].

وقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «لا تحلّ المسألة إلاّ لأحد ثلاثة...»[٢]. وغيرها وكلا الأسلوبين يؤدِّي غرضه من غير أن يزاحم أخاه.

ثالثاً: يأتي النّفي (في طريق النّفي والاستثناء) على شكل استفهام، نحو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عن آدم ــ عليه السّلام ــ عندما يطلب النّاس منه أن يفتح لهم الجنّة يوم القيامة فيقول: «وهل أخرجكم من الجنّة إلاّ خطيئة أبيكم آدم؟»[٣]. ونحو ذلك.

وعندما يأتي النّفي على شكل استفهام يكون طريق النّفي الاستثناء قريباً جدّاً من طريق إنّما إذ يكون فيه معنى التّعريض، ويكون ــ في الغالب ــ في أمرٍ معروفٍ لا ينكره أحدٌ.

رابعاً: ورد الاستثناء بـــ: (حتّى) كثيراً ويكون تفسيره في أغلب وروده على أنّه بمعنى (إلاّ بعد أن)، نحو: «لا تنكح الأيم حتّى تستأمر»[٤]، فيكون

---

(١) رواه البخاري ١٢/٢٠١، ومسلم ١١/١٦٥.

(٢) رواه البخاري ٧/١٣٣.

(٣) رواه مسلم ٣/٧٠.

(٤) رواه البخاري ٩/١٩١، ومسلم ٩/٢٠٢.

المعنى: لا تنكح الأيم إلاّ بعد أن تستأمر. وقد تخرج حتّى عن هذا المعنى في حالاتٍ نادرة.

خامساً: يأتي القصر بالنّفي والاستثناء في أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ، وضدّه، أو تأكيد الأمر بما يشبه ضدَّه، وهذه الخاصّة يتميّز بها طريق النّفي والاستثناء عن بقية طريق القصر. ومثاله قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((مَن ادّعى دعوى كاذبة، ليستكثر بها لم يزده الله إلاّ قلّة))(١). وأسلوب القصر بالنّفي والاستثناء هو الذي يصنع مثل هذه المعاني بنفسه، بالإضافة إلى معنى القصر.

سادساً: قد تدمج جملتان في عبارةٍ قصريّة واحدةٍ، وذلك نحو قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك))(٢). وعلى هذا يكون الإيجاز في الكلام أقوى.

سابعاً: ومن خصائص القصر بالنّفي والاستثناء أنّني قد عثرت على ظاهرةٍ معيَّنةٍ تختلف عن بقية القصر بالنّفي والاستثناء،وأسميت هذا القصر بقصر الْجُمَل، وذلك اجتهاد منِّي، وعقدت له مبحثاً في آخر فصل الْقَصْر بالنّفي والاستثناء.

---

(١) رواه مسلم ١١٩/٢.

(٢) رواه البخاري ٣٥٧/٦.

المطلب الثّاني: خصائص طريق القصر بإنّما

هذه أهمّ خصائص القصر بإنّما في شواهد الصّحيحين، محدّدة في نقاط:

أوّلاً: لقد أحصيت شواهد كثيرة للقصر بإنّما وقد بلغت (٩٩) شاهداً تقريباً، ونِسْبَة شواهده إلى شواهد القصر جميعاً هي: (٢٤,٤٤٪)، وما هذه الكَثْرة في شواهدها إلاّ لأنّها الطّريق الثّاني للقصر بعد النّفي والاستثناء.

ثانياً: إنّنا إذا ما تأمّلنا الشّواهد القصريّة الّتي جاء فيها القصر بإنّما نجدها تأتي في أهمّ مقطعٍ من الكلام، أو في زُبدة الكلام، وذلك كما جاءت في قوله-صلّى الله عليه وسلّم-: «إنّما الأعمال بالنّيّات»[١].

وقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّما بعثتم مُيَسِّرين، ولم تبعثوا مُعَسِّرين...»[٢]. وغير ذلك مما يدلّ على قيمة التّعبير بإنّما.

ثالثاً: إنّ تحديد الصّفة من الموصوف في طريق إنّما قد يحتاج في بعض الشّواهد إلى التّأمّل الدّقيق، لكي يَظْهر الفرق بينهما، وذلك في نحو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: «إنّما هي صفية»[٣].

---

(١) رواه البخاري. انظر: الفتح ٥٧٢/١١، ومسلم ٥٣/١٣.

(٢) رواه مسلم ١٩١/٣.

(٣) رواه البخاري ٢٧٨/٤.

وقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما الماء من الماء))[1].

رابعاً: قد يكون القصر بإنّما في أمرٍ من الأمور البديهيّات أو الْمُسَلَّمات، ويظهر لأوّل وهلةٍ أنّه لم يُضِف شيئاً جديداً إلى المعنى، ولكن إذا تأمّل الْمُتَأَمِّل سيَجد لَهُ دلالةً مناسبة للمقام. وذلك مثل قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما بُنِيَتِ المساجد لما بُنِيَت له))[2].

ومثل قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ في الْمُصَلِّين ــ: ((إنّما يصلّي لنفسه))[3].

خامساً: تأتي إنّما (غالباً) في الأسلوب الوعظي الذي يدعو الإنسان إلى التّفكّر والتّبصّر في كلّ أموره، وذلك مثل قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لِمَن تطلب طلاق أختها: ((إنّما لها ما قدر لها))[4].

ومثل قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما له من ماله ثلاث...)) الحديث[5].

سادساً: يأتي مع إنّما في بعض الأحيان ما يُسَمَّى بِصِحّة التّقسيم، وهو من البديع المعنوي، وذلك مثل قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما له من ماله ثلاث))[6].

---

(١) رواه مسلم ٤/٣٧.

(٢) رواه مسلم ٥/٥٥.

(٣) رواه مسلم ٤/١٤٩.

(٤) رواه البخاري ٩/٢١٩، ومسلم ٩/١٩٢.

(٥) رواه مسلم ١٨/٩٤.

(٦) هو الحديث السّابق.

وقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما الشّؤم في ثلاثة))[١].

وقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما هي لك، أو لأخيك، أو للذّئب))[٢].

سابعاً: قد تأتي إنّما في أسلوب التّعليل، فَتَقْصر العلّة لأمرٍ معيَّنٍ على شيءٍ محدّدٍ، كقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما جُعِلْتُ قاسماً أقسم بينكم))[٣].

وقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ عندما صلّى على المنبر: ((إنّما صنعت هذا لِتَأْتَمُّوا بِي))[٤]. وهو كثير جدّاً.

ويبدو أنّ إنّما تَحْسن إذا كانت في أسلوب التّعليل، وهذه إضافةٍ جديدةٍ إلى ما تحسن فيه إنّما.

ثامناً: يكثر استعمال إنّما عند التّعبير عن التّواضع، أو التّهوين من شأن النّفس ونحو ذلك، نحو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما أنا بشر))[٥].

---

(١) رواه البخاري ٦١/٦.

(٢) رواه البخاري ٨٣/٥، ومسلم ٢١/١٢.

(٣) رواه البخاري ٢١٧/٦.

(٤) رواه البخاري ٣٩٧/٢، ومسلم ٣٥/٥.

(٥) رواه البخاري ٣٠٥/١، ومسلم ٦٢/٥.

وقوله-صلّى الله عليه وسلّم-:((إنّما أنا عبده ورسوله))[١].ونحو ذلك، وهذه من المواقع الحسنة التي تستدعي التّعبير بهذا الحرف الرّقيق.

تاسعاً: يأتي القصر بإنّما في مواضع الاستغراب، والتّعجّب، مثل قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّما حرّم أكلها))[٢]، أي: الميتة.

وقوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّما الطّاعة في المعروف))[٣].

عاشراً: قد يكون القصرُ بإنّما لعرض التّهكم، أو التّعريض، نحو قوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ في شأن مَن يكثر السّؤال: ((إنّما يسأل جمراً))[٤].

وقوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((إنّما هو سواد اللّيل وبياض النّهار))[٥].

حادي عشر: كثيراً ما تُذكر مع إنّما الجملة المنفية في القصر صريحةً، كقوله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ: ((ليس الشّديد بالصّرعة إنّما الشّديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[٦].

---

(١) رواه البخاري ٦/٤٧٨.

(٢) رواه البخاري ٣/٣٥٥.

(٣) رواه البخاري ١٣/١٢٢، ومسلم ١٢/٢٢٧.

(٤) رواه مسلم ٧/١٣٠.

(٥) رواه البخاري ٤/١٣٢.

(٦) رواه البخاري ١٠/٥١٨، ومسلم ١٦/١٦٢.

وقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما بعثتم مُيَسِّرين و لم تبعثو مُعَسِّرين))(١)، وذلك لزيادة التّوكيد والبيان.

ثاني عشر: قد تجتمع في القصر بإنّما جملتان في عبارةٍ قصريّةٍ واحدةٍ، نحو: ((إنّما أطعمه الله وسقاه))(٢)، ونحو ذلك.

ثالث عشر: تجيء إنّما مواقف الاعتذار، وهذه من مواقعها الحسنة، كما قال ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((إنّما أنا أشفع))(٣).

وكما قال لأصحاب النّخل: ((إنّما ظننتُ ظنّا، فلا تؤاخذوني))(٤). والاعتذار من المواقع الحسنة لإنّما ــ كما أراه ــ. والله أعلم.

رابع عشر: لم أجد لأنّما ــ بالفتح ــ إلاّ شاهدين، وهما قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((فاعلموا أنّما الأرض لله ولرسوله))(٥).

وقوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ: ((فيحسب النّاس أنّما قذفه في النّار))(٦). وهذا يدلّ على أنّ أنّما ــ بالفتح ــ قليلة الاستعمال في اللّسان العربي.

---

(١) رواه مسلم ٣/١٩١.

(٢) رواه البخاري ٤/١٥٥، ومسلم ٨/٣٥.

(٣) رواه البخاري ٩/٢٠٨.

(٤) رواه مسلم ١٥/١١٧.

(٥) رواه البخاري ١٢/٣١٧، ومسلم ١٢/٩٠.

(٦) رواه مسلم ١٨/٧٥، وذلك في قصّة الرّجل المؤمن الذي يقذف به الدَّجّال. انظر: صحيح مسلم ١٨/٣١٧.

خامس عشر: لقد وجدت ظاهرةً بارزةً جاء عليها عدد من الشّواهد، بلغت العشرة، وهذه الظّاهرة خاصّة بإنّما، وهي أن يحذف المقصور من الجملة القصريّة، وذلك إذا كان ذلك المقصور هو الشّأن أو الحال، بمعنى أنّه أمر عام، ويُقَدّر على هذا النحو، وذلك كما بَيَّنْتُه في المبحث الأخير من فصل شواهد القصر بإنّما.

سابع عشر: لم أجد أيّ شاهدٍ لإنّما إلاّ وهو يفيد القصر، فلم أجد لها شاهداً لا يفيده، وإن نفى ذلك بعض علماء الأصول عن بعض الشّواهد إلاّ أنّه يمكننا إيجاد وجهٍ لدلالة إنّما على القصر إما مبالغةً أو حقيقةً. والله أعلم.

المطلب الثّالث: خصائص طريق تقديم ما حقّه التّأخير:

هذه أهمّ خصائص شواهد القصر بالتّقديم في الصّحيحين:

أوّلاً: إنّ شواهد القصر بالتّقديم لما حقّه التّأخير في الصّحيحين قليلةٌ جدًّا، وقد بلغ عددها (٣١) شاهداً، وبلغت نسبة شواهده إلى شواهد القصر جميعاً (٧,٦٥٪)، ولعلّ هذا يدلُّ على أنّ القصر بالتّقديم ليس كثيراً في اللّسان العربي، بدليل قلّته في هذه الآلاف من المؤلّفة من الأحاديث، ولعلّ سبب ذلك يرجع إلى أنّ التّقديم لما حقّه التّأخير يكون لأغراضٍ مختلفةٍ ومنها القصر، فالقصر إذن غرضٌ واحدٌ من أغراض التّقديم، فلا ريب إذا رأيناه قليلاً.

ثانياً: إنّ من خصائص القصر بهذا الطّريق أنّ القصر لم يكن الغرض الوحيد الدّاعي للتّقديم ــ وإن كان هو الغرض الأساسي ــ إلاّ أنّه لا تخلو العبارة القصريّة من أغراضٍ جانبيّةٍ توجد مع القصر، مثل مراعاة السّجع، أو الاهتمام، أو التّقرير على السّامع، أو نحو ذلك، مع كون القصر أهمّها.

ثالثاً: أمّا تقديم المسند إليه على خبره الفعلي والياً حرف نفي فلم أجد له إلاّ شاهداً واحداً تكرّر في كتب البلاغيّين كثيراً، وهو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ للأشعريّين: ((ما أنا حملتكم بل الله حملكم))(١).

أمّا ما كان فيه الخبر اسماً مشتقّاً فلم أجد له إلاّ شاهدين، وكلاهما

---

(١) روه البخاري ٥١٧/١١، ومسلم ١٠٩/١١.

لا يفيد القصر، ولعلّ هذا البحث يكون دليلاً قويّاً على وهن رأي مَن ذهب إلى أنّ مثل ذلك التّقديم يفيد القصر، وقد وصلت إلى ذلك بعد مسحٍ شاملٍ للصّحيحين، تبيّن لي منه أنّ تقديم المسند إليه على خبره الفعلي أو المشتقّ والياً حرف نفي أندر من النّادر في كلام العرب، فإذا كان التّقديم الذي ليس له هذه الشّروط قليلاً فإنّ التّقديم بكلّ هذه الشّروط أقلّ من القليل، وأقول: إنّ البلاغيّين في الحقيقة قد وَضَعُوا مثل هذا التّقديم أمام مرآةٍ مقعّرةٍ أعطته حجْماً أكبر من حجمه الحقيقي بكثيرٍ، وإلاّ فالأمر فيه يسير ولا يستحقّ منهم كلّ هذا العناء.

رابعاً: إنّ أكثر التّقديم في الصّحيحين هو في الجملة الفعليّة لورود سبعة وعشرين شاهداً في الجملة الفعليّة، وثلاثة شواهد في الجملة الاسميّة، وقد يكون السّبب فيما توصلت إليه أنّ الجملة الفعليّة لها مُتَعَلّقاتٌ كثيرةٌ، فيكثر التّقديم فيها على قدر كثرة تلك الْمُتَعلّقات، كما أنّ الْمُتَعَلّقات تعتبر من الفضلات وتقدّمها سهل وخفيف. وأمّا بالنّسبة للجملة الاسميّة فإنّها لما كانت تتكوّن من مبتدأٍ وخبرٍ وهما ركناها الأساسيّان، فقد قلّ تقديم الخبر إلاّ لحاجةٍ ماسّةٍ لذلك قلّ التّقديم فيها. والله أعلم.

المطلب الرّابع: خصائص طريق العطف بـ: (لا، بل، لكن):

لم أجد للقصر بالعطف في الصّحيحين إلاّ سبعة شواهد، أربعة منها بـ: (بل)، وثلاثة منها بـ: (لكن)، وواحداً للعطف بـ: (لا)، ونسبة شواهده إلى شواهد القصر جميعاً (٧٣,١٪)، وهذا يدلّ على ندرة شواهد القصر بالعطف، فإذا لم يوجد له في الصّحيحين على ضخامة حجميهما إلاّ هذه الشّواهد، فإنّنا نَسْتطيع أن نقول: إنّ القصر بطرق العطف قليلٌ جدّاً في الكلام العربي، سواء الشّعر أو النّثر؛ لأنّ ما قلّ في النّثر يندر في الشّعر، بسبب وجود الوزن والقافية ونحو ذلك.

هذا، وإنّ شواهد العطف التي وجدتها لم تتحقّق فيها كلّ الشّروط وإنّما تغاضيت عن بعض الشّروط غير القويّة التي شرطها البلاغيّون والنّحاة لدلالة تلك الحروف على العطف.

ولعلّ سبب ندرة شواهد القصر بالعطف في الصّحيحين أنّ هذه الحروف لا تأتي غالباً إلاّ عند الحديث المباشر لمخاطب معيَّن قد أخطأ في فهم مسألةٍ، أو خِيفَ عليه من الخطأ فيها، أنت لا تقول: ما زيد كاتب بل شاعر، إلاّ وهناك حديثٌ دائرٌ بينك وبين مُخَاطَبٍ عن شاعريّة زيدٍ وكتابته، ولكنّك قد تقول مثلاً: لا شاعر إلاّ الْمُتَنَبِّي، وقد لا يكون هناك من مخاطَبٍ تردّ عليه بهذا القول أو تناقشه به، وإنّما تقوله لمجرّد التّعبير عمّا تحسّ به من معانٍ؛ لذلك فعلى قدر قلّة الأحاديث التي فيها خطاب مباشر مع صحابي أو أكثر على قدر ما قَلّت شواهد القصر بالعطف.

ومن ناحيةٍ أخرى فإنّ القصر بالعطف يكثر في الأمور العلميّة التّجريبيّة لا البلاغيّة، وأقصد بالعلميّة عندما يفسّر الإنسان مسألةً علميّةً، فقول: ما هي كذا بل كذا، أو لكن كذا، فكثيراً ما نجد هذه الحروف في أفواه العلماء عندما يُفَصِّلون في المسائل الحسابية، أو العلمية، وقليلاً ما نجدها في كلام البلغاء. والله أعلم.

وبعدما رأيناه من قلّة شواهد القصر بطريف العطف في الصّحيحين(١)، يمكننا توجيه بعض النّقد للبلاغيّين بأن نقول لهم: إنّ هذه المسألة اليسيرة لا تحتمل منهم كثرة الاختلاف وطول الحديث ما دامت شواهد القصر بالعطف قليلةٌ في الكلام البليغ.

وفي نهاية هذا الحديث أقول: إنّ البلاغيّين لو تركوا الأمثلة التي يمثّلون بها في كتبهم والتي جاءت قريبة من أمثلة النّحاة عندما يقولون مثلاً: ما زيد كذا بل كذا، إنّهم لو تركوا ذلك وحاولوا أن يستشهدوا لكلّ قضيةٍ من الكلام البليغ (الكتاب، السّنة، وروائع القول شعراً ونثراً) لربّما تغيّرت نظرتهم في هذا الأمر. والله أعلم.

---

(١) هذا بالإضافة إلى أنّ لكن الخفيفة التي تعطف المفرد على المفرد لم تقع في القرآن الكريم.

انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للدّكتور عبد الخالق عضيمة، دار الحديث بالقاهرة، القسم الأوّل، الجزء الثّاني ص: ٥٨٢.

وكذلك فإنّ (بل) العاطفة لم تقع في القرآن.

انظر: الإتقان في علوم القرآن ٢/١٨٦.

المطلب الخامس: خصائص طريق تعريف الطّرفين:

شواهد هذا الطّريق بلغت واحداً وعشرين شاهداً، ونسبة شواهده إلى شواهد القصر جميعاً (١٩,٥٪)، وهذا يدلّ أنّ هذا الطّريق من أقلّ طرق القصر دلالةً عليه، وقد لوحظ أنّه قد يقترن بهذا الطّريق ضمير الفصل ويقوّي دلالته على القصر. وعلى هذا يمكننا أن نضيف معلومةً نظريةً، وهي أنّه يجوز اجتماع طريقي القصر بتعريف الخبر باللام مع ضمير الفصل، ولا تعارض بينهما ويكون المبتدأ هو المقصور عليه.

هذا وليست الشّواهد القصريّة التي وجدها لهذا الطّريق هي مِمّا عُرِّف فيه الخبر بلام الجنس فقط، بل قد وجدت أنواعاً أخرى من التّعريف بلام الجنس تفيد القصر أيضاً، وهي تعريف المبتدأ والخبر باللام. وإضافة المبتدأ والخبر إلى ما هو مُعرَّف باللام.

وكلّ هذه الصّور ذات إيحاءات بالقصر، والقصر في جميعها ظَنّيٌّ وليس قطعيّاً، وعلى هذا فيكون هذا البحث قد أضاف صوراً أخرى إلى الصّور التي حَدَّدَها البلاغيّون. والله أعلم.

المطلب السّادس: خصائص طريق القصر بضمير الفصل

نلحظ بعد استعراض شواهد القصر بضمير الفصل في الصّحيحين أنّها لم تعد ثلاثة شواهدَ، ونسبة شواهده إلى شواهد القصر جميعاً (٠,٧٤٪) هذا بالإضافة إلى أنّ دلالة القصر منها تستوحي استيحاء ليس الأمر فيها قَطْعيّاً.

ونلاحظ كذلك اقترانُ الْخَبَر في كلّ تلك الشّواهد بلام الجنس، أي: قد اجتمع في تلك الشّواهد القصر بضمير الفصل، وبتعريف الْخَبر بلام الجنس، وعلى الرّغم من ذلك فدلالة هذا الطّريق على القصر ضعيفةٌ حتّى لا تكاد تظهر.

وفي الحقيقة إنّني لا أستطيع أن أوجد تعليلاً لقلّة شواهد هذا الطّريق إلاّ أن أقول: إنّ هذا الطّريق ليس من طرق القصر المعتبرة، وأنّه لا يدلّ على القصر إلاّ في أقلّ استعمالاته. والله أعلم.

الْخَاتِمَة

الخاتمة

إنّه بعد التّحليق في الأجواء البلاغيّة العالية؛ لأحاديث الْمُصْطَفى ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ، أعود فأقول: لقد تَمَّ ــ بحمد الله ــ ما كنتُ أبغي، فقد درست باباً من أهمّ أبواب علم المعاني وهو القصر، ووقفت على أسراره النّافعة، وعرضت آراء البلاغيّين فيه، ثم تَحقّق لي تطبيق ذلك على الحديث النَّبويّ الشّريف، من خلال صحيحي البخاري ومسلم ــ رحمهما الله تعالى ــ، وتبيّن لي كثيرٌ من دقائق هذا الأسلوب، ودلالته البلاغية، وقد وجدت في الصّحيحين كَمّاً هائلاً من الشّواهد القصريّة تمثّل كلّ طريقٍ من طرق القصر، وكلّ تقسيمٍ من تقسيماته المختلفة، وصنَّفت تلك الشّواهد في فصولها ومباحثها المختلفة، مع دراسةٍ بلاغيةٍ لها، أقف فيها أحياناً متذوّقاً، وأحياناً مستنتجاً، وأحياناً موجّهاً لعض تفسيراتٍ للعلماء لم توافق المحز، ولم تطبّق المفصل.

ثم في نهاية البحث أقمت فصلاً استنتاجيّاً عرضت فيه أهمّ ما لَحَظْتُه في هذه الشّواهد، وضمنته جدولاً قَدْ يكون جديداً من نوعه في بحوثنا البلاغيّة، فمن نظرةٍ واحدةٍ إليه تستطيع أن تحدّد (أيّ: نسبة تريدها) من غير عناءٍ ولا عنتٍ.

هذا مجمل عملي في البحث ولن أعود لسرد ما فيه من نتائج وآراء، فقد أعددت لكلّ مقامٍ مقاله.

أمّا في هذه الخاتمة فسوف أذكر بعض النّتائج العامّة، والتّوصيّات

التي أنصح بها نفسي والدّارسين وذلك بعد خوضي هذه التّجربة الصّعبة والمفيدة معاً:

أوّلاً: إنّ لتطبيق القواعد البلاغيّة على النّصوص البليغية أهميّةً كبيرةً، وخصوصاً ما كان معه استقراء ــ كما في هذا البحث ــ وهذا المنهج هو بلا شكّ أفضل منهجٍ لفحص تلك القواعد النّظريّة، ومعرفة مدى صلاحيتها (وخصوصاً لما لم يستقرئ له البلاغيّون الاستقراء الكافي) وهذا مجالٌ مفيدٌ، قد يساعد حتّى في ازدياد علم البلاغة ونظريّاته، وتوسيع دائرته وإمداده بأفكار جديدةٍ ناضجة.

ثانياً: لا يمكن للبليغ أن يَعُدّ نفسه بليغاً ما لم يتعرّف على كَمٍّ وافرٍ من الكلام البليغ (خصوصاً من القرآن العظيم، أو الحديث الشّريف، أو من غيرهما من كلام العرب البليغ شعراً ونثراً)، ويدرسه ويتذوّق بلاغته، ولا يقتصر على فهم القواعد النّظرية فقط، فالبلاغة شقّ منها في القواعد، وشقّ في الشّواهد، ولا بدّ من الجمع بين هذين الشّقّين لتكمل بهما شخصية البليغ.

ثالثاً: إنّ هذا النّوع من البحوث جديدٌ، وجدير بالاهتمام لكي يتمكّن الباحثون المعاصرون من إخراج البلاغة من قفص الاتّهامات الذي رميت فيه، وهو قول بعضهم: إنّ البلاغة قد تَجَمَّدت وثبتت على شواهدَ معيّنةٍ، ولم تعد لائقةً بهذا العصر المتجدّد.

رابعاً: إنّ التّعمّق في مسألةٍ واحدةٍ أفضل من التّسَطُّح في مسائلَ

كثيرةٍ؛ لأنّ العبرة بالكَيْف لا بالْكَمّ المجرّد، وإذا اجتمعا كان ذلك أفضل.

خامساً: إنّ الحديث النّبويّ لهو خير ما يطبّق عليه البلاغيّون قواعدهم، وذلك للأسباب الآتية:

أ- لبلاغته السّامية، المقطوع بها، والمشهود لها.

ب- غزارة مادّته وكثرتها مِمّا يعطي للباحث أفسح مجال وأرحبه ففيه جلُّ الأساليب البلاغيّة إن لم أقل جميعها.

جـ- إنّه ليس كالشّعر الذي غيَّرت فيه الضّرورة الشّعرية الشّيءَ الكثيرَ، ثم إنّ الشّعر ليس كلّه صالحاً لأن يكون محلّ بحثٍ للبلاغيّين؛ لأنّ الشّعر البليغ الجيّد قليلٌ بالنّسبة لسواه، وليس هو ملكاً لشاعر معيَّنٍ بل كلّ الشّعراء قد ضربوا فيه بسهمٍ، والحديث النّبوي بعكس ذلك كلّه.

د- إنّ الحديث النّبوي (الصّحيح) هو أوثق كلام بشريّ، نثرى وصل إلينا، وذلك بسبب القدسية التي أحاطت به، وحفظته، وبسبب ورع، وأمانة وحفظ رواته وحافظيه.

هـ- إنّ في دراسة الحديث ــ بالإضافة إلى كلّ ذلك ــ فوائد أعظم للطّالب المسلم وهي معرفة دينه، وسنة نَبِيِّه ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ. فلماذا لا يختار المسلم من الأشياء ما هو أكثرها نفعاً وأجلها فائدةً في بحثه أو في أيّ أمر يطلبه؟!

هذه أهمّ الأمور التي أردت بيانها في هذه الخاتمة.

ولا يفوتنِي قبل أن أضع القلم من هذا البحث أن أَشْكُرَ كلَّ مَن أعاني

على ما قمت به، فأحمد الله سبحانه وأشكره قبل كلّ شيءٍ، وبعد كلّ شيءٍ، فهو الذي قدّر كلّ ما كان، ثم عليه أعان، ثم أشكر مَن أعانني بعد ذلك، وعلى رأس مَن أشكرهم في هذا المقام الدّكتور عليّ البدري، الْمُشْرِف على هذه الرّسالة، ثم كلّ مَن أعانَنِي (بأيّ نوعٍ من الإعانة، قلّت أو كثُرت) من الأساتذة والإخوان الكرام، فجزى الله الجميع خير الجزاء.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّدٍ، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الفهارس

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

فهرس المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم

٢- الإتقان في علوم القرآن:

للسّيوطي، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بصيدا، بيروت، سنة: ١٤٠٨هـ.

٣- الإحكام في أصول الأحكام:

لأبي علي بن محمّد الآمدي، مؤسسة النّور، الطّبعة الأولى.

٤- إرشاد السّاري، لشرح صحيح البخاري:

لشهاب الدِّين أحمد بن محمّد العسقلاني، المطبعة الأميرية، ببولاق، مصر، الطّبعة السّابعة، سنة: ١٣٢٣هـ.

٥- أساليب الاستفهام في الصّحيحين:

لسليت داود كيلي، رسالة أكاديمية مقدّمة بالجامعة الإسلامية، بإشراف: د. فريد بدوي النّكلاوي، ونوقشت في ١٤٠٥/٧/٢هـ.

٦- أسرار البلاغة:

لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: هـ ريتر، مكتبة الْمُتَنَبِّي، بالقاهرة، طبعة عام: ١٣٩٢هـ.

٧- الإشارة إلى الإيجاز:

للإمام عزّ الدّين بن عبد السّلام، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ.

٨- الإصابة في تمييز أسماء الصّحابة:

لابن حجر، تحقيق: د. طه المزيني، مكتبة الكلّيّات الأزهرية، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٨٧هـ.

٩- الأطول على التّلخيص:

عصام الدِّين بن عريشاء، مطبعة السّيّد أحمد كمال، طبعة عام: ١٢٨٤هـ.

١٠- إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة:

للرّافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة التّاسعة، سنة: ١٣٩٣هـ.

١١- الأعلام:

لخير الدّين الزّركلي، الطّبعة الثّالثة.

١٢- أعلام النّساء:

لعمر رضا كحالة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّالثة، سنّة ١٣٩٧هـ.

١٣- أمثال الحديث:

للرّامهرمزي، تحقيق: أمّة الكريم القرشيّة، حيدرأباد، باكستان عام: ١٣٨٨هـ.

١٤- الأمثال من الكتاب والسّنة:

لأبي عبد الله محمّد بن الحكيم التّرمذي، تحقيقّ: علي محمّد

البجاوي، مكتبة دار التّراث، بالقاهرة.

١٥- الأنساب:

للسّمعاني، تحقيقّ: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ.

١٦- أنوار التّنْزيل وأسرار التّأويل:

للبيضاوي، مطبعة البابي الحلبي بمصر، الطّبعة الثّانية سنة: ١٣٨٨هـ.

١٧- الإيضاح:

للخطيب القزوينِي، بشرح عبد الْمُتَعَال الصَّعيدي، المطبعة المحمودية بالأزهر ١٣٥٣هـ.

١٨- الإيضاح:

للخطيب القزوينِي، شرح د. عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكلّيّات الأزهرية بالقاهرة، الطّبعة الثّانية.

١٩- البحر المحيط:

لأبي حيّان الأندلسي، مطابع النّهضة الحديثة، بالرّياض.

٢٠- بحوث المطابقة لمقتضى الحال:

للدّكتور عليّ البدري، مطبعة السّعادة، الطّبعة الثّانية.

٢١- البداية والنّهاية:

لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الطّبعة الأولى، سنة: ١٩٦٦م.

٢٢- بغية الوعاة:

للسّيوطي، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٨٤هـ.

٢٣- البلاغة النّبويّة:

دراسة وتحليل، إعداد: الطّالب عبيد دراز، رسالة مقدّمة بكلّيّة اللّغة العربيّة بالأزهر،سنة: ١٣٩٥هـ،رقم تصنيفها: ١١٤٠.

٢٤- بهجة النّفوس، بمعرفة ما لها وما عليها:

لأبي جمرة الأندلسي،دار الجيل،بيروت،الطّبعة الثّانية، ١٩٧٢م.

٢٥- البيان والتّبيين:

للجاحظ، تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، بالقاهرة.

٢٦- تاريخ الأدب العربي:

لعمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٩٧٨م.

٢٧- تاريخ بغداد:

للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٨- التّحصيل من المحصول:

لسراج الدّين محمود بن أبي بكر الأرموي، تحقيق: د. عبدالحميد عليّ أبو زيد، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الأولى سنة: ١٤٠٨هـ.

٢٩- تذكرة الحفّاظ:

للذّهبي، دار إحياء التّراث العربي.

٣٠- التّشبيه التّمثيلي في الصّحيحين:

للطّالبة فايزة يحيى أحمد، بإشراف الدّكتور محمّد أبو موسى، نوقشت عام ١٤٠٥هـ/١٤٠٦هـ، في أمّ القرى ورقمها هو: ١١٥٩.

٣١- التّصوير الفنّي في الحديث النّبوي:

للدّكتور محمّد لطفي الصّباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٩هـ.

٣٢- تفسير القرآن العظيم:

لابن كثير، تحقيق: عبد العزيز غنيم، وأحمد عاشور، ومحمّد إبراهيم البنا، مطابع الشّعب، بالقاهرة.

٣٣- التّقريب:

للنّووي، تحقيق: مصطفى الخن، منشورات دار الملامح.

٣٤- التّلخيص:

للخطيب القزويني، تحقيق: عبد الرّحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٥- التّمهيد في الأصول على الفروع:

للإمام جمال الدّين عبد الرّحيم بن الحسن الأسنوي، تحقيق: د. محمّد حسن هيتو، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٤٠١هـ.

٣٦- جامع البيان في تفسير القرآن:

لابن جرير الطّبري، دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الأولى، سنة:

١٣٩٨هـ.

٣٧- جامع العلوم والحكم:

لابن رجب الحنبلي، مكتبة طيبة، المدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى سنة: ١٤٠٨هـ.

٣٨- حاشية حسن جلبِي على المطول:

شركة الصّحافة العثمانية، دار سعادة.

٣٩- حاشية الدّسوقي ضمن شروح التّلخيص:

مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة.

٤٠- الحديث النّبوي من الوجهة البلاغية:

د. عزّ الدّين السّيّد، دار الطّباعة المحمديّة، بالقاهرة سنة: ١٣٩٢هـ.

٤١- حروف المعاني:

للزّجاجي، تحقيق: د. عليّ توفيق الحمد، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٤٠٦هـ.

٤٢- خصائص التّراكيب:

د. محمّد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٤٠٠هـ.

٤٣- الخصائص:

تحقيق: محمّد النّجار، دار الهدى للطّباعة والنّشر، بيروت.

٤٤- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر:

للمحبي، دار صادر، بيروت.

٤٥- دراسات لأسلوب القرآن الكريم:

للدّكتور عبد الخالق عظيمة، دار الحديث، بالقاهرة.

٤٦- الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة:

لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمّد سيّد جاد الحقّ، دارالكتب الحديثة، القاهرة.

٤٧- دلالات التّراكيب:

د. محمّد أبو موسى، الطّبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة.

٤٨- ديوان البوصيري:

تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، بمصر، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٣٩٣هـ.

٤٩- ديوان الفرزدق:

دار صادر، بيروت، سنة: ١٣٨٦هـ.

٥٠- ديوان الْمُتَنَبِّي، بشرح ناصيف البازجي:

دار القلم، بيروت.

٥١- رسائل الجاحظ:

تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، بالقاهرة.

٥٢- زاد المسير في علم التّفسير:

لأبي الفرج جمال الدّين بن الجوزي، المكتب الإسلامي للطّباعة

والنّشر، دمشق، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٨٥هـ.

٥٣- زاد المعاد:

لابن قيّم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى سنة: ١٣٩٩هـ.

٥٤- سلسلة الأحاديث الصّحيحة:

للألباني، المكتب الإسلامي، سنة: ١٣٩٢هـ.

٥٥- سنن ابن ماجه:

بتحقيق: محمّد مصطفى الأعظمي، الطّبعة الأولى سنة: ١٤٠٣هـ.

٥٦- سنن الدّارقطني:

تحقيق: السّيّد عبد الله يماني المدني، دار المحاسن للطّباعة.

٥٧- السّنن الكبرى:

للبيهقي، دار الفكر.

٥٨- سير أعلام النّبلاء:

للإمام محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبي، تحقيق: جماعة من المحقّقين بإشراف شعيب الأنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٣هـ.

٥٩- السّيرة النّبويّة:

لابن هشام، تحقيق: محمّد محيّ الدِّين عبد الحميد، مكتبة محمّد عليّ صبيح بالقاهرة، سنة: ١٣٨٣هـ.

٦٠- السّيرة النّبويّة:

لابن هشام، تحقيق: مصطفى السّقا، وعبد الحفيظ شلبي، الطّبعة الثّانية مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر، سنة: ١٣٧٥هـ.

٦١- شذارت الذّهب:

لابن العماد الحنبلي،مكتبة القدسي،القاهرة،سنة:١٣٥١هـ.

٦٢- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك:

تحقيق:محي الدِّين عبد الحميد،دار إحياء التّراث العربي،بيروت.

٦٣- شرح الأربعين حديثاً النّوويّة:

لابن دقيق العيد، طبعة السّيّد عباسي، شربتلي.

٦٤- شرح الإيضاح:

لعبد الْمُتَعال الصّعيدي، المطبعة المحمديّة، بمصر، عام: ١٣٥٣هت.

٦٥- شرح حديث: إنّما الأعمال بالنّيّات:

لابن تيمية، مكتبة القاهرة، بالقاهرة.

٦٦- شرح عقود الجمان:

لعبد الرّحمن بن عيسى العمري، مطبعة عيسى البابي الحلبي، بالقاهرة، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٣٧٤هـ.

٦٧- شرح العقيدة الطّحاوية:

للقاضي عليّ بن عليّ بن أبي العزّ، تحقيق: محمّد عون، مكتبة البيان، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٦٨- شرح قطر النّدى وبلّ الصّدى:

لابن هشام، توزيع الدّار المصريّة للكتاب.

٦٩- شرح النّووي على صحيح مسلم:

المطبعة المصريّة بالأزهر.

٧٠- شرح الكافية البديعية في علوم البلاغيّة، ومحاسن البديع:

تأليف: صفيّ الدّين الحلي، تحقيق: نَسيب منشاوي، مطبوعات مجمع اللّغة العربية، بدمشق، سنة: ١٤٠٢هـ.

٧١- شرح الكرماني على صحيح البخاري:

لمحمّد عبد اللّطيف، المطبعة المصرية، سنة: ١٣٥٦هـ.

٧٢- الشّوقيّات:

لأحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٧٣- الصّاحبي:

لابن فارس، تحقيق: أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، بالقاهرة.

٧٤- صحيح البخاري:

بترقيم محمّد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السّلفيّة، بالقاهرة، سنة: ١٤٠٠هـ.

٧٥- صحيح مسلم بشرح النّووي:

المطبعة المصريّة، بالأزهر، طبعة سنة: ١٣٤٧هـ.

٧٦- صفوة الصّفوة:

للإمام جلال الدّين بن الجوزي، تحقيق: محمّد فاخوري، دار الوعي بحلب، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٨٩هـ.

٧٧- الطّبقات الكبرى:

لابن سعد، دار صادر بيروت.

٧٨- عروس الأفراح:

للسّبكي، ضمن شرح التّلخيص، مطبعة البابي الحلبي، بمصر.

٧٩- العزلة:

لأبي سليمان الخطّابي، تحقيق: سيّد محمّد السّواسي، دار ابن كثير، دمشق، طبعة عام: ١٤٠٧هـ.

٨٠- عشرون حديثاً، من صحيح البخاري:

للشّيخ عبد المحسن العبّاد، المكتبة السّلفيّة بالمدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٩٠هـ.

٨١- عشرون حديثاً من صحيح مسلم:

للشّيخ عبد المحسن العبّاد، المكتبة السّلفيّة بالمدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٩١هـ.

٨٢- العمدة في أصول الفقه:

لأبي يعلى محمّد بن عليّ الحسين الفرّاء، تحقيق: د. أحمد عليّ سيّد المباركي، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٠هـ.

٨٣- العمدة في صناعة الشّعر ونقده:

لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الرّابعة، سنة: ١٩٧٢م.

٨٤- عمدة القارئ:

للعينِي، دار الفكر، بيروت.

٨٥- فتح الباري:

لابن حجر العسقلاني، تحقيق: الشّيخ عبد العزيز بن باز، دار المعرفة، بيروت.

٨٦- فوات الوفيات:

محمّد بن شاكر الكتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار بيروت.

٨٧- فيض القدير بشرح الجامع الصّغير:

للعلامة عبد الرّؤوف المناوي، مكتبة محمّد عليّ صبيح القاهرة، الطّبعة الأولى، سنة: ١٣٥٦هـ.

٨٨- القاموس المحيط:

للفيروز أبادي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٤٠٧هـ.

٨٩- القصر طرقه وأثره الأدبي:

د. محمود القطان، مكتبة إبراهيم حلبي، المدينة المنوّرة.

٩٠- الكتاب:

لسيبويه، تحقيق: عبد السّلام هارون، عالم الكتب، بيروت.

٩١- الكشّاف:

للزّمخشري، دار المعرفة، بيروت.

٩٢- لسان العرب:

لابن منظور، دار صادر، بيروت.

٩٣- المثل السّائر:

لابن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر.

٩٤- المجازات النّبويّة:

للشّريف الرّضى، تحقيق: محمود مصطفى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

٩٥- المختصر:

لسعد الدّين التّفتازاني، ضمن شروح التّلخيص، مطبعة البابي الحلبي بمصر.

٩٦- المستدرك على الصّحيحين:

للحاكم، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٩٧- مشكاة المصابيح:

للشّيخ محمّد بن عبد الله الخطيب التّبريزي، تحقيق: الشّيخ محمّد ناصر الدّين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي، بدمشق، الطّبعة الأولى،

سنة: ١٣٨١هـ.

٩٨- المطول على التّلخيص:

لسعد الدّين التّفتازاني، مطبعة أحمد كامل سلطان بايزيد، سنة: ١٣٣٠هـ.

٩٩- معجم الأدباء:

لياقوت، دار إحياء التّراث العربي، بيروت.

١٠٠- معجم الأفعال المتعديّة بحرف:

لموسى بن محمّد الأحمدي، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّانية، سنة: ١٩٨٣م.

١٠١- معجم البلاغة العربية:

د. بدوي طبانه، دار المنارة بجدّة، الطّبعة الثّلاثون، سنة: ١٤٠٨هـ.

١٠٢- معجم البلدان:

لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٧٥هـ.

١٠٣- المعجم الكبير:

للطّبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السّلفي، مطبعة الأمّة ببغداد، ج ١٧ ص ٢٣.

١٠٤- معجم المؤلّفين:

عمر رضا كحالة، مكتبة المُثنى، بيروت.

١٠٥- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النّبوي:

تأليف: جماعة من الباحثين، مع مشاركة محمّد فؤاد عبد الباقي، مطبعة بريل في مدينة ليدن، سنة: ١٩٥٥م.

١٠٦- الْمُغْنِي:

تأليف: أبي محمّد عبد الله بن أحمد بن محمّد بن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التّركي، الطّبعة الأخيرة، ج ٢ ص ١٢٠.

١٠٧- الْمغني في أصول الفقه:

لجلال الدّين عمر بن محمّد الخبازي، تحقيق: محمّد مظهر بقا مركز البحث العلمي وإحياء التّراث الإسلامي، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٣هـ.

١٠٨- مفتاح العلوم:

للسّكاكي، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٢هـ.

١٠٩- من أسرار اللّغة:

د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطّبعة السّابعة، سنة: ١٩٨٥م.

١١٠- من بلاغة الحديث الشّريف:

د. عبد الفتاح لاشين، مكتبة عكاظ، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٢هـ.

١١١- من كنوز السّنة:

للصّابوني، مكتبة الغزالي، طبعة السّيّد حسن عباس شربتلي، عام: ١٤٠١هـ.

١١٢- مواهب الفتاح:

لابن يعقوب المغربي، ضمن شرح التّلخيص، مطبعة البابي الحلبي، بمصر.

١١٣- النّحاة، والحديث النّبوي:

د. حسن الشّاعر، وزارة الثّقافة والشّباب، الطّبعة الأولى، سنة: ١٤٠٠هـ.

١١٤- نسب قريش:

لأبي عبد الله الزّبيري، تحقيق: أ. ليفي لرفنسال، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة الثّانية.

١١٥- ناهية الإيجاز في دراية الإعجاز:

للإمام فخر الدّين الرّازي، تحقيق: د. بكري شيخ أمين، دار العلم للملاّيين، بيروت، الطّبعة الأولى، سنة: ١٩٨٥م.

١١٦- هدي السّاري، مقدّمة فتح الباري:

لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.

١١٧- الوافي في شرح الأربعين النّوويّة:

د. مصطفى البغا، ومحي الدّين منتو.

فهرس الموضوعات

مطابع الجامعة الإسلامية